الساميون والمعادون للسامية



برنارد لويس

ترجمة
محمد محمود عمر
المحامي

الساميون والمعادون للسامية

بحث في الصراع والكراهية

هذه الترجمة مصدرها الطبعة التي أصدرتها شركة فينيكس سنة ١٩٧٧ . وشركة فينيكس هي قسم من شركة أوريون .

وهـــذه الطـــبعة مســـجلة في المكتـــبة الـــبريطانية تحـــت رقـــم
ISBN 75380 0330

إهـــــــداء2006

المستشار / محمد محمود عمر

القاهرة

الساميون والمعادون للسامية

بحث فى الصراع والكراهية

تأليف

برنارد لويس

ترجمة

محمد محمود عمر

المحامى

إهـــداء

إلــــى روح أنــــور الســـــادات القـــائد الخـــالد
إلــــى روح إسحاق رابين رئيس حكومة إسرائيل
الرائديـــن اللذيـــن ذهـــبا ضحية التعصب الأعمى
والكراهـــية الحاقدة على كل ما هو جميل ورائع
في النفس الإنسانية .

كلمـــة المترجم

من حسن الحظ أنني عشت الزمن الجميل ، أيام أن كانت الأسماء مثل قطاوي باشا في السراي الملكية ، وموصيري في البنوك ، وشيكوريل وشملا وبنزايون في الأوساط التجارية ، أسماء عادية تبعث على الاحترام والإعجاب ، بل ويسعى الكل إلى التعرف بها والتعامل معها .

أيام أن كان هناك يهود في حارة اليهود . أيام أن كان الموسكي يعج بتجار الجملة من اليهود . أيام أن كنا نتعامل مع اليهود ونتصادق مع اليهود بل ونتزوج من اليهود .

أيام أن كان نادي الزمالك اسمه النادي المختلط ، لأنه يضم أعضاء يهودا ومسيحيين وأجانب إلى جانب المصريين .

أيام أن كان نادي "المكابي" لكرة السلة يتبارى مع الفرق المصرية في روح رياضية لا تعرف التعصب ولا العنصرية .

أيام أن كانت مدن مصر - والقاهرة بخاصة - مدنا نظيفة متحضرة تعج بأشكال الجمال . أيام أن كنا نذهب إلى الأطباء اليهود في المستشفى الإسرائيلي الذي كان آية في الكفاءة والنظافة ، بل وكان هناك المختتنون اليهود من أمثال سمحون المطهر .

ثم دخلت ودخلنا جميعا في عهد مظلم عرفت فيه مصر الحقد والكراهية والتعصب وإهدار المقامات والكرامات .

عهد لا يمكن أن أسميه إلا بعهد "الكذبة الكبرى"، عهد الهزيمة فيه تسمى نصرا ، والخسارة الفادحة الكاسحة انتكاسة ، ونهب الأموال حراسة وتأميما لصالح الشعب. ولا أظنني في حاجة إلى الاسترسال في وصف ما كنا فيه . فالكل يعلم آثاره

والكل يشكو منه ، بل ويكتب كاتب مصري كبير (أنيس منصور) في عدد جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ٨ فبراير سنة ٢٠٠٥ « أنه لا ولم يعجب بعهد الفوضى والتبذل والاستهانة بالقمم وإثارة الأحقاد وكراهية كل ما كان ».

وكان لابد أن يؤدي كل هذا إلى سلسلة من الهزائم النكراء ، وإلى أن يخرج الأجانب واليهود من مصر وأن نصير إلى ما نحن فيه .

وأنا لا أزعم أن الأجانب واليهود كانوا هم السبب الوحيد في ازدهار مصر ، ولكن مما لا شك فيه أن التعامل مع اليهود والأجانب والاختلاط بهم والاقتباس منهم كان ولا يزال من أهم العوامل في انتشار الذوق الجميل ، والطرق الحضارية ، والمنافسة الثقافية والاقتصادية ، مما يعود على الأمة جمعاء بالخير والعافية .

إن إسبانيا في عهد محاكم التفتيش في القرون الوسطى ، حين طردت المسلمين واليهود ، انتكست حضاريا وأصبحت أكثر الأمم الأوربية تأخرا ، ولم تنتعش وتنهض إلا بعد انتهاء عهد الجنرال فرانكو وانفتاحها على العالم ، وإن كانت لا تزال في مؤخرة الدول الأوربية .

ثم إن التعاون والصداقة بل والمحبة بيننا وبين اليهود في الزمن الجميل الذي ذكرته لم تكن بالشئ الغريب . بل هي في ظني استمرار وامتداد لجذور نشأت وامتدت منذ زمن قديم .

وعلى سبيل المثال فإنه في القرن الحادي عشر كتب القاضي المسلم ابن سعيد الأندلسي في كتابه « طبقات الأمم » صفحات ١٣١ -١٣٦ طبعة القاهرة ، كتب يعدد الأمم الثماني التي ساهمت في نمو العلم والثقافة في الجنس الانساني ، وهم حسب قوله : الهنود ، والفرس ، والكلديون ، واليونانيون والرومان (وهي تسمية تشمل البيزنطيين والمسيحيين والشرقيين بوجه عام) والمصريون (يقصد المصريين القدماء) والعرب (وفيهم المسلمون عموما) واليهود . واليهود بذلك أعضاء في صحبة طيبة .

والفصل من الكتاب المخصص لهم يتحدث عنهم بأدب وترحيب ، كما أنه - اي الفصل - عامر بالمعلومات الصحيحة . والقاضي يلاحظ في العهود المتقدمة ، أن اليهود لم يبرزوا في الفلسفة بل كانوا مهتمين في الأغلب بدراسة القانون القدسي وحياة الرسل .

وفي هذا الموضوع فإنهم كانوا أكثر الناس علما به ، ولذلك فقد كانوا مصدرا رئيسيا للمعلومات بالنسبة للباحثين المسلمين . إن بني إسرائيل كانوا مهد النبوة حيث إنهم كانوا الأول الذين ظهر بينهم أنبياء مرسلون . وأغلبية الأنبياء ، كما يلاحظ الكاتب المسلم ، كانوا من اليهود .

أما بقية الفصل فإنها مخصصة للعلماء والبحاثين اليهود في الدول الإسلامية . وينتهي الفصل بتعداد اليهود المعاصرين للقاضي سعيد الأندلسي في بلده توليدو الإسبانية .

كما أن اليهود في إسبانيا حينما قامت محاكم التفتيش بطردهم هم والمسلمين اتجهوا في أغلبهم إلى أراضي الإمبراطورية العثمانية حيث قوبلوا بالمعاملة الحسنة التي لم يروها في أي بلد أوربي .

من هذا يظهر أن اليهودي منذ الأزل كان معتبرا إنسانا خيِّرا ، عالما أديبا متدينا ، وأن ما كنا نحن عليه من الاختلاط باليهود والتعامل معهم لم يكن شيئا غريبا مستهجنا بل كان شيئا ذا جذور عميقة .

ومع الأسف زال ذلك كله ، وأصبح اليهودي بفضل عهود الظلام ، عدوا مجرما سفاحا ، أو بعبارة أخرى لا إنسانا .

لهذا رأيت أن أترجم هذا الكتاب علني أوصِّل إلى إخواني من المصريين والعرب صورة حقيقية عن التعصب الأعمى ضد اليهود ، أصله وسببه ومصادره وتطبيقاته . ولعلني بهذا أكون قد اسهمت في أن يعود التواصل الإنساني بين العربي واليهودي في سبيل عالم أفضل خال من الحقد والكراهية .[1]

---

(1) أرقام الصفحات المنشورة في الهامش تشير إلى ارقام الصفحات من الكتاب الأصلي. والمقصود من وضعها بهذا الشكل هو أن يسهل للقارئ إن شاء، أن يراجع الترجمة على الأصل الإنجليزي.

اعتراف بالفضل

إننى أتوجه بالشكر أولا وقبل كل شيء الى مساعدتى فى البحث «كورتين بليك» التى خففت مهارتها وعلمها ونشاطها عني كثيرا من عناء كتابة هذا الكتاب ، والتى ص٧ أنقذنى عمق نظرتها من الوقوع فى كثير من المزالق.

وهى غير مسئولة إطلاقا عن هذه المزالق التى أكون قد وقعت فيها بعيون مفتوحة وباختيار كامل. كما أريد التعبير عن تقديرى للسيدة «مارى أليس ماكورميك» التى أعانتها عنايتها الفائقة ومزاجها الهادئ على تحمل التغييرات والتعديلات الكثيرة من المسودة الأولى إلى الشكل النهائى.

وإننى مدين للملاحظات والانتقادات والاقتراحات التى تقدم بها كل من «بريسيلا بارنم» و«ثيودور دريبر» و«جريس ألدمن» و«دافيد أيزنبرج» و«زيفى إيبلك» و«يوفال خيبار» و«جودى جروس»و «كاثلين كافينى» و«ايتامار رابونيفتش» و«شيمون شامير» و«ايليوت شور» و« فرانك هـ . ستيوارت» وآخرين من الذين قدموا تعليقات نافعة جدا ولكنهم فضلوا عدم ذكرأسمائهم.

إننى أتقدم إلى هؤلا ء جميعا بشكرى على اقتراحاتهم التى قبلتها واعتذارى عن التى لم أقبلها.

وكذلك أشكر رئيسي تحرير مجلتى ENCOUNTER, SURVEY اللذين نشرا أجزاء من الفصل التاسع فى مجلتيهما فى وقت سابق .

وأخيرا فإننى أسجل دَيْنى لزملائى فى جامعة برنستون الذين ساهموا بطرق كثيرة فى تعميق فهمى للمشاكل التى نوقشت فى هذا الكتاب .

مقدمة المؤلف للترجمة العربية

إن القضية الفلسطينية كانت لزمن مضى ومازالت ، محل اهتمام العالم ، بقدر ما يبدو للوهلة الأولى أنه غير مناسب لأهمية القضية .

إن تقسيم فلسطين في سنة ١٩٤٨ وما نتج عنه وتبعه من حروب ، لا شك في أنه أنتج قدرا كبيرا من المعاناة والمقاساة ، ولكن الأعداد البشرية التي تأثرت بهذا الحدث ضئيلة بالنسبة لهذه التي نتجت عن تقسيم الهند في سنة ١٩٤٧ ، أو تلك التي أفرزها التعديل اللاإنساني لحدود أوربا الوسطى والشرقية في سنة ١٩٤٥ ، الحدثان اللذان نتج عنهما ملايين من اللاجئين . المسلمين الفارين من الهند إلى باكستان ، والهنود من باكستان إلى الهند ، والألمان والبولنديين في شرق أوربا .

إن بعض أسباب اهتمام العالم المستمر بالمشكلة الفلسطينية مقارنا بالمشكلات الأخرى يمكن فهمها بسهولة . واحد من الأسباب هو مركزية المشكلة جغرافيا ، حيث تقع في ملتقى ثلاث قارات أوروبا وآسيا وإفريقيا ، ومركزيتها ثقافيا حضاريا إذ هي توجد في نقطة تلاحم الديانات الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام . كل هذا يؤدي إلى هذا الاهتمام العالمي الخاص .

وسبب آخر لتركيز وسائل الإعلام على هذه القضية هو أنه واحد من الطريفين المتنازعين يكون مجتمعا مفتوحا كالمجتمعات الغربية .

وهذا معناه أن الإعلام العالمي له منتهى الحرية في أن يأتي ويذهب ، ويدخل ويخرج ، وأن ينشر ما يشاء صحيحا كان أو خطأ ، وكذلك تطعيم تقريراته بأصوات معارضة من داخل الحكومة والمجتمع ، مما يعطي رسائله حيوية وتنوعا ليسا متوافرين في المجتمعات السلطوية .

وللنظرة الأولى فإن المسألة الرئيسية تبدو وكأنها أمر طبيعي معتاد ، ألا وهو التنازع بين أمتين ودولتين على الأرض . إن نزاعات مثل هذه شيء معتاد منذ بداية التاريخ المسجل ، وقد تذهب أبعد في التاريخ غير المسجل لأجدادنا الأسطوريين . وفي الماضي تلك النزاعات انتهت فقط عندما يحقق أحد الطرفين انتصارا كاملا ، أو عندما يصل الطرفان المتنازعان إلى تسوية مقبولة للطرفين . وهناك في التاريخ الإنساني أمثلة كثيرة في الحالة الأولى وأمثلة أقل على الحالة الثانية .

وعامل آخر في النزاع الفلسطيني هو ذلك الذي قد يسميه الإنسان بالإحساس العادي المعادي للغير : التعصب .

وأيضا منذ بداية التاريخ المسجل وبلا شك قبل ذلك ، كان من الطبيعي أن يوجد مثل هذا الشعور المعادي ضد الأقوام المختلفين عن غيرهم بطريقة أو بأخرى . بالعرق أو بالجنس أو باللون أو اللغة أو العقيدة وحتى بعادات تناول الطعام .

هذا الشعور المعادي يمكن أن يظهر في عدم القبول ، وأحيانا أكثر بالاحتقار وفي أوقات النزاع يتحول إلى الكراهية .

وقد يؤدي إلى الفرقة والتجنيب وحتى إلى الاضطهاد وإلى صور أخرى من العنف. وإننا لنجد هذا في كل الأزمنة والأمكنة . إن هذا التعصب كان ولا شك عنصرا في المشكلة الفلسطينية ، ولكنه حتى وقت قريب كان عاملا ذا أثر محدود نسبيا ، ولكنه الآن أصبح عاملا رئيسيا وعائقا قويا يحول ضد التقدم في مسيرة السلام.

إنني اشير هنا إلى الظاهرة التي منذ أواخر القرن التاسع عشر أصبحت تعرف باسم المعاداة للسامية .

ويجب ألا نخدع بهذه التسمية ، لأنه أولا لايوجد ما يمكن أي يسمى شخصا ساميا . يوجد أقوام يتكلمون لغات سامية - العربية والآرامية والحبشية والأمهرية والعبرية والمالطية إلخ - لكن هؤلاء الناس يختلفون فيما بينهم اختلافا بينا في الجنس والعرق وكل الصفات الأخرى.

إن العداء للسامية كان موجها لليهود وفقط اليهود . وقد وضحت هذه النقطة تماما في الرسائل المتبادلة خلال الحرب العالمية الثانية بين المتحدث الرسمي للحزب

النازي الألماني ورئيس الحكومة العراقية السابق رشيد عالي الكيلاني ، الذي كان يعيش آنذاك في منفاه في ألمانيا .

في إجابة عن تساؤل من رشيد عالي عما إذا كان العداء للسامية موجها أيضا ضد العرب حيث إنهم أعضاء في العائلة السامية ، أجاب الدكتور « جروس » (مدير مكتب الأجناس السياسي) في الحزب النازي في خطاب مؤرخ ١٧ من أكتوبر سنة ١٩٤٢ ، شرح فيه بتأكيد عميق أن العداء للسامية هو شعور وسياسة موجهان فقط وعلى الخصوص ضد اليهود . ثم أضاف مذكرا بأن النازيين قد أظهروا دائما تأييدهم وتعاطفهم مع العرب ضد اليهود . وفي سياق خطابه علق على أن تعبير «العداء للسامية » الذي استخدم لعقود مضت في أوروبا بواسطة الحركة المضادة لليهود ، ليس بالتعبير الدقيق لأن تلك الحركة موجهة فقط وعلى الخصوص ضد اليهود وليس ضد اي أناس آخرين مما يتكلمون لغة سامية[١]

كيف يمكن للمرء أن يفرق بين العداء العادي أو التعصب من جهة والعداء للسامية من جهة أخرى ؟ إن معاداة السامية لها خاصيتان مميزتان يمكن بواسطتهما اكتشافها بسهولة . الخاصية الأولى هي أنه بالنسبة لليهود وتصرفاتهم يطبق معيار للحكم يختلف عن أي مجموعة أخرى من البشر سواء كانوا أصدقاء أو أعداء . والخاصية الثانية والأهم هي أن ينسب إلى اليهود صفات كونية إبليسية حافلة بالشر الأزلي .

إن العداء للسامية بهذا المعنى ، كان متأصلا في العالم المسيحي منذ الأزمان البعيدة المبكرة ، إلى أن قامت وانتشرت الديموقراطية في أوروبا الشمالية الغربية . أما بعد ذلك فقد أصبح العداء للسامية عاملا ثانويا في الغرب ، بينما بقي قويا ونشطا في أوروبا الشرقية

وقد بلغ هذا العداء أوجه وتعمقه بقيام النازية وتأسيس الرايخ الثالث ، مما نتج عنه ما هو معروف من النتائج المأساوية . أما في العالم الإسلامي ، العداء للسامية بهذا المعنى كان شيئا غير معروف حتى الأزمان الحديثة نسبيا .

---

[١] النص الألماني في الوثائق الألمانية سنة ١٩٤٤ ترجم بواسطة « ولفجانج ج. شوانتز » رئيس تحرير مطبوعات «ألمانيا والشرق الأوسط ١٩٤٥-١٨٧١ » طبعة برنستون سنة ٢٠٠٤ صفحات ٢٣٢-٢٣٤ .

وبالتأكيد فإننا نجد تعبيرات عن التعصب ضد اليهود ، وضد آخرين ؛ لكنه تعصب عادي معهود ، بل وفي أحيان قليلة كانت تحدث أفعال اضطهادية .

ولكن تلك الأفعال كانت قليلة الأهمية نسبيا ، إذ هي جزء من التصرف الإنساني الطبيعي من حيث عدم تقبل " الآخر " . أما التحول إلى عداء السامية بمعناه السيئ الذي شرحناه فقد بدأ في القرن التاسع عشر ، واستمر في النمو بسرعة متزايدة منذ ذلك الوقت .

إنني فيما سيتبع في هذا الكتاب حاولت التفرقة بين أشياء ثلاثة ، المشكلات الحقيقية ، والتعصب العادي الطبيعي ، والطراز الغربي في العداء للسامية .

إن دخول هذا النوع من الإحساس في منطقة لم تكن من قبل تعرفه أوصل إلى تعقيد المسائل تعقيدا ضخما إذ إنه أدى إلى إدخال المرارة على النزاع وكذلك السم في طرق الجدال .

إن هدفي من كتابة هذا الكتاب لم يكن الدخول في مناقشات الخطأ والصواب في النزاع الفلسطيني ، ولكن أحاول تنقية جو هذا النزاع من أبخرة التعصب الأعمى والكراهية اللامنطقية واللاعقلية . وأملي أنه مع توضيح المسائل بهذه الطريقة فقد نقترب خطوة أو خطوات من حلها .

إن هذا الكتاب نشر أولا في سنة ١٩٨٦ وأعيد طبعه مرات كثيرة . وأعيد نشره في سنة ١٩٩٩ مع تعقيب جديد . كما أنه ترجم إلى لغات كثيرة . وإنني لعميق الشكر والعرفان بالجميل إلى الأستاذ محمد عمر الذي أعطاني هذه الفرصة لكي أقدم أفكاري هذه للقارئ العربي .

برنارد لويس لويس

برنستون ديسمبر سنة ٢٠٠٤

مقدمة للطبعة الجديدة

تعرض الشرق الأوسط لوقع وضغط سلسلة مهمة من التغييرات العالمية والقطرية والمحلية فى السنوات التى مضت منذ نشر هذا الكتاب أول ما نشر.

هذه التغييرات غيرت، ولكنها لم تحل المسائل والمشاكل التى وردت فى هذا الكتاب. ولذلك فإننى أضفت كلمة فى النهاية تبحث فى تفاعلات الصراع والكراهية فى هذه الحقبة الجديدة. ومرة أخرى أجد من دواعى سرورى الاعتراف بالجميل لأصدقائى وزملائى الذين عاونوا بوسائل عدة ، وأخص بالذكر هنا كلا من «آشر سوسر» و «استر ويبمان» الذين أجابا عن استفساراتى العديدة ، وأزيد القول بأنهما غير مسئولين إطلاقا عن أى من آرائى أو أخطائى.

مقدمـــة

فى ٣ من أكتوبر سنة ١٩٨٠ وضـع إرهـابى مجهول قنبلة فى كنيس (سينا جوج) يقع فى شـارع Copernic فى باريس. وقد خطط للقنبلة أن تنفجر عند مغـادرة ص١١ المتعبدين بعد انتهاء الصـلاة، ولكنها فـى الواقـع انفجـرت قبل الميعاد المخطط له ، ولذلك أحدثت أضرارا أقل بكثير مما كان مقصودا:

أربعة قتلوا، منهم اثنان عابرا سـبيل ليسـا يهوديـين ، كمـا جـرح عشـرة. وبعد ساعات قليلة، ظهر رئيس وزراء فرنسا ريموند بار فى التليفزيون للتعبير عن تعاطفه مـع الضـحايا وغضبه على الفاعلين . وفـى سياق تعبيره عن ارتياعه لما حدث قال : "لقد قصدوا اليهود، ولكنهم كذلك أصابوا فرنسيين بريئين" . لقد كان ما قاله بار واضـحا فـى معناه : أن الفعل قـام بـه عـرب يقصـدون ضـرب اليهود لنزاعهم مـع إسـرائيل ، ولكنهم قتلوا وأصـابوا فرنسـيين مـارين مصـادفة ليسا يهوديين ولا علاقة لهم بالصراع العربى الإسرائيلى.

لم يذكر رئيس الوزراء هـذا المعنى بالقول الصـريح، ولكن سامعيه ، وخصوصـا اليهود، لم يفتهم إطلاقا التلميح بأن هؤلاء الأفراد الباريسيين الذين كانوا يصلون فى الكنيس ليسوا تماما فرنسيين وليسوا تماما أبرياء.

ومما جعل تصريح الرئيس الانفعالى الواضـح بالغ الدلالة، أنه لم يكن معروفا عنه أنه معـاد للسامية، وأن غضبه لم يكن موجها لليهود الذين كان يعبر عن تعاطفه معهم وإنما كان موجها لمن قاموا بهذه الضربة.

إن كثيرا مـن اليهود الفرنسـيين، وبالـرغم من أنهـم تشـكروا للعواطف وتشـجعوا للغضـب اللذيـن أبداهمـا مواطنوهم مـن الفرنسـيين، فـإنهم سـألوا أنفسـهم : لماذا تكلم رئيس وزرائهم فى تلك اللحظة الانفعالية بهذه الطريقة ؟

كما أنهم ما زالوا فى حيرة وشك هل الجناة عرب مثلا أم فرنسيون من أعداء السامية.

فى ٢١ من سبتمبر سنة ١٩٩٢ عقب إذاعة أول أنباء عن مذبحة صبرا وشاتيلا، ص١٢ قامت مجموعة من المدرسين فى واحدة من أهم المدارس الثانوية «ليسيه فولتير» فى باريس بإعلان غضبهم وسخطهم على مذبحة الفلسطينيين فى معسكرات بيروت، وقرروا إيقاف الدراسة من الساعة العاشرة حتى الظهر احتجاجا. وقد حرروا رسالتين : واحدة لرئيس جمهورية فرنسا طالبين قطع العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية مع إسرائيل، والاعتراف الرسمى بمؤسسة التحرير الفلسطينية. والرسالة الأخرى إلى السفارة الإسرائيلية فى باريس طالبين سحب القوات الإسرائيلية فورا من بيروت ولبنان. وقد قرئت الرسالتان مع شرح واف، للطلبة الذين جمعوا فى ساحة المدرسة. وليس هناك أى دليل أو شاهد على أن تصرفا مثل هذا من هؤلاء المدرسين، فى تلك المدرسة أوغيرها ، قد وقع ردا على أحداث حدثت فى بولندا وأوغندا وأمريكا الجنوبية، وفى أفغانستان وفى جنوب إفريقيا، بل وفى الشرق الأوسط، لا تقل فظاعة عما حدث فى صبرا وشاتيلا برغم فظاعة الحادث.

إن تصريحات رئيس وزراء فرنسا على قنبلة الكنيس، وتعليقات الإعلام الغربى على صبرا وشاتيلا كذلك ، تثير مخاوف عميقة لا يكفى فى الرد عليها وطمأنتها الاشارة الى أنها صدرت بمناسبة الغزو الإسرائيلى للبنان والتدمير الذى تبعه مهما كان كبيرا.

وكذلك فانه يوجد ازدواجية غمامية فى استجابات أوروبية أخرى لهذه الأحداث. ففى ايطاليا مثلا مقاطعة عمال المطار لشركة الطيران الإسرائيلى العال ، وتوزيع شارات عليها نجمة دافيد والصليب المعقوف النازى واستعمال شعار "إسرائيل نازية"، قد يفسر كل هذا ربما بالثورة النفسية على مبالغات الإسرائيليين وحلفائهم المسيحيين فى لبنان.

ولكن ذلك التفسير لا يمكن أن ينسحب على أفعال احتجاجية أخرى. كانفجار قنبلة فى كنيسن فى ميلان وروما، نتج عن الأخيرة قتل طفل يهودى عمره سنتان وجرح ٣٤ شخصا آخرين. أو على أمثلة احتجاجية أخرى أخف، كإلغاء حفل

استقبال بمناسبة يهودية "بار ميت زيفا" لإصرار العمال الإيطاليين على ذلك. ولا أظن أن اليهود الإيطاليين طمأنتهم كثيرا كلمات التعاطف التى وجهها اليهم «لوسيان لاما» رئيس اتحاد العمال عقب انفجار القنبلة سالفة الذكر فى روما إذ قال:" أصدقائى اليهود، لا تنغلقوا على أنفسكم ولا تعزلوا أنفسكم ولا تحولوا الجيتو القديم إلى جيتوا جديد".

إن رد فعل المدرسين الفرنسيين وآخرين كان مبعثه واضحا، وهو الشعور المعادى لإسرائيل. ولكن الأمر لا يخلوا من احتمال ولو غير مؤكد بأنه شعور معاد لليهود أيضا، وهذا هو الحال أيضا بالنسبة الى بعض وسائل الإعلام.

فى الحقبة الزمنية التى بدأت بقيام هتلر ولم تنته حتى الآن بعد بسقوطه، فإنه بات معروفا لدى بعض الاعلاميين " أن ما يحدث لليهود أخبار تستحق النشر ". ص١٣

إن أى اشتباك صغير على الحدود بين إسرائيل وجيرانها ينشر على أوسع نطاق ويناقش، فى حين أن أخبار الحرب بين إيران والعراق، تلك الحرب التى أثبتت أنها أعنف وأدمى ثالث حروب هذا القرن تمر دون أى ذكر. وفقط ، وفى نهاية السنة الرابعة لهذه الحرب حينما بدأ الجانبان المتحاربان فى مهاجمة السفن المحايدة ، بدأت صحافة العالم فى إبداء اهتمام متقطع طفيف.

إن الملاحظة ذات المغزى فى اهتمام الإعلام بحوادث صبرا وشاتيلا ليس فى أن الإعلام اهتم هذا الاهتمام البالغ، لأن ذلك هو المعتاد إذا تعلق الأمر بإسرائيل أو يهود آخرين، وليس أيضا فى أن الاهتمام يبدو غير متناسب مع الاهتمام بجرائم أخرى فى أماكن أخرى من العالم، ذلك أن إسرائيل ويحق تعامل على أسس مختلفة عن الأسس التى تطبق على الحكومات الشمولية ، والتى لا تسمح على أى حال لوسائل الإعلام بأن تراقب تصرفاتها.

إن دور إسرائيل فى هذه الواقعة كان محل لوم، وقد شارك فى اللوم كثير من الإسرائيليين. بل إن الحكومة الاسرائيلية نفسها انضمت إلى اللائمين فى النهاية.

إن المغزى المهم ملاحظته ويبقى فى حاجة للشرح، ليس هو فى اهتمام الإعلام ولا فى توجيه اللوم، ولكنه فى الطريقة التى عولجت بها أخبار صبرا وشاتيلا، وأسلوب

تقديمها للجمهور. ذلك أن الصحافة والصحفيين ، وهم عادة أكثر المتشككين، قبلت ونشرت وبكل القبول والتصديق أخبارا ثبت فيما بعد أنها دعاية واضحة وصادرة من جهات مغرضة. ذلك فضلا عن استعمال لغة مغالية عنيفة فى عرض ما هو فى حقيقته خبر.

ومما يزيد فى الغرابة ويزيد فى وضوح التحيز هو استعمال عبارات تثير ذكريات النازية، عما حدث فى المذبحة، وعن غزو إسرائيل للبنان. فعبارات مثل : الحرب الخاطفة والحل النهائى والمجال الحيوى والإبادة العنصرية ، استعملت بكثرة وبتزايد حتى تتأكد المقارنة والمساواة أحيانا بالإلحاح وأحيانا بالتصريح بالنازيين وتصرفاتهم فى أوروبا بعد قهرها واحتلالها.

وقد أصرت معظم التقارير على مهاجمة إسرائيل وحدها ، التى كان واضحا منذ البداية أنها لم تشترك فى أى أفعال، وحتى لم يكن إهمالها أو تغاضيها قد ثبت فى ذلك الوقت. وتغاضت وأهملت تلك التقارير أى ذكر لجنود الكتائب المسيحية اللبنانية الذين هم فى الحقيقة مرتكبو المذبحة. ولذلك فإن القارئ غير المدقق أو المشاهد العادى يسهل جدا إقناعه بأن هذه المذبحة وحيدة المثال فى التاريخ القريب للشرق الأوسط ، وأنها من فعل إسرائيل مباشرة ، وهما الأمران اللذان لا صحة لهما .

والواقع أن وسائل الإعلام نفسها ، وقد لاقت انتقادات مهنية فى معالجتها لحادث صبرا وشاتيلا ، شعرت بعدم ارتياح وانزعاج. ص١٤

وقد أعطاهم نشر تقرير اللجنة الحكومية الإسرائيلية برئاسة رئيس القضاة كاهان فرصة مراجعة أنفسهم وقفل باب هذا الموضوع بنفس التسرع واللامنطقية التى بدءوا بها اذاعة الخبر.

من الواضح أن هناك قوى اجتماعية ونفسية تعمل على تشكيل رد فعل الصحفيين للأخبار وفى تقييمهم لشعور الجماهير الدفينة، التى يبدو أنهم تصوروا أنهم اهتدوا إليها .

إن المقارنات صراحة وتلميحا بين إسرائيل والنازى تعكس تغييرا مهما ذا معنى فى شعور الغرب تجاه الاثنين . ففى ١٩ من يونية سنة ١٩٦٩ فى مؤتمر صحفى فى

لاهاى، شبه محمود رياض وزير خارجية مصر آنذاك تصرف إسرائيل فى الأراضى المحتلة، بتصرفات النازى فى احتلالهم لهولندا . فى ذلك الوقت كانت ذكرى الحرب ما زالت حاضرة فى الأذهان، بحيث لا تسمح بمرور مثل هذا التصريح دون تحد ومناقشة، مما أوقع الوزير المصرى فى حرج، اضطر بسببه لسحب تصريحه ذاك. منذ ذلك الوقت، نمت أجيال جديدة انمحت من مخيلاتها أفعال النازية، وأصبحت تاريخا وليست ذكريات. وكما أنه كان فى الستينيات يحدث أن يقارن تصرفات رجال الشرطة الإنجليزية والأمريكان بالشرطة الألمانية الجستابو، فإن مقارنة الإسرئيلين بالنازين لها وجهان: أنه إذا كان الإسرائيليون ليسوا أحسن من النازيين ، فالنازيون اذن ليسوا أسوأ من الإسرائيليين.

هذا المفهوم ،برغم وضوح خطئه حتى فى أسوإ تصويرات تصرفات الإسرائيليين، أتى بالراحة إلى كثير من الذين طال تحملهم لعقدة الذنب تجاه الدور الذى قاموا به هم وعائلاتهم وأممهم وكنائسهم فى المشاركة فى جرائم هتلر ضد اليهود. سواء كانت هذه المشاركة بالتواطؤ أو بالتغاضى أو عدم الاهتمام.

هذا الشعور بالذنب كان أقوى ما يكون بين ورثة ومواطني النازيين والفاشيين ، والمتعاونين معهم. إن الأقطار الناطقة بالإنجليزية رحبت جدا بهذا المفهوم ، حيث كان الكثيرون منهم متضايقين من القيود التى فرضها عليهم القرف من والرفض للعداء ضد السامية، اللذان عما فى مرحلة ما بعد هتلر مباشرة . التقارير عن سوء تصرفات اسرائيل أدخلت عليهم الراحة وأتاحت لهم الفرص.

سؤال آخر صعب ينشأ عن حادثة القنبلة فى كنيس شارع COPERNIC فى باريس ، والهجمات الإرهابية بواسطة العرب أو الأوروبيين المعادين للسامية على ص١٥
المعابد اليهودية، والنوادى الرياضية، وعلى مطعم يهودى فى باريس فى ٩ من أغسطس سنة ١٩٨٢ حيث حدث انفجار قتل ستة وجرح اثنين وعشرين . لقد أصبح اليهود الذين يذهبون للعبادة أو الاجتماع بيهود آخرين فى مدن غربي أوروبا، معتادين على المنظر البغيض لقوات الشرطة وأحيانا العربات المصفحة التى توضع لحمايتهم من الاثنين : أعداء السامية وأعداء الصهيونية.

وحتى فى أمريكا لم يسلم الحال من هجوم على المعابد وعلى اليهود، ولو أن ذلك أقل حدوثا من أوروبا وذو طابع إجرامى وليس ذا طابع إرهابى.

إن المتحدثين العرب فى الغرب يحرصون دائما على القول بأن نزاعهم هو مع إسرائيل والعقيدة الصهيونية وليس مع اليهود أو الديانة اليهودية. إن ذلك مع الأسف لا يعضده ولا يقويه الهجمات التى تحدث على دور العبادة أو المراكز الاجتماعية فى أوروبا.

بل إنه، أى القول، يسقط تماما اذا نظرنا الى الكراهية العميقة التى تبدو فى الكتب العربية، والجرائد والمجلات وحتى فى الكتب المدرسية فى كثير من أنحاء العالم العربى.

إن تلك الكراهية ليست موجهة فقط إلى إسرائيل والصهيونية، بل إنها تشمل اليهود واليهودية، الذين يلعنون ويجرمون على مدى ثلاثة آلاف سنة من تاريخهم فى كتاب تلو كتاب، ومقالة بعد مقالة وخطاب بعد خطاب. إن لهجة هذه الكراهية ولغتها، واضحان فى كتاب نشر فى الإسكندرية سنة ١٩٥٠ لمؤلفه عبد الرحمن سامى عصمت بعنوان " الصهيونية والماسونية". حيث يقول المؤلف بعد ذكر أن اليهود يظلون يهودا حتى ولو اعتنقوا الإسلام أو المسيحية : « إن اليهود والصهيونية مثلهم كمثل شجرة شريرة جذورها فى نيويورك وفروعها تظل العالم أجمع ، أما أوراقها فهم اليهود. إنهم جميعا صغارا وكبارا ذكورا وإناثا بلا استثناء، أوراق الشجرة الشريرة وأشواكها السامة ذات السم الزعاف ». فى ذلك الوقت ، أى فى سنة ١٩٥٠، مثل هذا الهجوم كان نادرا ، ولكن فى السنوات التى تلته أصبح شيئا عاديا. وحتى الموضوعات ، مثل تاريخ التوراة أو الأدب العبرى ، التى تنشر فيما هو مفترض أنها منشورات علمية وثقافية ، حتى هذه الموضوعات تصبح أداة لمهاجمة اليهود.

وفى الجو السائد حاليا فى معظم الدول العربية فإنه من المستحيل كتابة أو نشر شيء مما قد يجلب العطف على اليهود السابقين منهم والحاليين . والمثال الصارخ على هذا أنه فى كل الكتابات الكثيرة الضخمة عن اليهود واليهودية والتاريخ اليهودى، يوجد غياب وإهمال تامان لأى تعاطف أو حتى ذكر دقيق لتدمير اليهود أيام هتلر. وحينما يذكر هؤلاء الكتاب المحرقة التى أقامها النازيون لليهود (الهولو كوست) ولو ذكرا عابرا، فإن صنيعهم باستثناءات قليلة جدا ، هو إنكار حدوث المحرقة ، او التقليل منها، أوإيجاد الأعذار لحدوثها ، والتخفيف مما حدث او تبرير ما وقع.

بـل ان بعـض الكـتاب يذكـرون المحـرقة عـلى أنهـا دلـيل عـلى شخصـية الـيهود المكروهة. إنها فى رأيهم جزاء حق على ما جنت أيديهم .

ص١٦ وفـى مصـر الـتى أبرمـت معـاهدة صـلح مـع إسـرائيل، والتى تتبادل معها التمثيل الدبلوماسـى، فـإن فيلـم "خيار صوفى" منع من العرض لأنه " يلعب على نفس النغمات التى تروجها الصهيونية عن معاناة اليهود" ، كما قال الرقيب.

أمـا التقرير الذى أخرجته اللجنة الإسرائيلية للتحقيق فى حوادث صبرا وشاتيلا، فإنـه نشـر بتفصـيل فـى مجلـة المصـور الواسـعة الانتشـار بـتاريخ ١٨ مـن فـبراير سـنة ١٩٨٣ مـع مقدمـة مـن المحـرر قال فيها : « انه لأهمية هذا التقرير القصوى فان المجلة تنشره بالكامل».

والواقع أن ذلك لم يحدث، ولم يكن النشر بالكامل. فقد كان هناك أكثر من عشرين مناسـبة تعمـد فـيها المحـرر أو المترجـم إغفـال اى ذكر، أو تلميح الى الدور الذى قام به المسـيحيون اللبنانـيون الذين هم فعلا مخططو ومنفذو المذبحة. كما تعمد المحرر إغفال أى ذكر لأى جملة أو إشـارة تدافع أو حتى تخفف عن تصرفات إسرائيل.

عن كل هذا وأكثر، فإن الإجابة التى يذكرها العرب والمتحدثون عنهم دائما: " إنهم لا يمكـن أن يكونـوا معـادين للسـامية حيث إنهـم هـم مـن الجـنس السـامى" ، إجابـة لا تثبـت للمـنطق. فمـنطقهم هـذا يـؤدى إلى الفكـرة مـثلا بـأن كـتاب " كفـاحى " لهتلرعندما ينشـر فـى بـرلين بالألمانية أو في " بونس ايريس " بالإسـبانية فهـو معـاد للسـامية. أما عندما ينشـر بالعربية فى القاهرة أو بيروت فهو لا يمكن أن يكون معاديا للسامية لأن اللغـتين العربـية والعـبرية لغـتان مـن أصـل واحـد سـامى. وهـذا لـيس بالطـبع مـنطقا مقنعا.

فـى الشـرق الأوسـط وفـى الكـتلة السـوفيتية، وفـى الغـرب، والآن أيضـا فـى دول العـالم الثالـث الـتى لم تكـن معنـية بهـذه الأمـور، يوجـد فـى السـنوات الأخـيرة موجـة مـتزايدة مـن التعـبير العلـنى وأحـيانا مـن التصـرفات العنـيفة الموجهـة ضـد إسـرائيل والصـهيونية واليهود.

هـؤلاء الذيـن يـبدون هـذا العـداء فـى الغـرب أو الكـتلة السـوفيتية، دائمـا يحـاولون التفرقـة بـين شـيئين: فمـن جانـب، انـتقاد الدولـة الإسـرائيلية وسياسـاتها أو معارضـة

الأيديولوجيات أى التنظيرات ونتائجها ، وهذا شيء مقبول. والجانب الآخر العداء للناس، أو في الغرب العداء للديانة ، وهو الأمر الذى لا يعترفون به في معظم الأحيان ، بل إنهم يلعنونه ، وهو شيء غير مقبول. إن المستهدفين من هذا العداء والعنف الذى يصاحبه أحيانا، يجدون صعوبة فى التفريق بين هذين النوعين. إن اليهود في الواقع يميلون إلى رفض هذه التفرقة ويَعُدُّونها نفاقا، ويعاملون كل هذه التصريحات العدائية والتصرفات العنيفة على أنها كراهية لليهود تعرف عادة بالعداء للسامية.

إن تعبيرهم، أى اليهود، عادة عن هذا الأمر يجرى على النحو التالى: إنهم يكرهون اليهود وسواء وجهوا قنابلهم أو لعناتهم إلى الإسرائيليين أو الصهيونيين أو ص١٧
حتى مجرد اليهود فإن تلك التفرقة لا تعنى أى شئ بل هى أمر واحد.

و الواقع أن المسألة ليست بهذه السهولة أو ليست بهذه البساطة . وفعلا فإنه يمكن أن توجد فروق كبيرة بين هذه الفئات الثلاث ، ولو أن التفرقة بين العداء لليهود و معارضة إسرائيل والصهيونية، ليس من الممكن دائما تحديدها أو وضع حدود فاصلة بينهما بشكل يقيني.

بل الواقع أن التعريفات : يهود ، واسرائيل ، وصهيونية ، هذه التعريفات نفسها صعبة التحديد، وتستخدم دائما بمعان متغيرة ومتداخلة. فمثلا ما معنى إسرائيل ؟ وما معنى الصهيونية ؟ بل من هم اليهود ؟ من بين هؤلاء الثلاثة فإن إسرائيل هى أسهل الكلمات فى التعريف. إنها اسم دولة انشئت فى ١٤ من مايو سنة ١٩٤٨ ، ومنذ ذلك الوقت صارت وتصرفت كباقى الدول فى البحث عن مصالحها ، وفى تطبيق سياسات تحقق تلك المصالح .

وهذه السياسات قد تكون جيدة وقد تكون سيئة، وقد تكون فعالة وقد تكون غير فعالة، متوافقة أو غير متوافقة مع مصالح الدول الأخرى، ومعارضة تلك السياسات ليست فى حد ذاتها علامة على الكراهية، تماما كمعارضة أى سياسات فى كل الدول الأخرى المتصارعة. إن تصارع المصالح القومية أو الدولية للدول قد ينتج كراهية وقد يتأثربها ولكنه فى حد ذاته ليس علامة على الكراهية .

أما تعريف الصهيونية فهو أمر أكثر صعوبة. الصهيونية فى الأصل تعبير عن تحليل عن أسباب معاناة اليهود وعن وضع وصفة لعلاج ذلك. تلك الوصفة أو تلك

الفكرة ، هى أن اليهود كانوا مضطهدين لأنهم غرباء فى كل مكان، وليس لهم وطن خاص بهم.

وعلاج ذلك هو إنشاء وطن قومى لليهود يصبح بالتدريج أو يتحول بالتدريج إلى دولة يهودية. إن ذلك سيوفر مأوى وملجأ لهؤلاء اليهود الذين يحتاجونه، ويوفر تشجيعا وتعضيدا ومعاونة عند الحاجة ، لهؤلاء الذين يفضلون العيش فى مكان آخر.

وإنه كذلك سينتج عن هذه الدولة، مكان أو مركز يستطيع اليهود فيه بلا خوف أو اضطهاد أو اشتباه أو شكوك أن ينموا ثقافتهم اليهودية وطريقتهم فى الحياة.

وأهم من هذا فإنها ستكون مكانا فى العالم يستطيع اليهود فيه أن يعيشوا كيهود غير معتمدين على تحمل أو تجمل أو النوايا الطيبة للآخرين، ولكن كأسياد فى بيتهم. وقد قال البعض بأن هذا الوطن القومى لليهود، يمكن إيجاده فى أى مكان فى العالم حيث يوجد فسحة من الأرض، وتعاون أو سماح من الحكومة المعنية. وفعلا قامت محاولات أو اتصالات فى أوغندا وأستراليا وصحراء سينا التابعة للولاية العثمانية وأمريكا الجنوبية بل وفى بقعة نائية من سيبيريا فى مقاطعة تدعى بيرو بيدجان على حدود منغوليا.

ولكن معظم تلك المحاولات لم تتعد مرحلة المناقشة ولم ينتج أى منها نتائج حقيقية أو أى نتائج .

كان هناك مكان واحد يحس فيه اليهود بأن لهم فيه حقا تاريخيا، وأن له جذبا عاطفيا وقويا يساعد على بذل الجهود المنتجة وعلى تحمل المعاناة فى سبيل تحقيق هذا الحلم.

هذا المكان هو أرض إسرائيل القديمة. وكان هناك الكثيرون، ومنهم اليهود، الذين رفضوا ذلك التشخيص وتلك المعالجة. وكان بعضهم وخصوصا اليهود المتدينين يرون فى الصهيونية خطأ دينيا وتدخلا للأفكار العلمانية القومية فى المجتمع اليهودى الدينى، ومحاولة إلحادية لإرغام الرب الذى منه وحده يمكن أن يأتى الخلاص. ومعارضون آخرون رأوا فى الصهيونية خطرا على مركز اليهود فى البلاد التى يقيمون فيها فعلا والتى يرجون أن يصبحوا من رعاياها، ومصدرا للنزاع مع عرب فلسطين ومن ورائهم العرب كلهم والعالم الإسلامى.

هذا الاعتبار الأخير كان مهما بالنسبة لتلك الحكومات والهيئات والشركات والأشخاص الذين لأسباب سياسية وإستراتيجية وتجارية أو مهنية يريدون أن يبقوا على علاقة طيبة بالعرب وبالعالم الإسلامي.

إن هؤلاء الذين لأى سبب عارضوا فكرة دولة إسرائيلية فى فلسطين ، حاولوا بكل الوسائل منع قيامها . وبنمو الوطن القومى اليهودى فى فلسطين، وخصوصا بعد انتصار الحركة المعادية للسامية فى القارة الأوروبية فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى، وأيضا مع نشأة أو ولادة الدولة اليهودية فى سنة ١٩٤٨ ، فقد تغيرت قواعد اللعبة أو أسس المجادلة ، وعلى التحديد فإن هدف معارضة الدولة اليهودية قد تغير.

إن منع نشأة أو ولادة مثل هذه الدولة أمر، أما القضاء عليها بعد ولادتها فهو أمر آخر. وبعبارة مجازية أو بعبارة تصويرية فإن أولئك الذين عضدوا نشأة الفكرة إذا شبهناها ببدء الحمل طبعا توقفوا عن فكرة الإجهاض أى قتل الوليد فى بطن أمه.

وكذلك فإن اولئك الذين قد كانوا يتقبلون مسألة وأد الفكرة فى مهدها، توقفوا إذ وصلت المسألة إلى القتل. وحتى فى الاتحاد السوفيتى، فان قليلين كانوا مستعدين للذهاب إلى هذا البعد أى إلى قتل الدولة. إن المعارضين والناقدين لإسرائيل لعنوا وعارضوا سياساتها وحاولوا البحث عن طرق لتخفيض مساحتها، ولكنهم لم يفكروا اطلاقا ولم يعودوا يتكلمون عن حل الدولة اليهودية او إلقاء أهلها فى البحر.

إن الاستثناء الوحيد من هذا كان فى العالم العربى أو كان العالم العربى ومناصريه. فقد بقى واضحا أن المؤسسات الفلسطينية والمنظمات الفلسطينية والدول العربية أو الحكومات العربية التى تمالئهم تقصد ازالة الدولة اليهودية وإقامة دولة عربية فلسطينية فى مكانها .

إنه فى اللغة السياسية للعرب ومؤيديهم، فإن كلمة صهيونية الآن اكتسبت معنى ثانيا فوق معناها الأصلى. إنها كما تستعمل الآن بواسطة الكتاب العرب والمتحدثين باسمهم: الصهيونى هو الشخص الذى لا يقاسمهم الفكر بأن إسرائيل يجب القضاء عليها وذلك لإعادة العدالة إلى الشرق الأوسط.

وطبقا لهذا التعريف، فإنه شخصا حتى مثل شارل دى جول الرئيس السابق لفرنسا الذى هو من أعتى وأكثر السياسيين انتقادا لإسرائيل، وكذلك مثل زعماء الاتحاد السوفيتى يمكن وصفهم جميعا بأنهم صيهونيون لأنه ليس من أهدافهم ولا من سياساتهم إزالة إسرائيل.

وبالطبع طبقا لهذا التعريف، فان كلمة " صهيونى " تشمل كل اليهود، بل وحتى أولئك الذين كانوا لا يبالون أقامت إسرائيل أم لا ؟ أو حتى أولئك المعادين ص١٩ للصهيونية. فقط اليهود الذين يعلنون معارضتهم ليس فقط لسياسة إسرائيل بل ولوجودها هم الذين قد يستثنون من وصفهم بأنهم صهاينة. وفى وصف ثالث أوسع لا يوجد أى استثناء.

ففى بعض الكتابات السوفيتية والعربية وأيضا فى كتابات إسلامية : الصهيونى يعنى اليهودى. ولذلك فمعاداة الصهيونية تعنى معاداة اليهودية.

ومثال لذلك يعرض فى كتابات آية الله خومينى الزعيم الإيرانى. فإن مقارنة بين نص أقوال الخومينى بالفارسية مع ترجمتها إلى الفرنسية، أظهر أن كلمة يهودي فى النص الفارسى ترجمت إلى صهيونى فى النص الفرنسى .

ما هو اليهودى اذن ؟ ان هناك أجوبة عديدة لهذا السؤال، بين اليهود وبين أعدائهم وبين أصدقائهم. إجابة واحدة عن ذلك السؤال يمكن اعتبارها إجابة ذات أساس صحيح أو أساس شرعى. طبقا للقانون الربانى أى قانون الربانة الحاخامات ، اليهودى هو الذى يولد لأم يهودية أو يتحول إلى اعتناق الديانة اليهودية .

ومثل هذا الشخص مهما تناسى ممارسة عقيدته أو طقوسها فإنه يبقى يهوديا. وطبقا لهذا القانون الحاخامى فانه يبقى يهوديا حتى ولو تحول إلى ديانة أخرى. وعند هذه النقطة فإن القانون الإسرائيلى يفترق عن القانونى الدينى الحاخامى ويعتبر أن تارك الديانة اليهودية لا يكون يهوديا . فمن الواضح أن ذلك التعريف ليس دينيا خالصا فقط بالضرورة ؛ لأنه من الواضح أن اليهودية ممكن أن تورث . وكذلك فواضح أنه ليس تعبيرا عنصريا، لأنه بالنسبة لمن يؤمنون بالعنصرية الآباء لا يقلون أهمية عن الأمهات . كما أن العرق أو الجنس لا يمكن أن يكتسب بالتحول إلى ديانة أو بنبذ ديانة أو بالإلحاد.

إن هذا التعريف المستخلص من الكتابات اليهودية القديمة - أي أن اليهودي هو من ولد ليهودية - هو الآن جزء من قانون دولة إسرائيل.

في هذا المقام اليهودية في الواقع تأخذ مكانا وسطا بين الفقه المسيحي الذي يقول إن كل الآدميين ومنهم أولاد المسيحيين مولودون وهم يحملون الخطيئة وأنهم يصبحون مسيحيين فقط بالتعميد. وكذلك الفقه الاسلامي الذي يؤمن بأن كل الأدميين في كل العالم يولدون مسلمين ولكن بعضهم يحال به إلى المسيحية أو اليهودية أو الوثنية بواسطة آبائهم.

أما بالنسبة للنازيين ، فإنه بالنسبة لأتباعهم أو هؤلاء المخدوعين المستغفلين منهم، اليهودية عرق أو جنس، وأن اليهود ومن تناسل منهم يبقون يهودا مهما كانت اللغة التي يتكلمونها، ومهما كانت الديانة التي يعترفون بها أو يتحولون إليها.

فاليهودية إذن شيء مختلف تماما عن الأشكال والعناصر التي قد تكون الشخصية والقومية وهي الأشكال والعناصر التي يمكن اعتناقها أو التخلي عنها.

وفي القانون اليهودي الحاخامي لا يوجد نصف يهودي أو ربع يهودي، فالإنسان إما يهودي وإما غير يهودي؛ فابن الأم اليهودية والذي ينجبه أب من غير اليهود هو يهودي. أما بالنسبة للنازيين ، فإن اليهودي الذي يتحول إلى المسيحية لا يزال يهوديا كاملا. وأب يهودي واحد ينتج نصف يهودي، وجد يهودي ينتج ربع يهودي . وبين هذين التعريفين ذلك التعريف اليهودي الحاخامي والتعريفات التي وضعها أشد أعداء اليهودية ،النازيين يوجد تغيرات وأطياف في التعبيرات يمكن الكشف عنها، باللجوء إلى أوصاف عرقية، وثقافية، واجتماعية بل واقتصادية، وأيضا دينية وجنسية أي عرقية.

ص٢٠

وكما أن التعريفات التي قد يختارها الإنسان للإسرائيلي أو الصهيوني أو اليهودي تختلف، فإنه كذلك تختلف أنواع العداء تجاههم . ويوجد اختلاط كبير في هذا الموضوع سواء بين اليهود أوأعداء اليهود ، أوالغالبية العظمى من الناس الذين ليسوا بواحد من هؤلاء أي ليسوا بيهود أو أعداء لليهود.

وبشكل عام فإن هذا العداء يتخذ ثلاثة أشكال . أولها هو معاداة إسرائيل. وربما أيضا للحركة الصهيونية، والفكرة الصهيونية، وهي الفكرة التي أنشأتها وتحافظ

عليها أو تعمل على بقائها. الصهيونية هى فكرة وإسرائيل هى دولة محكومة بحكومة.

والشخص ذو النية البريئة قد يعارض أو يرفض تلك الفكرة الصهيونية، أو ينتقد سياسات تلك الحكومة ، بغير أن يكون باللزوم منبعثا عن الكراهية للسامية.

فليس من المعقول ولا من العدل أن كل معارضة للصهيونية أوانتقاد للسياسات و الأفعال الاسرائيلية عداء للسامية وكراهية لها. إن النزاع العربى الإسرائيلى نزاع سياسى، إنه صراع بين دول وشعوب على مسائل حيوية وليس مسألة كراهية واضطهاد. ليس من الضرورى إذن افتراض أن عداء العرب لإسرائيل هو نتيجة للعداء للسامية. فإن هناك اسبابا أخرى صحيحة يمكن بها تبرير ذلك العداء.

أما النوع الثانى ، وهو أكثر صعوبة فى توضيحه ووصفه ، فهو ذلك الذى يمكن أن نقول إنه هو الكره الاعتيادى الطبيعى المعتاد القائم على التعصب الذى يؤدى أحيانا إلى الاضطهاد. موازٍ لهذا ومماثل له الشكوك والتخوفات والكراهية التى توجه عادة إلى الجيران من قبيلة أخرى أو من جنس آخر أو من عقيدة أخرى أو من مكان آخر أو من الاتجاهات التى تتبناها الأغلبية أحيانا ضد الأقلية.

وهناك أمثلة عديدة لهذا فى كل أنحاء العالم فى الأقليات الذين هم عادة من جنس مغاير أو من جنس معاد أو من أصل معاد، وهذه الأمثلة تؤدي دورا فى المجال الاقتصادى وتثير الكراهية ، وحتى الاضطهاد نتيجة لذلك .

مثال ذلك اللبنانيون فى إفريقيا الغربية، والهنود فى إفريقيا الشرقية والصينيون فى جنوب شرقي آسيا.

فالعداء لليهود كثيرا ما يقوم على أسباب مماثلة بل يمكن القول بأن الشعور تجاه اليهود فى عالم متعدد العقائد والجنسيات وكما فى مجتمعات ما قبل الإسلام الحديث كان ذلك الشعور العدائى قائما أو ذلك الاتجاه العدائى قائما على تلك الاسباب ، وذلك قبل قيام ذلك العداء الصارخ للسامية الذى نبت من كتابات الأوروبيين . ص٢١

أما النوع الثالث فهو العداء للسامية . إن كراهية اليهود لها أمثلة مقاربة أو مشابهة عديدة ومع ذلك فهي تكاد تكون فريدة في استمرارها وفي امتدادها وفي تعمقها وفي قوتها مما أدى إلى الحل النهائي الذى أتى به هتلر.

والحالة الأخرى التى أحيانا تقارن بالمحرقة التى أقامها هتلر لليهود فى أوروبا . وهى مصير الأرمن فى تركيا . هى حالة مختلفة ومن نوع آخر. إن ملحوظة منسوبة إلى هتلر أو قول منسوب إلى هتلر يقول :« من يمكن أن يتكلم بعد اليوم عن تدمير الأرمن؟».

تلك المقولة تردد عادة لمحاولة إيجاد التشابه بين الحالتين : محرقة اليهود فى ألمانيا ومذبحة الأرمن فى تركيا . والواقع أنها تؤدى إلى فهم معاكس.

إن القول المنسوب إلى هتلر يقال إنه قاله فى خطاب سرى ألقاه بين القادة الألمان فى ٢٢ من أغسطس سنة ١٩٣٩ غداة غزو بولندا . ولم يكن للخطاب أى علاقة بمسألة إبادة اليهود التى وإن كانت قد بدأت بعد الغزو لم تكن بعد قد اتخذت كسياسية نازية أو قد اتخذت بعد كسياسة من القيادة النازية. وذلك فى مؤتمر عقد فى بلدة وان سى فى يناير ١٩٤٢ .

إن تلك الخطبة أشارت إلى غزو واحتلال بولندا وكانت جزءا من أوامر هتلر إلى قادته الحربيين لاستعمال أقصى القسوة فى معاملة ليس فقط القوات الحربية البولندية بل و الشعب البولندى. إن معاناة الأرمن كانت مأساة انسانية من الدرجة الأولى وما زال الأرمن يعانون من ذكراها كما ما زال اليهود يعانون من ذكرى المحرقة، ولكن اضطهاد الأرمن كان محدودا بوقت وبمكان.

كان ذلك فى الإمبراطورية العثمانية وفى العقدين الأخيرين من تاريخ تلك الإمبراطورية. وأهم من ذلك أنه كان نضالا وإن كان غير متعادل حول حزازات حقيقية ولم يكن متعلقا بعقيدة شيطانية أو كراهية سوداء كالتى كانت توجه ضد الساميين فى اوروبا وأحيانا أخرى فى أماكن أخرى.

إن مثالا أقرب إلى اضطهاد اليهود يمكن أن يكون فى استعباد أو سوء معاملة الأجناس السوداء فى إفريقيا بواسطة جيرانهم فى آسيا وشمالي إفريقيا وأوروبا وأخيرا الأمريكتين.

وأخيرا فإنهم مثل اليهود امتدت معاناتهم لأقطار عديدة وقارات عدة واستمرت لقرون عديدة واحتوت وقامت على التفرقة والعنف والحرمان من الحريات . وكالعداء للسامية فإن العداء للسود أحيانا يعبر عنه بكراهية عميقة تحاول أن تبرر نفسها بوسائل شبه علمية وشبه فلسفية.

إن السود فى أمريكا ـ كاليهود فى أوروبا المعادية للسامية ـ كانوا مقطوعين من أى اتصال طبيعى بالآدميين الآخرين. كانوا معزولين فى الواقع وفى القانون ، ومجمعين فى أماكن غير صحية ولا إنسانية، استعار الأمريكان لوصفها ـ ولهم الحق ـ الاسم الذى استخدمه الأوروبيون اليهود وهو كلمة جيتو. وبرغم أنه لم يوجد مذابح فى أمريكا للسود ولا لليهود فإنه كان هناك انفجارات لعنف طائفى عرقى. ص٢٢

وفى الجنوب أى فى الجزء الجنوبى من أمريكا عاش السود طويلا فى خوف من أن تقتلهم جموع البيض أو أن يقتلوا بواسطة المجموعات الجاهلة فيما كان يسمى بالقتل بلا محاكمة. ولكن بالرغم من هذه التشابهات القوية فإنه يوجد فرق مهم ألا وهو ان معادي السامية كانوا وما زالوا وفى المحصلة النهائية يريدون إبادة وإزالة والقضاء تماما على أعدائهم الساميين.

إن كاره السود قد يكون فى كراهيته مساويا فى القسوة وفى السادية لكاره اليهود . ولكن قصده هو فى السيطرة، وفى الإهانة، وفى استعمال وفى استغلال الطرف الآخر الأسود وليس فى قتله وإبادته.

بل على العكس فإنه ينظر إلى الرجل الأسود على أنه ملكية لها قيمة، يمكن بيعها وشراؤها كأى مادة تباع وتشترى.

وكذلك ينمو ويولد كما تولد الماشية وقطعان الأغنام لاستعمالها .

أما اليهودى فبالعكس، فقد كان ينظر إليه لا على أساس أنه حيوان نافع يمكن أو يجب استئناسه و استخدامه فى العمل ولكن كحشرة ضارة يجب القضاء عليها .

إن هناك تاريخا طويلا من القسوة والوحشية في علاقات البيض بالسود ولكن لم يكن هناك محارق او مذابح أو معسكرات إعدام وإزالة .

هذا هو الفارق الجوهرى بين الحالتين اللتين هما التعبير الصارخ عن العنصرية فى القرنين التاسع عشر والعشرين. إن تعبير العداء للسامية غالبا ما يستخدم للدلالة على الكراهية العادية التى يكنها البعض لليهود أو حتى لوصف المعارضة الأيديولوجية الفكرية أو السياسية لإسرائيل أو الصهيونية .

ولما كان ذلك الفهم قد يؤدى الى تضليل المعنى فإننا سنختصر كتاباتنا فيما يلى أو إننا فيما يلى سنحدد كلامنا عن النوع السابق ذكره من اللاسامية، ألا وهو العداء والكره الخاص الموجه ضد اليهود، والذى يستمد قوته وعمقه من العلاقات التاريخية بين اليهودية والمسيحية، ومن الدور الذى خصت به المسيحية اليهود فى كتاباتهم وعقائدهم، وعلى الأخص فى معتقدات العامة فيما يتعلق بنشأة عقيدتهم.

يوجد فروق واضحة وجلية معنوية خلقية وسياسية بين ما ذكرناه من الأنواع الثلاثة هذه للكراهية.

ولكن إسرائيل دولة يهودية والصهيوينة تصف وتحدد مشكلة يهودية والحل لها. ولذلك كان لابد من أن الأنواع الثلاثة من الكراهية السابق ذكرها كان لابد أن تختلط بل حتى وتمتزج فإنه يصعب تحديد دوافع و أهداف أولئك المشتركين فى هذه المسألة. فإنه لا شك من غير العدالة إطلاقا بل ومن الحمق ، أن نؤكد أن كل الناقدين والمعارضين للصهيونية أو لإسرائيل يدفعهم إلى ذلك العداء للسامية ، وكذلك فإنه من الخطإ أن ننكر ان العداء للصهيونية يمكن أن يسبغ فى بعض الأحوال رداء من الاحترام، على ما هو فى حقيقته إحساس بالكراهية والعداء، واللذين هما لا يسمح لهما فى العالم الحر فى الوقت الحاضر بالتصريح بهما علانية خصوصا من أى شخص قد يكون لديه تطلعات سياسية أو ثقافية.

إن العداء للسامية فى حالته القصوى أو فى أكثر حالاته قوة فى نظرته إلى التاريخ يصور اليهود على أنهم قوة شيطانية إبليسية، وأنهم أصل كل فساد فى هذا العالم من أقصى الزمن إلى الوقت الحاضر.

وفى هذه النظرة فإن اليهودى منغمس فى مؤامرة أبدية وعالمية لاختراق وتدمير وفى النهاية حكم العالم غير اليهودى. ومن أجل هذا فإن اليهودى يستخدم أنواعا مختلفة من الطرق والوسائل كلها وسائل منحطة ودنيئة . ص٢٣

وفـى القـرون الوسـطى اتهـم الـيهود بـأنهم يسـممون الآبـار، وينشـرون الطـاعون ، وأنهـم يـزاولون القـتل فـى طقـوس ديـنية. وفـى أزمـنة أحـدث اتهمـوا بـأنهم هـم الذيـن اخترعـوا الرأسمـالية والشـيوعية. وأنهـم يسـتخدمون الواحـدة أو الأخـرى او الاثـنتين معا للاستيلاء على العالم.

وأقـرب من هذا فإنهم يلامون على استعباد السود الذى حدث فى إفريقيا. وحديثا فـإن بعض من يسمون أنفسهم بدعاة تأكيد تفوق المرأة أو بدعاة حقوق الجنس الناعم يـتهمون الـيهود بـأنهم أنشـأوا الديانـة القائمـة علـى عبادة الذكـر وتسلط الذكـر لأنـهم أدخلـوا عـبادة ياهوفـا أو الإلـه (فـى عـبارات الـيهود) وخلعـوا عـن العـرش الأم إلهـة القدماء.

وحيث إنـه من الواضح من المستحيل اعتقاد مثل هذه المعتقدات المتضادة على أى أسـاس عقلـى يتمـتع بـأى دليل، فـإن اعـداء السـامية يـلجأون إلى وسـيلة أخـرى، وهـى اختراع الحقائق أو إيجاد الشواهد التى تؤيدهم.

وأشـهر تلك الاختراعات والتزويرات هو ما يعرف ببروتوكولات حكماء صهيون.

تلـك التزويرات الـتى اخترعهـا البولـيس السـرى الروسـى قسـم إذاعـة المعلومـات المضللة، هذا الكتاب الذى اخترعه هؤلاء الأعوان السريون القيصريون، خدم كأسـاس لدعايـة عـداء للسـامية فـى العـالم أجمـع ، وقـد اسـتعمل ذلـك الكـتاب المـزور البولـيس القيصـرى، والـروس البـيض فـى الحـرب الأهلـية بيـنهم وبـين الشـيوعيين، والألمـان والنازية، بل حكومات عربية ومنظمات وذلك فى دعايتهم ضد اليهودية .

وقـد أدى البحـث الوثـائقى الدقـيق إلى الكشـف عن أن هـذا الكتاب مـزور ومختـرع بأجمعـه. وعلـى ذلـك فإنـه رفـض تمامـا فـى العـالم الحـر، وأصـبح لا يعنـى بـه إلا تلـك الدوائر التى يمكن وصفها بالجنون فى كراهيتها وبغضائها لليهود .

ولكن مـع الأسـف فإنه لم يكن لهذا البحث والتدقيق نفس الأثـر فـى بقية العـالم. وبسـبب تـأثير هـذا المحـرر المزور الفائق الوقـع والتأثير، وبتأثير الأفعال التى قام بها هـؤلاء الذيـن يؤمنون به ، فإنه قد وصف وبحق بأنه تصريح بالإبادة العرقية. وبالنسبة لمعظم اليهود فإن الإبادة العرقية كانت هى أقسى الحادثات فى تاريخهم.

فبالنسبة للأجيال الأقدم من الإسرائيليين وبالنسبة للكثير من اليهود فى الأنحاء الأخرى، فإن هذه الإبادة العرقية هى تجربة أساسية فى حياتهم الشخصية وفى أفكارهم ومعتقداتهم. وإن أفكارهم وأفعالهم يحكمها هذا العلم بما حدث وبأنه يمكن أن يحدث مرة أخرى.

وبناء على ذلك التصميم على عدم السماح بأن يتكرر اطلاقا. إن أى فهم لليهود ولإسرائيل وللصهيونية والعداء للسامية لا يمكن أن يكون بغير الإشارة إلى ضحايا اليهود فى أوروبا النازية.

الفصل الأول

الهولوكوست أو المحرقة وما بعدها

فى السنوات من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥ ما بين خمسة وستة ملايين إنسان مليون منهم من الأطفال جمعوا وحوصروا ووضعوا فى معسكرات. ثم تم قتلهم بوسائل مختلفة. فقط لأنهم يهود. وفى المراحل الأولى فإنهم كانوا يصفون صفوفا ثم يقتلون بالمدافع الرشاشة، لكى يقعوا فى خنادق وحفائر قاموا هم بحفرها ، أو أجبروا على حفرها ، ثم بعد ذلك أدخلت تكنولوجية جديدة للقتل التى تم بواسطتها إعدام أعداد اكبر ، أمكن قتلهم بطريقة أكثر إسراعا ، أكثر تنظيما.

بينما أمكن كذلك بتلك الطريقة استخدام بقاياهم التى يمكن استخدامها كالشعر والأسنان، بل والشحم الحيوانى، وهى تلك المخلفات التى استخرجها واحتفظ بها هؤلاء القتلة لاستعمال تلك المخلفات فى المستقبل .

إن تلك العمليات فكر فيها وخططها الحكام النازيون لألمانيا. ونفذت إلى حد كبير بواسطة الألمان. ومع ذلك فإنهم لم يكونوا وحدهم فى ذلك. فإن الإتمام الناجح لهذا العمل الوحشى الفظيع اعتمد على آخرين كثيرين من غير الألمان. اعتمد على التعاون الكامل لأعداد كبيرة من الناس فى اقطار محتلة او متأثرة بالمانيا. وكذلك بتآمر وبتعاون الكثيرين. وعدم اهتمام وعدم مبالاة الجماهير العريضة، ليس فقط فى أوروبا المحتلة، ولكن فى الدول المحايدة وحتى إلى حد ما فى الحكومات ودول التحالف الغربى ضد الألمان.

إن هـؤلاء الخمسـة أو سـتة الملايـين يهـودى الذيـن مـاتوا فـى معسـكرات المـوت الألمانية، كانوا فقط جزءا من عشرات الملايين الذين فقدوا حياتهم فى حروب هتلر.

ولكنهم كانوا فريدين فى بعض الصفات المهمة فقد نجح الألمان قبل هزيمتهم النهائية وتسليمهم، فى استئصـال تقريبا معظم اليهود فى الدول المحتلة ، مما يقرب من ثلث اليهود فى العالم أجمع.

وهذا معناه أنه لا يوجد شك في أنهم كانوا سيذبحون اليهود فى أى قطر آخر قد يقع تحت احتلالهم. ولم تقاس أى جماعة أخرى حتى الروس خسـائر مماثلة لهذه الخسارة.

ولم يعامل أى هدف من الأهداف بهذه الوحشية. والواقع أنه بالاستثناء الوحيد وهم قبائل الغجر (الجيبسى) فإن الألمان لم يفردوا أى مجموعة أخرى لهذه الإبادة ص٢٦
المنظمة الجماعية.

إن السـبب فـى إبـادتهم وقتـلهم، لم يكـن لأنهـم معـادون أو معارضـون لألمانـيا. بـالعكس فـإن الضـحايا الأولى للاضـطهاد النازى كـانوا يهـودا فـى ألمانيا فخوريـن موالين مواطنين مخلصين لرعويتهم الألمانية. إنه لم يكن أيضا السبب كما حدث فى بعض الأماكن التى احتلها الألمان، لإخلاء مجال لكى يعيش فيه الألمان. وذلك لأن اليهود كـانوا منتشـرين فـى أنحـاء أوروبـا وفقـراء إلى درجة أنهـم لا يمكـن ان تقـدم الأماكن التى يعيشون فيها تعليلا أو تبريرا لمثل هذه السياسية اى سياسة الإحلال إحلال الألمان محل اليهود.

بعض اليهود فعلا كانوا منهمكين فى مقاومة الاحتلال أو منغمسين فى مقاومة الاحتلال الألمانى . ولكن بين اليهود كما بين الآخرين كان هؤلاء أقلية صغيرة . أقلية ناشطة فيما بين الأغلبية المسالمة الذين لا يطلبون إلا أن يتركوا ليعيشوا حياتهم. إنهم لم يقتلوا، لأن قتلهم وإزاحتهم كـان لازمـا لمجهـود الحـرب الألمانـية، بـالعكس فـإن الهجوم على اليهود عطل المجهود الحربى الألمانى، لأنه حول وسائل نقل وأشخاصا ومواد لازمة لزوما شديدا فى جهات أخرى. وبتعبير أوسـع بحرمان الألمان من قوة بشرية، وقدرات كـان يمكن استعمالها فـى أغراض حسـنة وأغراض نافعة بالنسبة للألمان، إنهم اختيروا للموت فقط لأنهم كانوا يهودا.

حتى وليس حسب تعريفهم هم لليهودية، ولا حسب قبولهم وتأكيدهم لشخصيتهم، ولكن حسب تعريف وتحديد اتخذه المضطهدون. وعلى ذلك قد شمل القتل ليس فقط اليهود الذين يعرفون أنفسهم بأنهم يهود، بل وأعدادا كبيرة من المسيحيين، ومن المنكرين، وآخرين الذين قد لا تتعدى يهوديتهم جزءا بسيطا من أصل بعيد فى الجدود.

فاليهودية بالنسبة للألمان لم تكن صفة دينية أوصفة حضارية أو صفة ثقافية. إنها لم تكن فى الانتساب إلى مجموعة أو إلى ناس . إنها كانت صلة بالجنس تورث ولا يمكن الخروج منها ، وقوية إلى درجة أن واحدا من أربعة من الجدود ينتمى إلى اليهودية يورث أحفاده صبغة لا تزول وتضعه خارج نطاق الإنسانية .

إن النظرية التى وفقا لها حكام ألمانيا النازية شخصوا تلك المعضلة (أى المعضلة اليهودية) والذين خططوا لما أسموه بالحل النهائى ، تلك النظرية كانت تعرف بالعداء للسامية.

وفى الأيام الحالية حينما أصبح العداء للسامية تعبيرا معيبا ملعونا يخشى حتى أعداء السامية من نسبته إلى أنفسهم ، يجب أن نتذكر ان هذا التعبير فى الأصل اخترع واستعمل من معتنقى هذا المذهب وليس من معارضيه، بمعنى أن هؤلاء الذين اعتنقوا هذا المذهب (العداء للسامية) كانوا ينظرون إليه على أنه عنصر مطهر الغرض منه هو تحديد وعزل وتحييد وأخيرا القضاء على سم زعاف إذا ترك سينتشر ويعدى ما يسمى فى عرفهم أوروبا الغربية المسيحية أو الحضارة الآرية.

وبالنسبة للنازيين، وليس بالنسبة لكل أعداء السامية، فان الكلمة الأساسية هى الآرية. فإنه فى ذلك الكابوس الشيطانى من العقائد النازية الذى كان سائدا، يوجد ص٢٧
عنصران مشتبكان فى معركة أزلية لحكم هذا العالم وهم الآريون والساميون، الذين فى عرف النازية حلوا محل الخير والشر كما هما معهودان فى المعتقدات الدنيوية.

والآرى الذى حقق أحسن صورة فى الجنس الألمانى يمثل الجمال والإبداع وفوق كل شيء القوة . فهو وحده القادر على خلق الثقافة وبناء الحضارة التى يمكن لأجناس أقل رفعة المساعدة فى المحافظة عليها والعمل على انتقالها.

أما السامى فهو غير قادر على الخلق أو حتى على المساعدة فى المحافظة ، فهو

فقط صالح لآن يهدم. وهو مشتبك فى مجهود دائم، مستخدما نفسه وأجناسا اخرى منحطة لاختراق وتحطيم المجتمع الآرى، ولتقبيح وتنجيس الجنس الآرى العظيم. وحتى فى نظرهم فإن وجود بعض القوات الإفريقية فى قوات الاحتلال الفرنسية التى احتلت بها فرنسا جزءا من ألمانيا عقب الحرب العالمية الأولى، نسبه هتلر إلى ذلك المقصد اليهودى الشرير، ألا وهو تنجيس وخلط الجنس الآرى، بتطعيمه بالدماء السوداء ، وتجلب هذه الدماء السوداء إلى نهر الراين دائما بقصد هدم الجنس الأبيض، الذى هم يكرهونه.

وطبقا لمعتقدات النازية، اليهود جنس غريب ومعاد للأوروبيين ، لأنهم ينتمون إلى جنس آخر مختلف عن ذلك الذى ينتمى إليه معظم الاوربيين. فهم أدنى منهم ولذلك فهم معادون.

فحيث إن معظم الأوربيين ينتسبون إلى الجنس الآرى، فإن اليهود ينتسبون إلى الجنس السامى، وهنا كان الاختلاف المهم. وعلى ذلك فإن الأقوام والأمم الأخرى التى تنتمى إلى الجنس السامى، كان يجب اعتبارهم بواسطة النازيين متساوين فى الانحطاط وفى الدونية إن لم يكن كذلك فى الخطورة.

وفى الواقع فإن هتلر فى كتابه " كفاحى " يتكلم بمنتهى الاحتقار عن الآسيويين وعن الإفريقيين وحركاتهم التحررية ويوصى باستعمال أقسى الوسائل وحشية فى كبتهم وقمعهم.

إن النظريات النازية المبكرة فى الأدب النازى تعطى مكانا تابعا للشعوب فى الشرق الأقصى كمقلدين وحفظة للحضارة التى لا يمكن أن يخلقها الا الآريون ، لكنهم ينظرون إلى العرب وباقى الأجناس السامية كأجناس منحطة غير قادرة على الخلق الحضارى .

وطبقا لكتاب نازى من الكتب المدرسية عنوانه " تاريخ العالم على أساس عنصرى" فإن كل عنصر فى الثقافة العربية مستورد ومستعار من العنصر الآرى من الشعوب الآرية، حتى إن ألف ليلة وليلة الكتاب القصصى المشهور ليس فى أصله كتابا عربيا ولكنه كتاب مؤسس على نسخ فارسية وهندية وبالتالى فهى آرية لأن الفرس والهنود فى نظر الألمان آريون. وفى كتابة نازية عن الإسلام فإن جنكيز خان القائد المغولى ص٢٨

الذى قضى على الخلافة، يمتدح لأنه حاول إنقاذ الشرق الأوسط من حكامه الساميين.

بمعنى أن جنكيز خان كان يحاول إحلال المغول محل العرب. إن واحدا من أكبر المنظرين النازيين (ألفريد روزنبرج) فى كتابه " أساطير القرن العشرين" يحض الأجناس البيضاء على أن تبقى على حذرها من كراهية الأجناس الملونة والأجناس المختلطة الذين تقودهم الروح التعصبية لمحمد أى النبى محمد [ﷺ] .

وفى الحقيقة فإن هذه التنظيرات والتركيبات النظرية لم يثبت أن لها أى أثر فى الحال الواقع. فبجانب اليهود هناك شعب واحد وهم قبائل الغجر اختيروا للتدمير والقتل برغم أصلهم العرقى الآرى الذى لا شك فيه. وهناك أيضا جنس واحد وهو السود تعرضوا لمنتهى الكراهية والاحتقار. أما العرب على العكس ، وبرغم انهم مصنفون كساميين فى الكتابات النازية فإنهم أعطوا مكانا آخر و معاملة أخرى بواسطة حكام الدولة النازية. وبالرغم من رفض مبدئي و عدم اطمئنان مرجعه سياسى أكثر منه أيديولوجى تنظيرى فقد قرر النازيون أن العرب قد يكونون نافعون لهم.

وقاموا ببعض المجهود لكسب العرب وكسب عواطفهم، و كسب انحيازهم للأفكار النازية و لتجنيد العرب فى خدمة الأغراض الألمانية. أما فى مقصدهم الأول من انحياز العرب إلى أفكارهم النازية فإنهم لاقوا نجاحا محدودا.

أما فى مقصدهم الثانى من استخدام العرب فى خدمة الأغراض الألمانية فإنهم نجحوا نجاحا ملحوظا ، فإن الالمان كانوا المعارضين والمتحدين الأساسيين للإمبراطوريتين البريطانية و الفرنسية وكان لهم ولا شك جاذبية لرعايا هاتين الإمبراطوريتين الذين هم ولا شك يقبلون وضعهم على مضض.

كما أن الألمان بصفتهم المعادين وممارسي العداء لليهود كان باستطاعتهم الحصول على عطف وتعاطف من هؤلاء الذين يحسون أنهم فى محل تهديد من تنامى ونمو الوطن القومى فى فلسطين. وغاب عن العرب أن الألمان كانوا بسياستهم ضد اليهود بطردهم وإبعادهم، يساهمون فى نمو الوطن القومى اليهودى فى فلسطين.

ومع ذلك فإن تلك الحقيقة لم يكن لها وزن كبير عند العرب عندما تقال لهم. ولو أن

الحكومة الألمانية لم تكن مستعدة لأن تعطى وعودا محددة عن المستقبل السياسى للعرب وآمالهم السياسية، فإنهم لم يخفوا إطلاقا نياتهم فى مسألة اليهود أو فى حل المسألة اليهودية.

فقد وعد الألمان العرب بإزالة اليهود من وطنهم القومى. ولا شك في أن تلك المقاصد ضد اليهود عوضت عن كثير من التحفظ الألمانى فى إعطاء عهودا فى المسائل السياسية الأخرى.

إن العداء الناشط لليهود من هؤلاء الذين لسبب أو آخر اصبحوا حلفاء لهتلر او
متعاطفين معه، كان شيئا منتظرا. ولكن المدهش والداعى للألم والجرح كان هو ص٢٩
الشعور اللامبالى بين أولئك الذين هم أنفسهم ضحايا لهتلر أو معارضون مسلحون له.

لقد تراوحت ردود الفعل هذه من عنف دموى إلى عدم إحساس بارد. ذلك الإحساس الأخير أى عدم الإحساس البارد تعبير يمكن وبكل معقولية نسبته إلى كبار المسئولين البريطانيين والأمريكيين الذين كما كشفت الوثائق الحديثة، كانوا في أثناء الحرب قد وصلتهم أنباء من ألمانيا عن المذابح التى ترتكب، ومع ذلك تقبلوا هذه الأخبار بتشكك ثم بعدم اهتمام.

وبعد الهدنة نظروا إلى البؤساء الباقين من معسكرات الموت على أنهم عوامل إحراج سياسى. وأكثر من هذا إثارة للشعور كان ما لقيه بعض هؤلاء الأحياء من هذه المعسكرات حينما حاولوا الرجوع إلى بيوتهم الأصلية. فحتى أغسطس سنة ١٩٤٥ وصل ثمانون ألف يهودى إلى بولندا وهم بقية ثلاثة ملايين هم الذين كانوا يعيشون فى بولندا سنة ١٩٣٩ .

من هؤلاء الثمانين ألفا الذين وصلوا إلى بولندا، كان هناك ١٣ ألفا يخدمون فى الجيش البولندى، أما الباقون فكانوا ناجين من معسكرات الموت أو المهاجرين الذين هربوا إلى الاتحاد السوفيتى وغيره من الأماكن خلال الاحتلال الألمانى. لقد ذهب هتلر والقوات الألمانية وانتهوا، ولكن العداء للسامية - وهو ليس بالجديد ولا هو بالغريب على بولندا - بقى.

وقد وجد هذا العداء تبريرا لنفسه، من وجود عدد من اليهود فى الإدارة الجديدة

التى قامت برعاية السوفيت. وقد حدث أول اعتداء أو أول انفجار ضد اليهود فى كاراكاو فى ١١ من أغسطس سنة ١٩٤٥. وتبعته انفجارات أخرى فى أنحاء بولندا كافة هلك فيها مئات من هؤلاء اليهود العائدين، وذلك بواسطة الرعاع.

وأسوأ هذه الحوادث حدث فى مدينة كيلس فى يونية سنة ١٩٤٦ . حيث قتل عشرات من اليهود العائدين بواسطة جيرانهم. ولم تقم السلطات المدنية بأى مجهود حقيقى لإيقاف تلك المذابح.

كما أن السلطات الكنسية رفضت أن تلعن وتدين هذه الكراهية التى تسببت فى هذه المذابح. ان شعور الناس والكنيسة والسلطات تجاه هذه الأحداث، أقنع اليهود العائدين بأن ألف سنة من التاريخ اليهودى فى بولندا، قد وصلت إلى النهاية، وأنه لا محيص عن الذهاب الى مكان آخر يستطيعون أن يبنوا فيه حياتهم المهدمة، وليس فى وطنهم الأصلى. وبالنسبة إلى كثير منهم المكان الآخر، معناه مكان يستطيعون أن يكون فيه بقاؤهم وحياتهم ليسا معتمدين لا على حسن نية الجار ولا على حماية سلطات غير معنية بالأمر. ومع ذلك وعلى العموم فإنه فى العالم المتحضر كان هناك قرف من العداء للسامية.

خصوصا عندما تبينت بشاعة ما قام به النازيون من إبادة عنصرية ووضحت صوره. إن تحرير معسكرات الموت الألمانية بواسطة قوات الحلفاء المتقدمة، أعقبها محاكمة مجرمى الحرب فى نورنبرج وقد أنتج ذلك رد فعل عالميا.

فقد أدى ذلك إلى الشعور بالتعاطف مع المعاناة اليهودية ومعاناة اليهود. ونتيجة لهذا التعاطف حدث تشجيع للشئون اليهودية. كما أن ذلك أيضا أثر فى أعدادا كبيرة ص٣٠
من الأفراد والمؤسسات التى أحست بالضيق من أنهم لم يقوموا بما كان يجب أن يقوموا به تجاه المحرقة النازية، وفشل الجميع الا قلة قليلة فى مقاومة أو حتى الاحتجاج على الجرائم النازية ضد اليهود.

ظهر استعداد الكثيرين فى قبول بل وفى المعاونة فى ارتكاب هذه الجرائم، ورفض الآخرين الذين هم بعيدون عن قبضة النازى، حتى إقلاق انفسهم بمحاولة منع هذه الجرائم، أو بالمساعدة على إنقاذ تلك الضحايا. فى هذا الجو الجديد أصبح العداء للسامية شيئا مكروها قبيحا، شيئا يخجل حتى أعداء السامية من الاعتراف به.

وفـى الـدول الـتى تتكلم بالإنجليزية وخاصـة فـى الولايـات المتحدة، فـإن الوسـائل المستترة والفعالـة فـى التفرقة التى كانت تمارس ضد اليهود، أصبحت ولو على غير رغبة الـبعض، وسـائل محـرمة، أو هـجـرت تحـت الضـغط الشـعبى، الـذى لم يكـن مستعدا لقبول مثل هـذه التفرقة، والذى رأى فى مثل تحريم الاختلاط هذه الخطوات الأولى نحـو أوشـفتس (اسـم معسـكرات المـوت الـنازية) أو محـرقة أخـرى. وحـتى عبارات معاداة السـامية التى كانت شيئا معتادا فـى الماضـى، أصبحت الآن شيئا مكروها محرما قوله علنا، ولا يحدث إلا بين خلصاء جدا وفى غاية الخصوصية.

فـى إنجلـترا حيث كانت الحواجـز ضـد الـيهود أقـل فـإن الخطـر علـى الملاحظات المعاديـة لليهود كـان أقـل دقة وتحديدا. فقد كانت بعض هـذه العبارات ضـد اليهود تسـمع من وقت لآخرعلانـية، والمثال الشـهير عـلى ذلك كان عبارة أرنسـت بيفين وزير الخارجية الـبريطانى فـى ذلـك الوقـت، الـذى قـال فـى مؤتمـر صـحفى، عـندما ضـاق بإصـرار الصـهيونيين على إسماع العالم دعواهم فى شأن دولة يهودية قال« اذا كان اليهود بكل مـا قاسـوه يريدون التقدم إلى مقدمـة الصفوف فإنه لابد أن ينشأ عن ذلك رد فعل معاد للسامية ».

وقد كانت تلك الملحوظة قاسـية بالنسـبة لهؤلاء الـباقين أو الـناجين من الاضطهاد الـنازى . وقـد عـبر الـدكتور حاييم وايزمن عن رد الفعـل الـيهودى، حـين تسـاءل : هل يعتبر المطـالبة بملجأ لليهود الباقين بعد ذبح ٦ مليون يهودى محاولة للتزاحم والتقدم إلى مقدمة الصفوف ؟

إن السـنوات الـثلاث الأخيرة فـى الانـتداب الـبريطانى فـى فلسطين مـن ١٩٤٥ إلى ١٩٤٨ أنتجـت مواجهـة مأسـاوية بـين الـيهود فـى فلسـطين والمـتعاطفين معهـم ، وبـين الحكومـة والجـنود فـى تلـك الدولـة أى بريطانيا الـتى وقفت وحدها لمدة عام كامل ضد هتلر وكانت هى نواة التحالف الذى أدى فى النهاية إلى هزيمته.

وفـى الحقيقة لم تكن تلك المواجهة مسألة كراهية أو تعصب ولكنها كانت تعارض مصـالح وأهدافـا. وقـبل ان يمـر وقـت كـثير تحولـت إلى صـراع مسـلح بـين الجالـية اليهودية فـى فلسـطين المصـممة علـى إنشـاء دولـة يهودية، وبـين الحكومـة الـبريطانية المصـممة على منع ذلك حتى تكسب مساعدة العرب، أو رضـاءهم الضـمنى عن أهداف الإمبراطورية البريطانية.

وعلى ذلك ولحتميته أنتج الصراع المسلح فى فلسطين شعورا بالعداء للصهيونية، وفى بعضه بالعداء لليهودية ، أولا بين الرسميين البريطانيين والجنود الذين يخدمون فى فلسطين، ثم بين الشعب البريطانى عموما.

أما الأولون وهم الرسميون والجنود فى فلسطين فقد كانوا قد نموا فى أنفسهم التعاطف مع العرب منذ سنوات متقدمة سابقة .أما الشعب البريطانى فقد أثارته التكتيكات الإرهابية التى انتهجتها بعض الجمعيات اليهودية.

ففى الأربعينيات يجب أن نذكر ان الإرهاب لم يكن قد دخل بعد فى المرحلة التى هو فيها الآن حيث الهدف منه هو التغطية الإعلامية، والوسيلة هو ضرب هؤلاء غير المسلحين والأبرياء ممن لا شأن لهم، الذين سيكون موتهم المفاجئ والدرامى مؤديا فى النهاية إلى تحقيق الأغراض الإرهابية. ذلك هو الإرهاب حاليا.

أما فى ذلك الوقت فقد كان إرهاب رجال المفتى وعصابة أرجون اليهودية فى فلسطين وآخرين فى عدن وفى اليونان وفى الهند وفى أماكن أخرى، لم يكن موجها إلى وسائل الإعلام بل موجها إلى العدو الذى كان مقصودا إضعافه وتخويفه وذلك بضرب مؤسساته وأفراده ورموز قوته. وكان لابد لهذا أن يؤدى إلى غضب وصدمة الرأى العام.

وفى ٣٠ يولية سنة ١٩٤٧ وفى تنفيذ لتهديد بالانتقام لشنق ثلاثة من عصابة أرجون فى سجن عكا فى اليوم السابق، فان اثنين من الصولات البريطانيين اللذين كانا قد خطفا قبل ذلك شنقا، وأخذت جثتاهما الى غابة مجاورة وعلقتا بين الأشجار ولغمتا .

وعندما جاءت القوات البريطانية ووجدتهما وحاولت إنزالهما انفجرت الألغام وفجرت الجثتين إلى قطع وجرحت الضابط البريطانى الذى كان يحاول إنزال الجثتان .

وفى نفس الليلة قام جنود ورجال شرطة بريطانيون بتمشيط أنحاء تل أبيب، وأخذوا يحطمون النوافذ والمحلات والمركبات ويهاجمون الأشخاص العابرين فى نفس الليلة .

وفي اليوم التالى عندما نشرت قصة الشنق وتلغيم الجثتين وظهرت على الصفحات الأولى فى الجرائد الإنجليزية بعناوين ضخمة وصور ، قامت موجة من الغضب، وقامت مظاهرات فى لندن ومانشستر وليفربول وفى مدن أخرى.

وفى تلك الأحوال وعلى قياس المستويات المقبولة فى ذلك الوقت، فإن رد الفعل يعتبر خفيفا. فقد كسرت بعض النوافذ فى المحلات اليهودية وأماكن العبادة وبعض حالات تدمير متعمد، وبعض حالات إحداث حرائق، ولم يكن هناك اعتداء جسمانى على أى من اليهود.

إن فشل السياسة البريطانية فى فلسطين، وما لحقها من رفض وإدانة عامة ، فى عالم كان لا يزال مصدوما بما ظهر من جرائم النازية، ذلك الفشل أنتج تغييرا فى المناخ العام. ص٣٢

بعد انتهاء الانتداب البريطانى فى مايو سنة ١٩٤٨ أصبح إظهار العداء للمشاعر اليهودية فى إنجلترا وفى العالم الغربى، شيئا غير مقبول اجتماعيا أو سياسيا.

بل يمكن القول إنه نشأت حركة فى الاتجاه الآخر المعاكس ، بحيث أصبح حتى الانتقاد العاقل للتصرفات اليهودية شيئا منخفض الصوت، وذلك اما للتعاطف الذى نشأ مع اليهود وإما للخوف من أن يتهم الناقد بانه معاد للسامية .

وحتى أهالى قارة أوروبا الذين كانوا هم عادة أكثر تقبلا من الأمريكان والإنجليز لتعبيرات العداء للسامية نمت فيهم أحاسيس جديدة بالقرف من العداء للسامية .

إنه فى معظم بلدان أوروبا انخفضت الجاليات اليهودية بفعل المحارق النازية إلى جزء صغير مما كانت عليه .

والاستثناء الوحيد من هذا كانت فرنسا حيث انضمت إلى بقايا الجالية الفرنسية اليهودية أعداد كبيرة من اليهود المهاجرين من أماكن أخرى وخاصة من شمال إفريقيا العربية .

أما بريطانيا فلم تعرف ثقل الاحتلال النازى ولذلك لم تقاس الجالية اليهودية أى مقاساة أو معاناة أكثر من مخاطر الحرب العادية . هاتان المجموعتان فى فرنسا وفى إنجلترا كونتهما المجموعتان الكبيرتان للجاليات اليهودية فى أوروبا وغربي الاتحاد السوفيتى .

وبالإضافة إلى الاشمئزاز من الجرائم النازية فإنه كان هناك تحول آخر فى أوروبا ما بعد الحرب ساعد على التخفيف أو تحويل الضغط عن اليهود.

ذلك كان هو التغيير الذى دخل على مفهوم كلمة جنس أو عنصر فى غربي أوروبا.

فقبل الحرب كان الجنس الأسود يكاد يكون غير معروف فى أوروبا، باستثناء مجموعات صغيرة من البحارة فى بعض الموانى.

هؤلاء القلائل من السود الذين قد يلاحظ وجودهم، معظمهم كانوا طلبة، أو فى بعض الأحيان أطباء أو مهنيين آخرين ممن أكملوا دراستهم وقرروا البقاء.

إن الاختلاف العرقى بين البيض والسود كان فى عمومه شيئا غير محسوس ولا حساب له، إلا من تلك الأقلية الصغيرة من الأوربيين الذين لهم تجارب أو معرفة بإفريقيا أو بالهند الغربية.

ويقصد بالهند الغربية هنا هى الجزر فى البحر الكاريبى .

والمناسبة الوحيدة التى كان لأعداد كبيرة ذات معنى من الإفريقيين أثر فى بلد أوروبى وحيث أعطى وجودهم توترا مع الشعب الأبيض، كان ذلك حين أصبحت بعض القوات الفرنسية من المستعمرات تكون جزءا من قوى الاحتلال الفرنسى لألمانيا عقب الحرب الأولى، والذى شجع حضورهم ذلك ووجودهم ذلك فى تلك القوى المحتلة على اشعال نيران العنصرية فى أدولف هتلر فى شبابه. وأكثر من ذلك أن تعبير جنس كان يستعمل للتعبير عن المجموعات المختلفة بين الأوروبيين مما يطلق عليه اليوم العرق أو كما يقال « الاثنى ».

ص٣٣ فكلمة جنس على سبيل المثال كان طبيعيا بل ورسميا أن تستخدم فى بريطانيا للتعبير عن عناصر أربعة : الإنجليز والأوسكتلنديين وأهالى ويلز والأيرلنديين الذين يمثلون فى مجموعهم الأمة البريطانية .

ومع قيام النازية وازدياد النفوذ النازى وتأثير التعبيرات النازية حتى بين هؤلاء المعادين للنازية. أصبحت كلمة جنس تستعمل لكى تدل دلالة خاصة على الفرق بين هؤلاء الذين يلقبون بالآريين وبين الأجناس السامية.

وهـو مـا كـان فـى حقيقتـه طريقة جديدة شبه علمية للتعبير عما كان يعرف بيهودى ومسـيحى. ولم يحـدث إلا فـى عـالم مـا بعـد الحـرب وعـندما عـم قـبول الاسـتخدام الأمـريكى للكلمة ، فـإن كلمة جنس أصبحت لا تستخدم إلا بالتحديد فى معنى عرقى. أى أنهـا أصـبحت حصـريا تعبر عـن الفرق بـين البيض والسود . إن أول حكومة غير عربـية فى حقبة ما بعد سقوط هتلر، تقدم على بدء حملة كراهية لليهود، ولو أنها كانت مغلفة غلافا شفافا تقريبا كانت تلك هى حكومة الاتحاد السوفيتى.

فإنـه تقريـبا مـن وقـت ثـورة أكـتوبر الكـبرى فـإن الاتحـاد السـوفيتى أو الـنظام السـوفيتى فـى تعامله مـع الرعايا اليهود وجد نفسـه فـى مـأزق هـو فـى الحقيقة من صنعه.

ففـى معظم الـدول الغربـية باسـتثناء تلك التى لديها سياسـة معلنة معادية للسامية كـان اليهود يعتـبرون أقلـية دينـية تتمـتع بنفس الجنسـية. ففـى اللغـة الإنجلـيزية التى يتكلمهـا الـبريطانيون والأمريكيون وفـى اللغـة الفرنسـية جنسـية تكـاد تسـاوى تمامـا رعوية مبينة أو كاشـفة عن الدولـة التى يدين المرء لها بالطاعة، وعن العبارة المذكورة على جـواز سـفره. الرجال والنسـاء من الجنسية الأمريكية أو البريطانية أو الفرنسية يمكن أن يكونـوا مـن أديـان مختلفة وذلك لا يؤثر على جنسيتهم أو رعويتهم ، وليست تلك الديانـة مسـجلة فـى جـواز سـفرهم أو فـى أى بطاقـة جنسـية. والاتحـاد السـوفيتى كدولـة الحاديـة ماركسـية لم تكن تعترف بالديانـات كفصـائل مختلفة. أو تدخـل ذلك الوصـف فـى أى وثيقة رسـمية. ومـع ذلك فانهـا كانت تعـامل اليهـود علـى أنهـم وحدة بعينها وتصنفهم على أنهم أصحاب جنسية عنصرية.

والتعـبير عـن ذلك فـى الروسـية هـو NATSIONAL NOST . فـالجوازات السـوفيتية وكل الوثـائق الرسمية الأخـرى، تحـتوى على خانـتين، حيث لا يوجـد فـى الجوازات الغربية إلا خانة واحدة.

واحـدة مـن هـاتين الخانـتين تعـين رعويـة حـامل الجـواز ويعـبر عـن ذلـك GRAZHDANSTVO.

والثانية تعين هويته أو جنسـيته العرقية كما سبق وذكرنا وهو NATSIONAL

NOST. الأولى تشمل كل من يدين بالولاء للاتحاد السوفيتى حيث يقال له سوفيتى، والثانية قد تكون روسية أو اوكرانية أو أرمينية أو أيا من المجموعات العرقية الأخرى كبيرة أو صغيرة الذين يوجدون فى الاتحاد السوفيتى .

أما بالنسبة لهؤلاء المولودين لأبوين يهوديين، مهما كان اعتقادهم الدينى أو إلحادهم فإن رعويتهم العرقية هى يهودى.

وهذا يطبع فى كل الوثائق فى المدرسة وفى العمل وفى القوات المسلحة وحتى ص٣٤
على البطاقات التى تعطى للاستعارة من المكتبات. والجنسية العرقية على خلاف الدين لا يمكن أن تغير بالاتيان بعمل تغييرى بمعنى الخروج عن الدين ، والسوفيتى اليهودى المسجل فى أوراقه على أنه هكذا يبقى هكذا طول الحياة إلا إذا استطاع ، وقد استطاع البعض الاختفاء ثم الظهور ثانية فى مكان آخر من الدولة يحملون مستندات مزورة أى الاختفاء والظهور ثانية مع الحصول على مستندات مزورة تعطيهم وصفا آخر.

وفى الأيام الأولى للنظام السوفيتى لم يكن حال اليهود بأسوأ من حال الجنسيات العرقية الأخرى التى سبق ذكرها كالأوكرانيين والأرمن. بل كانوا أحسن حالا بكثير مما كان العهد بهم فى ظل القياصرة حتى إنه سمح لهم بل حتى أعطوا الامتيازات التى تعطى للجنسيات العرقية الأخرى فى تنمية ثقافتهم ولغتهم التى كان يعتقد أنها هى اليديش وهى مزيج من اللغة الألمانية والعبرية.

حقيقة أن الديانة اليهودية لم تكن تشجع كما أن كل الديانات الأخرى لم تكن تشجع. والصهيونيون كانوا محرما عليهم النشاط ومضغوطا عليهم ، وكذلك كانت كل العقائد الأخرى بجانب الشيوعية وكل الولاءات الأخرى لغير الاتحاد السوفيتى. إنهم عاشوا فى معظم الوقت فى فقر وخوف ولكن كان ذلك حال معظم مواطنيهم من السوفيت باستثناء القلة الصغيرة الحاكمة وقد كان اليهود ممثلين تمثيلا جيدا فى تلك القلة الحاكمة.

وأول علامة جدية خطيرة على التدهور فى مركز اليهود جاءت مع السحب التدريجى ثم الاختفاء النهائى لحقوقهم وامتيازاتهم الثقافية. لقد ظلوا يوصفون بأنهم يهود فى جنسيتهم العرقية ولكنهم كانوا يبعدون ويقطعون تماما عن جذورهم

اليهودية. وحتى بينما كانوا يحولون إلى روس فى لغتهم وثقافتهم فإنهم كانوا لا يستطيعون أن يصبحوا روسا تماما إلا بالتحايل والتزوير ، وذلك فيه ما فيه من مخاطر معنوية بل ومخاطر شخصية.

وقد أصبح الحال فى غاية السوء بعد الاتفاق الألمانى السوفيتى فى أغسطس سنة ١٩٣٩ والتحالف الذى قام بين دكتاتوريتين. فقد تغيرت تماما نغمة وسائل الإعلام السوفيتية تجاه ألمانيا النازية. ففجأة أصبح العداء للسامية شيئا محتملا بل ومحترما وأصبح ينظر إلى اليهود رسميا بطريقة أخرى.

وعقب قيام الحرب فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ حينما اشترك السوفيت مع الألمان فى تقسيم بولندا بدأت السلطات السوفيتية فى الجزء البولندى الذى ضم إليهم باتخاذ إجراءات ضد الجمعيات الصهيونية وقادتها. ومن ذلك أن اثنين من زعماء المجتمع اليهودى لا علاقة لهما بالصهيونية ولكنهما شك فى ولائهما التام للمذهب السوفيتى تم إعدامهما .

وكذلك فإن اضطهاد اليهود واليهودية والصهيونية تتابع فى مناطق أوروبا الشرقية التى ضمت إلى الاتحاد السوفيتى فى مرحلة التعاون مع ألمانيا النازية فى ثلاث من جمهوريات بحر البلطيق. الذين تم ابتلاعهم نهائيا وكذلك في صربيا التى أخذت بالقوة من رومانيا وذلك بموافقة النازى.

وإن الغرض من تلك الأفعال لم يكن فيما يظهر هو اضطهاد اليهود بقدر ما كان هو تخليصهم من اليهودية بمعنى قطع العلاقة مع صلات يهودية أو اتجاهات أو علاقات يهودية ووضعهم فى نفس وضع اليهود فى الاتحاد السوفيتى أى تجريدهم من صفاتهم اليهودية وجعلهم مجرد رعايا.

وقد أتت هذه المرحلة إلى نهايتها فى يونية ١٩٤١ حينما بدأ هتلر هجومه الساحق على الاتحاد السوفيتى. أصبحت ألمانيا النازية هى الآن العدو والنازية فى كل ص٣٥
صورها شيئا كريها بغيضا. وقد أدى السوفيت اليهود دورهم فى الدفاع عن الاتحاد السوفيتى ضد الغزاة لدرجة أن ستالين فى ذلك الوقت سمح بإحياء نشاطات يهودية محدودة .

وتكونت فى موسكو اللجنة اليهودية لمعاداة الفاشية من عدد من الكتاب اليهود والممثلين الذين أعيد إلى بعضهم الاعتبار لهذه المناسبة بعد أن كان مضطهدا .

كان الهدف من ذلك هو إيجاد التعاطف أو التوسل إلى اليهود فى بريطانيا ، وفوق ذلك اليهود فى الولايات المتحدة وبذلك يمكن تعبئة الرأى العام فى هذين البلدين لمصلحة الاتحاد السوفيتى وبالتالى فى سبيل فتح الجبهة الثانية فى الغرب التى كان ستالين يطالب بها دائما .

وكالكثيرين من قبله ومن بعده فإن ستالين بالغ فى الاعتقاد فى أهمية النفوذ اليهودى وإن كان لا شك في أن هذه السياسة أدت الى بعض المطلوب منها أى أن هذا الاتجاه السوفيتى إلى جلب تعاطف اليهود أدى إلى بعض المطلوب منه.

إن ذلك الاتجاه الحميد تجاه اليهود استمر بعض الوقت عقب انتهاء الأعمال الحربية . فمن ذلك أن السلطات السوفيتية أغمضت العين عن هجرة اليهود من أوروبا الشرقية وكذلك اتفقت الحكومة السوفيتية مع الحكومة الأمريكية على مباركة إقامة دولة إسرائيل.

وحتى فإن الحكومة الروسية وافقت على أن تقوم تشيكوسلوفاكيا التى تقع فى دائرة نفوذها بتوريد السلاح إلى الدولة الوليدة مما أنقذها من الموت غرقا فى الماء ، أى أن السلاح التشيكوسلوفاكي هو الذي أنقذ دولة إسرائيل ومن الصعب أن يصدق الإنسان أن ستالين الذى قتل الملايين فى المعسكرات التى أقامها قد حركه أى تعاطف مع الباقين من ضحايا هتلر . إن التعليل الأرجح لذلك أنه رأى فى هجرة اليهود إلى فلسطين والصراع الذى سيقوم لأجل إنشاء دولة يهودية سيكون فى حد ذاته طريقة فعالة لإضعاف ثم إزالة النفوذ البريطانى الذى كان فى ذلك الوقت هو النفوذ الغربى الرئيسى فى الشرق الأوسط . ومع ذلك وفى بداية سنة ١٩٤٩ أصبح واضحا أن الاعتراف بإسرائيل لم يكن مساعدا للسياسة السوفيتية كما توقعت ولذلك فقد رأى ستالين أن يستأنف ويمد اتجاهاته المعادية لليهودية التى كانت ظاهرة فى فترة صداقته مع هتلر.

قبل وفى أثناء وخلال الحرب كانت تلك المعاداة غير صريحة وغير معلنة وعلى نطاق جيد وكانت تتكون فى الغالب من تحديد أو منع وصول اليهود إلى أماكن أو

مناصب يتمتعون فيها بثقة الدولة أو بالقوة . وقد بقى يهود كثيرون فى الطبقات العليا من النظام الشيوعى ولكن أصبح من العسير على الآخرين من اليهود أن يضعوا أقدامهم على أوائل سلالم الترقى.

وفى يناير ١٩٤٩ افتتح ستالين اولى الحملات المتعددة ضد اليهودية التى قام بها.

وفى كل تلك الحملات كان ستالين وخلفاؤه حريصين على الأقل فى الدرجات العليا على عدم اعتبارهم بأنهم مجرد يهود أو حتى يوصفوا بالقومية اليهودية ص٣٦ السابق الإشارة إليها NATSIONAL NOST إنهم فضلوا أن يستخدموا تعبيرات أخرى ، وفى حالة ما كان يغمض على البعض إدراك حقيقة الأمر فإنهم كانوا يعنون بطرق مختلفة بتأكيد الأصل اليهودى للأشخاص الذين هم محل الهجوم.

العادة الروسية التقليدية فى تسمية الأشخاص بأسمائهم وأسماء آبائهم كانت ذات نفع فى هذا المقام بالنسبة لهؤلاء الذين غيروا أسماءهم أو كما كانت هى العادة بين القادة الشيوعيين من استعمال كنايات ، كان الاسم الذى يمكن منه إدراك أنه يهودى يوضع بين قوسين ، ذلك فى الأحوال التى يذكر فيها الاسم اليهودى ، هذا فى مقام الاتهام . فمثلا إذا كان ج.أ فولانوف تسلم وساما أو مكافأة شرفية فإنه كان ينعت بأنه الروسى الصالح ج.أ فولانوف أما من ناحية أخرى إذا اتهم بجريمة فهو يصبح جريجورة أرانوفتش فولانوف (سابقا سنكلشتين) .

ومثال صارخ على هذا أن عدو ستالين القديم ليون تروتسكى أصبح يسمى ليف دافيدوفتش تروتوسكى(سابقا برونوشتاين) . إن أول هجوم على اليهود عقب الحرب بدأ بما سمى الحملة ضد الدولية تلك الحملة بدأت فى جريدة برافدا فى يناير ١٩٤٩ وقد عني بها فى البداية تلك المسائل المتعلقة بالمسرح وبالمسائل الفنية الأخرى ، هذا التعبير كان تعبير هجاء ضد الكتاب والفنانين الذين أبدوا إحساسا أو معرفة بالكتابات الغربية وطرق النقد الغربية .

ولكن سرعان ما تغير معنى الدولية لكى يشمل المسائل السياسية والنشاطات الأيديولوجية . وكذلك فإن معنى هذه الكلمة سرعان ما تغير وتوسع فيه ليشمل النشاطات السياسية والفكرية ، وفى الوقت نفسه فإنه ضيق حتى أصبح لا يعنى إلا اليهود.

إن الدولى أو العالمى الذى لا جذور له كان يقارن بالوطنى المخلص أو حتى بالشعب عامة. فإن كان غريبا بلا « وطن ام » يصبح غير قادرعلى فهم « الوطنية الروسية » .

إن تعارض أو تناقض هذه الاتهامات مع ما هو مفروض فى الشيوعية من أنها عالمية دولية لم يتعب أو يضايق القادة الروس.

إن الهجوم على الثقافة اليهودية بدأ من ١٩٣٨ ، وحين وصل إلى ١٩٤٠ أقفلت كل المدارس اليديش اليهودية وكذلك الأقسام اليهودية اليديش التى تستخدم الثقافة اليهودية الألمانية وذلك فى الجامعات الروسية والأوكرانية. وكل التعليم والبحث فى المسائل اليهودية قد أوقف نهائيا.

وفى الوقت نفسه فإن اليهود بدءوا يستبعدون تدريجيا من أى فروع الحكومة أو الحزب المتعلقة بالدفاع أو بالسياسة الخارجية. ص٣٧

وفى يناير سنة ١٩٤٨ ، شلومومخيولس مدير مسرح الدولة الذى كان يستعمل اللغة اليديش وفى الوقت نفسه كان رئيس اللجنة اليهودية لمعاداة الفاشية التى سبقت الإشارة إليها والتى قامت وقت الحرب ، قتل فى حادثة سيارة ، ثم تبين فيما بعد أنها حادثة مرتبة بواسطة السلطات . وبعد قليل لم تَعُد هناك حاجة لمثل هذا التغطيات من حوادث وغيرها إذ إنه فى أغسطس سنة ١٩٥٢ أعدم أكثر من عشرين يهوديا من القادة المميزين فى الثقافة . أعدموا كجواسيس وأعداء برجوازيين. ومن روسيا انتشرت الحملة ضد ما يسمى بالدولية إلى الدول الخاضعة للنفوذ السوفيتى فى أوروبا الشرقية.

ففى نوفمبر سنة ١٩٥٢ قامت حملة تطهير ومحاكمات تطهير فى تشيكوسلوفاكيا انتهت بما يسمى اعتراف ثم إعدام المدعى رودلف سلانسكى ، وهو ستالينى طول حياته وكان السكرتير العام للحزب الشيوعى التشيكوسلوفاكي . وفى خلال تلك المحاكمة الصورية اتهم هو وأعوانه أواعترفوا بأنهم كانوا صهيونيين برجوازيين قوميين يهودا خونة وجواسيس طيلة حياتهم.

ثم تبع ذلك مؤامرة الأطباء فى يناير سنة ١٩٥٣ حينما اتهم جماعة من الأطباء معظمهم من اليهود بأنهم يتآمرون على قتل ستالين وغيره من الزعماء السوفيتيين وذلك لصالح المخابرات الأمريكية « والبرجوازية الدولية اليهودية» .

وكانت القوة الفاعلة خلف ما يدعى بأنه مؤامرة الأطباء ومؤامرة سلانسكى طبقا لما ادعاه متهموه كانت تلك القوة هى اللجنة اليهودية الأمريكية للتوزيعات الخيرية وهى جمعية خيرية معروفة فى مجالات المعونات الاجتماعية والتأهيلية.

إن السوفيت والمحكومين بالسوفيت والمتأثرين بالسوفيت فى الأوساط الإعلامية أعطوا دعاية ضخمة لهذين الحدثين ووجدوا فيهما فرصة للتأكيد على الصبغة اليهودية لهما .

فمن ضمن الأربعة عشر متهما فى محاكمة تشيكوسلوفاكيا كان أحد عشر من اليهود ومن تسعة الأطباء المتهمين فى مؤامرة الأطباء سبعة كانوا من اليهود.

وبينما قيل إن هاتين المؤامرتين رتبتهما المخابرات الأمريكية فإن التنظيم وصف بأنه يهودى ، وبأن الدافع الفكرى كان هو « الصهيونية والبرجوازية اليهودية العالمية» .

إن الاتهامات ضد جماعة سلانسكى وضد الأطباء نالت حظا كبيرا من التشهير بين الشيوعيين الكتاب وأعوانهم ممن يسمون شيوعيين مساعدين وذلك فى طاعة عمياء للدعاية السوفيتية.

وقد حرص الشيوعيون أو السوفيت على تجنيد أكبر عدد ممكن من الشيوعيين اليهود للاشتراك فى هذه الحملة الدعائية.

إن أسبابا عديدة قد استنتجت لهذه الهجمة الستالينية ضد اليهود فى سنواته الأخيرة .

أحد من هذه الأسباب كان هو خيبة أمله فى المردود الذى حصل عليه من تعضيده وتشجيعه للدولة اليهودية فى لحظة إنشائها. أى أنه لم يعد عليه مردود من ذلك كما ص٣٨
كان ينتظر.

وسبب أخر قد يكون أهم، هو التأثير الصاعق لانتصارات إسرائيل في اليهود السوفيت .

فإن اليهود الذين هم أكثر رعايا ستالين اضطهادا وفقدان أمل تجاوبوا مع ولادة ونجاح دولة إسرائيل بحماس دينى وابتهاج عظيم ، وعلى وجه الخصوص فإن

وصول أول سفير إسرائيلى إلى موسكو كان مناسبة لتحيته بجموع كبيرة من اليهود بحماسة منقطعة النظير.

وبالنسبة لأعضاء السلطات الروسية الذين لا يتحملون أى رابطة بين اى جزء من الشعب السوفيتى وأى سلطة ليست تحت سيطرة السوفييت ، كان ذلك علامة من علامات الخطر.

وباعث آخر كان مؤكدا هو الاستفادة من الشعور المعادي للسامية فى إمبراطورية السوفييت فى أوروبا التي كان يسودها الاضطراب آنذاك. ففى تلك الدول العداء لليهود كان ولزمن طويل عاملا اجتماعيا قويا مؤثرا فى المسائل الاجتماعية والاقتصادية والحياة العامة بشكل عام.

فى أوروبا الشرقية، وعلى خلاف أوروبا الغربية، لم تأت حقبة ما بعد هتلر باى تناقص فى العداء للسامية ولا نتج عنها أى تعاطف مع ضحاياه، بل على العكس حدثت زيادة فى العداء الموجه على الخصوص إلى هؤلاء الأحياء الناجين الذين حاولوا العودة إلى بلادهم.

ومما زاد الأمور سوءا أن كثيرين من هؤلاء الباقين الناجين من المحرقة أتوا إلى بلادهم السابقة فى أعقاب الجيوش السوفيتية. وأدى بعضهم دورا بارزا فى الحكومات الأولى التى أقيمت تحت الرعاية السوفيتية.

وفى مرحلة ما يبدو أن ستالين قرر أنه من الأصلح للقوى السوفيتية أن تستخدم العداء للسامية بدلا من مقاومة ذلك العداء ، ولذلك فإن الدعاية السوفيتية فى أوروبا الشرقية قامت بمجهودات كبرى لوصف أعدائها بأنهم يهود ، وبذلك ترفع من العداء المنتشر والعميق للسامية. وأخيرا فإنه فى النظام التحكمى الدكتاتورى الهوائى الذى أقامه ستالين فإن الأحاسيس والدوافع الشخصية للدكتاتور لا يمكن استبعادها.

فمن ضمن العلامات الدالة على تنامى الشعور بالخوف فى سنوات ستالين الأخيرة أن أهم مخاوفه كانت الخطر المتصور من اليهودية فى العالم. مثل هذه المخاوف والاتجاهات، كانت شيئا طبيعيا بالنسبة له ذلك الذى تربى فى عهد الإمبراطورية القيصرية السابقة عليه، وحيث تعلم. إن موت ستالين فى مارس ١٩٥٣ أحدث توقفا مؤقتا أوعلى الأقل تناقصا فى صور النشاط الحاد لاضطهاد اليهود.

فقد أفرج عن الأطباء ، ووصفت القضية ضدهم بأكملها أنها تلفيق واختراع .

رودلف ستالنسكى وأعوانه الذين قد تم إعدامهم ولم يكن من الممكن استفادتهم من هذا المناخ الجديد ، أعطوا الشكل الشيوعى للمكافأة فيما بعد الموت ألا وهو«اعادة تأهيلهم » .

إن خطاب خروشتشوف السرى الشهير فى فبراير سنة ١٩٥٦ الذى فضح فيه وندد بشرور عهد ستالين رفع آمال اليهود كما رفع آمال غيرهم من العناصر فى الاتحاد السوفيتى. ص٣٩

أما بالنسبة لليهود على الأقل فقد كان ذلك الانتعاش فى الآمال قصير الأمد جدا. فسرعان ما أظهر خروشتشوف حقيقة موقفه ، ولو أنه لايشترك مع ستالين فى مخاوفه التصورية إلا أن نظرته إلى الدور اليهودى فى الاتحاد السوفيتى لم تكن تختلف كثيرا عن نظرة سابقه أى نظرة ستالين. فإن ملاحظته العابرة التى أطلقها فى أثناء زيارته لبولندا والتى قال فيها :« يوجد أبراموفيشتز كثيرون هنا » ، تلك الملاحظة سمعت وفهمت من الأبراموفيتشز أى اليهود ومن جيرانهم المسيحيين.

وفى ذلك الوقت كان قليل جدا من اليهود - وهؤلاء هم القلة المتعصبة من الشيوعيين اليهود - هم الذين بقوا فى بولندا. أما الآخرون فمعظمهم كان قد رحل. والآن حتى بعد هذه الملاحظة حتى هؤلاء الشيوعيون فهموا أن وقتهم قد حان وبدءوا هم أيضا فى الرحيل بهدوء. إن الحكام الشيوعيين لبولندا قاموا بحملة شاملة وبعيدة المدى ضد الصهيونية و« البرجوازية اليهودية العالمية » .

وقد ظنوا أنهم سيستفيدون من تلك الحملة استفادة مضاعفة وذلك بالحصول على رضاء سادتهم الروس ورعاياهم البولنديين. إن خروشتشوف الذى يتميز بين الزعماء السوفيت بصراحته شرح نظرته بشأن المسائل اليهودية إلى جماعة الاشتراكيين الفرنسيين الذين سألوه فى مايو سنة ١٩٦٥ بقوله : « اذا كان اليهود الآن يريدون احتلال المناصب العليا فى جمهورياتنا فإن - ولا شك - مواطنينن سينظرون إلى ذلك نظرة غير مرضية .

ذلك أن هؤلاء المواطنين سيرفضون تلك المطالب خصوصا وأنهم لا يعتبرون أنفسهم أقل ذكاء وأقل قدرة من اليهود. أو مثلا فى أوكرانيا إذا عين يهوديا فى

منصب مهم وأحاط نفسه طبعا بيهود آخرين يعملون معه فإنه يكون من المفهوم العداء الذى سينشأ ضده وضد اليهود عموما » .

وفى أوائل الستينيات ابتدأت السلطات السوفيتية حملة جديدة ضد اليهود. وفى هذه المرة على جبهتين : الدينية والاقتصادية . فإن الهجوم على اليهودية كان جزءا من حملة عامة على الدين، الذى قررت السلطات السوفيتية فى ذلك الوقت ولسبب ما أنه يمثل خطرا .

ولكن الهجوم على الديانة اليهودية كان مختلفا اختلافا بينا عن ذلك الهجوم على الديانتين الاخريين فى الاتحاد السوفيتى وهما الإسلام والمسيحية .

إن التصريحات العدائية ضد اليهودية لم تختلف عن غيرها فقط فى قسوتها وفى فجاجة لغتها بل و بإحالة أو تفسير المعضلات الحالية بالأحداث الماضية .

فمثلا اعتبار الشخصية التوراتية جوشوا صهيونيا معتديا على أملاك الآخرين، وأن الملك داود مفرط الأطماع التوسعية وكان عابثا جنسيا. وفوق ذلك استعمال العبارات المعادية للسامية المعهودة ككلمات مؤامرة وطمع والرغبة فى التسلط.

إن في ذلك الانتقاء فى حملة السوفيت ضد الأديان عموما يظهر في تفرد حملتهم ضد اليهود بصورة رسم كاريكاتوري ظهر فى مجلة تدعى BAKINSKII RABOCHII فى ٤ من يونية سنة ١٩٨٥ منشورة فى جمهورية أذربيجان المسلمة . ص٤٠

وتلك الصورة تمثل كتابا عليه درع الملك داود وهذا الكتاب تتساقط منه قطرات فى زجاجتين إحداهما مكتوب عليها سم والأخرى سم أفاعى، وبجانب ذلك توجد شخصيتان شريرتا المنظر فى مقدمة الصورة تقول إحداهما للأخرى « إن هذه السموم تتفاعل أولا مع العقل » وكلتاهما تشير الى الكتاب الذى عليه العلامة اليهودية.

أما الكتب الأخرى فى مؤخرة الصورة فهى تحمل صليبا وصورة للإله بوذا قاعدا ولا يوجد أى كتاب عليه هلال الإسلام. (هذا تعليق للمترجم: وواضح من هذا أن الدعاية السوفيتية تتلون بتلون مكان نشرها ، فهى فى الولايات الإسلامية تسقط العلامات الإسلامية وتؤكد على العلامات اليهودية والمسيحية وفى غيرها تفعل العكس).

وأهم من هذا بالنسبة لضحايا الحملة العدائية هو ما كانت السلطات تسميه بالجرائم الاقتصادية : الاختلاس والسرقة والرشوة والمتاجرة فى العملة ، كلها كانت جرائم كثيرة الحصول فى الاتحاد السوفيتى. ومن وقت لآخر كانت السلطات السوفيتية تقوم بحملات ضد هذه الجرائم مجندة فى ذلك أجهزة الدولة والحزب والصحافة وقوات الأمن.

وفي حملة قوية مثل هذه فى سني ١٩٦١ ، ١٩٦٤ كان اليهود هم الضحايا الأول . فبينما اتهم عشرات الآلاف من الرجال والنساء بهذه الجرائم وعوقبواعليها ، فإن اهتمام وسائل الإعلام تركز على هؤلاء منهم الذين هم يهود، طبعا مع استخدام طبعا العبارات المعادية للسامية المعتادة والرسوم الكاريكاتيرية المعادية للسامية أيضا .

وعلى ذلك فمن بين ٨٤ شخصا حكم عليهم بالإعدام للجرائم الاقتصادية فى سنة ١٩٦٢ ، ٤٥ كانوا يهودا اى ٥٤٪. وفى جمهورية أوكرانيا كانت النسبة ١٧ من ٢١ أى ٨١٪ .

إنه كجزء من هذه الحملة نشر المؤلف السوفيتى TROFIM K. KICHkO نشر كتابه المشهور« اليهودية بلا رتوش » يهاجم الديانة اليهودية والذين اعتنقوها خلال الآماد. قد كان هذا الكتاب المعادى للسامية فجا فى محتواه وفى لغته وفى الصور التى احتواها إلى درجة أنه حتى الأحزاب الشيوعية فى العالم الحر اشتركت فى لعن هذا الكتاب وإدانته.

وقد استجابت اللجنة الفكرية للحزب الشيوعى السوفيتى استجابت إلى هذه الإدانة بسحب هذا الكتاب وبفصل كيشكو من الحزب. وبعد سنوات قليلة أعيد تأهيله وقبوله فى الحزب ثانية.

وفى يناير سنة ١٩٦٨ منح شهادة الشرف من المجلس السوفيتى الأعلى فى أوكرانيا ونشر كتابا جديدا عنوانه « اليهودية والصهيونية » نشر فى كييف عاصمة أوكرانيا فى نفس السنة. وفى نظرة كيشكو هذا إلى التاريخ فإن الديانة اليهودية تعلم السرقة والخديعة والكراهية المسمومة لكل الأجناس الأخرى.

إن الهدف الرئيسى للديانة اليهودية فى رأيه هو تحقيق وعد الرب بأن يصبح

العالم كله ملكا لليهود. وإن قصد الصهيونية العملى هو خلق أو إنشاء قوة يهودية عالمية مقرها فلسطين لتحقيق ذلك الغرض. إن كتاب كيشكو الثانى الذى وزع على
نطاق واسع كان جزءا من حملة دعائية جديدة ضد الصهيونية أطلقت فى يوليو سنة ص٤١
١٩٦٧ ، وذلك عقب حرب الأيام الستة التى أثرت فى كل دول الكتلة السوفيتية. ففى بولندا أدت نتائج هذه الحرب إلى فصل هؤلاء القلة الباقية من الشيوعيين اليهود من أعمالهم ، وإجبار تقريبا كل ما بقى من اليهود فى بولندا على الرحيل. ولم يكن تأثير حرب الأيام الستة ذلك التأثير الدرامى فى الاتحاد السوفيتى فقط، ولكنه أدخل تغييرا جوهريا في الأحاسيس والميول فيما يتعلق باليهودية .

ففى الماضى المتعاطفون مع اليهود كانوا اعتادوا رؤية اليهود على إنهم ضحايا ضعاف لا حيلة لهم، وأنهم بتعاطفهم هذا يساهمون فى مساعدتهم وإنقاذهم كلما أمكن ذلك، وبغير تعريض المصالح الاقتصادية أو القومية المهمة لأى خطر.

بمعنى أن المتعاطفين مع اليهود يساعدونهم كضحايا ضعاف وذلك بغير الإضرار بمصالح هؤلاء المتعاطفين سواء كانت قومية أو تجارية. ولكن بهذا الانتصار الساحق السريع على قوى أكبر وأقوى منها بكثير تعدى اليهودى صورته المعهودة، وخرج عنها، ولم يصبح الضحية الفزعة الخائفة التى يسعى أعداؤها الى القضاء عليها وهى وحيدة تدعو للشفقة وتستحق الإنقاذ بواسطة هؤلاء الاخرين الأكثر حظا كلما سمحت الظروف.

فبالنسبة للكثيرين كان ذلك تغييرا يدعو إلى الاضطراب العميق. ففى أوروبا وأمريكا والشرق الأوسط بين اليهود والعرب أنفسهم كان ذلك التحول المفاجئ فى العلاقة ما بين اليهود وأعدائهم بدأ أو أدخل تغييرات مهمة على الشعور تجاه اليهود مما استمر إلى يومنا هذا.

ولكى نفهم تلك التحولات يجب أن ننظر نظرة فاحصة إلى الناس وإلى الأيديولوجيات المشتركة التى ينصب عليها هذا البحث وكذلك السياسات والمفاهيم التى تؤثر فى سير الأحداث.

الفصل الثاني

ســـاميـــون

إن اسم سامى يأتى من شم وهو أكبر أولاد نوح الثلاثة. وفى النصوص الإغريقية واللاتينية للتوراة أصبح شـم ينطق سـم حيث لم يكن الإغريق أو اللاتين يستطيعون ص٤٢ كتابة أو التعبير عن هذا الصوت العبرى وهو الشين.

إن التوراة يقول لنا إن كل واحد على الأرض غرق ما عدا نوحا وعائلته ، وإن كل الجنس البشري متناسل من أبنائه الثلاثة وهم : شم ، وحام ، وجابث . وإن خط التناسل من هؤلاء الثلاثة الموصوف أو المذكور فى الفصل العاشر من التوراة (جينيسيس) هذا الخط يمثل ترتيبا أو خطا عنصريا أسطوريا يعدد الناس فى ذلك العهد القديم، المعروفة أسماؤهم فى وقت كتابة هذا الإصحاح العاشر، ويرتب أو يصف العلاقة فيما بينهم.

كثير من هذه الأسماء المذكورة فى هذا الإصحاح إما أنها غير معروفة لعلماء التاريخ الذين حاولوا عبثا العثور على أى دليل على وجودهم . وبعض هذه الأسماء مع اختلاف فى الدقة، انتحلها آخرون .

فمثلا مادای وجافان قد يكونون الميديين والأيونيون قد يكونون الإغريقيين. ومع ذلك ، فإنه غير محتمل أن يكون توجارما يمثل الأتراك. وبعضهم على العكس يمكن التعرف عليهم كأسماء معروفة لأقطار معروفة فى التاريخ القديم . ومثال ذلك كنعان ومزرائين أى مصر وكوش أى الحبشة. وفى أوقات لاحقة بعد ذلك فإن المسيحيين تبنوا الفكرة وإلى حد أقل منهم تبنى تلك الفكرة المسلمون واليهود ، وهو أن أولاد

نوح الثلاثة يمثلون ثلاثة أجناس وثلاثة مجموعات لغوية. وطبقا لهذا التفسير فان حام كان هو جد الشعوب السوداء فى إفريقيا. وشم هو جد العبرانيين وما تناسل منهم، وان جابث كان هو جد الإغريقيين و الفارسيين الذين عرفوا فيما بعد باسم الآريين.

إن افتقار هذه النظرية إلى المصداقية وعدم تحقق بعض منها إطلاقا فى مواجهة الشواهد والدلائل التاريخية واللغوية والحفريات والبقايا الإثنية، انعدام المصداقية هذا لم يمنع استمرارها حتى القرن التاسع عشر بين العلماء ، وإلى وقت أطول بين غير العلماء. ص٤٣

إن شم وأولاده مذكورون أو يعودون إلى العهود التوراتية بالغة القدم ، أما الساميون فهم من أصل أكثر حداثة يعود إلى القرن الثامن عشر فى أوروبا. إن فكرة أن بعض اللغات قد تكون متصلة ببعض اللغات الأخرى لم تكن فكرة جديدة. ففى العهود القديمة العلماء أى المثقفون أو الدارسون اليهود كانوا على علم وإحساس بالعلاقة بين العبرية والآرامية ، وفى القرون الوسطى كان يمكنهم أن يجدوا ويستغلوا التشابه بين العبرية والعربية فى دراساتهم فى قواعد الصرف والنحو الخاصة بهم. ولكن لم يحدث حتى القرن الثامن عشر حين نما علم اللغات المقارن تحقق فكرة أنه توجد عائلات لغوية .

فلوقت طويل كانت اللغات القديمة والنصوص القديمة المعروفة للمفكرين والدارسين الأوروبيين، كانت هى الكتابات الكلاسيكية الإغريقية و اللاتينية من ناحية والكتابات العبرية والنصوص الآرامية التى حافظ عليها اليهود من ناحية أخرى. وهذه النصوص والدراسات الأخيرة زاد عليها وأكملها زيادة الاهتمام باللغة العربية وكذلك باللغات التى يستعملها المسيحيون الشرقيون الذين كانت الكنيسة فى روما تمد إليهم يد الصلة.

إن نمو وامتداد النشاطات الأوروبية فى الشرق الأوسط وعلى وجه الخصوص فى الهند أتى بحضارات وكتابات وأدبيات جديدة، مكنت عقول الدارسين الأوروبيين من توسعة مداركهم التي أدت إلى اكتشاف وتفسير الزاروستريان والكتابات الزورياستينية والكتابات الهندية التى كتبت بلغات الفرس والهند القديمة.

وبذلك فقد انضم بعد جديد إلى دراسة اللغات. إنه فى ذلك الوقت ظهر إلى الوجود هؤلاء الساميون والآريون وكلاهما أسطورى، وجزء من نفس التفكير الأسطورى.

كلاهما نشأ بنفس الطريقة وعانى من نفس سوء الاستعمال وعلى نفس الأيدى فى معظم الأحوال. إن هذين الاثنين أصلهما فى الأبحاث الدراسية ويشيران إلى لغة وكلاهما يرجع تاريخه إلى نشأة علم اللغات المقارن فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر. فى ذلك الزمن الدارسون الأوروبيون توصلوا إلى معرفة أو إلى إفراز مجموعتين رئيستين من اللغات التى استعملت فى كل الحضارات التى قامت غربي الصين.

الأولى الأكبر كونت السانسكريتية ومشتقاتها فى الهند والمراحل التالية فى اللغة الفارسية واللغتين الإغريقية واللاتينية ومعظم لغات أوروبا الحديثة الألمانية والغجرية واللغة السلطية (CELTIC) كذلك.

وقد أطلق علماء اللغات الألمان على هذه العائلة من اللغات (الهندى الألمانى) جامعين فى هذا التعبير أسماء من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب. أما اللغويون فى فرنسا وفى إنجلترا فقد فضلوا اسم الهندى الأوروبى لأنه فى نظرهم أن اللغتين السلطية والغجرية يستطيعان أن يدعيا أنهما من لغات الغرب. وليس هناك أى شك حول الجزء الشرقى من هذه العائلة الذى يتكون من لغات إيران واللغات ص٤٤
السانسكريتية فى الهند.

وهذه اللغات تسمى عادة بآرية أو هندى آرية. وتلك الكلمة التى تعرض فى الفارسية القديمة والسانسكريتية من معانيها النبل ، وهو طبعا عادة الأقوام فى وصف أنفسهم. إن اسم إيران فى شكله القديم إيريانا يعنى أرض الآريين.

وكان الشكل السانسكريتى للكلمة وهو آريا يستعمل منذ أوقات بعيدة لكى يصف عبدة الآلهة البراهمية. وامتداد معناها لكى يشمل كل اللغات الهندية الأوربية ما هو إلا استعمال خاطئ .

وتحولها من المجال اللغوى إلى المجال العرقى وحتى إلى المجال الجنسي الاثني كان خطأ جسيما من الدارسين كان له آثار عميقة اجتماعية واقتصادية وأخلاقية.

وقديما منذ سنة ١٧٠٤ فإن الفيلسوف الألمانى جوتفريت ويلهيلم ليبنتز قد حدد أو

اكتشف أو شخص مجموعة من اللغات تشمل العبرية والكرتاجينية والخالدية والسيرياك والاثيوبية ، ولهذه المجموعة أعطاها اسم "عربى" وقد اختار هذا الاسم ليشمل المجموعة لأن العربية كانت أكثر اللغات استعمالا.

إن وصف مجموعة باسم واحد من أعضائها قد يؤدى بسهولة إلى الاضطراب، ولذلك فإن التسمية التى أوجدها ليبنتز مقبولة على وجه العموم. ولم تسم هذه المجموعة باسمها الذى تحتفظ به حتى اليوم إلا فى سنة ١٧٨١ .

ذلك لأنه فى تلك السنة أوجست أوديد شلوتزر قدم بحثا فى هذا الموضوع انضم إلى عمل جامع للأبحاث الألمانية فى الآداب الإنجيلية والشرقية.

وطبقا لشلوتزر فإنه من البحر الأبيض المتوسط إلى الفرات، ومن ما بين النهرين جنوبا إلى بلاد العرب فإن لغة واحدة كانت هى السيدة.

فالسريان والبابليون والعبريون والعرب كانوا شعبا واحدا ، وحتى الفنيقيون الذين هم حاميون تكلموا تلك اللغة التى يسميها شلوتزر « بالسامية » .

ثم يستطرد شلوتزر لمناقشة أخرى فى تلك المنطقة، ويحاول أن يجد لها مكانا فى الإطار الذى قدمته التوراة فى الإصحاح العاشر.

إن فكرة أن اللغات السامية نبتت كلها من أصل واحد يسميه اللغويون الألمان أحيانا "شبه سامى"، وأن الأقوام الذين يتكلمون هذه اللغات ينحدرون جميعا من اصل واحد، فكرة كان لها تأثير عظيم.

كما أنها تسببت فى بعض الاضطراب والاختلاط. فى سنة ١٨٥٥ كتب اللغوى الفرنسى إرنست رينان - وهو من الرعيل الأول فى الدراسات اللغوية السامية - كتب يشكو ويقول : « إننا نستطيع أن نرى أى فكر تعيس كان مستوليا على شلوتزر عندما أعطى اسم سامية إلى عائلة اللغات العربية السريانية .

إن ذلك الاسم الذى بطول استعماله فرض نفسه علينا، كان ولا يزال وسيستمر سببا فى كثير من الاضطراب والاختلاط. إننى أكرر مرارا أن اسم سامى هنا (يشير رينان إلى دراسته فى اللغات السامية) له فقط معنى واحد. إنه يصف أو يحدد الأقوام أو الناس الذين تكلموا العبرية والسريانية والعربية وبعض اللهجات المجاورة وليس ص٤٥

إطلاقا هؤلاء الأقوام الذين جاء ذكرهم فى الإصحاح العاشر من التوراة على أنهم من نسل شم وهم أو على الأقل نصفهم من أصل آرى » .

إن رينان كان طبعا محقا فى الإشارة إلى الأخطار التى يولدها اتخاذ « أجيال من نسل أولاد نوح أساس للتقسيمات اللغوية » . وقد كان يمكنه أن يذهب أبعد من ذلك. إن القوم من نسل حام والمتعارف على أنهم جدود الإفريقيين، يتضمنون بالإضافة إلى مصر والحبشة الكنعانيين والفينيقيين الذين عاشوا فى الأرض السريانية الفلسطينية وتكلموا لغة تشابه تماما اللغة العبرية. إن الخلط بين الجنس واللغة يرجع إلى وقت طويل.

وضاعفه التغير الذى طرأ على كلمة جنس في الاستعمال الأوروبى ثم بعد ذلك في الاستعمال الأمريكى.

إن الباحثين الثقات طالما أشاروا ونادوا ولكن بلا تأثير أن سامى هو تعبير لغوى وحضارى، يدل على لغات معينة وأيضا فى بعض الأحيان على الأدبيات والحضارات التى عبر عنها بهذه اللغات.

وكطريقة مختصرة ، فإنه كان يطلق على أولئك الذين يتكلمون تلك اللغات. وعلى ذلك فقد كان من الممكن أن هذه الكلمة يصبح لها صلات بمعانى الجنس حيث كانت تلك الكلمة تستعمل لتحديد جماعات أو كيانات حضارية وقومية. وهى ليس لها أى علاقة بالجنس فى المعنى الأنثروبولوجى أى العرقى أو دراسة الأصول العرقية.

ولذلك فهى لا علاقة لها بالجنس بالمعنى الذى هو سائد الآن فى الدراسات المتعلقة بالأعراق والناس . إن نظرة إلى المتكلمين هذه الأيام باللغة العربية من الخرطوم الى حلب ومن موريتانيا إلى الموصل أو حتى نظرة إلى متكلمى العبرية فى دولة إسرائيل الحديثة تكفى لكى تظهر الاختلافات الواضحة بين الأجناس المختلفة.

إن اللغويين أو بعضا منهم على الأقل واصلوا احتجاجاتهم على هذا الاستخدام الخاطئ لأبحاثهم، بمعنى هذا الخلط بين السامية كلغة، واستعمالها للدلالة على الجنس. وهكذا فإن الباحث الألمانى فى مسائل السامية ثيودور نولدك فى بحث يسمى "بعض خصائص الجنس السامى" نشر فى سنة ١٨٧٢ يقول : « وهكذا فى رسم أو فى محاولة رسم شخصية السامى فان المؤرخ يجب أن يتحوط من أن يتخذ يهود أوروبا ممثلين للجنس السامى.

إن هؤلاء احتفظوا بخصائص كثيرة من طابعهم الأصلى ، وهم متمسكون بها تمسكا ملحوظا ولكنهم أصبحوا فى واقع الحال أوروبيين.

وأكثر من ذلك فإن بعض الخصائص التى يوصفون بها ليست فى حقيقة الأمر من أصل سامى، وإنما هى نتيجة للتاريخ الخاص لليهود، وعلى الأخص استمرار ص٤٦ الاضطهاد الذين هم واقعون تحته واستمرارعزلتهم عن بقية الأقوام ، الشيء الذى كان من اختيارهم وأحيانا مفروضا عليهم » .

إن نولدك هذا يجب أن يلاحظ أنه كان أستاذا فى جامعة ستراسبرج، وهى مدينة كانت تضم واحدة من أقدم وأهم الجاليات اليهودية في أوروبا الغربية.

وللمرء أن يعجب ! هل تقبلت هذه الجالية هذه الملاحظات بارتياح أم لا ؟

ومنذ أيام شلوتزر وحتى رينان فإن أعداد اللغات السامية أو عدد اللغات السامية المعروفة للدارسين والباحثين قد تنامى بشكل كبير. وبعض الدارسين الآن يذهبون أبعد ويلاحظون أن هناك علاقة بين اللغات السامية ومجموعة أخرى تسمى حامية وهو تعبير فيه تقليد لتعبير السامية وينطبق على مجموعة من اللغات يتكلمها سكان القرن الإفريقى ومناطق إفريقية أخرى .

وبسبب وجود صلات قديمة وبعيدة بين هاتين المجموعتين من اللغات السامية والحامية فإنهما فى نظر هؤلاء الدارسين تعتبران مجموعة واحدة يطلق عليها "الحامية السامية" وذلك على وزن الهندية الأوربية .

ومن اللغات السامية العديدة التى كتبت وتكلم بها لم يبق إلا بعض قليل يستخدم اليوم على أى نطاق ، ومن هذا القليل هناك فقط العبرية والعربية تحظيان باهتمام خارج الأقطار التى تستعملان فيها. ففى الوقت الحالى كما فى القديم فإن اللغات السامية يتحدد استعمالها بمساحة محدودة فى جنوب شرق آسيا وشمال إفريقية ، ويوجد فرعان صغيران ما زالا باقيين فى منطقتين خارج تلك المنطقة السابق ذكرها.

واحد منهما هو جزيرة مالطة فى البحر الأبيض حيث اللغة المالطية مبنية على لهجة من لهجات العربية فى إفريقيا الشمالية. وبالمناسبة فإن هذه اللغة هى اللغة السامية الوحيدة التى يتكلمها شعب مسيحى أوروبى.

وعلى الجانب الآخر، يوجد الفرع الآخر من اللغات السامية فى إثيوبيا. إن تلك اللغات المذكورة فى إثيوبيا هى اللغات السامية الوحيدة التى يتكلم بها شعب ذو جلد غامق اللون.

إن المتكلمين بالعربية والعبرية تختلف صفات طبقاتهم الجنسية من أبيض إلى بنى وأحيانا أسود. فى الوقت الحالى فإن العبرية تتكلم كلغة أم فقط فى جمهورية إسرائيل، ولكنها أيضا تدرس وتستخدم بين اليهود فى كل مكان كلغة دينية وأيضا كلغة حضارة.

فهى حيث إنها لغة العهد القديم احتلت ولقرون عديدة مكانا عظيما وإن كان قد تناقص الآن فى المناهج الغربية المتعلقة بالدراسات الكلاسيكية.

إن اللغة العربية كلغة أم يتكلم بها على أنها اللغة الأم فى الحزام العريض الذى يعرف بالبلاد العربية، ويحدها من الشمال تركيا ومن الشرق إيران ، ثم هي محدودة ص٤٧
بالبحر الأبيض والمحيط الأطلسى من الغرب. وتمتد من العراق إلى مراكش، وأيضا يتكلم بها الأقليات المهمة فى البلاد المجاورة لهذا الحزام فى آسيا وإفريقيا.

وبالإضافة فإنها لغة العبادة ولغة القانون ولغة الآداب ولغة الكلاسيكيات بالنسبة لمئات الملايين من المسلمين من غير العرب فى العالم. وإن أهميتها الإستراتيجية والاقتصادية قد نالت ما تستحقه من اعتبار فى العالم الغربى وفى العالم السوفيتى .

وبينما لهجات اللغة العربية تختلف من بلد إلى بلد كاختلاف الإسبانية والبرتغالية والإيطالية فإن اللغة المكتوبة واحدة بلا اختلاف فى كل العالم العربى. و إنه بالانتشار السريع للتعليم اكتسبت اللغة العربية قوة وتعزيزا كعامل موحد. إن اللغة العربية جيء بها إلى كل تلك الأقطار التى هى خارج الجزيرة العربية فى القرنين السابع والثامن، وهذا فى حساب السنين بمقاييس الشرق الأوسط يكاد يكون بالأمس.

ولكنه فى خلال الأربعة عشر قرنا التى مضت بعد ذلك فإنها تكاد تكون قد حلت تماما محل اللغات الكثيرة التى كانت تستخدم فى تلك البلاد. القبطية والسريانية مثلا كان استعمالهما منتشرا فى مصر وفى سوريا، وهما الآن توجدان فقط كلغة الترتيلات الدينية للمسيحيين الشرقيين.

والكردية والبربرية ما زالتا لغتى أقليات مهمة ، واحدة فى العراق والأخرى فى

إفريقيا الشمالية. ولكنهما كلتياهما تتكونان من لهجات كثيرة بغير وجود لغة ذات قواعد أساسية.

وليس لهما كلتيهما أى أدب مكتوب. أما اللغات الأقدم فى تلك المنطقة كالبابلية والآشورية فيما هو الآن يعرف بالعراق، ولغة الكنعانيين والفينيقيين فيما يعرف الآن بسوريا وفلسطين، ولغة المصريين القديمة فى مصر، فإنها جميعا اختفت ونسيت.

وفقط جهود الباحثين والدارسين المحدثين هى التى أدت أو مكنت من الكشف عن آثار، وتحليل أو تفسير كتاباتهم، وكذلك فهم أدبهم ولغتهم.

وفى السنين الحديثة فإن مذهبا جديدا قد نشأ وترعرع فى الأقطار العربية. وهذا المذهب تسيد على تدريس التاريخ فى المدارس وعلى التصور العام فى الماضى فى وسائل الإعلام .

بل إن ذلك الاتجاه الحديث أو المنهج الحديث كان له بعض الأثر على الدراسات البحثية. وبالنسبة لهذه النظرة، فإن الاتساع العربى الكبير، بعد نشوء الإسلام وتقدمه فى القرن السابع، ذلك الاتساع الذى خرج بالعرب من جزيرتهم العربية إلى الأقطار فى الهلال الخصيب ثم شرقا إلى إيران وآسيا الوسطى وغربا عبر مصر إلى شمال إفريقيا وإسبانيا ، لم يكن كما كان معتقدا قبله اتساعا دينيا أو إمبراطوريا.

بل إنها كانت حرب تحرير قام فيها العرب الأحرار الذين كانوا يعيشون فى الجزيرة العربية، بإنقاذ إخوانهم الذين كانوا يرزحون تحت نار الاستعمار الفارسى والرومانى.

ولإيجاد تعليل منطقى لهذا التفسير ، فإنه يجب أن نعتبر أن كل سكان هذه المناطق كانوا قبل تقدم الإسلام من العرب حتى ولو كانوا يعرفون بأسماء أخرى ، وذلك حتى يمكن أن يقال إنهم حرروا.

وإنه ولا شك كان هناك وجود عربى فى دول الحدود فى العراق وسوريا وفلسطين وحتى فى مصر قبل العهد الإسلامى، ولكن الأغلبية العظمى من سكان تلك البلاد
ص٤٨ ينتمون إلى أصول عرقية اخرى ويتكلمون لغات أخرى. ولكن علم التاريخ العربى الحديث مد اسم العرب وشخصياتهم إلى كل الشعوب القديمة السامية فى الهلال الخصيب. قوم من هؤلاء الأقوام القدامى يوجدون مشاكل لهذا التفكير .

ذلك أن هؤلاء الناس مازالوا موجودين يحملون نفس الاسم القديم ويستخدمون نفس اللغة القديمة . ومما يدعو أكثر إلى الاضطراب أو إلى القلق ، أنهم مازالوا يعتنقون نفس الديانة. فلو أن الإسرائيليون تبعوا الكنعانيين والفينيقين والآشوريين والبابليين ، تبعوهم فى الاختفاء فإنهم كان يمكن اعتبارهم من أصل عربى قياسا على ما تم فى الأجناس الأخرى، ولكنهم لم يزولوا.

وإن عودتهم فى القرن الماضى لكى يطالبوا بأرض آبائهم ويتنازعوا عليها مع سكانها من العرب جعل تبنيهم كشعب من الشعوب العربية أمرا أكثر صعوبة. وقد كان هناك إجابات مختلفة لهذه الصعوبة.

بالنسبة للبعض وخصوصا أولئك المتأثرين بعداء السامية الأوروبى، فإن الإسرائيليين القدماء واليهود مختلفون تماما عن العرب. وبالنسبة للبعض الآخر فإن الاسرائيليين الانجيليون تحقيقاتهم وتقدماتهم كانت فى حقيقتها عربية، ولذلك فهم لا علاقة لهم باليهود المحدثين.

أما البعض فيقصر ذلك الإنكار على اليهود من الأوروبيين. ويستعمل فى ذلك النظرية التى تقول إن يهود أوروبا ليسوا من أصول إسرائيلية أبدا ولكنهم سلالات قبيلة تركية من أواسط اسيا تحولت إلى اليهودية واسمها الخزرج. هذه النظرية نادى بها عالم أجناس نمساوى فى السنوات الأولى المبكرة من هذا القرن العشرين.

وهى لا شاهد عليها يؤيدها إطلاقا. وقد هجرت تماما من كل الباحثين الجادين فى هذا المجال حتى فى الدول العربية، حيث إن نظرية الخزرج هذه لا تستخدم إلا فى المهاترات السياسية . إن إعادة كتابة الماضى عادة يقدم عليها لتحقيق أهداف سياسية.

فوصف التوسع العربى الضخم فى القرن السابع على أنه حرب تحرير وليس حربا توسعية ، فإن العرب بذلك يخلصون أنفسهم فى التاريخ البعيد من تهمة الاستعمار وهى أحقر التهم فى القائمة السياسية الآن. وبإقامة علاقة مباشرة بين الساكنين القدامى لهذه الأقطار، فإنهم - أى العرب - يستطيعون أن يقوا الزهو القومى ، وأن يوجدوا فوق ذلك الإحساس بالتوحد مع تلك الأقطار خلال العصور، الشيء الذى هو الأساس فى الوطنية على الطراز الغربى.

إنه فى الوقت الذي تأخذ فيه مصالح الدول العربية مكانا متقدما على فكرة القومية العربية، فإن ذلك الإحساس الوطنى يكون عنصرا مهما. وأخيرا فإنه مع اطراح الإسرائيليين من العهد التوراتي أو الإسرائيليين القدامى وادعاء القرابة بالكنعانيين، وهم الذين سبقوا الإسرائيليين فى سكنى فلسطين، فإنه يمكن تأكيد علاقة تاريخية وحقوق تاريخية تسبق الوعود التوراتية التى يعتمد عليها اليهود أى أن الرب وعدهم بهذه الأرض. ص٤٩

هذا الخط فى المناقشة يصحبه فى العادة فى الدول العربية، فى كتبهم ومتاحفهم ومعارضهم، اتجاه الى الإقلال من الدور اليهودى فى التاريخ القديم، أو كثيرا ما يقدم هذا الدور فى شكل سلبى.

وقد كان بعض الغربيين على استعداد للاشتراك فى هذه الإجراءات. ولكن ذلك كله على أهمية قليلة جدا بالنسبة لحقائق الصراع العربى الاسرائيلى، أو حتى بالنسبة لحقوق الطرفين المتنازعين. إن القضية العربية فى فلسطين لا يمكن تقويتها بأن يقال بأن الكنعانيين القدماء كانوا عربا، وكذلك لا يضعفها أن يقال إن ذلك غير صحيح .

إنه فى مجال البحث العلمى بعيدا عن السياسة، لا يوجد أى دليل إطلاقا على التأكيد بأن الكنعانيين كانوا عربا. فمن الواضح أنه فى فلسطين كما فى غيرها من أماكن الشرق الأوسط، فإن السكان الحاليين يوجد فى أجدادهم من عاش فى هذه المنطقة منذ القدم. وكذلك أنه من الواضح أيضا أن الخلطة الديموغرافية أى العرقية قد تعدلت وتحورت كثيرا عبر القرون بالهجرة والإبعاد والتهجير أو الإقامة .وذلك كان على الأخص صحيحا فى فلسطين، حيث إن الشعب تأثر بأحداث كثورة اليهود ضد الرومان والقضاء عليها، ثم بالفتح العربى ثم بمجيء وذهاب الصليبيين، وهدم ثم إعادة تعمير الأراضى الساحلية بواسطة المماليك والأنظمة التركية، ومنذ أواخر القرن التاسع عشر بالهجرة الواسعة من داخل وخارج هذه المنطقة. فبسبب الغزو والتهجير والترحيل والتغيرات المتوالية فى الحكم والثقافة الحاكمة، فإن وجه الشعب الفلسطينى تغير مرات عديدة.

ولا شك في أن السكان الأولين الأصليين لم يقض عليهم نهائيا، ولكنهم على مر

الأيام حدث لهم أن تهودوا، ثم انضموا إلى المسيحية، ثم انضموا إلى الإسلام. وقد تغيرت لغتهم إلى العبرية ثم الآرامية ثم إلى العربية. إن مشكلة الأصول السامية تذهب ص.د
إلى الوقت الذى لا يوجد بشأنه تسجيلات مكتوبة أو تاريخ مسجل والذى من شأنه لذلك لا يمكن الجزم بأى شيء على وجه اليقين.

وإن مناقشة هذه المعضلة قد زاد تعقيدها واختلاطها باختلاط وتغير معانى الكلمات التى تستخدم فى تلك المناقشة . فإنه طبقا لكلمة الجنس بمعناها المستخدم الآن ، نرى أن الساميين لم يكونوا أبدا جنسا مستقلا .

ذلك أن الروايات الأولى القديمة والصور تبينهم على أنهم كانوا من أصول جنسية وعرقية وأشكال مختلفة.

ومع ذلك فإن معظم الباحثين يقبلون أن الساميين كانوا فى الأصل مجموعة عرقية يسودها إلى درجة كبيرة تجانس جنسى، ويتكلمون لغة واحدة، تلك اللغة التى تناسل منها كل اللغات السامية بطرق مختلفة. ولكن لا يوجد اتفاق على البيت أو الوطن الأصلى للساميين. حيث وضعه البعض فى الجزيرة العربية، والبعض فى سوريا وأرض ما بين النهرين بل وفى أرمينيا وشمال إفريقيا .

وفى كل الحقبة الذى يوجد فيه أدلة مكتوبة لا يوجد أى شك في أن موطن الساميين كان الجزيرة العربية وعلى التخصيص الصحراء الشمالية العربية. فمن هناك قامت موجات متعددة من الهجرة انتشرت فى الدول المجاورة أو الأقطار المجاورة من الهلال الخصيب حتى عبروا البحر الأحمر إلى القرن الإفريقى. وليس صحيحا على الإطلاق أن كل الحضارات القديمة فى الشرق الأوسط عبرت عن نفسها بلغات سامية.

فالسمائريون الذين أسسوا أول حضارة فى أرض ما بين النهرين كانوا يتكلون لغة لم تكن لا هى بالسامية ولا هى بالهندية الأوروبية، ولكنها من عائلة مختلفة تماما. وان اللغة الهيروغليفية أداة الحضارة العظيمة لمصر القديمة، يمكن أن يكون لها صلات بعيدة مع اللغات السامية والحامية ولكنها ليست من العائلة السامية.

وكان هناك مجموعات مهمة من الهند أوروبيين كالميديس والفرس والحطيين،

وعناصر أخرى أقل أهمية. اما الفلستيون فهم أقوام بحرية جاءت من جزر البحر المتوسط واستعمرت لوقت ما وسمت ساحل فلسطين حتى ذلك الوقت الذى تغلب فيه عليهم الملوك العبريون، كان هؤلاء الفلستيون يتكلمون لغة يستدل عليها من بعض كلمات بسيطة احتفظ بها فى التوراة العبرية .

وذلك يكفى لكى يبين أنه مهما كانت تلك اللغة فهى لم تكن سامية. إنه ولبضعة آلاف السنين الأخيرة فإن اللغات السائدة فى الهلال الخصيب كانت تنتمى إلى العائلة السامية وإن الحضارات التى عبرت عن نفسها بتلك اللغات كان لها أثرا عظيم خارج حدودها .

وحتى القرن التاسع عشر فإن العالم المسيحى لم يعرف من التاريخ القديم للشرق الأوسط إلا ما يمكن استقراؤه من تلك المعلومات المتناثرة فى التوراة العبرية وفى الكلاسيكيات الإغريقية. ص٥١

إن الدارسين اليهود الذين قرءوا التوراة العبرية ولكنهم لم يقرءوا الكلاسيكيات الاغريقية كانوا لذلك أقل فى علمهم حتى من هذه المعلومات القليلة التى عرفها المسيحيون.

أما الدارسون والباحثون المسلمون الذين لم يكونوا على علم بأى منهما - أى بالتوراة أو بالكلاسيكيات الإغريقية فهم كانوا يعتمدون على ذكريات وأحاديث جاءت إليهم من الكتابات الإسلامية، وعلى ذلك فقد كانت معرفتهم أقل حتى من الاثنين السابقين. وفى خلال القرنين التاسع عشر والعشرين فإن الاكتشافات والحفريات، والأبحاث اللغوية والتاريخية، أضافت معلومات كثيرة إلى ما هو معروف عن التاريخ السياسى والحضارى أو الثقافى للشرق الأوسط.

وحولت المفهومات التى يعتنقها أهالى الشرق الأوسط عن دورهم فى العالم. إن ذلك التاريخ يكشف عن سلسلة من الهجرة والتوطن بواسطتها خرجت موجات متتابعة من الساميين أتوا من الصحراء العربية وكونوا دولا جديدة وحضارات جديدة. إن أقدم تلك الحركات التى لها ذكر فى التاريخ حدثت فى الألف الثالثة قبل المسيح.

تلك الموجات كما سبق القول أتت بالشعب الذى أصبح يعرف بالبابليين

والآشوريين إلى وادى ما بين النهرين، ثم تحكموا فى الحضارة الأقدم وهى الحضارة السمائرية .

وإن أقدم الوثائق الموجودة بلغة سامية هى الكتابات الأولى البابلية المكتوبة بالطريقة التى اخترعها السمائريون واستخدمت فى كثير من اللغات القديمة فى تلك المنطقة. وبالرغم من أن البابليين والآشوريين خلقوا أو أوجدوا ثقافة غنية وجديرة بالاهتمام، فإنهم لا يذكرون إلا على أنهم غزاة قاهرون. إن أسماء حكامهم من مثل سيناكريت ونيبيو كندنزر قد خلدتها التوراة .

وقد دخل تاريخهم الطويل مرحلته النهائية فى القرن السادس قبل الميلاد. حيث قهرت أرض ما بين النهرين بواسطة مؤسس الإمبراطورية الفارسية سيروس ، وبذلك الغزو انتهى الوجود المستقل للآشوريين والبابليين. بعد ذلك اختفوا من النظر ووقعوا فى نسيان لم ينقذهم منه إلا الدارسون الغربيون فى القرن التاسع عشر، واحتضنتهم الوطنية العراقية فى القرن العشرين. أما الثقافة أو الحضارة الثانية المهمة السامية على مسرح التاريخ فهى معروفة باسم الكنعانيين . فى التوراة اسم كنعان يطلق بوجه عام علىالمساحة التى تحتلها إسرائيل والأردن ولبنان.

والوصف كنعانى ينطبق على تلك الأقوام التى هى مختلفة وإن كان بينها صلة قرابة. من ذلك الموبايدز والأيدومايدز، والأمونايدز، وأهمهم الفينيقيون وهم أناس بحارون أهل تجارة عاشوا على الساحل، وذاع صيتهم فى عالم البحر المتوسط. إن الكتابات الفينيقية عثر عليها بامتداد حتى وسط تركيا، وإلى الغرب حتى تونس حيث كانت المدينة القديمة الشهيرة قرطاج قد أسست بواسطة المقيمين الفينيقيين.

القرطاجية أو لغة الـ BUNIC هى شكل من أشكال الفينيقية. وإن الاكتشافات والحفريات التاريخية بينت أن لغات من نفس العائلة كالكنعانية، كانت تتكلم فى أواسط وشمال سوريا ، إلى وقت قديم يرجع إلى وسط ثانى ألفية قبل الميلاد. وقد وجد بين الكنعانيين واحد من أهم الاكتشافات فى التاريخ الإنسانى ألا وهو أحرف الهجاء الأبجدية.

إن ذلك مثل تقدما ضخما على الأشكال الهيروغليفية المصرية، وكذلك على ص٥٢
الرسوم السمائرية والاشورية والبابلية. فان حروف الهجاء الكنعانية كانت هى

الأساس للعبرية والإغريقية واللاتينية، وعلى الأرجح الأساس لكل الكتابات أو المكتوبات التى تستخدم حروف الهجاء فى العالم. لغويا إن اللغة العبرية لغة العهد القديم هى من العائلة الكنعانية.

إن مقارنة بين عبرية التوراة والفينيقية والموبايت وكتابات أخرى تقترح أن لغات العبريين وجيرانهم كانت متصلة، وعلى الأرجح أنه ممكن فهم بعضهم البعض.

وهذا اعتقاد تؤكده قصص عديدة وإشارات فى العهد القديم، حيث الإسرائيليون القدامى وجيرانهم يتفاهمون ولكن بصعوبة. وذلك بالمقارنة مع نصوص فى التوراة يقرر فيها كاتبوها عدم قابليتهم لفهم اللغات الأخرى البعيدة كالمصرية وحتى الآرامية.

ومن المستلفت للنظر أن كلمة عبرى كاسم للغة، لا ذكر لها ولا تأتى فى العهد القديم، حيث إن اللغة التى يتكلمها الإسرائيليون تسمى باليهودية أو لغة كنعان (انظر فى ذلك ازايا ١٨ ، ١٩) . أما إذا كان العبريون يتكلمون اللغة الكنعانية حينما وصلوا إلى فلسطين، أو كغيرهم من الغزاة القدامى، اكتسبوا لغة القوم الذين هم استولوا عليهم وقهروهم، فإن ذلك محل خلاف. إن هجرة العبريين يبدو أنها بدأت فى حوالى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد .

حيث أدى غزو الأقوام البحرية لإضعاف الإمبراطوريات المصرية والحطيين، الذين فيما بينهما كانوا يحكمون الأراضى الفلسطينية السورية. وذلك الغزو سمح بدخول العبريين وقبائل أخرى ذات صلة. وتحت رعاية القضاة أو الحكماء وبعد ذلك الملوك، فإنهم قوة سياسية حصلت ولمدة قصيرة على قوة حربية وتوسع إقليمى.

تلك القوة السياسية انتهت أولا بقهر مملكة إسرائيل بواسطة الآشوريون، ثم بعد ذلك بقهر مملكة جودا بواسطة البابليين ، مما ترتب عليه رحيل جزء كبير من أهل تلك البلاد إلى الأسر البابلى. وقد فقدت الأراضى السورية الفلسطينية وكذلك الآشورية والبابلية ، كلها فقدت استقلالها حينما أصبحوا جزءاً من الإمبراطورية الفارسية بزعامة سيرس فى حوالى نهاية القرن السادس قبل الميلاد. إن العبريين كغيرهم من الناس الساميين، استخدموا الكتابة وأنتجوا كتبا دينية وشعرية وتاريخية وكتبا أخرى. ولكن مصيرهم كان مختلفا .

فإنهم هم فقط بين أهالى تلك المنطقة هم اللذين احتفظوا بذكرياتهم ولغتهم ودينهم.

ص٥٣

وشكرا لهذا فإن التاريخ القديم أو الادب القديم لم يدفن وينسى كغيره، بل حوفظ عليه وفهم، لكى يصبح بالتالى من خلال تبنيه كالشريعة اليهودية ثم المسيحية جزءا من التراث الآدمى. وعلى بداية العهد المسيحى فقد انقرضت كل تلك اللغات القديمة السامية كذلك اللغة الآشورية والبابلية والكنعانية.

حتى العبرية لم تستمر اللغة اليومية التى يتكلمها اليهود فى فلسطين وفى غيرها. وبقيت حية فقط كلغة الكتب المقدسة وكذلك الدين والعبادة والشريعة والقانون. إنه فى كل الهلال الخصيب اللغات السامية القديمة، حل محلها لغة من نفس العائلة تسمى الآرامية.

إن اسم آرام يمكن العثور عليه على الأقل منذ الفي سنة قبل الميلاد ويظهر أكثر منذ سنة ١٤٠٠ قبل الميلاد وما بعدها.

إن انحلال الإمبراطورية الآشورية، وإضعاف البنيانات السريانية الاخرى، فتحت الباب لغزو جديد للهلال الخصيب بواسطة القبائل التى تتكلم الآرامية.

إن الإنجازات السياسية للقبائل الآرامية كان محدودا. وإن الولايات التى أقاموها لم تكن ذات قوة أو استمرار. إن اهميتهم فى انجازهم الحضارى وعلى الأخص فى انتصار لغتهم، التى بلهجات متعددة أصبحت هى اللغة العامة للهلال الخصيب وكذلك اللغة الدبلوماسية والتجارية فى أقطار أخرى وراء ذلك. وخلال الزمن المزدهر للإمبراطورية الفارسية من القرن السادس إلى القرن الرابع قبل الميلاد فإن معظم الهلال الخصيب أي العالم الشمالى السامى وحد لوقت محدود فى النظام الإمبريالى الفارسى. فكان هناك احتياج للغة إدارية وقد قامت اللغة الآرامية بسد هذه الحاجة. وقد حملت هذه اللغة إلى الشرق والغرب مع المنفيين العائدين وكذلك بواسطة الجاليات المتكلمة بالآرامية فى الأناضول والفرس والجزيرة العربية ومصر.

أما بالنسبة لليهود فى الهلال الخصيب وفلسطين، فإنها أصبحت لغة ثانية شبه مقدسة بعد اللغة العبرية. فكثير من المؤلفات التلمودية والكتابات الحاخامية مكتوبة بواحدة أو أخرى من الأشكال الآرامية. ففى الشكل السريانى قامت بمهمة أنها

الوعاء للكتابات الدينية بين المسيحيين فى الكنائس الشرقية، وقد بقيت لغة الكلام الأساسية فى الهلال الخصيب بالنسبة للمسيحيين ولليهود ولغيرهم حتى الوقت الذى فيه تسيدت عليها تدريجيا اللغة العربية.

واليوم اللغة الآرامية تحيا فقط فى أماكن قليلة. فى ثلاثة قرى مسيحية فى واد بعيد فى شمال دمشق بحوالى ثلاثين ميلا، وكذلك جاليات مسيحية ويهودية منعزلة فى المنطقة التى يتلاقى فيها العراق وتركيا وإيران. ومع ذلك فمعظم هؤلاء قد هاجروا الآن إلى أماكن أخرى أكثر موافقة لأحوالهم. ص٥٤

إن الحضارات السامية المهمة التى ظهرت قديما ظهرت كلها فى الهلال الخصيب والمناطق الصحراوية المجاورة له. وقد عبرت هذه الحضارات عن نفسها بلغات تخص الجماعات السامية موجودة فى الشمال الشرقى والشمال الغربى. ومع ذلك فقد كان هناك آخرون ينتمون إلى فرع أدنى من فروع العائلة السامية أحيانا يعرف بالساميين الجنوبيين أو الساميين الجنوب غربيين. وقد ظهر هؤلاء أول ما ظهروا فى حضارتين مهمتين قامتا ونمتا فى الجزء الجنوبى من البحر الأحمر .

واحدة على الجانب العربى وواحدة على الجانب الإفريقى. وفى خلال الألفية الأولى قبل الميلاد تكونت دول فى الجنوب الغربى من شبه الجزيرة العربية فى المنطقة التى تقوم فيها الآن الجمهورية اليمنية. وقد تركوا وراءهم عددا كبيرا من الكتابات والنقوش التى تسجل معتقداتهم ونشاطاتهم وتشهد على الثقافة المرتفعة نسبيا التى وصلوا إليها .

إن هذه النقوش مكتوبة بلغة تعرف لدى الباحثين بأنها عربية جنوبية، والمتكلمين بها على كل حال لم يسموها كذلك ولم يسموا أنفسهم عربا ولم يشيروا إلى أنفسهم أيضا على أنهم عرب بل استخدموا عددا من الأسماء المحلية القبلية الإقليمية والعائلية .

لغتهم ولو أنها قريبة من العربية فإنها ليست لهجة من لهجات العربية بل هي لغة مستقلة.

إن التاريخ الطويل للحضارة العربية الجنوبية وصل إلى نهايته حينما فتحت البلاد بواسطة الإثيوبيين الاحباش ثم الفرس ثم المسلمين العرب الذين أتوا من الشمال.

تحت حكمهم ماتت اللغات القديمة إلا بعض لهجات محلية وحلت محلها اللغة العربية. إن الجيوش الإثيوبية التى عبرت البحر الأحمر لكى تغزو الأراضى العربية الجنوبية قد يعتبر أنهم عائدون إلى موطنهم الأصلى .

ففى وقت سابق فى تاريخ غير معروف لا يتجاوز النصف الأول من الألفية الثانية قبل الميلاد عبرت أعداد من العرب الجنوبيين البحر الأحمر وأسسوا قواعد ومراكز تجارة فى إفريقيا. ومن الغالب أن أقواما تتكلم السامية كانت موجودة فعلا فى تلك المنطقة.

وبحلول القرن السادس قبل الميلاد فان النفوذ العربى الجنوبى فى الحبشة يشهد عليه نقوش وجدت. وهذه النقوش تظهر أنه بحلول القرن الخامس قبل الميلاد فإن دولة إثيوبية على درجة كبيرة من الحضارة المادية كانت موجودة. وبحلول القرن الثالث بعد الميلاد فإن مملكة حبشية فى أكسيو أصبحت قوة عظيمة فى محيطها متقدمة فى كل الجهات وخصوصا فى الشمال فى الإقليم النوبى وفى الشرق عبر البحر الأحمر .

إنه فى حوالى ذلك الوقت المسيحية جيء بها الى الحبشة وأصبحت هى دين الدولة.

ص٥٥

ومنذ ذلك الوقت أصبحت الحبشة دولة مسيحية فى أغلبها ، ولذلك السبب كانت منعزلة عن جاراتها وكذلك عن المتكلمين باللغات السامية. ومع أنه يوجد فى الوقت الحالى شعب مسلم كبير فى الحبشة فإن الديانة الرئيسية ما زالت هى المسيحية .

إن اللغة الحبشية القديمة ماتت وباقية فقط للدراسات الكلاسيكية والترتيلات الدينية.

ولكن كثيرا من اللغات الحية فى إثيوبيا وعلى وجه الخصوص لغة الدولة الأمهرية هى من أصول اللغات السامية الجنوبية التى سبق ذكرها .

إن آخر هجرة سامية وأول واحدة تسجل على نطاق واسع فى الكتابات التاريخية، وأكثرها اتساعا ، وبالمقاييس التاريخية أكثرها محلا للاعتبار كانت تلك هجرة العرب. إن العرب هم آخر الأقوام الساميين الذين ظهروا على مسرح التاريخ.

وبرغم أن اسم عرب مذكور أحيانا فى الكتابات القديمة فى التلمود وفى النقوش وفى النصوص الإغريقية كإشارة إلى أولئك الذين يقيمون فى شبه الجزيرة ، فإن أقدم نص عربى فى النقوش موجود حتى الآن هو نقش من خمسة خطوط بالكتابة النبطية وتاريخه ٣٢٨ بعد الميلاد.

وإننا لا نجد نصوصا عربية بأى مقدار حتى القرنين السادس والسابع. وعلى الرغم من أن العربية هى أصغر اللغات السامية من حيث السجل التاريخى، فانها لغويا وبنائيا أكثر اللغات محافظة على القدم، وهى بذلك أقرب اللغات إلى الاصول السامية اللغوية . وهذا ليس مستغربا لأن شمال الجزيرة العربية كان هو المستودع الذى خرجت منه الموجات المتلاحقة من الهجرة.

النبى محمد [ﷺ] ، الذى هو بالنسبة للمسلمين آخر وأكبر الانبياء كان عربيا . والكتاب الذى أتى به القرآن نزل بالعربية. والإمبراطورية التى أقامها أتباعه ممتدة من جبال البيرنيز غربا إلى حدود الهند والصين شرقا كان يحكمها العرب. وكانت العربية هى لغتها فى المقدسات وفى الصلاة وفى الثقافة وفى التعليم وفى الحكومة وفى التجارة . وفى الهلال الخصيب ومصر وشمال إفريقيا وذلك أيضا ليس فقط بالفتح وإنما بهجرة العرب من الجزيرة إلى تلك الجهات، وما نتج عن ذلك من تعريب للشعوب الموجودة ، أصبحت العربية ليست فقط هى اللغة الرسمية بل أكثر اللغات استعمالا .

ومعظم اللغات السابق ذكرها إما اختفت وإما ظلت باقية فى شكل محدود جدا .

بعض الأقطار كفارس وآسيا الوسطى ثم تركيا قد أسلمت ولكنها لم تعرب. بمعنى أنهم اعتنقوا الديانة الإسلامية ولكنهم احتفظوا بلغتهم. فى تلك الأقطار مع ذلك كان للغة العربية تأثير ووقع مهم لأنها لغة الكتاب المقدس والقانون المقدس ص٥٦ والشريعة المقدسة. تلك اللغات فى تلك الدول أصابها تحوير وفى بعض الأحيان تغيير شبه كامل تحت تأثير العربية واستمدت من العربية الأجزاء الكثيرة من مفرداتها التنظيرية والكلمات التجريدية.

فى معظم اللغات التى يتكلم بها المسلمون فى آسيا وإفريقيا، العربية مهمة كأهمية اللاتينية والإغريقية للعالم المسيحى. الفارسية والتركية فى آسيا والسواحلية

والهوسة فى شرق وغرب إفريقيا ليست لغات سامية ، وهي في تركيبها وبنائها مختلفة جدا عن العربية وباقى العائلة السامية. ومع ذلك فإنها تستمد مفردات كثيرة جدا من العربية. التى هى كلمات سامية. وبأى مقياس فإن اللغة العربية يجب أن تعتبر واحدة من أهم الأوعية التاريخية للحضارة تقارن بسهولة باللاتينية والإغريقية فى الغرب وبالصينية فى الشرق.

فى الوقت الحاضر اللغة العربية هى أكثر اللغات استعمالا قولا وكتابة فى اللغات السامية. بحلول القرن التاسع عشر كانت باستثناء الحبشة هي اللغة السامية الوحيدة التى ما زال يتكلمها أعداد من الناس.

وباحياء العبرية بين المستعمرين اليهود فى فلسطين فى مائة السنة الأخيرة قامت لغة سامية ثانية. إن اللغة العبرية لم تمت أبدا تماما أو موتا كاملا. فإن اليهود فى كل مكان كانوا يحافظون عليها كلغة الكتب المقدسة ولغة الصلاة وكذلك بجانب اللغة الآرامية كلغة القانون. وكانت إلى حد بعيد تستخدم كلغة أدبية .

وفى خلال القرون الوسطى والأوقات الحديثة فإن كثيرين من اليهود كتبوا شعرا وأبحاثا وتاريخا وروايات أخرى باللغة العبرية. وقد استخدمت بشكل واسع فى المراسلات الخاصة والتجارية، وكانت أيضا تُستخدم كوسيلة حديثة بين اليهود المتعلمين من بلاد مختلفة. ومع ذلك فهى لم تكن لغة حية متكلما بها . وهى لم تكن أبدا اللغة الأولى لأى إنسان ، وكان أكثر الذين يتقنونها هم النساء .

إن لغة الطفولة فى البيت وفى العائلة لم تكن العبرية. كانت عادة هى لغة البلد التى يعيشون فيها أو لغة جيء بها من بلد عاشوا فيها سابقا. وقد كانت تلك اللغات المحلية أو التى جيء بها من وطن سابق يتكلم بها بلهجة يهودية خاصة. وتلك اللهجات اليهودية الخاصة كانت تستعير كثيرا من مفردات اللغة العبرية وتكتب بالأحرف العبرية.

تلك اللهجات كان يمكن أن تستعمل كثيرا من المفردات العبرية وتكتب بأحرف الهجاء العبرية ومع ذلك لم تكن عبرية، وباستثناء لهجات اليهود فى الدول التى تتكلم باللغة العربية وفى الحبشة لم تكن حتى تلك اللهجات سامية.

إن أول أولاد من مدة ألفين من السنين يشبون وهم يتكلمون العبرية منذ الصغر ولدوا وتعلموا فى فلسطين فى العهد العثمانى الأخير وذلك فى المستوطنات الصهيونية فى فلسطين. هذه الظاهرة غير العادية والممكن أن تكون وحيدة نتجت من قرار اتخذه الآباء ، وسهل من ذلك الحاجة القائمة إلى لغة مشتركة توحد هؤلاء المستوطنين الأوائل. ص٥٧

إنهم أتوا من بلاد مختلفة يتكلمون لغات عديدة. فقط العبرية كانت هى اللغة الوحيدة التى يقبلها الجميع . إن عودة ميلاد العبرية وخروج العبرية الحديثة كلغة حية ذات تعبيرات أدبية ترجع إلى القرن الثامن عشر وإلى تأثير النهضة الأوروبية على اليهود الألمان والشرق أوروبيين .

إن نموها إلى لغة متكلم بها كان لا يمكن فصله عن نمو المستوطنات اليهودية فى فلسطين ، ومن سنة ١٩٤٨ أصبحت اللغة الأولى لدولة إسرائيل والثانية هى اللغة العربية.

وأصبحت هى اللغة الثانية للمهاجرين واللغة الأم للمولودين فى إسرائيل . وهى كذلك اللغة الثانية للعرب وغير اليهود من الرعايا الإسرائيلين الذين هم محتاجون إلى معرفة لغة الرسميين واللغة المتسيدة فى الدولة.

إن هذا التسلسل الغريب للأحداث عن بقاء واستمرار حياة اللغة العبرية والوحيد بين اللغات القديمة وعودتها إلى الحياة فى القرن العشرين كلغة حية ومتنامية يمكن فقط فهمه على خلفية التاريخ اليهودى الحديث .

الفصل الثالث

يهـــــــود

في القرن التاسع عشر ، حينما كانت حركة إحياء العبرية متقدمة ، وعندما ولدت الحركة الصهيونية السياسية، كان هناك حوالى سبعة وثلاثة أرباع المليون من الناس فى العالم يعرفون باسم اليهود. وقد كانوا منتشرين على مساحة واسعة فى قارات كثيرة وفى أحوال اجتماعية مختلفة أو متغايرة. ص٥٨

فقد كان يمكن أن يميز من بينهم جماعات محددة ومختلفة. اثنتان من هذه الجماعات كانتا ، وطبقا للتعاريف السائدة فى الأقطار والمجتمعات التى كانتا تعيشان فيها، كانتا تُعَدّان شعوبا أو أمما. أما الباقون فكانوا جماعات دينية أقلية على اختلاف فى درجات قبولهم ممن حولهم او قبول دخولهم فى صلب تلك الجماعات والأمم التى يعيشون فيها، والتى كانوا يكونون جزءا منها، وإن كان ذلك لم يكن دائما شيئا متفقا عليه .

من هاتين الجماعتين الكبيرتين اللتين سبقت الإشارة إليهما، كانت كبراهما وأكثرهما نشاطا الجالية اليهودية التى تتكلم باللغة اليديشية فى شرقي أوروبا . وقد كانت الغالبية العظمى من هؤلاء اليهود يعيشون فى أراض كانت تكون جزءا من القطر البولندى اللتوانى.

إن اليهود كانوا يهاجرون إلى تلك الأراضى منذ القرون الوسطى. بعضهم من جنوب شرقي أوروبا ومنطقة البحر الأسود – ولكن الأغلبية العظمى جاءوا من الغرب وعلى الخصوص من منطقة الراينلاند. إن المذابح الفظيعة والظلم الذى لاقاه اليهود

واضطهادهم فى غرب أوروبا فى وقت الحروب الصليبية من ناحية، وجو القبول والتحمل بل وأحيانا السياسات الحميدة للحكام البولنديين تجاههم قادت إلى حركات هجرة كبيرة لليهود عبر أوروبا من فرنسا وألمانيا إلى بولندا ولتوانيا.

وقد أحضروا معهم لهجتهم الخاصة المميزة بهم وهى لهجة ألمانية من القرون الوسطى تحولت فى شرق أوروبا إلى لغة معبرة بل ولبقة وحيث إنهم انقطعت بهم الصلة بالبلاد التى تتكلم الألمانية وأصبحوا محاطين بمن يتكلمون اللغات السلافية، فإنها استعارت كثيرا من الالفاظ والتعبيرات السلافية. وهذه اللغة التى كان يتكلمها اليهود وحدهم صار إثراؤها بكثير من الكلمات والتعبيرات وحتى طرق التفكير المستمدة من التوراة والتلمود والأدبيات اليهودية الأخرى. وقد كانت هذه اللغة تكتب ص٥٩
بالعبرية فقط وقد أصبحت غنية ومتنوعة لأدب غنى.

الدارسون أحيانا كانوا يسمونها جيرمانى يهودى أو يهودى جيرمانى. ولكن هؤلاء الذين يتكلمونها وجيرانهم كان يسمونها يديش YIDISH وهى كلمة تعنى فى لغة يديدش (يهودية) أى أنها لغة يهودية. و فى المجتمعات اليهودية فى شرق أوروبا فإن لغتهم العبرية واليديش تم الجمع بينهما فى تمازج واضح، فاللغة العبرية كثيرا ما كان يشار إليها بتعبير LASHON QODESH معناه لغة القداسة، كما كانت العبرية تلك هى لغة النصوص الدينية والعبادة وكذلك كل الأدب الجاد.

ولكنها لم تكن فقط تقرأ وتحفظ بل كانت تستعمل وتكتب على نطاق واسع فى المراسلات وفى الأعمال الأدبية. أما اللغة يديش فى الوجه الآخر فكانت لغة التحادث وعلى ذلك فهى كانت لغة العائلة والمسائل الشخصية وشئون الجاليات.

وفى البداية كانت تحتل مكانا أدنى، فقد كانت الصورة المتعارف عليها أن العبرية فى مقام الأميرة واليديش فى مقام الخادمة – ولكن مثلها مثل اللهجات فى أوروبا الغربية فإنها ارتفعت مكانتها وأهميتها من خلال نوعية الأعمال الأدبية التى استخدمت فيها.

كما أن اليديش أعطيت عمقا ثقافيا وتاريخيا، وذلك أنها امتصت فى التراث العبرى الأدبى، وكذلك العبرية أعطيت حيوية ومرونة وذلك لتأثرها باللغة اليديشية المستخدمة فى الكلام وفى الحياة اليومية.

وقد أتت سنة ١٦٤٨ بسلسلة من المصائب حلت باليهود فى بولندا ، أفظع بكثير مما لاقاه آباؤهم فى القرون الوسطى فى أوروبا الغربية. ففى بولندا أصبح اليهود عند ذلك الوقت أكثر تعدادا عما كانوا عليه فى أى وقت فى الغرب، وبذلك فقد أصبحوا أكثر ظهورا وبالتالى تعرضا للنظر.

ففى الغرب كان هناك دائما أمير إقطاعى أو رجل كبير من رجال الكنيسة أو آخرون من ذوى المقام الذين حاولوا لأسباب كثيرة أن يحموا اليهود رعاياهم والذين تمكنوا فى أحوال كثيرة من منع أو على الأقل من ايقاف تلك المذابح. أما فى بولندا حيث كانت الحكومة المركزية ضعيفة، وحيث كان الشعب البولندى الكاثوليكى يعانى أيضا شأنه شأن اليهود فإنه لم يكن هناك أحد ليمد يد المساعدة.

إن الهجوم أتى من القوقاز الأوكرانيين الذين كانوا قد قاموا بسلسلة من الثورات غير الناجحة ضد حكامهم من البولنديين . ففى أوكرانيا كان السادة والنبلاء ص٦٠
الكاثوليك يملكون الأراضى التى يشتغل عليها ويزرعها الفلاحون الأوكرانيون. وفى الوقت نفسه كانت الحكومة المركزية البولندية تحاول توسيع وزيادة نفوذ السلطة المركزية والقضاء على استقلال القوقاز الأوكرانيين .

إن الإحساس الدينى المتعالى أو المتزايد والتوتر فى غرب أوروبا (حيث إن ذلك كان هو وقت حرب الثلاثين عاما فى ألمانيا) أثرا في أوروبا الشرقية حيث كان النزاع ليس بين الكاثوليك والبروتستانت كما هو فى الغرب بل بين الكاثوليك والأرثوذكس .

إن السيطرة السياسية والاستغلال الاقتصادي لأوكرانيا بواسطة البولنديين كانا أكثر قسوة بسبب تلك الفروق الدينية. وكما هو الحال كثيرا فى تاريخهم فإن اليهود وقعوا بين هاتين القوتين العظميين. فهم كموظفين ومعاونين وجباة ضرائب للسادة البولنديين، وكذلك حيث كان كثيرون منهم حاصلين على ترخيصات بإدارة مطاحن وفنادق ريفية صغيرة ، كانوا ـ هم وليس السادة البولنديين ـ فى احتكاك يومى مع الفلاحين، وكانوا هم الذين من خلالهم كان هؤلاء الفلاحون يشعرون مباشرة بالعنت وثقل الحكم البولندى .

وفى سنة ١٦٤٨ ألغى مجلس الدايت أو مجلس الشيوخ البولندى الوضع الخاص للقوزاق وكذلك حقهم فى اختيار رؤسائهم ، وعلى العكس فإنه أخضعهم للسلطة المطلقة للحكام البولنديين .

وفى سنة ١٦٤٨ انتخب القوزاق رئيسا جديدا بالاجماع وبدءوا فورا فى ثورتهم ضد الدولة البولندية. كان ذلك الرئيس المنتخب اسمه بودان كيملينتسكى. إنه بالنسبة للأوكرانيين بطل أوكرانى وكانت حملاته حرب تحرير. ويوجد نيشان حربى سوفيتى مسمى باسمه، وكذلك يوجد شارع مهم فى موسكو. وذلك الشارع يمر الإنسان فيه إذا ما حاول الذهاب إلى الكنيس الوحيد الباقى فى تلك المدينة.

أما بالنسبة لليهود فإنه كان الرجل الذى ارتكب أبشع المذابح التى ارتكبت ضدهم من تاريخ سقوط القدس فى أيدى الرومان إلى حين نهوض هتلر فى ألمانيا. فلمدة عشر سنوات القوزاق وحلفاءهم من المسلمين التتار من القرم قاموا بالنهب والسلب والقتل على نطاق واسع جدا ضد اليهود .

بعض اليهود يمكن أن يقال إنهم أحسن حظا لأنهم وقعوا فى أيدى التتار الذين طبقا لعاداتهم كانوا يقنعون بأن يأخذوهم أحياء ويبيعونهم فى أسواق العبيد .

أما القوزاق فلم يكن هناك عندهم إلا القتل. وقد أرسل بعض هؤلاء إلى أسواق الرقيق فى إسطنبول ، حيث اشتراهم وحررهم زملاؤهم فى الدين. ولكن الأغلبية العظمى لم تكن على ذلك الحظ الحسن حيث ذبح عشرات الآلاف منهم. فقط أولئك الذين كانوا على استعداد لأن يقبلوا التعميد والدخول فى الكنيسة الأرثوذكسية أعفى عنهم، ولكن هؤلاء كانوا قليلين جدا.

وفى الاضطراب العام الذى حل فإن بولندا تم غزوها من الشرق ومن الغرب .فمن الشرق تبع الروس الأوكرانيين وغزوا جزءا كبيرا من بلاروسيا ولتوانيا حيث ذبح اليهود المقيمون فى تلك الأماكن وأبعد من لم يذبح منهم. أما من الغرب فإن الغزاة كانوا من السويد ، وفى تلك الحالة فإن الغزاة هم الذين عاملوا اليهود معاملة إنسانية، والبولنديين الذين اتهموا اليهود بالتعاون مع البروتستانت المكروهين السويديين فإنهم تقاضوا ثمنا باهظا من الدم حين رحل هؤلاء الغزاة من البروتستانت السويديين .

إن الخسارة فى الأرواح فى اليهود فى بولندا بين سنة ١٦٤٨ وفى سنة ١٦٥٨ قدرت بما يزيد على مائة ألف . كذلك تم تدمير مدن وقرى عديدة مما لا يمكن حصره.

إن التاريخ اليهودى فى أوروبا الشرقية يسيطر عليه هذه الذكريات الأليمة.

وقد كانت إحدى نتائج ثورة كيملينتسكى السابق الإشارة إليه هي حدوث خطوة ص٦١ متقدمة فى ازدهار قوة روسيا التى سرعان ما سيطرت على دول شرق أوروبا . إن حكام روسيا كسابقيهم البيزنطيين وأعوانهم القوزاق لم يكونوا على وجه عام فى تعاطف مع اليهود.

مثال ذلك أنه فى ٤ من ديسمبر سنة ١٧٦٢ أصدرت الإمبراطورة كاثرين الثانية المعروفة بكاثرين العظيمة أصدرت مرسوما بدعوة الأجانب لكى يأتوا إلى روسيا مانحة إياهم حرية التنقل والإقامة فى محيطها الإمبراطورى .

إن الإمبراطورة كانت واحدة من أكثر طغاة القرن الثامن عشر تنورا ، فقد كانت صديقة ومعجبة بفولتير وديدرو، ودعوتها التى وجهتها إلى الأجانب من الغرب لكى يأتوا ويشتركوا فى تحديث روسيا. تلك الدعوة تظهر مدى تنورها وتفتحها . لكن تلك الدعوة المفتوحة الكريمة كانت محددة بكلمتين هما: باستثناء اليهود.

ومن الدلائل المستفادة من مذكراتها فإن الإمبراطورة كاثرين لم يكن لديها شيء ضد اليهود، بل على العكس كانت تعتبرهم جزءا نافعا منتجا يمكن أن يساهم فى التقدم الاقتصادى فى إمبراطوريتها . ولكن حتى هى الطاغية المستبدة لم تستطع أن تقف فى وجه التعصب العميق الذى يكنه رعاياها لليهود، وأحست بأنه عليها أن تنقاد لنصيحة مستشاريها حينما رددوا على مسامعها قول الامبراطورة إليزابث التى سبقتها والتى قالت : « إننى لا أريد أن أستقبل أو أستفيد أي فائدة من وجود أعداء المسيح » .

ولكن فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر عندما حدث تقسيم بولندا وقيام روسيا بضم أجزاء كبيرة من بولندا فإن القياصرة دخل تحت حكمهم بهذا الغزو والضم الرعايا اليهود الذين رفضوا استقبالهم من قبل فى روسيا . أى أنهم بالغزو والضم أصبح لديهم رغما عنهم رعايا من اليهود الذين رفض قبلا أن يسمح لهم بالدخول .

وإنه مع المناطق التى استولوا عليها فإن القياصرة وجدوا أنفسهم حكاما لملايين

عديدة من الرعايا الجدد ، ومن بين هؤلاء الملايين هؤلاء الذين لم يكن مرحبا بهم من القياصرة كما لم يكن القياصرة مرحبا بهم بينهم.

إن الحلول الأولى وهى المذابح والإبعاد لم تصبح بعد ممكنة. أحد الأسباب أن الأعداد كانت كبيرة وأن الخسارة الاقتصادية كانت ستصبح شيئا خطيرا. وسبب آخر أن العصر الآن كان عصر التنوير الذى كان فيه مثل ذلك السلوك من القتل والإبعاد شيئا غير مقبول بالنسبة لهؤلاء الذين يحاول القياصرة الحصول على احترامهم .

وبعد مدة من عدم اليقين والاختلاف بين الروس أنفسهم حول الحالة أو الوضعية التى تعطى لهؤلاء الرعايا اليهود الجدد ، فإنهم أوجدوا الحل فى القانون الإمبراطورى الصادر فى سنة ١٩٠٤ والذى أصبح يعرف بقانون المستوطنات المسورة.

هذا القانون أعطى اليهود الحق فى الإقامة وبعض الحقوق السياسية الأخرى فى مساحة محددة بـ ١٣ مقاطعة. هذا الوطن اليهودى أصبح يتكون من مناطق فى بولندا ص٦٢
الروسية ولتوانيا وبيلاروسيا وأوكرانيا وكذلك مع المقاطعات الثلاث فى البحر الأسود التى استولى عليها القياصرة الروس من الأتراك فى نهاية القرن الثامن عشر وسميت روسيا الجديدة .

إنه لم يكن مسموحا لهم أى اليهود بأن يعيشوا فى روسيا نفسها ، وحتى فى الأماكن التى عينوها لهم كان ممنوعا عليهم تأجير الأرض أو ملكية فنادق فى القرى.

إن المجتمعات اليهودية أو الجاليات اليهودية التى كانت فى تلك المناطق كانت على العموم تتبع نمط الأقليات فى أوروبا الشرقية ، أى ثقافة مشتركة ، طريقة مشتركة فى الحياة ، ديانة مشتركة ، من أصل عنصرى مشترك ولغة مشتركة وهى اليديش الخاصة بهم. وقد كان لهم أدبهم الخاص ومدارسهم الخاصة وحتى فى مراكز للتعليم العالى يديرها حاخاماتهم . ولم يكن للجاليات اليهودية أى من ذلك الاستقلال الذى كانوا يتمتعون به فى ظل الدولة البولندية السابقة.

ولكنهم كان لهم بعض المسئوليات وأهمها جمع ضرائب من بينهم الخاصة بالدولة.

إن هذه المستوطنات المحددة المسورة أعطت اليهود فى معنى من المعانى أو بطريقة من الطرق وطنا أو حدودا خاصة بهم. إنهم لم يكونوا يمثلون الأغلبية فى تلك المناطق باستثناء البعض القليل منها، وإن ذلك ليس تناقضا كما يبدو للوهلة الأولى ، فى أنحاء يختلف أهلها اختلافا عظيما .

إنه وإن لم يكن لهم وجود سياسى أو جنسية قانونية ولكن ذلك كان أيضا صحيحا بالنسبة للغالبية العظمى من جيرانهم، كالبولنديين والأوكرانيين والبلطيقيين وكثيرين من رعايا الإمبراطورية الروسية فإن اليهود كونوا قومية جنسية وثقافية ولكنها ليست جنسية قانونية. وبالإضافة إلى اليهود الموجودين فى هذه المستوطنات المحددة المسورة الروسية ، كان هناك جماعات من اليهود المتكلمين باليديش خارج حدود روسيا الغربية، فيما كان يعرف سابقا بالأماكن البولندية تلك التى ضمتها روسيا والإمبراطورية النمساوية الهنجارية، وكذلك فى رومانيا.

بحلول سنة ١٨٨٠ ، فإن اليهود فى تلك المساحة السابق ذكرها كان عددهم يقدر ما بين خمسة وستة ملايين أى ما يمثل ثلاثة اربا ع اليهود فى العالم فى ذلك الوقت.

وإلى الجنوب من الإمبراطورية الروسية الواسعة كان هناك جالية ثانية من اليهود ولكنها جالية متخلفة ، وذلك فى أراضى الإسلام فى الشرق الأوسط وفى شمال إفريقيا وعلى الخصوص فىالأراضى الإمبراطورية العثمانية . فتحت حكم السلطان، كما تحت حكم القياصرة، فإن اليهود اتبعوا النظام السائد ولكنه فى هذه الحالة كان نظاما مختلفا .

فى الأراضى العثمانية رعايا الدولة غير المسلمين كانوا ينظمون أو يقسمون إلى جاليات دينية سياسية تدعى الملة . ومن هؤلاء فإن اليهود كان ترتيبهم الثالث فىالعدد والأهمية بعد الملتين الإغريقية والأرمنية. إن الاتراك والعرب لم يكونوا ص٦٢
يصنفون على أنهم ملل ، بل كانوا كالأتراك وغيرهم من الرعايا المسلمين أعضاء فى الملة العليا وهى ملة الإسلام .

فى البلاد الإسلامية الدين هو العامل الأول فى تحديد الهوية، وهو أهم جدا من الأصل العرقى أو اللغة .

ففى بداية القرن التاسع عشر على سبيل المثال كان تعبير إغريقى فى الاستعمال

العثمانى يعنى العضوية فى الكنيسة الإغريقية الآرثوذكسية. وليس تعبيرا عن أى جماعة عرقية أو لغوية. وعلى ذلك كانت تشمل مسيحيين أرثوذكس من الذين يتكلمون الرومانية والألبانية والبلغارية والصربية والعربية كما يتكلمون اللغة اليونانية.

أما الملة اليهودية فقد كانت أيضا متعددة اللغات وتشمل أولئك الذين يتكلمون العربية والإسبانية واليونانية والكردية والآرامية ولغات أخرى.

إن الإمبراطورية العثمانية كبولندا فى عهودها الأولى أدت دور المضيف لأعداد كبيرة من اليهود هاربين ولاجئين من الاضطهاد فى الغرب . فقد أتى كثير من اليهود إلى الأراضى العثمانية فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر على الأغلب من دول جنوب أوروبا وعلى الأخص من إسبانيا .

وكإخوانهم فى الديانة من الأقطار الشمالية فإنهم أتوا معهم بلغة البلد الأصلى الذى كانوا فيه ولهجة من لهجات الإسبانية التى ما زالت تستخدم بين يهود تركيا وغيرهم من اليهود من رعايا تركيا أو من اليهود فى الولايات العثمانية السابقة حتى يومنا هذا .

إن أصول اليهودية الإسبانية تماثل بطرق عديدة تلك الألمانية اليهودية فى أوروبا الشرقية. فمع أساس من الإسبانية القديمة كقاعدة فإنها امتصت مفردات كثيرة جدا من اللغات المحلية وهى فى هذه الحالة التركية والإغريقية أو اليونانية وكذلك مع مكونات عبرية وتلمودية.

وكاللغة اليديش التى سبقت الإشارة إليها فإنها كانت تكتب بأحرف الهجاء العبرية وتستخدم بجانب العبرية كوسيط يعبر به عن الادب اليهودى. إن ظهور لغة اللادينو هذه كما كانت تسمى تلك اللغة أحيانا لا يمكن مقارنته بنمو اللغة اليديشية ، لأنهم أولا الأعضاء المتكلمون بها كانوا أقل كثيرا فى العدد. وعلى خلاف المتكلمين باليديشية فى بولندا والدول المجاورة فإنهم لم يحققوا الاستخدام العام بهذه اللغة بين مواطنيهم من اليهود. فإن اللغة اليهودية الإسبانية اللادينو كانت مستخدمة فى تركيا وفى بعض بلاد البلقان الواقعة تحت الحكم التركى.

ولكن اليهود الإغريقيين استمروا يتكلمون بالاغريقية، واليهود فى الأقطار العربية كانوا يتكلمون العربية، وأقليات منعزلة استمرت تتكلم الكردية والآرامية ولغات

أخرى. وفى معظم الحالات فإن الصلات بين اليهود الذين يتكلمون اللادينو وبين جيرانهم من غير اليهود كانت أحسن بكثير مما هى فى شرق أوروبا .

فاليهود فى الإمبراطورية العثمانية لم يواجهوا إطلاقا بأى من المذابح التى ارتكبها ذلك المدعو كيملينتسكى الروسى الأوكرانى القوزاقى السابق ذكره . ولكنهم ص٦٤
مع ذلك تأثروا تأثرا عميقا بواحدة من النتائج غير المباشرة لتلك المذابح.

ففى سنة ١٦٤٨ السنة التى بدأت فيها مذابح كيملينتسكى فإن يهوديا شابا فى أزمير، طالبا من طلاب المدرسة اليهودية هو شباتاى سيفى أعلن أنه هو المسيح المنتظر. وبالنسبة لبعض الكتابات شبه المقدسة اليهودية فإن تلك كانت هى السنة التى سيبعث فيها المسيح وكذلك ستكون سنة الخلاص.

إن قدوم اللاجئين البؤساء من بولندا الذين أحضروا معهم حكايات فظيعة عن القتل والاغتصاب والذبح وانتهاك المقدسات، كانت وكأنها تمثل علامات الوقت وعلامات الاضطراب التى ستسبق مجيء المسيح وقيام مملكة الله على الأرض.

لقد قام كثير من أمثلة هذا المسيح المنتظر المزيفين فى القرون التى مضت على اليهود فى المنفى، ولكن أحدا لم يلق قبولا ولا ذاع صيته مثل شباتاى سيفى .

ففى كل أنحاء الإمبراطورية العثمانية قوبل بترحيب عظيم مجنون من الجاليات اليهودية. وحتى فى الأقطار البعيدة عنهم كهامبورج وأمستردام ولندن ، فإن رجال أعمال يهودا محترمين باعوا بيوتهم وممتلكاتهم وأعدوا أنفسهم للرحلة إلى بيت المقدس الذى سيحرر بواسطة المسيح المنتظر.

إن تلك الحقبة الغريبة فى التاريخ اليهودى جاءت إلى نهاية ساخرة حينما اعتقل الأتراك مسيح أزمير هذا وسجنوه، فسارع بإنقاذ نفسه بالتحول إلى الإسلام وقضى باقى أيامه كمتلقى إعانة من السلطان . وقد رأى بعض أتباعه أن حتى ذلك التحول ليس إلا جزءا من مهمته ، وعلى ذلك فقد تبعوه فى اعتناق الديانة الإسلامية، وأسسوا جماعة إسلامية نصف يهودية تسمى الدونم . أما الباقون الذين لم يتبعوه فتركوا لكى يواجهوا حقائق الخيبة والتحقير.

إن مسألة شباتاى سيفى هذه كان لها تأثير عظيم . فقد تركت أثرين : اولهما الإحباط المشرف على اليأس بين اليهود، وثانيهما تعزيز سلطان الحاخامات فى

الإمبراطورية العثمانية، ذلك السلطان الذى سمح به وشجعته الدولة مما أعطى تلك السلطات اليهودية أو تلك القيادة اليهودية سلطات واسعة ضاغطة أو ملزمة لأهاليها.

إن معظم اليهود فى العالم الإسلامى عاشوا تحت سلطان العثمانيين . ولكن كانت هناك مع ذلك بعض الجاليات أبعد من الحدود العثمانية وعلى الأخص فى إيران وآسيا الوسطى فى الشرق وفى مراكش فى الغرب. ولا يوجد أى إحصاءات دقيقة لأى من هذه الاقطار ولكن عدد اليهود تحت الحكم الإسلامى فى الشرق الأوسط وشمال إفريقيا قرابة نهاية القرن التاسع عشر فإنه كان يقدر تقريبا بمليون.

وفى وقت ما فى العصور الوسطى فإن أسمى مكانين فى التوراة العبرية اللذين ص٦٥
لم يكن لهما معنى محدد اتفق على صرفهما إلى ألمانيا وإسبانيا .

فألمانيا كانت تسمى إشكيناز وإسبانيا كانت تسمى سيفارد. وبالطبع فإنه بمرور الوقت أصبح تعبير إشكينازى وسيفاردى يطلق على اليهود .

لا يوجد فرق بين الاثنين فى الفقه الدينى ويكاد يكون لا يوجد أى اختلاف في القوانين الدينية حيث إن تلك القوانين تختلف اختلافا طفيفا فى نقاط متعلقة بالكنيس ومراسيم الصلاة والتراتيل .

إنه بعد هدم أو القضاء فى نهاية القرن الخامس عشر على ما كان يكون جالية يهودية غنية وعظيمة ومزدهرة فى إسبانيا والبرتغال هرب معظم الناجين من هذين القطرين إلى غيرهما من بلاد البحر المتوسط وعلى الأخص إلى الأراضى الإسلامية فى شمال إفريقيا والشرق الأوسط ، وهناك التحقوا باليهود المحليين الموجودين فى تلك الأقطار، وأخذ اسم سيفاردى يستعمل على غير وجه دقيق ولكن يكاد يكون استعمالا عاما، يدل على تلك الجماعات اليهودية فى الأراضى الإسلامية، مع أن عددا قليلا منهم نشأ فى إسبانيا.

كذلك فإن عددا صغيرا من اليهود الإسبانيين والبرتغاليين حط رحاله فى فرنسا وهولندا وألمانيا الشمالية وإنجلترا والعالم الجديد أى أمريكا. ولكن الأغلبية العظمى من هؤلاء اليهود فى تلك الأقطار كانوا من أصل إشكينازى .

وفيما بعد فإن هاتين هؤلاء الطائفتين الكبيرتين الإشكينازيين اليهود فى الإمبراطورية الروسية واليهود السيفارديين فى الإمبراطورية العثمانية كانتا تكونان فيما بينهما أغلبية الشعب اليهودى ككل.

وبالرغم من أنهما كانتا تمثلان الأغلبية إلا أنهما كانتا أيضا أقل اليهود حظا .

فاليهود الروس وقعوا تحت الاضطهاد الروسى أو كانوا مضطهدين من الروس، واليهود العثمانيون وجدوا أنفسهم فى ظروف غير مواتية.

إن اليهود المتكلمين باليديش فى أوروبا الشرقية كانوا غير سعداء بحالتهم، وكانوا يحاولون تحسينها ولكنهم لم ينجحوا فى ذلك.

أما ملة اليهود فى البلاد العثمانية على العكس فإنها كانت قانعة بحالتها ولكنها وجدت هذه الحالة آخذة فى التآكل وفى التهاوى. اما الباقون فكانوا يمثلون الجزء البسيط الذى يتكون من الأقليات الصغيرة التى تحاول أن تندمج فى المجتمعات الكبيرة التى يعيشون فيها.

وكلما اتجهنا إلى الغرب فإن الجاليات اليهودية يقل عددها ولكن تزداد درجة اندماجها وامتصاصها فى الشعوب التى تعيش فيها. وأكبر هذه الجاليات كان فى الإمبراطوريتين الألمانية والنمساوية فى وسط أوروبا .كلتاهما كانتا تحتويان على جاليات مختلطة تتكون فى غالبيتها من هؤلاء اليهود الغربيين ، المندمجين والذين يوجدون فى المقاطعات الغربية واليهود غير المندمجين أو نصف المندمجين وهم اليهود البولنديون السابقون فى المقاطعات البولندية التى ضمت إلى الشرق. وكان هناك جماعات صغيرة أخرى فى الغرب، فى أوربا الغربية فرنسا وهولندا وإيطاليا وإنجلترا، وكذلك جماعات ناشئة جديدة و نامية فى الولايات المتحدة و فى ص٦٦ المستوطنات الأوروبية عبر البحار.

كان أفراد تلك الجماعات اليهودية أو الأقليات اليهودية يكادون لا يمكن التفرقة بينهم وبين باقى مواطنيهم فى اللغة والثقافة وطريقة الحياة. وهذه الفروق كانت تتناقص كلما زادت درجة التحرر والتخلص من النفوذ الدينى .

وقد ظن المتفائلون فى هذه الحقب الأولى من القرن العشرين أنه لن يكون هناك عائق فى سبيل كمال هذا الاندماج وإكمال هذا التحرر ولكن خاب فألهم، فقد لاقوا نتائج أخرى.

فى دول غرب أوروبا والأمريكتين كانت أعداد الشعب اليهودى هى أعدادا

تقديرية ، لأن الإحصاء الذى يجرى فى تلك البلاد تقليدي لا يسأل عن الدين. ولكن هذه التقديرات مع ذلك مؤسسة على أسس علمية .

نجد فى الإمبراطورية الروسية الواسعة أن أعداد اليهود الرسمية متوافرة من سنة ١٨٩٧ حينما تم أول إحصاء لرعايا الدولة. وهناك تقدير مقبول للفترة التى سبقت ذلك .

وبالطبع توجد أرقام يعتمد عليها فى ألمانيا والنمسا . وفى كل تلك الدول تقدم علم الإحصاء فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بأستثناء تلك البلاد خصوصا فى الشرق الأوسط وشمال إفريقيا التى لم تكن قد دخلتها وسائل الإدارة الحديثة.

إن دراسة لأحوال اليهود الجغرافية فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تظهر عددا من الحقائق والاتجاهات الجديرة بالاهتمام. إن أهمها وأكثرها جذبا للنظر هو الزيادة السريعة فى عدد السكان.

فإنه وطبقا للإحصاءات المقبولة فإن أعداد اليهودى فى سنة ١٨٠٠ كانت حوالى ٢,٥ مليون وما أن جاءت سنة ١٨٤٠ حتى ارتفع العدد إلى ٤,٥ مليون وفى سنة ١٨٨٨ إلى سبعة وثلاثة أرباع المليون ، وفى سنة ١٩٠٠ إلى عشرة ملايين ونصف المليون ، وفى سنة ١٩٣٩ الى ١٧ مليونا .

إنه فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان هناك تحول في الأراضي من الإسلام الى المسيحية ، بمعنى تحول من الأراضى الإسلامية الى الأراضى المسيحية. كانت النقاط الكبرى للتجمعات اليهودية والنشاط اليهودى كانت فى أراضى المسلمين فى الشرق الأدنى وفى شمال إفريقيا وفى إسبانيا .

ولكن النسبة تغيرت بعد نهاية القرون الوسطى وعند بداية القرن الثامن عشر، فقد قدر أن اليهود الأوروبيين تعادلوا فى العدد مع زملائهم فى بلاد الإسلام .

فى سنة ١٨٠٠ كان عددهم يصل إلى النصف وعند نهاية القرن التاسع عشر فإنهم أصبحوا يمثلون الغالبية العظمى للمجموع الكلى ،أما بعد المذابح التى أقامها النازيون لليهود فى أوروبا الغربية فإن أهمية اليهود الشرقيين بالنسبة لليهود فى الغرب ارتفعت أو زاد عددهم. ص٦٧

إن تلك التغيرات التى سبقت الإشارة إليها من تغلب أعداد اليهود فى الغرب على اليهود فى الشرق كان مرجعها من ناحية إلى الانحدار الذى أصاب العالم الإسلامى والنهضة فى العالم الغربى، وهى ظاهرة أفادت منها الجاليات اليهودية التى تعيش فى تلك الأوساط الغربية .

وكذلك فإن اليهود تأثروا بزيادة نسبة المواليد فى أوروبا الغربية فى القرن التاسع عشر، بل فى الحقيقة كانت نسبة الميلاد فيهم أكبر من جيرانهم المسيحيين. ومن حوالى سنة ١٨٠٠ أصبح اليهود فى الغرب تماما كأنهم أوروبيون.

وقد تزامن مع هذه الحركة من العالم الإسلامى إلى عالم المسيحية تحول فى ذلك العالم فى الاتجاه المضاد بمعنى تحول اليهود من أوروبا الغربية إلى أوروبا الشرقية.

ففى سنة ١٨٠٠ كان المعتقد أن يهود أوروبا الشرقية يكونون أقل من نصف اليهود عموما. ولكن بحلول سنة ١٨٢٥ ارتفعت تلك النسبة إلى الثلثين وبحلول سنة ١٨٨٠ ارتفعت إلى ثلاثة الأربا ع .

ولكن بعد ذلك فإن نسبة اليهود الأوروبيين الشرقيين بالنسبة ليهود العالم اخذت تتضاءل منحدرة إلى حوالى النصف فى سنة ١٩٢٥ .

إن ذلك التغير الأخير كان مرجعه إلى هجرة يهود أوروبا الشرقية التى بدأت فى حوالى سنة ١٨٨٠، والتى حملتهم فى أعداد كبيرة أولا إلى دول أوروبا الوسطى المجاورة ثم أبعد من ذلك فى الغرب وخصوصا إلى العالم المتكلم باللغة الإنجليزية : إنجلترا والإمبرطورية البريطانية والولايات المتحدة الأمريكية وأيضا أمريكا اللاتينية.

إن وضع اليهود كان يختلف اختلافا جما فى حالاتهم الاجتماعية والثقافية والمادية وفى درجة التسامح والقبول التى يتمتعون بها أو عدم التسامح التى يقاسون منها وكذلك فى درجة اندماجهم فى حياة الدول التى يعيشون فيها .

ففى أوروبا الوسطى وأوروبا الغربية وفى دول ما وراء البحار كان اليهود يتمتعون بدرجة عالية من القبول فى القرن التاسع عشر. فقد كان لهم معظم إن لم يكن كل الحقوق المدنية والسياسية.

وأما ما بقى من حدود على حرياتهم فإنها كانت مضايقات أكثر منها أحمالا

ثقيلة. إنهم كانوا مازال عليهم أن يواجهوا بعض العداء من جيرانهم، ولكن ذلك لم يكن جديا بالمقارنة بما سبقها من أوقات او ما تلاها من حقب فى قارة أوروبا .

أن اليهود فى تلك البلاد لم يكن لديهم لغة خاصة للتخاطب غير لغة الدول التى يعيشون فيها. وإن العبرية التى كانوا يعتزون بها ظلت حية فقط كلغة الكتب الدينية ونصوص التراتيل . إنها كانت معروفة فقط للحاخامات وغيرهم من رجال العلم اللاهوتى ، أما باقى الجاليات اليهودية فإنها كانت تعرف منها فقط ما يكفى لقراءة صلواتهم مع عدم فهم ماذا تعنى تلك الكلمات.

وسياسيا أيضا فإن يهود الغرب كانوا يعتبرون ويوصفون بأنهم أعضاء متوحدة شخصياتهم مع الدول التى كانوا هم رعاياها، وذلك فى حدود ما سمح لهم به وأحيانا أكثر من ذلك.

إن النعرة الوطنية كانت قد بدأت تسود فى القرن التاسع عشر فى أوروبا ، وقد كان لذلك تأثيرات مختلفة على اليهود. ففى الغرب أصبحوا وطنيين متعصبين للدول التى كانوا رعاياها وإلى حد كبير رعايا ذوي حقوق متساوية مع باقى الرعايا . ص٦٨

أما الشرقان الأوروبى والإسلامى فإن الموقف كان أكثر تعقيدا وأكثر صعوبة . فنظريا التغير من القومية اليهودية إلى القومية الوطنية والولاء للوطن، كان يجب أن يصلح من حالهم وذلك بتحويلهم من أقلية دينية تكاد تقبل إلى جزء لا يتجزأ من الوطن .

ولكن فى الواقع مع استثناءات قليلة فإن أحوالهم أخذت تتحول من سيء إلى أسوأ. فإن التعصب الدينى القديم، وعدم قبول الآخر اصبح يصاغ بصورة حديثة وبطريقة متعاظمة، والقيود القديمة على التعصب قد ضعفت أو أزيلت.

ففى وقت ساد فيه التغير الاجتماعى السريع وزاد فيه الإحساس بالعنصرية فإن اليهود كانوا ما زالوا ينظر إليهم بواسطة أهل ديانات الأغلبية أى المسيحية والإسلام على أنهم كافرون. وفوق ذلك إنهم أصبحوا ينظر اليهم على أنهم أجانب معادون للأمة، ومعرضون بذلك إلى أنواع من العداء تختلف درجاتها من الاضطهاد العنيف فى بعض الدول إلى التعالى والاستحقار فى البعض الآخر.

وكذلك فإن طاقة اليهود على ملاقاة عالم معاد كانت هى الأخرى تتغير وتتضاءل .

فبالبنسبة لليهودى المتدين التقليدى ، فإن المعاناة من أجل دينه كانت شدة يستطيع أن يتحملها بكرامة وثقة وقوة. أما بالنسبة لليهودى الذى يحاول أن يكون رعية صالحة فى دولة حديثة، فإن تلك المعاناة كانت إهانة وتحقيرا لا يملك إزاءهما دفاعا ذاتيا من احترام النفس.

إن الاتجاهات الوطنية أو القومية واجهت اليهود بمشاكل جديدة ، وبالنسبة للبعض منهم فإنها قدمت حلولا جديدة . فإذا كانت الأمة وحدة محددة بالتناسل العرقى والثقافة والآمال وهى بذلك الأساس الوحيد الطبيعى والمقبول للدولة ، فإن اليهود كذلك بهذا التعريف هم قومية ويجب أن يكون لهم دولتهم .

وذلك يختلف عن المعنى الموجود منذ القدم عند اليهود ، ألا وهو الوعد الإلهى بنهاية التشرذم وجمع المنفيين وإعادة بناء القدس . إن أول من نادى بهذه الفكرة الجديدة التى أصبحت تعرف باسم الصهيونية، كان حاخاما بوسنيا يدعى يهودا الكالاى الذى فى سنة ١٨٤٣ أنتج خطة تؤدى إلى إحياء وجود اليهود فى فلسطين دون انتظار للمسيح المنتظر.

إن المشكلة عرضت له ولمعاصريه بطريقة حادة ، إذ أثارتها الاضطرابات المعادية لليهود والاضطهاد الحادث فى دمشق سنة ١٨٤٠ . وقد كانت النهضة القومية للصرب واليونان هما المثال الذى يحتذى فى النهضة اليهودية، قياسا على قيام الصرب واليونان المستقلين عقب قرون من الاحتلال العثمانى .

وقد كانت هناك أمثلة أخرى على التحرير القومى فى أوروبا القرن التاسع عشر.

وفى سنة ١٨٦٢ فإن حاخاما فى بوذن فى بولندا البروسية قام بدعوة إخوانه من اليهود إلى أن يتعظوا بأمثلة الإيطاليين والبولنديين والمجريين.

ويحلول ذلك الوقت فإن تلك الأفكار ذهبت أبعد من دوائر الحاخامات ، تلك ص٦٩
الدوائر التى كانت إلى الآن تكاد تكون هى القيادة الفكرية الوحيدة لليهود. ففى نفس السنة نشر موزيز هيس وهو يهودى ألمانى متحرر كتابه (روما والقدس) هو الأول فى سلسلة طويلة من الكتابات عن الأحلام الصهيونية فى دولة خاصة باليهود .

وفى خلال القرن التاسع عشر فإن فكرة إحياء وطن قومى لليهود فى فلسطين، أصبحت معروفة على نطاق واسع . أنها استرعت انتباه اليهود فى كثير من الدول.

بل إنها كذلك استرعت انتباه بعض المراقبين المسيحيين المختلفين كنابليون ولورد بالمر ستون ولورد شافتسبرى والروائى جورج إليوت .

إن تعبير صهيونى والحركة السياسية التى تسمى بهذا الاسم ولدا فى منطقة النمسا والمجر، حيث كان اليهود المحدثون الذين اندمجوا فى بناء الإمبراطورية ، وهؤلاء الذين لم يندمجوا لأنهم يهود تقليديون محافظون يعيشون جنبا إلى جنب، ويلاقون جنبا إلى جنب مظاهر العداء الحديثة والتقليدية .

إن مؤسس المنظمة الصهيونية كان ثيودور هيرتزل وهو يهودى مولود فى المجر يشتغل صحفيا فى فيينا عاصمة الإمبراطورية . وإن تاريخ الحركة الصهيونية متعارف على أنه يبدأ من تاريخ نشر كتيبه (الدولة اليهودية) وذلك فى سنة ١٨٩٦ .

إن هيرتزل كان إلى ذلك العهد يهوديا غربيا مندمجا تماما فى المحيط الاجتماعى الغربى فى الدولة التى يعيش فيها، يجهل العبرية وحتى يجهل الديانة اليهودية وغير مهتم بالمسائل اليهودية إطلاقا .

إن ساعة الحقيقة التى أيقظته كانت أنه كمراسل جريدة نمساوية فى باريس حضر محاكمة الكابتن ألفريد دريفوس الذى كان يحاكم بتهمة الخيانة . إن دريفوس وهو يهودى من أصل إلزاسى كان ضابطا محترفا ملتحقا بهيئة القيادة الفرنسية. وقد اتهم دريفوس بأنه يبيع الأسرار الحربية إلى الألمان. وقد وجدته المحكمة العسكرية فى سنة ١٨٩٤ مذنبا وحكمت عليه بالحبس مدى الحياة فى قلعة.

وقد تلا ذلك سلسلة طويلة من النضال القضائى انتهت فقط فى سنة ١٩٠٦ حينما أعلن أن دريفوس كان بريئا وأرجع إلى رتبته. وخلال تلك السنوات ، حينما كان الصراع المرير بين أنصار دريفوس وأعدائه يستولى على الحياة العامة فى فرنسا ، فإن التعصب ، ضد السامية فى فرنسا نفسها كان قوة قوية فعالة شريرة.

إن قوة الشعور بمعاداة اليهود واستعداد شخصيات كبيرة فى الكنيسة والدولة والجيش لأن يصادقوا ويوافقوا على إدانة رجل بريء مع تلفيق الشواهد والأدلة على تلك الإدانة جاءت كالصدمة العنيفة لليهود . وقد ضاعف من وقع تلك الصدمة أن ذلك العداء الطاغى للسامية ظهرت شطحاته الأولى فى فرنسا .

فرنسا التى هى مهد الثورة العظيمة صاحبة مبادئ الحرية والمساواة والإخاء وأول دولة أعطت مساواة تامة لكل رعاياها بلا نظر إلى العقيدة.

إنه كان هناك بعض الهجمات الصغيرة على اليهود المتحررين أو الذين تحرروا حديثا فى أوروبا الغربية ، ولكن تلك الهجمات كانت مقصورة فى معظمها على الصحافة والمنشورات . وكان يمكن إغضاء النظر عنها على أنها ليست بذات أهمية . ص٧٠

وحتى فإنه حين كانت تصور الشخصيات اليهودية بصورة معادية بواسطة الروائيين العظام فى القرن التاسع عشر ، فإن ذلك كان ولاشك مضايقا لليهود فى المجتمع ولكنه لم يكن يمثل خطرا حقيقيا.

أما الحملة ضد دريفوس والحدة التى استعملت فى تلك الحملة والتعاطف الذي نالته من الرأى العام ، فقد جعلت بعض اليهود فى فرنسا وفى غيرها من بلاد أوروربا، يعجبون : هل ما حصلوا عليه من حقوق حديثة مسألة هشة يمكن أن تنهار فى أى وقت ؟

بالنسبة للأغلبية فإن الحل فى نظرهم كان هو أن يستمر فى طريق التحرر ومحاولة الاندماج الكامل فى المجتمع. ففى خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر وقبل ذلك فى هولندا وإنجلترا أحرز اليهود تقدما كبيرا أو كانوا يكسبون بانتظام قدرا كبيرا من الحقوق المدنية و السياسية.

إن قضية دريفوس - وإن كانت انتهت نهاية سعيدة - أظهرت عمق الشعور ضد اليهود.

وكذلك فإنها أظهرت قوة وتعدد هؤلاء الذين كانوا على استعداد للكفاح فى سبيل الحفاظ على مواطنيهم اليهود.

فبالنسبة للكثيرين الذين نظروا إلى تلك المسألة كان من المعقول أن يظنوا أنه حتى قضية دريفوس لم تكن إلا رجعة بسيطة وإحياء قصير المدة لمشاعر وأحقاد قديمة لا مكان لها فى العالم الحديث.

ولكن كان هناك آخرون ، وإن كانوا أقلية فى العالم الغربى، الذين اتخذوا رأيا آخر وقبلوا منطق ثيودور هيرتزل الذى أعلن أن التحرر والتوحد مع المجتمعات لا يمكن أن يتحقق. فإن اليهود كما قال كانوا أمة.

إن مشكلتهم ليست اقتصادية ولا دينية ولكنها قومية أى سياسية. ويمكن حلها فقط بأن يحصل اليهود على مكان يباشرون عليه السيادة وفيه يقيمون دولة.

وإذا كانت الاستجابة لآراء ثيودور هيرتزل وحركته فى غرب أوروبا شيئا محدودا بل وأحيانا سلبيا ، فإن الحال كان على خلاف ذلك فى أوروبا الشرقية ، حيث كان تشخيصه للحالة وعلاجه كان أكثر تقبلا.

فإنه وإن كان - باستثناءات قليلة - اليهود فى الغرب يشعرون بالاطمئنان ، واليهود تحت الإسلام بعيدين ومنعزلين بحيث لم تصلهم دعوات هيرتزل ، فإن هؤلاء اليهود فى أوروبا الشرقية رأوا أن نظريته ومناقشاته مقبولة وحقيقية .

فإن موقف اليهود فى أوروبا الشرقية كان يختلف اختلافا كبيرا عن اليهود فى الغرب.

فإن حركة التحرير والاندماج والتى حولت حال الجاليات اليهودية الغربية كانت على وشك أن تبدأ على استحياء فى أوروبا الشرقية ولكنها سرعان ما انتكست . ص٧١

إن حال اليهود فى بولندا عقب تقسيم تلك الدولة بين بروسيا وروسيا والنمسا اختلف اختلافا كبيرا. فى بولندا البروسية والنمساوية حصل اليهود على حقوق كثيرة من اندماجهم فى دولة حديثة أو تعمل على التحديث ويوجد فيها بعض الاحترام للحقوق الإنسانية وسيادة القانون.

فى بولندا البروسية حيث كانت الدولة أكثر حداثة وحيث كانت الأمة أكثر تجانسا وحيث كانت الأقلية اليهودية صغيرة نسبيا ، فإن طريقة التأقلم بالألمانية كان طريقا سريعا.

وفى النمسا حيث كانت الدولة أقل تقدما فى الأخذ بالطرق الحديثة وتتسيد على شعب مختلف الأعراق، واليهود أكثر عددا فإن الشروع فى التحديث كان أبطأ ولكنه لم يكن مما لا يمكن الإحساس به .

ولكن الواقع أن العدد الأكبر من اليهود البولنديين اندرجوا تحت الحكم الروسى ، وقد ساءت حالتهم نتيجة لهذا التغيير. ونتيجة لتعاقب التقسيمات فى بولندا اندرج العدد الأكبر من الجالية اليهودية فى أوروربا تحت حكم تلك الدولة التى أبدت حتى ذلك الوقت أقل تسامحا وتحملا لليهود .

فمن وقت لآخر فى القرن التاسع عشر كانت هناك محاولات لإدخال إصلاحات تحررية، ولكن تلك الحركات كانت ذات تأثير محدود . وخلال الحقبة الأخيرة من حكم القياصرة فإن حال اليهود فى الإمبراطورية الروسية أخذ ينحدر من سيئ لأسوأ.

إن هزيمة روسيا أمام اليابان فى سنة ١٩٠٥ وما أعقبها من ثورات غير ناجحة عرضت المجتمع الروسى والدولة القيصرية إلى ضغوط كبيرة. فقد استجاب الحكام بمحاولتهم - وقد نجحوا فى ذلك إلى حد ما - تحويل الغضب العام إلى غضب ضد اليهود الذين اتهموا بأنهم ثوريون ومحبون أو معاونون لليابانيون.

والعداء للسامية أصبح فى ذلك الوقت جزءا من سياسة روسيا الرسمية ، وكان يشجع على النطاقين الإداري والشعبي . وإن جزءا مهما أو نشيطا من هذا العداء قامت به عصابات مسلحة بتشجيع من البوليس المحلى بل وأعضاء الكنيسة. وقد كانت هذه العصابات تعرف باسم (المئات السوداء) . واستخدمت تلك العصابات رأس حربة فى نشاطات العداء العنيف للسامية، وقامت بترتيب وتنفيذ ما يعرف بالبوجروم (البوجروم هو تعبير روسى عن قتل اليهود بواسطة الدهاء). وحيث إن الدولة كانت تحكم أعدادا كبيرة من اليهود أكثر مما يمكن التخلص منهم بطرق الاضطهاد العادية أى بالطرق القديمة ، فإن الحكومة الروسية لجأت إلى وسائل التفرقة والضغط. فقد حرم اليهود من معظم الحقوق العادية للرعايا ، ولم يكن مسموحا لهم بأن يتجاوزوا حدود مستوطناتهم للذهاب إلى الأراضى الروسية ، أو حتى الذهاب إلى سانت بيترسبورج وهى العاصمة أو موسكو أو غيرها من المدن إلا بتصريح خاص .

وبعض اليهود الذين كانوا محظوظين بسبب ثرائهم أعطوا الحق فى الإقامة فى تلك الأماكن السابق ذكرها ، ولكن الأغلبية العظمى الفقيرة استثنيت ولم يكن يسمح لها بالمعيشة فى تلك المدن.

وفى داخل المستوطنات المحددة المسورة التى سبقت الإشارة إليها فإن اليهود عانوا من سادتهم الروس وجيرانهم البولنديين. ص٧٢

فإن التسامح البولندى القديم الذى جعل من بولندا ملجأ وملاذا ليهود غرب أوروبا فى الزمن القديم، هذا التسامح قد ذهب، والعلاقات بين اليهود والبولنديين ساءت خصوصا تحت هذه الشروط القاسية التى أوجدتها الدولة الروسية .

ذلك أن البولنديين أصبح يحكمهم الروس الأرثوذكس ، وحرموا من أى تنظيم سياسى أو اجتماعى خاص بهم .

وقد وجد البولنديون إذ ذاك قلعتهم الوحيدة فى الكنيسة الكاثولكية. وحيث أخرجوا أو أبعدوا عن مقامهم السابق من السيادة بواسطة الطبقات الروسية والإدارات الروسية الجديدة فإنهم دفعوا إلى اسفل النظام الاجتماعى والاقتصادى واضطروا إلى التنافس على لقمة العيش مع محكوميهم السابقين اليهود .

وبالرغم من أن اليهود حاربوا من أجل بولندا فى سنة ١٧٩٤ واشتركوا فى الثورة غير الناجحة ضد روسيا فى سنتي ١٨٣٠ و ١٨٦٠ ، فإن البولنديين صدوهم ورفضوا الاعتراف بهم جزءًا من الأمة البولندية. حينما حاول اليهود فى البداية أن يحاربوا بجانب البولنديين فإنهم أولا رفضوا ثم قبلوا على أساس تكوين وحدات يهودية منفصلة تلحق بالمليشية وليس بالجيش الأصلى.

أما الروس فقد اتبعوا طريقة مختلفة ، فإنهم جندوا اليهود فى الجيش ولكن باستثناء قلة قليلة من الحاصلين على مؤهلات طبية أو هندسية كانوا محدودين بأوطى الدرجات .

ففى سنة ١٨٢٧ صدر مرسوم إمبراطورى روسى أنشأ ترتيبا خاصا للأولاد اليهود.

فعدد محدد منهم يجرى تجنيدهم فى سن ١٢ أو أقل ويقومون بالخدمة ٢٥ سنة على أن تحسب تلك المدة فى وقت بلوغهم سن ١٨ . وذلك النظام الذى أسسه ذلك المرسوم يذكر بالنظام التركى المعروف باسم ديفشيرم حيث كانت السلطات العثمانية تفرض فريضة على عدد من الأولاد المسيحيين فى منطقة البلقان. لقد هجر السلاطين العثمانيون هذه العادة فى بداية القرن السابع عشر ولكن القياصرة الروس تبنوها من جديد فى القرن التاسع عشر.

إن العداء الروسى لليهود كان لا يزال من ذلك الطراز القديم الدينى وليس تلك الكراهية الحديثة العنصرية، فاليهود المصرون على اليهودية كانوا مستبعدين تماما من كادر الضباط أو الخدمة المدنية أو الجامعات أو المهن كالطب والهندسة وإلى ما ذلك، ولكن التعميد اذا ما اختاره اليهودى يفتح كل الأبواب .

واليهودى الذى يتحول إلى الكنيسة الأرثوذكسية الروسية يستطيع أن يرتفع إلى مقامات مهمة وعالية. وقد أفاد بعض اليهود من تلك الفرصة. ومن هؤلاء كان المستشرق دانيل شولسون الذى عاش من ١٨١٩ إلى ١٩١١ والذى ولد في قرية تدعى إيشيشوك فى لتوانيا ، إنه ذهب إلى الجامعة فى برسلاو فى ألمانيا حيث كانت الجامعات الروسية مغلقة فى وجهه .

وبعد عودته إلى روسيا فإنه عمد ودخل فى الكنيسة الأرثوذكسية وبذلك تمكن أو جعله ذلك أهلا لأن يعين سنة ١٨٥٥ أستاذا فى الكلية المؤسسة حديثا كلية اللغات ص٧٣
الشرقية فى جامعة سانت بيترسبورج . والأسطورة تجرى بأن شولسون هذا سئل مرة عما إذا كان أصبح مسيحيا لأنه مخلص فى الاعتقاد فأجاب نعم إننى كنت مخلصا فى الاقتناع بأنه من الأحسن أن يكون الإنسان أستاذا فى جامعة سانت بيترسبورج عن أن يكون ميلاميد (وهو تعبير عبرى عن مدرس فى مدرسة إيشيشوك حيث ولد) .

وعلى العموم لم يكن يوجد إلا عدد قليل من هؤلاء المتحولين. وإذا كان اليهود البولنديون والروسيون تعرضوا إلى أحوال أقسى من رفقائهم الدينيين فى الدول الأخرى فإنهم كانوا أيضا أكثر قدرة على المقاومة والبقاء .

فإن اليهود البولنديين احتفظوا بجالية منظمة يرجع تاريخها إلى الملكية البولندية القديمة حيث كانوا يتمتعون بقدر كبير من الحكم الذاتى فى ذلك الوقت. تلك الجالية المنظمة ولو أنها اهتزت وتناقصت فإنها بقيت قوية إلى حد كاف لأن تعطى الحياة اليهودية عضدا تتكئ عليه.

إن اليهود كذلك كان لديهم نظام تعليمهم الخاص من المدارس الابتدائية إلى المدارس العليا الحاخامية ، وذلك النظام الذى كان بأكمله تحت إدارتهم. وذلك التعليم

ولو أنه يمكن اعتباره من القرون المتوسطة فإنه مع ذلك حافظ على بقاء تراث حى ثقافى مبنى على التلمود والحاخامية.

إن برامج التعليم فى المدارس اليهودية لم تكن تؤهل خريجيها للحياة الحديثة فى القرن التاسع عشر وعلى وجه أقل فى القرن العشرين. ومع ذلك فإنها أعطت هؤلاء الخريجين تنظيما عقليا وإحساسا قويا بشخصياتهم التاريخية والثقافية.

وكذلك فإنها أعطتهم مستوى ثقافيا ليس بالأقل إن لم يكن أحسن من غيرهم من مستوى هؤلاء الناس الذين كانوا يعيشون بينهم.

إن وضع وحالة اليهود فى روسيا تدهورت تدهورا حاسما نحو الأسوء عقب ١٣ مارس سنة ١٨٨١ حينما ألقى بعض الثورين قنبلة على قيصر الإسكندر الثانى فقتلوه فى اللحظة التى كان قد قرر أن ينشئ فيها حكومة دستورية. والقيصر الجديد الإسكندر الثالث ومستشاروه كانوا يعتقدون أن مشاكل روسيا يمكن حلها بالحكم الأوتوقراطى الديكتاتورى وبالضغط.

كونستنتين بوبيدونتسيف الأمين العام للمجمع المقدس وأحد أهم مستشارى القيصر، وضع نظامه أو برنامجه الخاص لحل المشاكل التى يسببها لروسيا وجود شعب يهودى كبير. ثلثهم يجب أن يصبحوا مسيحيين وثلثهم يجب أن يبعدوا وثلثهم يقضى عليهم.

إن المذهب الأرثوذكسى والدكتاتورية والتعصب لكل ما هو روسى كانت العوامل التى تسير الحكومة الروسية فى تلك الحقبة. كل ذلك طبعا جعل الحياة لا تطاق بالنسبة لليهود.

فالقواعد التحكمية القديمة تجاههم أصبحت تطبق بشدة أكثر بل واستحدثت قواعد جديدة. إن مساحة المستوطنات المسورة كانت قد خفضت فعلا ووضعت قواعد قاسية على تحركات اليهود خارجها. ثم استحدثت تحريمات جديدة على الإقامة والسفر وكسب وسائل العيش حتى فى داخل المستوطنات المسورة .

فعند بداية عيد الفصح سنة ١٨٨١ أضيف بعد جديد إلى اضطهاد اليهود فى روسيا ألا وهو البوجروم (سبق وأشرنا إلى معنى هذه الكلمة). إن الهجوم على اليهود ص٧٤

فى روسيا لم يعد يصبح مقصورا على الدوائر الرسمية والحكومية والبيروقراطية ، وهو بذلك يكون إلى حد ما منظما . إنه أصبح شعبيا عنيفا واصبح يهدد ليس فقط معيشتهم بل حياتهم.

إن المذابح لم تكن تجربة جديدة لليهود فى أوروبا. ولكنها لم تكن تجربة حديثة العهد.

ففى الغرب عصور النهضة الإنسانية والتنوير وضعت حدا لشطحات وتجاوزات القرون الوسطى. وحتى فى أوروبا الغربية وبرغم وجود ضغط قاس وقيام بعض الاضطرابات فإنه لم يكن هناك مذابح على نطاق واسع ضد اليهود منذ القرن السابع عشر.

إن المذابح الروسية حينما بدأت فى ١٨٨١ جاءت كصدمة قاسية ليس فقط لليهود ولكن للرأى العام فى العالم المتحضر والذى كان فى ذلك الوقت لا يزال يتمتع بالاحترام ويستطيع أن يكون ذا اثر.

وقد قامت اجتماعات ومظاهرات للاحتجاج فى لندن وباريس وفى غيرها حضرها أعضاء مهمون فى الكنيسة والبرلمانات والجماعات وغيرها من شخصيات الحياة العامة.

هؤلاء لا شك ساعدوا على تحديد إن لم يكن على إنهاء تلك المذابح التى استمرت حتى فى القرن العشرين.

إن بوجروم كلمة روسية معناها مذبحة. إن هذه الكلمة مرت من اللغة الروسية إلى اللغة الانجليزية فى حوإلى ذلك الوقت مع تخصيص معناها بالمذابح ضد اليهود . إنه كان هناك كثير من تلك المذابح ، وأشهرها حدثت فى مدينة كيشنيف فى مقاطعة بيسارابيا فى ربيع سنة ١٩٠٣.

إنه لا يمكن الشك إطلاقا في أن البوليس القيصرى كان على الأقل يتقبل بل ويحرض على تلك الهجمات على اليهود.

فى تلك الأحوال لم يكن مدهشا إذن أن اليهود فى غرب أوروبا أعطوا اهتماما

للصهيونية وكذلك فى الحلول الأخرى المقترحة لتلك المعضلة التى تتنامى يوما بعد يوم وتزداد خطورة وحدة.

وبعد وقت ليس بالطويل كان اليهود فى شرق أوروبا واليهود من أصل شرق أوروبى الذين توطنوا فى الغرب هم الذين قدموا الدعامة الرئيسية للحركة الصهيونية التى أسسها تيودور هيرتزل. وفى الواقع وفى الحقيقة فإن القومية اليهودية ودولة إسرائيل وهى المحصلة النهائية كانا من خلق أو صنع اليهود فى شرق أوروبا الذين يتكلمون باليديشية.

إن الصفات الرومانسية والاشتراكية للحركة الصهيونية وربطها للدين بالشخصية الوطنية كلها وجوه معروفة للتفكير السياسى الشرق أوروبى وطريقة الحياة.

إن الصهيونية لها منابع عديدة. بعض هذه المنابع تقليدى ويهودي حقيقى ، وعلى وجه الخصوص الديانة اليهودية نفسها التى تؤكد باستمرار على زيون أو القدس ص٧٥
والأرض المقدسة وذلك فى فلسفتها و فى نظرياتها عن العبودية والتحرير وعن الهجرة وعن النفى والعودة.

إن تلك الأفكار تحتل مركزا رئيسيا فى التقاليد اليهودية الدينية. والمتعبد يذكر يوميا بها وفى خلال السنة كلها فى التراتيل والصلوات فى السيناجوج. مصدر آخر كان هو الهاسيديزم وهى حركة إحياء دينى وأمل فى المسيح المنتظر قامت بين اليهود البولنديين فى أواخر القرن السابع عشر كإجابة أو كبعض الإجابة أو النتيجة للصدمات التى أثارتها مذابح كيملينتسكى السابق الإشارة إليها والتى أثرت فى جزء كبير من اليهود الأوروبيين الشرقيين.

تلك الحركة هاسيديزم التى أعطت دفئا وحيوية إلى اليهودية كما يبشر بها أو يدرسها الحاخامات فى ذلك الوقت كانت عاملا مهما بل وضروريا لنمو وانتشار الحركة الصهيونية.

ففى الواقع أن جزءا كبيرا من الرعيل الأول الصهيونى كانوا رجالا ذوي خلفية هاسيدية. فاليهود الهاسيديون أو اليهود من أصل هاسيدى كان لهم مكان ملحوظ فى

الإحياء العبرى. ذلك الذى أوجد خلفية ثقافية ضرورية لحركة التحرير القومى اليهودى .

إن تأصيل الإحياء العبرى يمكن تتبع أو معرفة نشأتها فى ألمانيا فى عهد التنوير وحتى فى عهد النهضة فى ايطاليا حيث ولأول مرة اليهود وهم يخرجون من مستعمراتهم الجيتو تأثروا بالحركات الفكرية التى تحرك مواطنيهم المسيحيين ، وحاولوا أن يأتوا بتلك الأفكار النهضوية والتنويرية إلى رفقائهم من اليهود وذلك فى شكل أدب عبرى لاديني.

إن الإحياء العبرى أصبح عنصرا مهما أو عاملا مهما فى روسيا القرن التاسع عشر حيث كان هناك يهود بأعداد كبيرة على درجة عالية من المعرفة بالعبرية ، ونتج عن ذلك كتاب وطباع وناشرون وموزعون وقارئون للروايات والقصائد والكتابات والمجلات بالعبرية .

وبحلول ١٨٨٠ ، اللغة العبرية ولو أنها لم تكن بعد لغة متكلمة فإنها لحقها تطور تحديثي على قدر عظيم، وأصبحت تستخدم لمناقشة مشاكل الحياة اليهودية الحديثة وكذلك الموضوعات التقليدية المعهودة الدينية والقانونية.

وارتبط بهذه الاتجاهات الجديدة الاعتقاد التقليدى اليهودى في المسيح المخلص، أي الاعتقاد في قدوم المخلص الذى سينقذ اليهود من الأسر والنفى ويعيد لهم أرضهم الموعودة.

وقد وجد في الماضى كثيرون ممن ادعوا هذا الدور بعضهم معروف أكثر من البعض الآخر. إن الفشل والتحول الإلحادى لشباتاى سيفى الذى سبق ذكره وهو آخر هؤلاء الذين ادعوا أنهم المسيح المخلص ، إن ذلك الفشل والتحول الإلحادى أوجد خيبة أمل ويأس عند اليهود.

بعد هذا الوقت فإن اليهود المتعرضين آنذاك لتأثيرات خارجية جديدة ، بدءوا ينظرون أو يبحثون في أماكن أخرى عن تحقيق آمالهم في وجود ذلك المخلص وبدءوا ص٧٦
يتجهون من الخلاص الدينى إلى الخلاص المدنى.

إن المخلص كان عليه الكثير ليفعله ، ففى شرق أوروبا كان اليهود ضحايا للفقر

والاضطهاد والتفرقة الدائمة. بعض اليهود جذبتهم الأفكار والأيديولوجيات السائدة بين الأوروبيين الشرقيين الذين كانوا يعيشون بينهم. وبعض هذه الأيديولوجيات أو الأفكار بدا أنها تقدم حلولا جعل منها النمو في المعرفة غير الدينية بين اليهود شيئا أكثر قربا في إمكانية التحقق ، وأكثر جذبا. فالاشتراكية بل وحتى الفوضوية إنها جميعا أسهمت في ولادة نوع من القومية العرقية الشرق أوروبية.

كان البعض يعتقد أن اليهود يجب أن يحاربوا من أجل الحرية جنبا إلى جنب مع جيرانهم من غير اليهود وبذلك يعبرون عن أهدافهم و قضيتهم في أساليب وطنية وأحيانا طبقية.

أما آخرون وهم الصهيونيون فإنهم رأوا أن السبب الرئيسى في متاعبهم هو حالة اليهود العامة من أنهم دائما أقلية ، ووافقوا هيرتزل على الفكرة بأنه فقط في وطن يهودي تحكمه دولة يهودية يمكنهم التخلص من صفة الأقلية هذه وأن يحصلوا على التحرير الحقيقى.

إن كثيرا من يهود شرق أوروبا وجدوا حلا شخصيا لمشاكلهم بالهجرة . فبين سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٩٠٠ هاجر أكثر من نصف مليون يهودى شرق أوروبى إلى الغرب وبين سنة ١٩٠٠ إلى سنة ١٩١٤ فإن العدد تجاوز المليون ونصف المليون . فحوالي ثلث اليهود الشرق أوروبيين يقدر أنهم تركوا ديارهم .

أما الباقون وهم الأغلبية العظمى بقوا حيث هم ، منهمكين في معركة حول البقاء.

والبعض قليل ولكنه مهم بحث عن غايات سياسية لإنهاء آلامه ومشاكله وذلك بالمشاركة في الحركات الثورية الروسية وغيرها من الحركات.

ومجموعة أخرى قليلة الأهمية في العدد ولكنها عظيمة في تأثيرها وجدت طريقة أخرى .

ففى سنة ١٨٨٢ أي أربعة عشرة عاما قبل أن ينشر هيرتزل كتابه الدولة اليهودية فإن مجموعة من الدارسين اليهود كونوا جمعية تدعى (محبو صهيون) . ان غرضهم كان الهجرة لا إلى بلاد الغرب حيث توجد الفرص للعيش ، بل إلى مقاطعة عثمانية بعيدة ، معروفة في العالم المسيحي ولكنها لم تكن معروفة لسكانها ، باسم فلسطين.

إن المستوطنات التى أسسها هم ومن خلفهم في وجه مصاعب وعقبات جمة، كونت النواة لما أصبح دولة إسرائيل. بين سنة ١٩١٧ حينما نشرت الحكومة الإنجليزية إعلان بالفور الذى يبارك فكرة الوطن القومى لليهود في فلسطين، و سنة ١٩٣٣ حينما جاء أدولف هتلر إلى السلطة في ألمانيا، فإن نمو الوطن القومى لليهود تحت حكومة الانتداب البريطانى في فلسطين كان بطيئا ولكنه كان منتظما . ص٧٧

إن الأغلبية العظمى من اليهود المهاجرين الجدد جاءت من أوروبا الشرقية. وكانت دوافعها في الذهاب لفلسطين بدلا من أي مكان آخر كانت دوافع أيديولوجية فكرية.

إنهم كانوا قادمين لكى يبنوا وطنا قوميا يهوديا . ومن أجل ذلك فإنهم بنوا مزارع وقرى وطرقا ومدنا وأنشأوا هيكلا جديدا للحياة اليهودية. وبين الحربين العالميتين ، فإن يهود أوروبا قاسوا من مصيبتين عظيمتين : الثانية وأكبرهما بدأت بتولى هتلر السلطة في ألمانيا في سنة ١٩٣٣ .

أما الأولى فقد أعقبت انهيار القيصرية في شرق أوروبا . إن الدمار الذى ساد عقب الثورة الروسية الشيوعية والحرب الاهلية والتدخل الأجنبى كل ذلك أنتج اضطرابا ومجاعات قضت على الشعب بوجه عام.

ولكن اليهود كانوا في وضع سيئ بوجه خاص، لأنهم كان الروس يهاجمونهم على أنهم بولنديون ويهاجمهم البولنديون على أنهم روس ويهاجمهم الاثنان على أنهم يهود، وأصبحت أوكرانيا مرة ثانية مسرحا لمذابح مروعة تذكر بأيام كيملينتسكى.

وبين ١٩١٧ و ١٩٢٠ فإن على الأقل ٧٥ ألف من اليهود ذبحوا في أوكرانيا. وكذلك أعداد أخرى في الدول حديثة الاستقلال في أوروبا الشرقية . وبالتدريج ومع انتهاء الحرب و استقرار نظم الحكم الجديدة فإن وضع اليهود كوضع الآخرين أخذ في التحسن.

إن السنوات الأولى من النظام السوفيتى كانت سنوات عصيبة ولكن اليهود لم يكونوا أسوأ حالا من غيرهم. وفى الدول الناشئة في أوروبا الشرقية، جمهوريات بحر البلطيق وبولندا ورومانيا كان اليهود أبعد ما يكونون عن الاستمتاع بمساواة في الحقوق أو حتى بالامان.

ولكن العداء للسامية المتوطن في تلك الدول كان يحده بعض الشيء مراعاة الرأى

العام الخارجي، خصوصا وأن تلك الدول كانت مازالت ناشئة بمقتضى معاهدة فرساي .

ففى ألمانيا والنمسا حيث القيود التى وضعت على التقدم اليهودى والتى وضعتها النظم الإمبراطورية القديمة، تلك القيود أو التحريمات أزيلت بالجمهوريات الجديدة في ألمانيا والنمسا، وأصبح اليهود يستطيعون أن يدخلوا أماكن كثيرة كانت محرمة عليهم. وفى غرب أوروبا والامريكتين باتوا في طريقهم إلى القبول التام والاندماج كأقلية دينية لا تختلف عن أي أقلية أخرى .

فى كل تلك الدول كانت هناك من وقت لوقت علامات وإشارات ، التقطها وفسرها الصهيونيون، وإن لم يلتفت إليها الآخرون. من ذلك أن الجمهورية البولندية التى أعيد تكوينها من الأراضى التى سبق تقسيمها بين جيران بولندا الثلاثة، تلك الجمهورية ورثت ثلاثة ملايين يهودى منهم على الأقل الثلث يعيشون في ظروف فقيرة . ص٧٨

إن الحكام الجدد البولنديين كانوا في الأول مهتمين باستعادة وجودهم القومى الذى هو في نظرهم قرين بالكاثوليكية البولندية. ولم يكونوا يهتمون بحاجات اليهود أو الرعايا أو الأقليات البولندية الأخرى غير الكاثوليكية . هنا وجد اليهود أنفسهم خاضعين لكثير من القيود والتحريمات ، محرومين من الحصول على التعليم ، وامتهان المهن ،وحتى الحرف ولذلك فإن كثيرين منهم بحثوا عن حل لذلك في الهجرة. ومشاكل مثل هذه جعلت الحياة صعبة بالنسبة لليهود في رومانيا وغيرها من دول شرق أوروبا .

في بداية سنة ١٩٣٩ أدولف هتلر الذي كان الكثيرون يظنون في ذلك الوقت أنه مخرف لا أهمية له ، انتخب مستشارا للرايخ الألمانى. وحتى في ذلك الوقت قليلون جدا بجانب أتباعه وخلصائه، ظنوا أنه يستطيع إن يحقق أيا من الوعود التى جاءت في كتاباته وخطاباته. وعلى العكس فإن المفهوم على نطاق واسع ، أن مسئوليات السلطة ستأتى باتجاه أعقل وأهدأ تجاه اليهود وتجاه المشاكل الأخرى ، ولكن ذلك لم يحدث .

إن الحرب على اليهود كانت بين أولى المهام التى بدأ بها عندما اعتلى السلطة. إن اليهود الألمان حرموا من كل الحقوق وعرضوا للتحقير والاضطهاد.

وقبل مضى وقت قليل امتدت تلك المعاملة وأسوأ منها إلى اليهود من الدول الأخرى التى ضمها وهى النمسا وتشيكوسلوفاكيا. ثم امتد ذلك السوء إلى باقى القارة الأوروبية.

إنه في سنة ١٩١٤ كان تعداد اليهود في المنطقة التى أصبحت فيما بعد منطقة فلسطين الانتداب يبلغ حوالى ٩٠ ألفا . وفى خلال الحرب قل ذلك العدد ، ولكنه بدأ في الارتفاع ثانية تحت الانتداب البريطانى. حيث بلغ ١٨١ ألفا في بداية سنة ١٩٣٢ . وبعد ذلك فإنه ارتفع بسرعة وقارب ستمائة ألف عند قيام الدولة اليهودية في مايو سنة ١٩٤٨ . وبين سنة ١٩٤٥ وسنة ١٩٤٨ كانت الهجرة المهمة هى من أوروبا وهى تتكون من البقايا المحطمة التى تركها التدمير المنظم الذى قامت به إمبراطورية هتلر ضد اليهود.

موجة ثانية بدأت قبل قيام الدولة اليهودية واستمرت بعدها جاءت من الدول العربية.

ومثل الأنجلو ساكسون البروتستنتيين البيض في الولايات المتحدة فإن الأوروبيين الشرقيين من الرعيل الأول ومن تناسل منهم في إسرائيل لم يعودوا يكونون أغلبية ص٧٩
الشعب.

بمعنى أن العنصر الأبيض الأنجلو ساكسونى الذى استعمر الولايات المتحدة أصبح لا يمثل الأغلبية لدخول عناصر أخرى . كذلك فإن الحال في إسرائيل أن هذا الرعيل الأول من المغامرين الأول من أوروبا الشرقية لم يصبحوا هم الأغلبية في الشعب.

ومثلهم كمثل نظرائهم الأمريكان فإن الآباء المؤسسين لإسرائيل ومن تناسل منهم جاهدوا للاحتفاظ بالأولوية والسيادة وذلك بالاعتماد على عنصرين مهمين : الأول العنصر العملى ألا وهو استمرار غلبتهم في المجموعة المتجانسة من النظم المتشابكة الشخصية والعائلية والاجتماعية والولاءات التى تكون الطبقة الإسرائيلية الأعلى ، والثانى هو الطابع الذى فرضوه على طبيعة الدولة اليهودية والمجتمع اليهودى.

إن المستوطنة الحديثة الأولى في فلسطين كانت من خلق الرواد الأوروبيين الشرقيين، تبعهم مهاجرون من أوروبا الوسطى وبعد ذلك من بلاد في آسيا وإفريقيا

الذين اضطروا على الرغم منهم أحيانا لأن يتبعوا وأن يندمجوا في النظم والمسالك التى رسمها هؤلاء الرواد.

وفى السنوات الحديثة الحالية فإنه بدأت تتصاعد المقاومة لهذا النهج من الإدماج. ومنذ نشأة الدولة فإنه كانت هناك هجرة ضئيلة من المهاجرين من أوروبا وأمريكا. ففى البداية تسببت موجات من العداء للسامية في الاتيان بمهاجرين من أمريكا الجنوبية، وكذلك فإن التخفيف المؤقت في قوانين الهجرة السوفيتية سمحت لبعض آلاف من الروس اليهود بالحضور والإقامة في إسرائيل.

وبالإضافة لهؤلاء فإنه كانت هناك حركة من أفراد وعائلات في أوروبا الغربية والدول المتكلمة بالإنجليزية. ولكن الهجرة المهمة منذ إنشاء الدولة جاءت من الدول العربية ودول إسلامية أخرى في الشرق الأوسط ومن شمال إفريقيا. إنهم هم وابناؤهم هم الذين يكونون الآن الأغلبية من مجموع الشعب اليهودى في إسرائيل. وقد بدءوا وبطريقة محسوسة في اختراق الطبقات الأعلى من المؤسسة السياسية والحربية. ونتيجة لسرعة وعلو نسبة الولادة فإن تلك الأغلبية مرشحة للزيادة. و الفرصة متاحة لهم لأن يؤدوا دورا أكبر.

إنه في السنوات الحديثة المعاصرة كان هناك صراع أو شعور حاد بين هؤلاء العنصرين اللذين يكونان الشعب اليهودى وهو أحيانا يصور على أنه تصارع بين اليهود الإشكينازى واليهود السيفاردى. ولكن ذلك تسمية خاطئة ، إن هذه تعبيرات أو أسماء تنطبق على التراتيل والمراسم في الكنيس أو السيناجوج وهى على كل حال تستخدم استخداما غير محدد فيه كثير من الترخص.

إن البعض يستعيرون عبارات السياسة المستحدثة (على الموضة) يتكلمون عن صراع بين الأوروبيين الأمريكيين والإفريقيين الآسيويين من اليهود ولكن ذلك أيضا ليس ذا أهمية .

إن الذى يحدث الآن في إسرائيل هو المواجهة بين اليهود الذين نشأوا وأتوا من العالم المسيحى واليهود الذين نشأوا وأتوا من أرض الإسلام. فكلتا المجموعتين اتت معها بمجموعة من العادات والاتجاهات والتقاليد الثقافية من البلاد التى نشأت فيها. ص٨٠
والان أصبحوا في بوتقة يواجهون بعضهم البعض. إن النتائج التى سيحققونها ستصبح ذات أهمية ليس فقط لليهود من كلا المجتمعين ولكن بالنسبة لإسرائيل ، وهذا شيء واضح، ولكن أيضا بالنسبة للإسلام والمسيحية أنفسهما .

الفصل الرابع

أعــداء الســامــيين

إن تعبير العداء للسامية أول ما استخدم كان في سنة ١٨٧٩ ويبدو أنه اخترعه من يدعى ويلهيلم مار. وهو صحفى صغير القدر دائم الهجوم على اليهود وليس هناك من سبب آخر غير اختراعه هذا لتذكره. ومما له مغزاه أنه أي هذا التعبير أول ما ظهرظهر كبرنامج سياسى في فيينا عاصمة إمبراطورية هابيسبرج والتى كانت أيضا هى مكان ميلاد الصهيونية، وكذلك الكثير من الحركات الوطنية القومية ، ومكان التقاء اليهود الشرقيين التقليديين واليهود الغربيين المتحررين من القيود الدينية.

وإنه وإن كان تعبير العداء للسامية تعبيرا جديدا إلا أن الكراهية الخاصة ضد اليهود التى يعنيها هذا التعبير كانت شيئا قديما يرجع إلى بداية قيام المسيحية. فإنه منذ الوقت الذى اعتنق فيه الإمبراطور الرومانى قسطنطين العقيدة الجديدة أي المسيحية واستولى المسيحيون على أدوات الدولة لم يكن هناك إلا فترات قليلة لم يضطهد فيها اليهود في جزء أو آخر من العالم المسيحى.

والعداوة لليهود كانت أحيانا محدودة وأحيانا عنيفة ، وأحيانا وبائية ، ودائما متوطنة. وبالرغم من أن كراهية اليهود كانت قديمة فإن تعبير العداء للسامية كان تعبيرا عن تغير محسوس في تلك الكراهية . ذلك التغير ليس فيه نشأة العداوة ولكن في تراكمات التحول الأساسى في الأشكال التى كانت تحس بها تلك العداوة ويحسها اليهود ويعبر عنها كارهو اليهود.

إن في القرون الوسطى كانت العداوة لليهود - مهما كانت العوامل الاجتماعية أو النفسية الدافعة لها - كانت تلك العداوة كانت توصف وتحدد على أساس دينى وفى حدود دينية.

ومن القرن الخامس عشر ، ما تلاه لم يصبح ذلك هو الحقيقة الخالصة وأصبح كره اليهود إحساسا جديدا أعيد وصفه وتحديده وأصبح في البداية قائما جزئيا على الجنس ثم بعد ذلك- على الأقل نظريا - كليا قائما علىالجنس.

إن العداوة الأولى كانت مؤسسة على الديانة وفى عمقها عداوة دينية. إنها كانت تهتم برفض اليهود للمسيح المخلص ولرسالته وكذلك بما ورد في الإصحاحات من دور اليهود في حياة المسيح وموته .

إن اليهودى كان يلعن ويضطهد كقاتل للمسيح ومنكر للحقائق الإلهية التى أتى بها المسيح أو بينما كانت تلك الكراهية تنمي وتوجه نتيجة للأدوار التى كان اليهود ص٨٢
مضطرين لأن يقوموا بها في مجتمعات القرون الوسطى ،(مثلا كمقرضين للمال- المترجم) فإن مضطهديهم لم يلعنوهم أو يدينوهم لأنهم مختلفون في الجنس أو اللغة

والتحول إلى اعتناق المسيحية إذا كان صادرا عن إخلاص كان يكفى لكى يسبغ على اليهودى المتحول إلى المسيحية مساواة تامة وقبولا كاملا. ويبدو أن ذلك كان صحيحا في الواقع العملى كما هو صحيح في الواقع النظرى ، و في أوروبا الغربية وكما هو في أوروبا الشرقية .

وقد قيل في دوقية لتوانيا في العصور الوسطى إن اليهود الذين اعتنقوا المسيحية كانوا يعاملون معاملة النبلاء لأنهم كيهود أقرباء لأم المسيح . إذ إن المسيح في الحقيقة ولد يهوديا.

إن العداوة الدينية اكتسبت ظلالا وطعما جنسيا أو عرقيا حينما اضطر اليهود إلى اعتناق المسيحية أو الموت أو النفى. إن الاعتناق الاختيارى كان يمكن قبوله كتحول مخلص . أما التحول أو الاعتناق تحت ضغط فإنه كان لابد أن يؤدى إلى الشكوك خصوصا بين هؤلاء الذين زاولوا الضغط في أنه تحول غير مخلص .

وذلك كان صحيحا، حيث كانت أعداد المتحولين كبيرة وحيث كانوا يميلون إلى التزاوج فقط من العائلات اليهودية الأخرى التى تحولت ، وحيث استمروا في القيام

بنفس الدور في المجتمع ذلك الدور الذى أتى لهم بالحسد والكراهية كيهود . كان أحيانا يوجد تحول نتيجة ضغط في القرون الوسطى ولكن ذلك كان نادرا وبمناسبة قليلة .

إن أول طرد جماعى لليهود من دولة بأكملها كان من إنجلترا في سنة ١٢٩٠ ويبدو أن ذلك لم يترك أثرا بين الإنجليز كما أن الأعداد كانت قليلة.

ولكن حالة أخرى مختلفة تماما قامت في إسبانيا حيث وجد اليهود بكميات كبيرة ، وكانوا يحتلون مكانا مرموقا في الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بل وأحيانا في الحياة السياسية للدولة. إن وضعهم تأثر جدا سلبا وإيجابا خيرا وشرا بالأثر الذى تركته ثمانية القرون من النضال بين الإسلام والمسيحية للسيطرة على شبه الجزيرة. فبينما كان المسلمون والمسيحيون يعيشون جنبا إلى جنب فان كليهما كان مضطرا حتى في أوقات الحروب إلى أن يظهر الشيء الكثير من تحمل البعض للآخر . وقد استفاد اليهود من ذلك في كل من إسبانيا المسيحية وإسبانيا المسلمة. ولكن عندما اقترب النصر المسيحى النهائى فإن الرغبة قلت جدا في تحمل أي عنصر يهدد وحدة إسبانيا الكاثوليكية.

فى سنة ١٤٩٢ عند هزيمة وقهر إمارة غرناطة آخر معاقل الإسلام في الأرض الإسبانية فإن إعادة الاستيلاء على الأرض وإعادة إدخال المسيحية تم إكمالها .وفى نفس السنة صدر مرسوم بإبعاد اليهود تبعه بعد ذلك بسنوات مرسوم مماثل ضد المسلمين.

وقد أعطى أتباع الدينين الخيار بين النفى أو اعتناق المسيحية أو الموت. ومن ذلك الوقت لم يبق أي يهودى محتفظ بدينه أو مسلم باق على الإسلام في إسبانيا وبعد ذلك بسنوات قليلة حتى في البرتغال ، أعداد كبيرة رحلت إلى المنفى ، ولكن كثيرين فضلوا البقاء ومروا بتقاليد التعميد حتى ينطبق عليهم الوصف بأنهم مسيحيون لهم الحق في البقاء.

وطبعا لا يبعث على الدهشة أن جيرانهم كانوا ينظرون اليهم ببعض الشك ، ولا شك في أنه كانت هناك اعداد كبيرة من هؤلاء المسلمين واليهود السابقين يتنكرون في الشكل الكاثوليكى.

إن المسلمين السابقين الذين تحولوا ظاهريا إلى المسيحية كانول يدعون موريسكو وذلك نسبة إلى وطنهم الأم في إفريقيا (موريسكو هنا تعريبها قد يكون مراكش) . أما الآخرون وهم اليهود الذين لم يكن لهم وطن آخر غير إسبانيا فكانوا يلقبون المارانو وهى كلمة إسبانية معناها الخنزير، وكان التعبير المهذب لوصف الفريقين هو المسيحيين الجدد ، وذلك بالمقارنة بالمسيحيين القدامى الذين لا تعلق بهم أي آثار من الدم العربى أو اليهودى . وحتى قبل مرسوم الطرد فإن غياب أو وجود هذه البقعة الوسخة في الدم أصبحت مسألة مستولية على الإسبان ، مؤثرة في التاج وفى الكنيسة وفى الجزء الأكبر من المجتمع الإسبانى.

والمتحول إلى المسيحية كان مشكوكا فيه من الثلاثة ، من الكنيسة والتاج والمجتمع.

فإن الملك كان محتاجا إلى الولاء ضد العدو العربى القديم. كما أن الهيئة المقدسة للتفتيش التى عرفت فيما بعد باسم محاكم التفتيش كانت مصرة على القضاء على الكفر وعدم الاعتقاد. وأين كان يمكن لهذين الخطرين أن يعرضا إلا بين المتحولين ومن تناسل منهم ؟

أما الشعب عموما الذى سره طرد جيرانه و منافسيه فإنه ساءه أن يجد أن كثيرا منهم ما زالوا باقين متخفين في شكل المسيحيين. وإنه ليرجع في القدم إلى سنة ١٤٤٩ حيث صدر أول قانون بشأن نظافة الدم والذى نشر وأعلن في توليدو.

إن ذلك القانون أعلن أن المتحولين لا يستحقون أن يشغلوا مناصب عامة أو خاصة في اراضى توليدو إذ تلك المناصب يلزم فيها توافر الثقة.

وسلسلة أخرى من القوانين المقصود منها تحقيق طهارة الدم تتابعت في القرن الخامس عشر وما بعده والتى بمقتضاها حرم على المورسكو والمارانو أن يتولوا مراكز عديدة مختلفة أو حتى الدخول في فصائل دينية بعينها وكذلك في المكتب المقدس للتفتيش حيث كان المتحولون السابقون في وقت مبكر نشطين .

وفى سنة ١٦٢٨ ثم بعد ذلك بقليل فإن أحد هؤلاء المفتشين المذكورين يدعى جوان إسكوبار ديكورو شرح ما هو المقصود بقوله : إننا نعنى بالمتحولين أي شخص متناسل من اليهود أو المسلمين مهما بلغت درجة البعد في ذلك التناسل ، وكذلك فإن

المسيحى الجديد يوصف بأنه مسيحى جديد ليس لأنه تحول إلى المسيحية حديثا ولكن لأنه متناسل من جدوده الذين تحولوا إلى المسيحية الدين الصحيح.

وكثير من الفصائل الدينية الكهنوتية اتخذت قواعد تمنع المتحولين وأولادهم وأحفادهم من العضوية. وفى البداية فإن البابوية في روما كانت ضد هذه القواعد ص٨٤ مصرة على أن كل المعمدين متساوون.

ولكن في سنة ١٤٩٥ حيث تولى البابوية بابا إسبانى وهو إسكندر السادس، فإنه وافق رسميا على قرار أصدره على فصيل إسبانى من تلك الفصائل يحرم العضوية على كل المتحولين. وبعد ذلك فإن تلك القوانين والقرارات تقبلها البابوات . فعلى سبيل المثال في سنة ١٥١٥ الأركبيشوب في سافيل وهو كان في السابق مفتشا عاما من مكتب التفتيش منع الجيل الثانى المتناسل من الكفرة من أن يتولوا أي منصب دينى أو منصب يعود عليه بالفائدة في كاتدرائية تلك المدينة .

وقد وافق البابا على هذه القرار الذى امتد إلى أن يشمل الأحفاد وأولاد الأحفاد لهؤلاء الكفرة .

وفى سنة ١٥٣٥ فإن مطران قرطبة اتخذ قرارا مماثلا ولكنه ذهب إلى أبعد حيث منع قبول المسيحيين الجدد بين فرق الترتيل في الكنائس واصفا أولاد اليهود والمتحولين بأنهم قبيلة تسبب المتاعب ، فهم متظاهرون طامحون قلقون معتنقون لكل ما هو جديد أو معارض، وحيث توجد مثل هذه القبيلة فلا يمكن أن يوجد سلام.

وكان هذا القرار يعتبر أن قبول مثل هؤلاء معاد لمصلحة الكنيسة. وقد وضع القرار طريقة للتأكد من نظافة دم أي مرشح لهذه المناصب الكنسية. فكان عليه أن يقسم قسما مقدسا بأنه ليس من أصل يهودى أو عربى ويجب أن يعطى أسماء آبائه وأجداده ومكان ميلادهم. وبعد ذلك كان يرسل محققا إلى تلك الأماكن وبعد أن يتثبت من ذلك المحقق ومن أنه لا يوجد مسيحيون جدد في جدود المتقدم يمكن قبول ذلك الشخص في الوظائف الكنيسية.

إن في الأساس الاهتمام بطهارة الدم كان شيئا دينيا وليس عرقيا. إنه بدأ بالشكوك في أن المتحول في حقيقته مسيحى باطل وغير مخلص، وإنه يورث أبناءه تلك الصفات. إن معنى طهارة الدم لم يكن جديدا، فإنه في الماضى في أوروبا المسيحية في

القرون الوسطى كان للطهارة تلك دلالة اجتماعية وليس لها دلالة عرقية، انها كانت تنبع من الاهتمام بالسيادة الأرستقراطية وليس بالسيادة العنصرية. ولكن الأحوال الخاصة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر في إسبانيا من حيث المواجهة القديمة مع العرب والمواجهة الجديدة مع السود والهنود في إفريقيا والأمريكتين المكتشفتين حديثا وحضور ووجود أعداد كبيرة من هؤلاء المسيحيين الجدد في إسبانيا وفى مراكز وأنشطة فعالة ، كل ذلك أضاف معنى أو عنصرا عرقيا جنسيا ص٨٥
في الكراهية التى كانت توجه إلى تلك المجموعات .

ولكن حتى حينما كانت محاكم التفتيش الإسبانية تكمل دورها وهو البحث والقضاء على البقية الباقية من اليهودية الإسبانية والإسلام فإن روحا جديدة كانت تنشأ في الشمال، ونشأت أفكار جديدة معارضة للفكر القديم تقول إن الدين شيء خاص ولا يخص الدولة وإن إتباع كل الأديان متساوون في حقوق الرعوية.

والنتائج الفظيعة للحروب الدينية وشبه الدينية التى خربت فرنسا وألمانيا والأراضى الواطئة وإنجلترا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، والتعب من تبعات الحرب أنتجت عدم اهتمام أخذ في الظهور . إن التعصب الدينى الشامل الذى ساد في وقت ما لم يمت تماما ولكن أعدادا كبيرة من الناس حكاما وفلاسفة بدأوا يبحثون عن طرق يستطيع بها الكاثوليك والبروتستانت من مدارس مختلفة أن يعيشوا جنبا إلى جنب في سلام بدلا من الدخول في حروب دائمة.

وواحد من أعظم أصحاب النفوذ في ذلك كان الفيلسوف الإنجليزى جون لوك الذى نشر كتابه بعنوان" رسالة ضد التعصب " باللاتينية والإنجليزية في سنة ١٦٨٩ .

إن كثيرا من الآراء التى عبر عنها كانت متداولة بين الفلاسفة في بريطانيا وفى القارة الأوروبية ولكن لوك تميز بأنه فاق سابقيه وقد بان ذلك في النتيجة التى انتهى إليها بأن الوثنى والمحمدى واليهودى يجب ألا يبعدوا عن مزاولة حقوقهم المدنية لمجرد اختلافهم في الدين أو بسبب دينهم.

إنه لم يكن هناك محمديون في أوروبا الغربية وقليلون جدا هم الذين جرءوا على أن يعلنوا عن أنفسهم بأنهم وثنيون ولكن كان هناك يهود هم الذين بدءوا يحسون بالتدريج بهذا الاتجاه الجديد وبالفرص التى يحققها لهم.

إن أول دولة أوروبية أعطت الحقوق المدنية لرعاياها اليهود كانت هي هولندا ، وتبعها بوقت قصير في ذلك إنجلترا التى أعطت حقوقا كثيرة لليهود وإن كانت غيرمساوية لحقوق الإنجليز وفى إنجلترا وفى المستعمرات الإنجليزية فيما وراء البحار.

إن آراء لوك وغيره من المتحررين الإنجليز أو دعاة الحرية الإنجليز انتشرت في المستعمرات الأمريكية وامتدت إلى فرنسا حيث ساهمت تلك الأفكار بجزء مهم في أفكار الثورتين الأمريكية والفرنسية. وبالرغم من أن أيا من الثورتين لم يعط فورا مساواة تامة للرعايا اليهود فإن كلتيهما خطا الخطوة الأولى التى انتهت إلى تمام ذلك الاتجاه.

وفى ألمانيا أيضا ، فإن النهضة التنويرية في القرن الثامن عشر أتت بتحول في الإحساس ولو أنه لم يحدث حتى وقت قهر ألمانيا بواسطة الجيوش النابليونية أن تلك الاتجاهات أو النظريات الثورية الجديدة أعطت شيئا من الحقوق المدنية لليهود الألمان.

إن تلك الحقوق التى فرضتها الحراب الفرنسية كانت سببا لاضطراب عظيم في السنوات التى تلت رحيل الفرنسيين .

وحتى في فرنسا الثورية فإن الطريق إلى الحرية لم تجر ناعمة معبدة . أن الاعلانات الشهيرة لحقوق الإنسان التى أعلنتها الجمعية الوطنية الفرنسية الأولى في نهاية أغسطس ١٧٨٩ كان فيها فراغات مهمة. فأولا : إنها لم تنطبق على العبيد السود في مستعمرات فرنسا في الهند الغربية والذين أصبح مصيرهم مثارا لمناقشات حامية . ص٨٦

إن تحريرهم لم يأت إلا بعد ذلك بوقت. أما بالنسبة لليهود الذين كانوا موجودين وظاهرين في فرنسا نفسها فإن المسائل سارت على وتيرة أسرع.

ففى يناير سنة ١٧٩٠ وبعد المناقشات فإن وضع "المواطن العامل" مد ليشمل الجالية السيفاردية المقيمة في بوردو ، ولكن الأعداد الكبيرة من اليهود في الإلزاس واللورين الذين كانوا يعيشون بين أناس أكثر عداء فإنهم استثنوا ولم تصدر الجمعية الوطنية قانونا باعطاء اليهود حقوقهم الا في سبتمبر سنة ١٧٩١ .

إن كثيرا من المداخلات في المناقشات التى دارت عبرت بطريقة واضحة عن وجهة النظر السائدة في القرن الثامن عشر المتنور وأفكار فلاسفته. وعلى سبيل المثال فإن متكلما بروتستانتيا في أثناء دفاعه عن حقوق أهله أضاف كلمة لليهود كذلك قائلا : « إننى أطلب منكم أيها السادة بالنسبة للفرنسيين البروتستانت وكل الرعايا غير الكاثوليك ما تطلبونه أنتم لأنفسكم من الحرية والمساواة في الحقوق .

إننى أطلب ذلك أيضا للناس الذين انتزعوا من آسيا دائما هائمين دائما ملعونين دائما مضطهدين ولمدة أكثر من ثمانية عشر قرنا ، الذين و لا شك سيتبعون عوائدنا وعاداتنا إذا أدخلناهم بالقانون في زمرتنا، وإننا لا حق لنا في أن نعيب على أخلاقهم لأنهم نتاج سلوكنا البربرى الذى اضطهدهم ولعنهم » .

وروبسبيير نفسه طالب الجمعية الوطنية بقوله : « إن عيوب اليهود إنما سببها الاضطهاد الذى رميتموهم فيه ، إنهم سيكونون صالحين حينما يجدون بعض الفائدة في أن يكونوا صالحين » .

إن تلك التصريحات في الدفاع عن اليهود وحقوقهم لم تبدأ بالثورة الفرنسية . إنها كانت جزءا من ميراث تقليدى يرجع إلى أواخر القرن السابع عشر واستمر إلى القرن العشرين. وهو تقليد أو ميراث سمى الفيلوسيميتزم أي الفلسفة المدافعة عن السامية التى دافعت عن اليهود ضد منتقصيهم ومهاجميهم، وأرجعت خطاياهم إلى خطيئة الاضطهاد ودعت إلى قبولهم أعضاء متساوين تماما في الرعوية.

إن تلك كانت ظاهرة جديدة لا سابقة لها في تاريخ المسيحية. وقد كان لها أثر كبير على اليهود الذين في هذا الجو الجديد وبفضل القوانين الجديدة بدءوا في الظهور بحرص في البداية ثم بثقة أكثر من عزلتهم و ذلك من الجيتو التى حددت إقامتهم فيها وجيرانهم ومن جيتو العقل الذين هم حبسوا أنفسهم فيه .

ولكن تلك الأحوال الجديدة أتت بأعداء جدد أو على الاقل بشكل جديد من العداوة. ص٨٧

نوع من هذا العداء الجديد جاء من نفس الدوائر التى كانت هى أكبر أثرا من تحرير اليهود وهى بعض الفلاسفة الليبراليين واللادينيين من الفلاسفة و

العلمانيين. فإن الكنيسة كانت في نظر هؤلاء هي العدو الأول للانسانية . والإنجيل الذي هو كتاب يهودي كان هو أداة الكنيسة.

إن عبارة فولتير الشهيرة التى تقول : « دوسوا على العار »عبرت تعبيرا دقيقا عما كان يظنه العلمانيون في الكنيسة. وما كانوا يرغبون حقيقة في أن يفعلوا بها. ولكن أوروبا القرن الثامن عشر، و حتى في الديموقراطيات البروتستانتية فإن مهاجمة الكنيسة ومناقشة التوراة كانتا مازالتا شيئين تحفهما المخاطر إن لم يكونا مستحيلين.

إنه كان من الأسهل والأسلم مهاجمة العدو من الخلف وذلك بانتقاد وتعرية والسخرية من العهد القديم أي التوراة وليس من العهد الجديد الذى هو إنجيل المسيحية. والهجوم ليس على المسيحية ، بل على اليهودية التى هى النبع التى خرجت منها المسيحية والتى ما زالت تحتفظ بكثير من خصائصها . فإن كان بالنسبة للمسيحيين، جريمة اليهود هم أنهم قتلوا المسيح ، فبالنسبة لأعداء المسيحية الجدد فإن جريمة اليهود كانت في أنهم أنتجوا ورعو المسيح لا أنهم قتلوه.

إن هذا الخط من التفكير استمر في القرن التاسع عشر، حيث قام اتهام شهير ضد الكنيسة الكاثوليكية بواسطة أعدائها في ألمانيا ، والذى يقولون فيه إن الكنيسة مخترقة تماما بالساميين. إن تلك المقولة وصلت إلى أقسى حالاتها في عهد هتلر. إن أكثر نقاد اليهود عنفا وتحمسا على هذه الخطوط كان فولتير العظيم الذى كان عداؤه لليهودية و لليهود (يقال إنه كان بسبب بعض المصاعب الشخصية مع بعض اليهود ، ذلك العداء قد وجد طريقه إلى كتاباته .

وفى الواقع أو الحقيقة إن السؤال هو : هل فولتير كان عدوا لليهود لأنه كان عدوا للكهنوت أم كان عدوا للمسيحية لأنه كان عدوا لليهود ؟ إن ملاحظا دقيق الملاحظة واسمه الأمير دولينى DELIGNE بعد قضاء ثمانية أيام ضيفا على فولتير في منزله في فرناى والاستماع المطول إلى ارائه قال : « إن السبب الوحيد الذى جعل مسيو فولتير يقول تلك التعبيرات الغاضبة ضد السيد المسيح هو أن السيد المسيح في نظره ولد في قوم هو يحتقرهم إذ أن السيد المسيح ولد يهوديا » . وقد قال فولتير نفسه في واحدة من كتاباته و بلغته الإنجليزية هو « إننى حينما أرى مسيحيين

يلعنون اليهود فإننى أتصور أننى أرى أطفالا يضربون ابائهم . إن الديانة اليهودية هى أم المسيحية وجد المحمدية » . وهناك دلائل أخرى في كتابات فولتير يمكن وصفها بأنها كتابات عنصرية ، من ذلك مثلا حينما قال مخطئا إنه في روما القديمة كان اليهود يعتبرون في وضع كوضع السود البرابرة أي أنهم جزء منحط من الإنسانية. وفى مكان آخر وللسخرية في كتابه "بحث في الميتافيزيقية " فإن الفيلسوف ص٨٨
الذى يتكلم على لسانه يقول : « إن الرجال البيض يبدو لى أنهم أعلى من السود ، وإن السود اعلى من القردة ،وإن القردة أعلى من القواقع » إن دليلا على تعصب فولتير ضد السود يمكن إرجاعه إلى تفصيل ورد في مذكراته . إن ذلك الفيلسوف كان مشتبكا في عدد من العمليات المالية بعضها يدعو إلى التساؤل . إحدى تلك العمليات كانت استثمارا كبيرا في تجارة الرقيق بدءًا من الميناء الفرنسى نانت والتى يقول عنها شهود العصر إن تلك التجارة جعلته واحدا من أغنى عشرين شخصا في المملكة.

إن العداء للسود و الدفاع عن تجارة الرقيق التى كانت مربحة جدا ، هما اللذان أديا إلى ظهور هذا الشكل الجديد من أشكال العنصرية. ولكن تلك الكراهية العنصرية لم تطبق على اليهود إلا في وقت لاحق .

إن الأمريكيين والفرنسيين الثوار بالرغم من حبهم العارم للحرية فقد أهملوا أن يمدوا تلك الحرية إلى عبيدهم السود هؤلاء الموجودين في الولايات الجنوبية و في الهند الغربية.

إن ذلك التناقض لم يمر دون أن يلاحظ . ولم يمر وقت كثير حتى وجد ملاك العبيد والمتعاملون في الرق وملاك المزارع في الجنوب الذين يستخدمون الرقيق ، وجدوا أنفسهم في موقف المدافع ضد تيار متناهي من النقد الذى يرجع إلى وقت سابق على الثورات الأمريكية و الفرنسية في ثلاث من دول أوروبا الغربية المستعمرة و هى إنجلترا و فرنسا وهولندا- ثم في وقت لاحق في الولايات المتحدة .

فبالنسبة للأشخاص العاديين فإن أعمالهم يمكن تفسيرها بالطمع في المال ، أما بالنسبة إلى مجتمع يتبع رسميا ديانة و فلسفة اجتماعية فإنه كان لابد من إيجاد تعليل أو تبرير نظرى حتى يبرر لأنفسهم وللآخرين عملهم الشاذ في استبعاد جنس

بأكمله. فحين قام الإسرائيليون وطبقا للعادات المتبعة في العالم القديم ، واستبعدوا الكنعانيين الذين قهروهم فإنهم أحسوا بضرورة إيجاد تفسير لذلك بمقتضى تعاليمهم الدينية ، ووجدوا تفسيرا أو تعليلا في قصة لعنة حام بن نوح الذى ارتكب خطأ ضد والده و لذلك عوقب بلعنة أن يستبعد، وهذه اللعنة وقعت عليه وعلى من تناسل منه.

ففى القصة التوراتية وقعت هذه اللعنة على خط واحد من المتناسلين منه وهم الكنعانيون. وحينما تقدم المسلمون العرب في إفريقيا الاستوائية قادمين من الشرق الأوسط وشمال إفريقيا وبدءوا الطوفان العظيم من العبيد السود إلى العالم الخارجى فإنهم هم كذلك أحسوا بالحاجة إلى تبرير أعمالهم .

وكان أول تبرير أو أول إجابة هو أن السود كانوا وثنيين ، ولذلك فهم عرضة لحرب مقدسة و للاستبعاد ، وحينما انتشر الإسلام بين السود لم يصبح ذلك التعليل ص٨٩
كافيا، ولذلك فقد اتبع بعضهم قصة لعنة حام و نقلوها من الكنعانيين إلى الإفريقيين وعدلوا اللعنة إلى لعنة مضاعفة من الرق و سواد اللون.

إن بعض تلك الأقاصيص القديمة وفى القرون الوسطى وجدت طريقها من خلال إسبانيا والبرتغال والجزر الأطلنطية إلى المستعمرات و مزارع العبيد في العالم الجديد ولكن بنهاية القرن الثامن عشر بعد الثورة الأمريكية والفرنسية فإن لعنة حام و تعليلات مثل هذه لم تصبح كافية. ولذلك فقد وجد بديل أو تكميل في العلم الجديد علم الأجناس الذى كان قد تقدم تقدما كبيرا في ذلك الوقت.

فالعلماء آنذاك بدءوا في تقسيم الإنسان إلى أقسام طبقا للون وحجم وشكل الجسم و حجم وشكل الجمجمة. فمن علماء الأجناس جاءت تلك المعرفة الجديدة التي أثرت على شخصيات مثقفة كجوان جوتفرد هيردر الذى عاش من ١٨٤٤ إلى ١٩٠٣ وإيمانويل كانت من ١٧٢٤ إلى ١٨٠٤ اللذين أعطيا أهمية للعوامل الجنسية و العرقية في الثقافة وفى التاريخ .

فهيردر وكانت Kant كعلماء الأجناس الأول كانا ما زالا شخصين من عهد التنوير. ولو أنهما كانا مرتبطين باجناسهم و لكنهما كانا على استعداد لاحترام الأجناس الأخرى ولم يوجدا فلسفة تنادى بالتعالى الجنسى أو التفوق الجنسى.

ولكن بعض الكتاب في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر أوجدوا أو قدموا فكرة جديدة كان لها آثار بعيدة و مدمرة. إن الناس الذين دائما اعتقدوا أن هؤلاء الذين يشبهونهم في جنسهم و في صفاتهم الخلقية كانوا أجانب ، ومن المحتمل أن يكونوا معادين .

إنهم الآن اصبحوا يعلمون أن الآخرين ليسوا مختلفين فقط و لكنهم أقل أي دونهم، لذلك فهم محكوم عليهم عرقيا بأن يعيشوا في دور أدنى و مقضى عليهم بأن يبقوا في هذا الدور.

وعلى الخصوص و طبقا لهذا المفهوم ، فإن السود لم يكونوا فقط غير متحضرين (وانعدام الحضارة هذا كان يمكن تفسيره أو نسبته إلى الظروف الجغرافية والتاريخية) ولكنهم كانوا أيضا على خلاف البيض متوحشين يجوبون الغابات في شمال أوروبا في الزمن القديم غير قابلين ولا قادرين على أن يصبحوا متحضرين ، و لذلك- وهذه هى النقطة المهمة في النظرية- كانوا هم ملائمين لحياة نافعة كأرقاء.

ومناقشات أو راء متشابهة ولأسباب مشابهة يمكن أن توجد هذه الأفكار بين بعض الفلاسفة الإسلاميين في القرون الوسطى مع اختلاف في أنهم طبقوا النظرية على الشماليين أصحاب الجلد الأبيض كما على الجنوبيين أصحاب الجلد الأسود، ص٩٠
فكلاهما يختلف عن اللون البنى الخفيف أو اللون الأسمر (وهو اللون المثالى في الشرق الاوسط) . والذين كانوا طبقا لهذه النظرية قد خلقهم الله لخدمة هؤلاء.

إن تطبيق هذه العنصرية الجديدة على اليهود يبدو أنها بدأت من السنوات الأولى للقرن التاسع عشر، وشجعها أو قوى منها الصراع الألمانى ضد حكم نابليون وآراء الثورة الفرنسية. ففى كراسة نشرت في سنة ١٨٠٣ وعنوانها " ضد اليهود كلمة للتحذير لكل المواطنين المسيحيين" يقول الكاتب : « إن كون اليهود جنسا خاصا حقيقة لا يمكن إنكارها بواسطة المؤرخين أو علماء الأجناس، وإن الفكرة السابق اعتناقها وهى صحيحة والتى تقول إن الإله عاقب اليهود بإعطائهم رائحة خاصة سيئة، وبأمراض متوارثة بينهم وبمناقص أخرى ، وإن كان لايمكن إثباتها فإنه على الجانب الآخر لا يمكن عدم إثباتها » .

فى هذا المثال الخلط بين تعصب القرون الوسطى والأفكار المدعية للعلم في القرون الحديثة مسألة ظاهرة ، ولكن في خلال القرن التاسع عشر فإن تلك الأفكار أصبحت مقبولة أكثر. فإن مذهب أن الأجناس ليست متساوية ويمكن وضعها في وضع طبقى من أعلى إلى الأدنى لم يكن شيئا جديدا .

إن ذلك موجود فعلا في فلسفة أرسطوطاليس وغيره من الكتاب الإغريقيين القدماء، وعاد إلى الظهور بين الفلاسفة الإسلاميين في القرون الوسطى. فبالنسبة للإغريق القدماء ومسلمي القرون الوسطى والفلاسفة المحدثين ، تلك الأفكار خدمت نفس الغرض وهو تبرير الرقيق. وحتى هيردر وكانت KANT في بعض الكتابات يخونان مبادئهما . فالأول هيردر في ملاحظاته ضد السود والثانى KANT في ملاحظاته بالنسسبة لليهود . كان هناك آخرون يفضلون وجهة النظر التى عبر عنها العالم الألمانى الإنسانى العظيم ألكسندر فولهامبلوت الذى قال : « الاعتقاد بوحدة الأجناس البشرية يؤدى إلى أن نستبعد تلك التفرقة البغيضة بين اجناس عالية واخرى ناقصة.إن الجميع مؤهلون للحرية »

وناقلا عن أخيه ولهلم فون هامبلوت فإنه قال: « إنه يجب أن ننظر إلى الإنسانية في مجموعها بلا تفرقة بين دين وقوم وجنس ، فالجميع عائلة كبرى من الإخوة كجسم واحد ماشين نحو هدف واحد ألا وهو التنمية الحرة لقواها الأخلاقية والمعنوية".

إن تلك المذاهب التى تنادى بعدم المساواة بين الأجناس ولو أنها لم تغب تماما إلا أنها لا تمثل إلا جزءا بسيطا من الكتابات ضد اليهودية وذلك حتى نصف القرن التاسع عشر.

إن الشخص المدعو كاونت دى جوبينو De Gobineau نشر كتابا سماه " شرح في عدم تساوى الأجناس" نشر في سنة ١٨٥٣ إلى ١٨٥٥ وأصبح كتابا كلاسيكيا في مذاهب التفضيل العنصرى، حتى ذلك الكتاب لم يكن معنيا باليهود ولكن على ص٩١
العكس فإن الهجوم على اليهود ركز على اتهامين كلاهما نتيجة لتحرر اليهود في أوروبا الغربية ودخولهم في المجتمع الأوروبى.

واحد منهما أن اليهود في الحقيقة قاوموا الاندماج في المجتمع ، والثاني أن نفس اليهودى نجح جدا في هذا الاندماج. إن الهجوم الأول كان تعبيرا حديثا عن اتهام

معهود منذ القدم، وقد أنشأه وكونه ونادى به بكره اليهود الكلاسيكى حامان الذى قال للملك أهاسوروس : « هناك قوم منتشرون بين الناس وفى كل مقاطعات المملكة، وهؤلاء الناس قوانينهم تختلف عن قوانين باقى الناس وهم لا يتبعون قوانين الملك وذلك ليس من مصلحة الملك أن يتحملهم » (التوراة استر ٣: ٨).

وبطريقة أخف فإن نفس الشكوى شكا بها عدد من الإغريق والمؤلفين الرومان الذين لم يستطيعوا أن يفهموا لماذا يستمر اليهود في عبادة وإطاعة إلههم هذا الغريب الذى هو في نفس الوقت إله خاص بهم ومع ذلك فهو كونى، ولماذا لا يتركون هذا الإله وتقاليده وقواعده تأخذ محلها في الديانة المتسامحة الإغريقية والرومانية حيث تتعدد الآلهة.

إن ملوك واساقفة المسيحية في القرون الوسطى كان عندهم فهم أدق لمركز اليهود وأصروا حتى أكثر من اليهود- ولو كان ذلك لأسباب أخرى- على انفرادية وتفرد اليهود.

فإن الانعقاد الرابع للمجمع المقدس الذى جمعه البابا إينوسنت لثالث في سنة ١٢١٥ قرر أن اليهود يجب أن يلبسوا شارة أو علامة على ملابسهم الخارجية لتفريقهم عن المسيحيين. ذلك التحديد الذى كان منقولا عن عادة إسلامية قديمة انتشر بشكل واسع، وأصبحت علامة العار هذه وهى تقريبا دائما صفراء تفرد في كثير من أنحاء اوروبا.

ونظام الجيتو بدأ حتى في وقت أسبق. إن جهودا متفرقة للسلطات المحلية في أوروبا قامت لعزل اليهود في أماكن معينة. وفى سنة ١١٧٩ المجتمع المقدس الثالث قرر أن "المسيحيين الذين يداومون على العيش معهم (اليهود) يجب إخراجهم من الكنيسة".

ومع نمو ذلك العداء فإن تلك الأحياء التى بدأت يهودية أصبحت شكلا من أشكال العزل الإجبارى .

إن كلمة جيتو يبدو أنها استعملت أولا في فينيسيا حيث في سنة ١٥١٦ عزل أو حددت إقامة اليهود في جزء من المدينة يسمى الجيتو ، وهى كلمة محلية معناها مصنع السلاح أو مسبك المدافع. إن عادة العزل هي وتعبير جيتو انتشرا وامتدا

بسرعة إلى المدن الإيطالية الأخرى ، ثم إلى أجزاء أخرى من أوروبا وأصبح يدل على الاحياء المسورة ذات الأبواب المغلقة حيث كان اليهود مودعين طبقا للقانون والذين لم يكن يسمح لهم بالخروج إلا في أوقات محددة وبتصاريخ خاصة .

أما المسيحيون الذين أتوا بعد ذلك العهد وأحيانا العلمانيون كارهو المسيحية والليبراليون فلم يروا سببا لإبقاء تلك التفريقات التى نظروا إليها على أنها جزء من النظام أو العهد القديم الذي عاهدوا أنفسهم على إلغائه وإلغاء آثاره. فبالنسبة لهم التفرقة ضد اليهود كانت شرا وعلى وجه الخصوص بالنسبة لليهود أنفسهم الذين هم محل المعاناة وهم الضحايا الأساسيون. ص٩٢

والبعض حتى من هؤلاء أعطى هذه التفريقات أساسا شبه عنصرى أو محتوى شبه عنصرى وأضافوا إلى لائحة الصفات السيئة المنسوبة لليهود مقررين أن أساسها ليس فقط جو الاضطهاد والضغط الذي كانوا يعانون منه بل أيضا الآثار العنصرية أوالجنسية للتزاوج فيما بينهم.

والإمبراطور نابليون مثال جيد لهذا الخلط في المعتقدات والأهداف التى اعتنقها الثوار الفرنسيون ومن تلاهم تجاه اليهود. نابليون لم يفرد اليهود من رعاياه ويختصهم باضطهاد خاص بل يبدو أنه كان ذا مقاصد حميدة تجاههم، فمنذ سنة ١٧٩٨ في وقت حملته في مصر فإنه نشر إعلانا إلى اليهود يدعوهم فيه إلى الدخول في قواته والمعاونة في إعادة فتح الأرض المقدسة أو الأرض الموعودة .

وليس من المدهش أن شيئا لم ينتج من هذا ولكن القضية أو المسألة اليهودية استمرت في جذب نظره أو انشغاله بها أحيانا. وكغيره من أهل ذلك العهد فإن إعلانات نابليون في المسألة اليهودية يبدو إنها تتبع بقايا التعصبات الدينية للقرون المتوسطة مع بدايات شبه العلم في العهد الحديث.

إن اليهود بالنسبة لنابليون كانوا جنسا مطعما بالدم الفاسد. إن الخير لهم لا يمكن أن يقدم إلا ببطء ودمهم الفاسد لايمكن إصلاحه إلا بالزمن. وكان علاج نابليون لهذه الحالة في نظره هو الزواج المختلط على نطاق واسع فيقول : « إنه في كل ثلاثة زيجات لابد أن يكون واحد منهم بين يهودى أو فرنسى » وبذلك فإن دم اليهود بالاختلاط سيتوقف على أن يكون له صفات خاصة غريبة. يجب ملاحظة هنا أنه

بالنسبة للإمبراطور فإن الزواج المختلط الذى كان يرغب فيه كان سيكون بين اليهود والفرنسيين وليس بين اليهود والمسيحيين لأن الفرق بينهم كان هو الدم وليس العقيدة.

إن الكونت ستانسيلاس دى كلير مونت تونير كان يعبر عن نظرية عامة حينما حض الجمعية الفرنسية الوطنية في ديسمبر سنة ١٧٨٩ على أن " يرفضوا اعطاء كل شيء لليهود كقومية وإعطاء كل شيء لليهود كأشخاص" .

إنه كان رأيا عاما بين الفلاسفة المتعاطفين مع السامية . إن انعزال اليهود هو شيء غريب وهو السبب في كثير من مناقص اليهود تلك المناقص التى كانوا على استعداد للاعتراف بها.

إن الحل كان في إنهاء ذلك الشيء الغريب وأن يخرج اليهود من مستعمراتهم أو الجيتو وأن يصبحوا جزءا من عموم الجمهور بكل الطرق أو بعبارة أخرى أن يتوقفوا على أن يصبحوا يهودا بأى معنى له أهمية.

وليسينج وهو على الأرجح أكبر هؤلاء الفلاسفة المتسيِّمين الأوروبيين يسخر بخبث من هذا الاتجاه.

ففى واحدة من مسرحياته فإن خادما بذيئا وغير مهذب عالى الصوت معاد للسامية يكتشف فجأة أن سيده الذى يحبه ويحترمه ليس إلا يهوديا ، ويحاول عند هذا الاكتشاف الاعتذار عن ملاحظته المعادية السابقة بقوله : « أن هناك بعض اليهود الذين هم ليسوا يهوديون اطلاقا ». إن بعض اليهود يستجيبون لهذا النوع من الدفاع وهذه الدعوة المقنعة بحماسة عظيمة ، والبعض الآخر يردون بغضب. وكلا الانفعالين ما زالا موجودين بين اليهود إلى وقتنا الحالى.

وفى حين أن هؤلاء اليهود الذين أصروا على البقاء في الجيتو أشاعوا نوعا من الاستياء، فإن اخوانهم الذين قبلوا الدعوة للخروج وجدوا أنفسهم مواجهين بأعداء آخرين أكثر خطرا وأكثر جدية. ص٩٣

فإنه وقبل مرور وقت طويل بدأ اليهود يظهرون بأعداد كبيرة في المدارس وفى الجامعات. أخيرا حين قبلوا في المهن ، وكما حدث في القرون الوسطى قابلوا عقبات بسيطة في عوالم المال والتجارة.

ولكنهم بينما كانوا في القرون الوسطى وباستثناءات قليلة مجرد مرابين أو تجار أرصفة أو باعة متجولين ، في القرن التاسع عشر في أوروبا الناجحون منهم أصبحوا أصحاب بنوك مصرفيون وسماسرة أوراق مالية وماليون ومستثمرون. قليلون جدا بالطبع هم الذين وصلوا إلى تلك الدرجات العالية ولكن البقية كان فيها ما يكفى لإيجاد صورة هذا اليهودى الجديد.

أما في القرن التاسع عشر وإلى حد ما القرن العشرين فإن كتابة الرواية في الفرنسية والإنجليزية والألمانية تقدم بعض الشخصيات اليهودية التى تدعو للتأمل. وتلك الروايات تعكس رد الفعل أو إحساس أوروبا المسيحية الذى هو أحيانا إيجابى وفى معظم الوقت سلبى تجاه ذلك العنصر الجديد الذى كان يخترق أوساطهم ، فعلى سبيل المثال تصوير اليهودى بواسطة الكاتب الإنجليزى ترولوب في إنجلترا وبلزاك في فرنسا على أنه ذلك الثرثار الطماع ذو المطامع والأهداف الاستحواذية، الذى يستولى ويفسد وذلك باستعمال مهارته في الحصول على المال واستخدام ذلك المال لتحقيق أغراضه.

أن شخصية الثرثار المفسد ليس مقتصرا على اليهود على الخصوص ولا حتى هو يمثل الأغلبية في تلك القصص والروايات. ولكن كان هناك دائما كتاب يشاركون تى إس إيليوت في عبارته التى قال فيها : « إن الفأر يكمن تحت الأكوام وإن اليهودى موجود تحت هذا كله » .

ومن القرون الوسطى حتى الوقت الحالى فإن اليهود كان لهم في المسيحية مدافعون ومهاجمون. فإن كان بعض الباباوات فرضوا الجيتو والبطاقة الصفراء فإن آخرون حاولوا رفع ذلك الحمل اليهودى. وأهم من يذكر من بينهم البابا إينسنت الرابع الذى أعلن أن تهمة الدم مسألة كاذبة ودافع عن التلمود ضد الذين يحقرونه. ونفس الأهداف ساندها مسيحيون مثقفون.

وقد اعتنق نفس هذه الأهداف أو القضايا علماء أو دارسون مسيحيون آخرون ص٩٤
مثل العالم الألمانى المتخصص في القوانين الكنسية ودراسة العبريات في القرن السادس عشر جوهان روشلين، وحديثا علماء آخرون مثل تيودر نولدكا وفرانس ديليش في ألمانيا وبافل قنسنتشوفيتش كوكوفيستوف في روسيا الذين استخدموا

سمعتهم العلمية المحترمة لرفض كل اتهامات اليهود ، بأنهم يقومون بعمليات قتل كطقوس دينية.

وإن هناك مثالا قيما ألا وهو الإعلان الذي ورد فيما سمى "إعلان الأساتذة المرموقين" وهو إدانة للعداء للسامية نشر في ألمانيا في سنة ١٨٨٠ ووقعه عدد من الدارسين أو الفقهاء المرموقين والعلماء من أمثال جوهان جوستاف دورسيون وثيودور مونسون ورودلف فيرشاو وأرنست فرنر فون سيمنس.

ويوجد أيضا مذاهب فلسفية متعاطفة مع السامية بين الأدباء. ففى ألمانيا مثلا هناك ليسينج وجوركى وأندرييف في روسيا وايميل زولا وأناتول فرانس في فرنسا الذين كتبوا وتكلموا في الدفاع عن اليهود عامة، وعن بعض اليهود خاصة الذين تعرضوا للهجوم في وقت ما.

وفى إنجلترا فإن الشاعر بايرون وبراوننج وجورج إليوت في كتاباتهم أظهروا تعاطفا عميقا مع آلام اليهود وآمالهم. وحتى شكسبير حينما قدم شخصيته اليهودية شايلوك في اطار متأثر بالعداء التقليدى للسامية فإنه أجرى على لسانه أقوالا أو كلمات نبيلة تعبر عن شكوى اليهود من مضطهديهم، ورجاءه الذى رفعه إلى المجتمع الإنسانى.

وما أن حل منتصف القرن التاسع عشر فإن العداء للسامية أصبح مؤسسا على كتابات جديدة نظرية وسياسية تصور اليهودى على أنه شر وأنه متدخل خطير في المجتمع الأوروبى الذى يجب إيقاف اختراقه هذا وانحطاطه هذا إذا كان لهذه الجماعة الأوروبية أن تستمر وتزدهر.

وفى ذلك الوقت فإن الفروق بين اليهود وبين المسيحيين وخطر اليهود على هؤلاء والتى تكلموا عنها أصبحت تحدد عادة ولكن ليس دائما في شكل عرقي أكثر من الشكل الدينى. وكما أن علم دراسة الأجناس وفر السبب أو العلة للموجة السابقة من كراهية السود أو التعصب العرقى ضد السود، فإن علم اللغات الجديد قدم نظريات وكلمات ومفردات للعداء العرقى لليهودية .

فأهالى أوروبا كانوا آريين ، أما اليهود فساميون وعلى ذلك فهم معادون دونيون مقززون.

وبالنسبة لعداء السامية الحديث فإن المسألة لم تكن مسألة دينية. ففى الواقع أن ولهلم مار الذى اخترع عبارة " العداء للسامية" كان يستبعد المناقشات الدينية على أنها شيء غبي ، وأنه هو شخصيا مستعد للدفاع عن اليهود إذا كانت المسألة مسألة اضطهاد دينى.

فبالنسبة له المشكلة لم تكن في الدين الذى يمكن تغييره، وعلى أي حال فهو ليس بالشيء المهم ، ولكن الحقيقة النهائية كانت هى الجنس أو العرق. ففى كتيبه "انتصار اليهودية على الالمانية" فإنه يمكن أن يقال انه أطرى اليهود الذين حسب قوله، ميزاتهم العرقية مكنتهم من مقاومة كل أنواع الاضطهاد ومضطهديهم، و مداومة المقاومة على مدى ثمانية عشر قرنا ضد العالم الغربى.

وفى النهاية فإنهم قد حصلوا على النصر وحكموا واستعبدوا العالم الغربى. وبينما كان الفلاسفة المتعاطفون مع السامية في مناقشتهم لليهود أو المسألة اليهودية ص٩٥ أحيانا كثيرة يجمعون بين الاحتقار وبين النوايا الطيبة ، فإن أعداء اليهودية كثيرا ما أظهروا خليطا من الاحترام وحتى الخوف مخلوطا مع نواياهم السيئة.

إن عاملا مهما في نمو العداء لسامية العرقى كان هو تعاظم أعداد اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية فإن فتح أبواب الجيتو أو ازالة الحواجز عن الجيتو خلقت طموحات جديدة لدى اليهود لم يعد يكفى لتلبيتها الخطوات البطيئة المتخذة في سبيل خلاصهم.

فالبعض منهم وجد طريقا مختصرا ألا وهو أن يعمد ويتحول للمسيحية. بنجامين ديزرائيلى ما كان يمكن أن يصبح رئيسا لوزراء بريطانيا لو أن والده لم يعمده عندما كان طفلا.

وهاينريك هاين الشاعر كان ولاشك سيكتب كما كتب شعرا عظيما ولكنه ما كان يمكن أن يحصل على شهرته وتأثيره ما لم يكن معه ما سماه هو " شهادة الدخول"وهى التعميد.

مرة أخرى وكما في القرون الوسطى المتأخرة في إسبانيا كان هناك شك في صحة ولاء أولئك المعتنقين الجدد للمسيحيين ، والتى يمكن القول بأنهم تحولوا هذه المرة لا بسبب الضغط ولكن بسبب الطموح .

إنه في عصر الاضطهاد الديني كان لليهودي حرية الاختيار في أن يغير دينه. أما الآن فبإدخال عنصر الجنس أو العرق في المعادلة أو في القضية فإن اليهودي يفقد ذلك الاختيار، وحتى أولاده يمكن إدخالهم في تلك اللعنة وهي كراهية اليهود.

وعلى وجه العموم فإن الجنس أو العنصر أصبح عاملا مهما أو نغمة متحكمة في أوروبا القرن التاسع عشر في الكتابات التي تناولت المسائل الوطنية والاجتماعية والثقافية وحتى المسائل السياسية.

فمعظم تلك الكتابات لم تكن عنصرية بمعنى أنها لم تخص جنسا خاصا بالكراهية ، بل إن أجناسا أخرى كانت تعتبر أيضا دونية ويجب معاملتها على هذا الأساس. وكثير من تلك الكتابات كان معنيا بالشخصية والولاء مما يمكن تسميته اليوم بالعرقي ETHNIC اكثر مما هو جنسي عنصري.

ولكن في القرن التاسع عشر وبالنسبة لكثيرين حتى القرن العشرين فإن الاثنين الجنس والعرق لم يكن هناك تفرقة بينهما ، والاعتقادات و الانطباعات والمناقشات في هذه المسائل تكشف عن حلف أو خلط غير مقدس لأشياء كثيرة، منها التصنيفات الخلقية لعلماء الأجناس والتصنيفات اللغوية لعلماء اللغة والتفضيلات الجمالية والرومانسية والحقائق التاريخية والثقافية والسياسية مما يمكن خلق صلة وإن كانت واهية بين تلك المسائل جميعا.

إن أوروبا القرن التاسع عشر أعطت أهمية كبيرة لمشاكل القومية والتي فسرتها خصوصا في أوروبا الوسطى وأوروبا الشرقية على أساس الجنس أو العنصر.

الإيطاليون الذين لم يكن عندهم إلا اعداد قليلة من اليهود يعيشون بينهم وليس لديهم مستعمرات، لم يطوروا نظريات عنصرية مماثلة لتلك التي ظهرت في الشمال. ص٩٦
وهؤلاء الإيطاليون لم يتأثروا كثيرا باتجاهات العداء للسامية حتى الوقت الذي فرضها عليهم في سنة ١٩٣٨ موسيليني الشريك في المحور.

إن النظام الفاشيستي في إيطاليا والإمبراطورية الإيطالية في إفريقيا والمحور الإيطالي الألماني ساعدت كلها على نمو نظريات العداء للسامية. وحتى بعد انهيار الإمبراطورية وتحطم المحور والقضاء على الفاشية فإن بعضا من هذا العداء للسامية بقي كما يبدو ذلك واضحا من ردود الفعل الإيطالية للأحداث في الشرق الأوسط .

إن إيطاليا ما قبل الفاشية حينما قابل اليهود مشاعر أو عداء ضد اليهودية كان ذلك العداء من النوع القديم المبنى على الدين وليس على النوع الجديد المبنى على الجنس.

ولكنهم أي الايطاليين كانوا هم الاستثناء . ففى أوروبا الشرقية اليهود الذين كان لهم لغتهم الخاصة وثقافتهم الخاصة وطريقتهم الخاصة في الحياة كانوا في نظر الآخرين ولاشك جنسا متميزا ، كما كانت عبارة الجنس تستعمل في ذلك الوقت.

وفى وسط أوروبا حيث كانت مشاكل الجنس والقومية والوطنية في مقدمة الاهتمامات الفلسفية والسياسية فإن اليهود كان ينظر إليهم على أنهم جنس خاص مفترق، وهذا الجنس يرد عليه الامتصاص أوالاستبعاد طبقا لوجهتى النظر السائدتين في حل المسألة اليهودية. فقط في إنجلترا وفرنسا وهولندا حيث كانت الجاليات تعتبر صغيرة نسبيا، وحيث تساوت الشخصية السياسية والوطنية بعكس الاضطراب الحادث في هذه المسائل في الدويلات الصغيرة والإمبراطوريات متعددة الأجناس في الشرق، كان يمكن لليهود أن يأملوا في أن يقبلوا بوصفهم مواطنين وأعضاء في الأمة.

وفى فرنسا كان هذا القبول يعنى أنه يتضمن ترك الصفات اليهودية في كل شيء إلا في الحدود الدينية الضيقة. وفى بريطانيا حيث كانت الأمة البريطانية مكونة من أربعة أجناس الإنجليز والاسكتلدنيين وأهل ويلز والأيرلنديين فإن ذلك قدم طرازا من التعددية جعل التضحية بأى شيء مما سبق ذكره أي من الصفات الخاصة أمرا غير مطلوب.

أما في مجتمعات المهاجرين المختلطة في الأمريكتين فإن اليهود كانوا بسهولة يمكن اعتبارهم مجموعة ضمن المجموعات، جميعها تشترك في الإسهام في الحياة القومية.

وبالرغم من حجم وحدة الكتابات المعادية للسامية في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في أوروبا فإنها باستثناء واحد لم تؤد إلا إلى تأخير خلاص اليهود ولم تترك أثرا سيئا إلا بعض التحديدات والموانع العلمية والمهنية والاجتماعية.

إن الاستثناء الوحيد الذى ذكر كان إمبراطورية القياصرة. حيث أفكار ونظريات العداء للسامية أعطيت نتائج على أرض الواقع وتبودلت ونشرت على نطاق واسع .

فى ألمانيا والنمسا وفرنسا بالرغم من النجاح العارض أحيانا للمعادين للسامية فإنهم لم يحصلوا على أي نتائج سياسية ذات قيمة، وذلك بالرغم من تعضيد شخصيات متقدمة شهيرة مثل الموسيقى ريتشارد واجنر والمؤرخ هانريك تريسيشيك، الذى هو مسئول عن العبارة التى طالما استعملت في العهد النازى : «اليهود هم حظنا السيئ» .

إن اول سياسى نجح في الانتخابات على أساس منهج معاد للسامية كان النمساوى الكاثوليكى كارل لوجر زعيم الحزب النمساوى المسيحى الاجتماعى ص٩٧ الاشتراكى. وبرغم أنه كان معارضا من الطبقات البرجوازية العالية ومن آباء الكنيسة النمساوية وحتى من الجهاز البيروقراطى من القصر، ولكنه وبتعضيد شديد من البابا تمكن من أن ينجح في الانتخابات كعمدة فيينا بأغلبية كبيرة. ولكنه بعد أن نصب كعمدة أو محافظ لم يفعل شيئا للإضرار باليهود، بل على العكس فإنه كان يتعشى ويأكل في بيوت البنكيين اليهود، وكان يحضر الصلوات في السيناجوج في باريس وهو يرتدى ثياب المحافظ التقليدية.

وحينما عاتبه بعض من أتباعه على ذلك فإنه أجاب بعبارات أصبحت شهيرة : «إننى وحدى الذى يقرر من هو اليهودى» أما في فرنسا فإن قضية دريفوس أو ما يعرف بفضيحة دريفوس بدأ لبعض الوقت وكأنها تهدد الحقوق المدنية وحتى السلامة الشخصية لليهود في فرنسا.

ولكن ذلك الخطر مر، وبرغم تكرر الاضطرابات المعادية للسامية فإن خطر تحقق سياسات معادية للسامية بقى شيئا بعيدا حتى فجأة وبشكل ساحق تحقق ذلك في عهد الحكومة المتعاونة مع النازيين في فرنسا التى احتلها الألمان في الحرب الثانية.

أما في الدول المتكلمة بالانجليزية فإن العداء للسامية لم يصل إطلاقا إلى مستوى القبول العقلى الذى ناله أحيانا في فرنسا وألمانيا والنمسا وروسيا .

إن محاولات بعض الأشخاص كجولدوين سميث وإي إيه فريمان E.A.FREEMAN لنشر الطراز الألمانى من العداء للسامية العنصرى في القرن

التاسع عشر، وكذلك في المحاولات التالية التى قام بها هليربيلوك و ج. ك. شيسترتون لإدخال العداء للسامية من الطراز الفرنسى الكنسى ، كل تلك المحاولات كانت ذات حظ ضئيل من النجاح.

وإن ذلك ليدعو للملاحظة أو الاستغراب لأن الأدب الانجليزى يعمر بقائمة طويلة من اليهود المجرمين شأنه شأن الكتابات في أوروبا. تلك القائمة التى تبدأ بالقتلة المفترضون لهيو من مقاطعة لنكولن في أساطير القرون الوسطى وحكاياتها، وتتضمن شخصيات مختلفة كباراباس اليهودى في مالطة وفاجن وهو شخصية في كتابات شارلز ديكنز وسفنجالى، والأمثلة المصقولة التى أتى بها جراهام جرين وت.س.إيليوت وكذلك الشخصيات التى وردت في كتابات جون بيوكانن وأجاثا كريستى.

إن الكراهية ضد اليهود كانت دائما موجودة في تلك الدول وفى بعض الأحيان تصاعدت إلى حد أن تكون ذات أهمية وإن لم تكن أبدا أهمية كبيرة سياسية. إن الأفكار العنصرية على وجه العموم والمعادية للسامية على وجه الخصوص يمكن اكتشافها في قوانين الهجرة الأمريكية في سن ١٩٢٤ وطريقة تنفيذ تلك القوانين.

إنه من المهم أن نلاحظ أن اليهود يشار إليهم في تلك القوانين بالجنس العبرى وإن الحصص المحددة والمتدنية القليلة والاستثناءات في مسائل مختلفة استمرت تعمل ضد اليهود في أمريكا. ليس فقط عند نقط الدخول ولكن في درجات لاحقة بعد ذلك ، إن ذلك كان ملحوظا في العشرينيات والثلاثينيات حينما سادت الآراء القائمة على الجنس.

وحتى حلول الخمسينيات كان مازال يوجد عدد من الكليات والفنادق حيث كان يمكن قبول هتلر وستالين ولكنه لا يمكن قبول أينشتين أو فرويد. وإننى أتذكر بوضوح ص٩٨ محادثة تمت منذ حوالى ثلاثين سنة حيث كنت طالبا حديث القدوم إلى الولايات المتحدة وكنت أبحث عن معلومات عن شيء يبدو لى كظاهرة سرية ألا وهى الجمعيات الإخوانية الطلابية.

إن ذلك الطالب الذى كنت أحادثه والذى كان بالمناسبة ابن عميد الكلية شرح لى كيف كانت هذه الجمعيات الإخوانية تنظم وتعمل وأضاف أنهم عادة لا يقبلون يهودا

أو سـودا لأننا وهـذا هـو قوله : « نشعر بأنهم سيكونون أكثر سعادة بين أقوامهم » . ومنذ نهايـة الحـرب العالمية الثانيـة فـإن معظـم تلك الموانـع والحـدود اختفت في البلاد المتكلمة بالإنجليزية.

وبرغم سيادة تلك الأحاسيس السابقة فإنه في الأوقات الحديثة نمو العداء للسامية في العـالم المتكلم بالانجليزية لم يبلغ أبدا النقطة التى عندها كان يمكن الجهر به وذلك في الدوائر الأدبية والسياسية.

إن العداء للسـامي الأنجلوساكسـونى حينما يوجد فهو على العموم متخف متنكر ومنافق.

ففـى إنجلـترا والولايات وكذلك في البلاد الأخرى المتكلمة بالإنجليزية فإن الحقوق السياسـية التـى فـاز بها اليهود في القرن التاسع عشر لم تنتقص أو يحاول الانتقاص منها .

إن اليهود في تلك البلاد لم يواجهوا إطلاقا مثل تلك الحملات المركزة من الدعايات المهاجمـة والحمـلات السياسـية ولا الموانـع القانونـية ولا العـنف البدنـى الـذى يقابلـه اليـهود في معظم بلاد القارة الأوروبية. وكما لاحظ ملاحظ أو مراقب ألمانى يهودى في سنة ١٨٩٠ : « إن الإنجليزى متقدم اقتصاديا بحيث إن أحدا لا يستطيع أن يوهمه بأنـه مسـتعبد مـن قلـة مـن اليـهود. كمـا أنه ذو زهو وفخر بحيث إنه لا يمكن أن يصدق شيئا من هذا ».

إن اليانكى وهـو تعـبير عـن سكان الولايات المتحدة القسم الشمالى كما قرر مارك توين الكاتب الشهير ، إن اليانكى هؤلاء هم أقل تعرضا لهذه المخاوف الشرق أوروبية والوسـط أوروبـية ، وهـى كوابيس الخضـوع لرجال الأعمال ورجال المال اليهود الأكثر مهارة من اليانكى .

إن هـذه الثقة في النفس الإنجليزية هى التى مكنت بنجامين ديزرائيلى وهو يهودى تحـول إلى المسـيحية مكنـته مـن أن يقـول للبرلمان الإنجليزى : « إن الـيهود هـم جنس ممـتاز وارسـتقراطى بالطبيعة » . إن تلـك المقولـة لم تقـابل إلا بصـيحات اسـتهجان وعلامات الضـجر.

إن خطاب ديزرائيلى كذلك أحدث بعض التعليقات خارج البرلمان ولكن الشيء المهم أن في كل تلك التعليقات ، وحتى الساخرة منها التى نشرها الكاتب ثاكارى في مجلة بانش ، عبرت عن مجرد التسلية وليس الغضب.

إن كتابات ديزرائيلى نفسها تمثل كيف أن اليهودى الذى يندمج في المجتمع أو اليهودى السابق يمكن أن يتأثر بالآراء السائدة في ذلك الوقت. إن اليهود التقليديين ص٩٩
الذين شبوا على الكتابات التقليدية قد ينظرون إلى أنفسهم على أنهم حفظة العقيدة اليهودية وأنهم أعضاء في جالية يهودية يحددها القانون الحاخامى.

أما اليهود الذين خرجوا من هذه الدائرة وأصبحوا جزءا من أوروبا ، فإنهم تأثروا بالأفكار الأوروبية السائدة حتى تلك الأفكار المعادية لهم . إنه بينما كان بعض الإنجليز المتحررين الليبرالين أمثال ويليام هازلت ولورد ماكولى يدافعون عن تحرير اليهود بقولهم إن اليهودية ليست إلا شيئا عارضا أو حادثة عارضة بالميلاد ليست ذات أهمية أكثر من الشعر الأحمر أو العيون الزرقاء، فإن ديزرائيلى أخذ الاتجاه المعارض معلنا أن كل شيء قائم على العنصر أو الجنس وأنه لا شيء آخر يمثل الحقيقة.

إن استيلاء مسألة الجنس والعرق على ديزرائيلى ودفاعه المتحمس أو إشادته المتحمسة بقوة اليهود وعظمتهم لاأساس لها في التقاليد اليهودية الدينية ولا في تقاليدهم التاريخية. إن آراءه عن دور اليهود لا تختلف كثيرا عن آراء أولئك المعادين للسامية ، فهى فقط الوجه الآخر من العملة موجهة بطريقة إيجابية بدلا من الطريقة السلبية التى يقدمها أعداء اليهود وبفخر بدلا من الكره.

إن خاصية اشترك فيها ديزرائيلى وللغرابة مع أعداء السامية هو نسبة الأصول اليهودية إلى كثير من الناس الذين لم يكن في الواقع لهم أي اتصال باليهود ، والفارق طبعا كان أنه في حين أن أعداء السامية يصفون أولئك الذين يكرهونهم بأنهم يهود فإن ديزرائيلى ألحق صفة اليهودية بأولئك الذين يعجب بهم.

إن تخيلات ديزرائيلى التقطها وإستخدمها اعداء السامية الذين دائما ما أبدوا استعدادا أو اتجاها لذكر مصادر يهودية حينما يجدونها واختراع تلك المصادر حينما لا يستطيعون إيجادها.

إن نفس الاعتقاد الهائل في قوة اليهود يمكن أن يوجد في المسيحيين المتعاطفين مع الصهيونية ، وحتى على سبيل المثال في هؤلاء المشجعين لتصريح بالفور الذين رأوا في ذلك التصريح وسيلة للحصول على تأييد اليهودية العالمية لأهداف الحلفاء في الحرب الأولى .

إن ذلك الاعتقاد في قوة اليهود ما زال يظهر أحيانا في الوقت الحالى وإن كان فقد كثيرا من قيمته حيث وضح أن هذه القوى اليهودية العالمية لم تستطع أن تفعل شيئا ضد هتلر أو من خلفوه في العداء لليهودية. إن الخوف من قوى اليهود الخفية السرية قد أعطى احتراما للقوى الحربية والسياسية لإسرائيل وإن كان ذلك ليس مسألة يدخل الجنس فيها .

إن ديزرائيلى كان وحيدا بين اليهود واليهود السابقين في اعتقاده وقبوله المتحمس للتخيلات عن قوى اليهود التى يعتنقها معادو السامية. إن يهودا آخرين معمدين ومتحولين إلى المسيحية كانوا مقتنعين بما قرءوه من تدنى اليهود وانحطاطهم واستنتجوا من ذلك استنتاجاتهم الخاصة بهم. إن المثال المهم على اليهودى الذى يكره نفسه كان يهوديا شابا في فيينا اسمه أوتو وينجر الذى كتب كتابا طويلا عن الدونية العقلية والخلقية للنساء واليهود.

واليهود في نظره أكثر انحطاطا ونقصا . ونتيجة منطقية لكراهية النفس هذه إنه انتحر في سن الرابعة والعشرين . ويهودى آخر عمد وتحول إلى كارل ماركس لم ص١٠٠
ينتحر ولكنه في كتاباته ضد اليهود "فى المسألة اليهودية "يبدو وكأنه يوصى بالانتحار كحل جماعى لهذه المسألة.

إن الخطوط الرئيسية للعداء لليهودية قد بدأت وأرسيت في بداية العصر المسيحى.

وأولى تلك الخطوط وأكثرها أهمية هو الاتهام بقتل الإله. إن اليهود رفضوا المسيح. ولكنهم لم يرفضوه فقط بل وقتلوه ، وحيث إن المسيح هو الرب فإنهم قتلوا الرب.

إن الدراسات الحديثة وعلم الأخلاق الحديث ألقت ظلالا من الشك على تلك الآراء القديمة المحتفظ بها عن تحمل اليهود لخطيئة وتبعات موت المسيح. إن الرومان كانوا قبل كل شئ حكام JUDEA ، والصلب كان شيئا رومانيا ولم يكن أبدا شيئا يهوديا

كوسيلة للعقاب. صحيح أن الإنجيل في إصحاح ماثيو لا يتردد في وضع دم المسيح على رأس اليهود، ولكن الناقدين التاريخيين المحدثين أشاروا إلى أن مؤلف ذلك الإصحاح كان متأثرا بمحاولته تملق وتبرئة الرومان الذين كانوا واستمروا الحكام في العالم الذى يعرفه ويعيش فيه ماثيو.

وحديثا فإن بعض علماء الأخلاق المسيحيين خطأوا أخلاقية مد هذه الخطيئة من اليهود الذين كانوا يحضرون الصلب إلى غيرهم من اليهود الذين كانوا يعيشون في ذلك الوقت فمن باب أولى لا يصح مده إلى أولادهم ومن تناسل منهم.

ولكن تلك الاعتبارات وذلك التساؤل كانا بعيدين كل البعد عن عقول المسيحيين الأول أو الاكثرية ممن خلفوهم. فلمدة ما يقرب من الفي سنة نجد قصة وخيانة ومحاكمة موت المسيح ، قد طبعت على عقول المسيحيين منذ الطفولة، من خلال الصلاة ومن خلال التبشير والرسومات والتماثيل ومن خلال الكتابات الأدبية والموسيقى وكذلك كل المعتنقات المتشابكة الموجودة في الحضارة المسيحية. إنه لم يحدث حتى سنة ١٩٦٢ أي بعد حوالى الفي سنة أن المجمع المقدس الفاتيكانى اجتمع وبتأثير البابا جون الثالث والعشرين أصدر قرارا يبرئ اليهود من اتهام قتل الرب. إن ذلك القرار قوبل بمقاومة شديدة وخصوصا من أحبار الشرق الأوسط الذين لم يقبلوه إلا بشكل معدل. وإنه لابد من مضى وقت طويل قبل أن تعدل مناهج الدراسة في مدارس الأحد في عموم العالم المسيحى وكذلك العادات الراسخة في العقول.

إن الصلب ولو أنه كان ينظر إليه على أنه تحقيق لخطة الإله في تخليص البشرية.
فإن أولئك الذين اعتبروا مسئولين عن ذلك من وجهة النظر المسيحية قد ارتكبوا ص١٠١
جريمة كبرى وهم ومعاصروهم وإخوانهم في الديانة وكل من تناسل منهم إلى الأبد كان ينظر إليهم احيانا كأنهم محل لعنة إلهية لن يخلصهم منها إلا التعميد أي الدخول في المسيحية.

وإن شخصا لا يقل في الأهمية عن سانت جون كريسوستوم في القرن الرابع تكلم عن السيناجوج على أنه "معبد الشياطين ووكرهم وهاوية الهلاك". أما سانت أوجستين فقد شرح كيف أن هؤلاء الذين كانوا في وقت ما أهل الرب المختارين أصبحوا الآن أولاد إبليس .

إن تلك اللعنة كانت تفسر بأشكال مختلفة أهمها هو التشرذم والاضطهاد الذى تعرض له اليهود. إن هؤلاء الذين لا يثقون فيهم واضطهدوهم كانوا بذلك يحققون عمل الرب.

إن أسطورة اليهودى التائه الذى يتحتم عليه أن يجوب العالم محروما أبدا من الموت أو الراحة حتى يأتى الوقت الذى يشاهد فيه القدوم الثانى للمسيح تمثيل واضح لتلك العقيدة. إن الخرافات التى اعتنقها العامة أضافت تفاصيل اخرى إلى لعنة اليهود ألا وهى على وجه الخصوص الرائحة الكريهة التى اختص بها أو لعن بها الرب اليهود.

إن ذلك في الواقع هو المثال العادى للكراهية وليس مثالا استثنائيا، حيث إن خرافات أو اعتقادات مماثلة توجد في أماكن اخرى أو في مسائل أخرى ، وعلى سبيل المثال بين البيض ضد السود وبين الجنس الأصفر والجنس الأبيض.

وفيما يسمى بالعصور المظلمة فإن اليهود في أوروبا تمتعوا بطمأنينة نسبية. ولكن الحملات الصليبية أتت بنوع جديد من العدوان الحربى المسيحى. وبالرغم من أن ص١٠٢
ذلك كان موجها في الأساس ضد المسلمين فإن الصليبيين وجدوا فريستهم الأولى في جيرانهم اليهود.

إن تلك العداوة الجديدة عظم منها وقواها الهجوم المتوالى للمذاهب الفرنسسكانية والدومينيكان ضد اليهود واليهودية. فمن الحملات الصليبية وما بعدها العنصر الإبليسى بدأ يتحكم أو يظهر بشدة في الأقوال المعادية لليهود.

فاليهود الآن اصبحوا ينظر إليهم كأولاد الشيطان الذين دورهم المحدد هو محاربة المسيحية والإضرار بالمسيحيين. وبحلول القرن الثامن عشر فإنهم اتهموا بتسميم الآبار وبقتل الأطفال المسيحيين لاستخدام دمائهم في طقوس دينية. إن تهمة الدم هذه كما تعرف استعملت في الأصل من الوثنيين ضد المسيحيين المبكرين.

وأصبحت الآن تستخدم من المسيحيين ضد اليهود على انعدام في الصحة والمنطق وبلا تبرير في الحالتين وبآثار أكثر تدميرا. ومن وقت لآخر فإن تلك التخيلات رفضها الباباوات وكبار القساوسة. ولكنها يبدو أنها كانت مقبولة على نطاق واسع وكان يبثها صغار القساوسة الذين نجحوا أحيانا في إقناع رؤسائهم بها .

إن فكرة أن اليهود لديهم قوى شيطانية غير محدودة قويت ونمت مع كل مصيبة خاصة أو عامة أصابت المسيحية. فقبل مضى وقت طويل نجد أنه ولأول مرة نشأت ص١٠٢ قصة الحكومة السرية لليهود ومجمع للحاخامات الذين قال المسيحيون إنه موجود في إسبانيا المسلمة والذى كان يوجه حربا كونية ضد المسيحية.

إنه لمقاومة هؤلاء الأعداء المريعين لا يصلح إلا أشد الإجراءات واكثرها عنفا.

إنهم يجب أن يعزلوا ويفرقوا وإذا أمكن أن يزالوا. فقد استبعدوا من الزراعة والتجارة والحرف اليدوية وعلى ذلك فلم يبق لليهود إلا مزاولة الربا مما أوجد في نظر المسيحيين مبررات أخرى للكراهية . فاليهودى كشخص شره مراب مصاص للدماء أصبح شخصية جديدة مكروهة. وبذلك انضم المال إلى السحر كوسائل يستخدمها اليهود في خطتهم السرية لحكم العالم .

وبالتقدم الفكرى لأوروبا المسيحية فإن تلك الخرافات بدأت في أن تفقد مكانها ومعقوليتها وإن كانت بعض الأحاسيس التى أنتجتها أظهرت استمرارا مدهشا في بعض الأماكن. ومن وقت لآخر عادت بطريقة مقلقة إلى الظهور خرافة المؤامرة اليهودية لحكم العالم موجهة بواسطة حكومة يهودية سرية أعوانها اليهود جميعا ، عادت للظهور في أواخر القرن الثامن عشر وبقيت إلى الآن. إن هذا الاتهام أطلقه أولا المهاجرون الفرنسيون الذين هربوا من الثورة الفرنسية ومن حكم نابليون الذى تلاه. إن كاهنا فرنسيا جيزويتيا يدعى باريول نشر كتابا مطولا يثبت فيه أن الثورة الفرنسية كانت مؤامرة سرية للماسونية.

وتبع ذلك أنه حيث إن اليهود لهم حضور مكثف في الحركة الماسونية في أوروبا فقد اكتشف أن الماسون هم أداة لمؤامرة أكثر خطورة وعمقا وهى الحكومة السرية لليهود .

إن اليهود هم الذين طبقا للأب بايرول هم الذين أوجدوا الماسونية وجمعيات المتنورين وكل المجموعات الأخرى التى هى ضد المسيحية. إن بعض اليهود حاولوا المرور على أنهم مسيحيون من أجل تنفيذ أهدافهم المنحطة. إنهم حتى اخترقوا الكنيسة الكاثوليكية.

ففى ايطاليا وحدها أكثر من ثمانمائه راهب وبينهم كرادلة ومطارنة كانوا في الحقيقة أعوانا يهودين سريين، والسبب الحقيقى هو أن يصبحوا سادة العالم حتى يلغوا كل الفئات والديانات الأخرى لكى تسود ديانتهم ولقلب الكنائس المسيحية إلى سيناجوجات واستعباد البقية الباقية من المسيحيين واسترقاقهم. الأب بايرول هذا حينما أفاق من كوابيسه هذه سالم النظام الكنسى الذى نسب إليه كل تلك الخطايا ص١٠٣ وقبل منصب راعى كاتدرائية نوتردام. ولكن آخرين خرجوا لكى يكملوا مهمته.

إن تلك الأحداث المهمة أو المؤثرة كالثورة الفرنسية وقيام نابليون وقلب معظم الأنظمة القديمة في أوروبا واحلال أنظمة جديدة في محلها لا يمكن تفسيرها في أعين هؤلاء المعارضين إلا أن تكون من عمل الشيطان والقوى الشيطانية. إن الماسون وجمعيات التنوير والفلاسفة الليبراليين والآخرين كانوا جميعا مظاهر لأسباب باطنية. اليهود الذين ارتكبوا شرورا عظيمة في وقت الحروب الصليبية قد فكوا قيودهم وانطلقوا لكى يعملوا من جديد. فبالنسبة للبعض نابليون نفسه كان يهوديا. وعلى الأقل كان أداة في يد اليهود المتآمرين .

إن هذه الاتهامات تبعته حتى بعد هزيمته ونفيه. وطبقا لكاتب ألمانى من كتاب المنشورات فإنه يقول وبالرغم من أن نابليون معزول على تلك الصخرة في المحيط أي سانت هيلانا فإن خلصاءه من اليهود مازالوا يمسكون بخيوط المؤامرة التى تمتد ليس فقط من فرنسا بل إلى ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا والأرض الواطئة أي هولندا وبلجيكا بغرض واحد ألا وهو الثورة العالمية. وكاتب ألمانى آخر في منشور نشر في نورنبرج سنة ١٨١١ يحذر قراءه من التورط في الأحاسيس الخيرة المجنونة المؤدية إلى تحرير اليهود الذى سوف يؤدى إلى تقدم الملوك "المختنين" ووضعهم على عروش أوروبا.

إن اعداء تحرر اليهود وخلاصهم كان في استطاعتهم الاستناد إلى أمور ذات دلالة. فإنه حتى القرن الثامن عشر، وحتى بعد ذلك في الأماكن المتأخرة من أوروبا، اليهود في كل مكان تقريبا كانوا محتقرين ومعزولين يعيشون على الحدود الخارجية للمجتمع الأوروبى بلا حقوق وبلا اصدقاء وبلا امل خارج حدود وجودهم في الجيتو.

وباستثناءات قليلة فإنهم كانوا مستبعدين من كل أنواع المشاركة من أدنى المستويات إلى أعلاها في الحياة السياسية في الدول التى يعيشون فيها. أنهم لم ص١٠٤ يساهموا أي مساهمة في ثقافتها وكانوا مستبعدين من كل المهن إلا ما حقر منها. وحين سمح لهم أخيرا في الدول الغربية بالخروج من الجيتو ودخول الحياة الأوروبية فإنهم أبدوا ذلك النشاط غير العادى والتصميم الذى عادة ما يوجد في الأقليات المضطهدة التى عليها أن تجاهد لتحيا.

والنتيجة أنهم تقدموا وحسنت أحوالهم. فالطلاب اليهود ملأوا الجامعات التى كانوا محرومين منها من وقت القرون الوسطى. ومن غير المستغرب أنهم حاولوا التقدم والتفوق. إنهم حاولوا أكثر وكانت دائما نتائجهم أحسن من هؤلاء الطلبة الذين لم يكن دخول الجامعات بالنسبة إليهم يستلزم جهدا خاصا أو ينظر إليه على أنه مكرمة خاصة.

إن النجاح يولد الحقد في أي وضع اجتماعى. وإنه يكون أكثر حينما يكون الناجحون هم هؤلاء الذين كانوا يعتبرون ناقصين ومبعدين. إن فكرة أن اليهود كانوا حائزين على قوى شيطانية سرية مكنتهم من الانتصار على المسيحيين الطيبين المخلصين وجدت الآن مستمعين جدا حتى في أكثر الدول تقدما في شمال وغرب أوروبا. وطبقا لهذا فإنه لا يمكن إلا بهذه القوة الخفية أن يتمكن آلاف معدودة من اليهود المنحطين أن يفرضوا أنفسهم على ملايين المسيحيين أو غير اليهود.

فى القرون الوسطى اتهم اليهود أحيانا بأنهم حققوا أغراضهم الشريرة باستخدام السحر والتعويذات. إن التقدم الاقتصادى في القرن التاسع عشر أعطى شكلا جديدا لذلك السحر ألا وهو قوة المال التى استخدموها لكى يبعثوا قوى ضخمة تعمل في خدمتهم وتحت إمرتهم وتحقق أغراضهم اليهودية، وبتلك القوى استطاع اليهود الاستيلاء والتحكم في العالم المسيحى.

إنه بالنسبة إلى عدد صغير ولكنه ليس معدوم الأهمية من الكتاب الأوربيين فإن نجاحات اليهود كان لا يمكن الحصول عليها في منافسة شريفة ولا يمكن تفسيرها إلا بأساطير القرون الوسطى بالمؤامرات والأفاعيل السوداء لأولاد إبليس الذى يستطيع أن يستدعى قوى جهنم عند المشيئة ومن أجل كما قال الكاتب الكاثوليكى

الفرنسي بونالد في سنة ١٨٠٦ : « لسحق كل المسيحيين حتى يصبحوا لا شيء غير مجموعة من العبيد » .

إن واحدا يشغل منصب نائب رئيس البوليس في سنة ١٨٠٨ نظر إلى هذه المشكلة على أنها مشكلة حادة تستدعيالعلاج وقال : « من الأفضل طرد اليهود من أوروبا حتى لا يقوموا هم بطردنا نحن » .

إن مثل هذه المؤامرة ومثل هذا الهدف كانا يستلزمان إدارة مركزية أو توجيها مركزيا ، وفى خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين قدمت أفكار مختلفة لشرح طبيعة هذه "الحكومة السرية اليهودية". ولتعضيد ذلك وغيره من الاتهامات ضد اليهود أو على الأقل لجعلها مقبولة من الذين لا يشتركون مسبقا في افتراضات معادية للسامية ، كان لابد من إيجاد بعض الدلائل أو الشواهد.

إن اليهود كانوا معروفين بأنهم شعب عالى الثقافة يمارسون ديانة كتابية ، بل هى ممعنة في الاعتماد على الكتاب . وفى كتبهم الدينية، المكتوبة بلغات غريبة ومغلفة في الأغلفة السرية لهذه الكتابة غير المعروفة ، فإن الحقيقة الشريرة يمكن أن توجد . فبالنسبة للمسيحيين كان من الصعب مهاجمة العهد القديم حيث إن الكنيسة اعتبرته جزءا من شريعتهم. ولذلك وجه الاهتمام المعادى إلى تلك الكتب الدينية التى تتصف ص١٠٥
بالخصوصية اليهودية وبالتحديد المجموعات الحاخامية وعلى الخصوص أهم تلك المجموعات واكثرها شهرة ، هو التلمود .

إن التلمود اسم أعطى لمجموعتين من القوانين الحاخامية والكتابات الخاصة بالمحرمات والمستلزمات والمجادلات الفقهية وكلتاهما جمع في القرون المبكرة للعهد المسيحى واحده في أرض بابل والأخرى في المقاطعة الرومانية فلسطين.

إن هذين الكتابين يعتبراليهود الأرثوذكس أنهما يحتويان على النص الرسمى المؤكد لهالاخا HALAKHA أي القانون الحاخامى الذى ينظم حياة اليهود وطرق عبادتهم.

وفى القرون الوسطى فإنه حدث فعلا أن اعضاء محاكم التفتيش من مذهب الدومينيكان نظموا حفلات عامة لحرق الكتابات الحاخامية وعلى الخصوص

مجموعات التلمود. وفي أشهر تلك الاجتماعات كان الحريق الذى حدث في باريس في يونية سنة ١٢٤٢.

وبالرغم من جهود بعض المفكرين المسيحيين ومنهم بعض رجال الكنيسة في الدفاع عن التلمود فإن هذه العادات استمرت في البلاد الكاثوليكية الأخرى. وحتى وقت متأخر كسبتمبر ١٥٥٣ فإن التلمود وكتبا أخرى حرقت بأمر رسمى وذلك في روما وفينيس وكريمونا وغيرها من المدن الإيطالية.

إن عهدا جديدا بدأ بالكتاب الشهير لأيزنمنجرز يسمى « أنتيدكتس جودنتم » نشر في سنة ١٧١١. جوهان أندرياس ايزنمنجرز كان استاذا للدراسات الشرقية ويبدو أنه خصص بعضا من دراساته لدراسة التلمود. ونتج عن مجهوداته الدراسية تلك كتابان كبيران. لكنه لجأ في هذين الكتابين إلى الانتقاء التحكمى باستعمال أو حتى أحيانا الاختراع أو التفسيرات العامة الشاملة مما يرجع أحيانا إلى الجهل وأحيانا أخرى إلى النوايا السيئة وخرج من ذلك كله بأن التلمود مجموعة من التعليمات والمناهج ضد المسيحية بل ضد الإنسانية. إن عنوان ذلك الكتاب معناه "تعرية اليهود" أو "كشف القناع عن اليهودية " وذلك مما يبين مقاصد الكاتب.

إنه في صفحات ذلك الكتاب يعيد ويحاول إثبات كل الأكاذيب التى أصبحت في ذلك الوقت أسلحة معتمدة في خزانة أعداء السامية، مثل تسميم الآبار والتسبب في وباء الطاعون وقتل الأطفال في مراسم دينية إلى غيره. إن كتاب ايزنمنجرز برغم أنه ثبت كذبه مرات ومرات بواسطة المفكرين المسيحيين واليهوديين ولكنه أصبح كتابا كلاسيكيا في الكتابات المعادية للسامية واستمر مصدرا لكل الاتهامات المعادية للسامية حتى وقتنا الحاضر. إن استعمال وصف تلمودى بمعان سلبية، أصبح واحدا من صفات الكتابات المعادية للسامية حتى وقتنا الحالى.

وإنه في الوقت الحالى استعمال تلك الكلمة للحط أو الاتهام لأفعال وأقوال القادة الإسرائيليين دليل مقبول على أن مستعمل تلك الكلمة ينبعث في استعمالها عن كراهية ص١٠٦
للسامية وليس فقط مجرد الاهتمام بأحوال الشرق الأوسط.

ومن منتصف القرن التاسع عشر فإن بعض المفكرين الدينيين المسيحيين بدءوا في الهجوم على العهد القديم نفسه برغم وضعه جزءا من الشريعة المسيحية. إن وسيلة

محببة لدى المهاجمين كانت مقارنة إله اليهود الوارد ذكره في العهد القديم والذى يوصف بالقسوة وبالانتقام وبالمبالغة في العقاب، مقارنة ذلك الإله بالمسيح صاحب الروح الحانية العطوفة المسامحة الذى يوجد في العهد الجديد.

وليس من الصعب رفض هذه الحجج وإثبات خطئها ويكفى ، فقط ذكر الدعوات إلى الرحمة الموجودة في العهد القديم والقسوة الموجودة في كتاب العهد الجديد ، ولكن إثبات الخطإ هذا كان له أثر قليل جدا في إيقاف هذا الخط الجديد من الهجوم. وقد قوى هذا الهجوم تقدم علم الحفريات والكشف عن أسرار اللغات الشرق أوسطية القديمة التي مكنت المفكرين والدارسين وخصوصا في ألمانيا من أن يجدوا سوابق تاريخية قديمة لبعض تعاليم أو تدريسات العهد القديم .

إن تحقير اليهودية كما وردت في كتابات الحاخامات في حقبة ما بعد الإنجيل والتى أصبحت جزءا مستقرا تقليديا في كتابات بعض المفكرين المسيحيين استمرت وقواها الآن ما أصبح يعرف بالانتقاد على "مستوى أعلى" الذى يناقش في وقت واحد العقيدة والأخلاق وحتى أصالة التوراة .

إن العهد الجديد الإغريقى بقى حتى وقتنا هذا أو في الوقت الحالى محميا من هذه الانتقادات.

ولذلك لم يكن مستغربا أن بعض الحاخامات تكلموا عما يسمى بالانتقادات على مستوى أعلى بأنه مستوى أعلى من العداء للسامية. إن هذا الاتهام لم يكن عادلا بالنسبة لكثيرين من المفكرين الممتازين في ذلك الوقت والذين قام بعضهم ببذل جهود مخلصة لفهم وتفسير والكتابات الحاخامية وإن كان الحال لم يخل في كتابات هؤلاء المدافعين أو المفسرين من بعض أطياف العداء للسامية يظهر من عادتهم في وضع علامة مميزة وهى نجمة صفراء أمام أسماء المؤلفين اليهود الذين اعتمدوا عليهم في تفسيراتهم كمراجع.

إن كتاب أيزنمنجرز استخدم أساسا لواحد من أهم الكتابات المعادية للسامية في القرن التاسع عشر وهو "در تالمودجود" ومعناه "اليهودى التلمودى" لمؤلفه الحبر أوجست رولينج الأستاذ في الجامعة الإمبراطورية في براج. إن المغالطات العديدة

والاختراعات في هذا الكتاب تعرض لها فورا وأثبت عدم صحتها ليس فقط الدارسون اليهود ولكن أيضا الدارسون والمفكرون المسيحيون .

وفي سنة ١٨٨٥ فإن الحبر رولينج اتهم ووصف كتابه بأنه كاذب ومخترع وجاهل مما حدا به أو أجبره على إقامة دعوى قذف اضطر إلى الانسحاب منها في ظروف مخزية حتى إنه اضطر إلى الاستقالة من منصبه الجامعي. ومع ذلك فإن ذلك لم يعق بل بالعكس قد يكون قد شجع على النجاح الكبير لذلك الكتاب. فإن ثلاثة تراجم فرنسية بواسطة ثلاثة مترجمين مختلفين نشرت في سنة ١٨٨٩ ونسخ كثيرة وترجمات كثيرة تبعت ذلك خصوصا في سنوات حكم هتلر. وأحدث تلك الترجمات كان باللغة العربية.

إن كتاب رولينج هذا الذى باركته في البداية الكنيسة في روما في جريدتها شبه الرسمية "أحوال الكاثوليك" سيفيليا كاتوليكا هذا الكتاب يخصص اهتماما شديدا ص١٠٧ لنغمة القتل الطقوسي. ويجعل من ذلك واحدا من أهم اتهاماته ضد اليهود.

إن انتشار تلك التهمة على نطاق واسع والمباركة الأكاديمية لتهمة الدم هذه في تلك الفترة كان له نتائج في الواقع العملي. فبين سنة ١٨٦٧ حتى ١٩١٤ اثنا عشر اتهاما من تهم القتل للمراسم الدينية هذه وجهت لليهود وحوكم هؤلاء بواسطة المحلفين في ألمانيا ومحاكم الإمبراطورية النمساوية الهنجارية. وإنه مما يدعو للفخر بسلوك النظام القضائى في هاتين الإمبراطوريتين الألمانتين والنمساوية في ذلك الوقت أن إحدى عشرة من هذه المحاكمات الاثنتي عشرة انتهت بالبراءة.

وفي المحاكمة الثانية عشرة في النمسا فإن المتهم وجد أنه مرتكب لجريمة القتل فقط وبلا أي صلة بمراسم أو طقوس دينية أو غيرها. هذا الحكم استؤنف مرات كثيرة واحد منها قدمه توماس مزاريك مما نتج عنه أن المتهم الذى أدين صدر عنه عفو إمبراطورى.

إن أشهر تلك المحاكمات حدثت في مكانا يدعى تيزا أزلار في المجر حيث في سنة ١٨٨٢ اتهم خمسة عشر يهوديا بأنهم قتلوا فتاة مسيحية في طقوس دينية. وقد حازت تلك القضية شهرة عالمية قبل أن يصدر الحكم النهائى بالبراءة.

وقضية أخرى استمرت زمنا أطول واكتسبت اهتماما أكبر كانت في سنة ١٩١١ حيث اعتقل صانع طوب يهودى يدعى مندل بييس في كييف في أوكرانيا بتهمة القتل الدينى لولد مسيحى. إن تلك المحاكمة أو ذلك الاتهام تبع التوقف المؤقت للاضطهادات "بوجرومز" في روسيا وذلك بفعل الضغوط الليبرالية الدولية والمحلية، وتلك القضية تمثل جهدا جديدا واتجاها جديدا من جانب أعداء السامية الذين أصبحوا في ذلك الوقت متربعين في أعلى درجات الحكومة الإمبراطورية الروسية.

إن سنتين استنفدتا في تحضير تلك القضية والتى كان قد ألفتها جمعية معادية للسامية وذلك بالتعاون مع وزير العدل والبوليس.

وقد عارض تلك التهمة مجموعة لها قدرها من الروس الليبراليين والاشتراكيين، من بينهم أسماء ضخمة كالكاتب الروسى الشهير مكسيم جوركى وعالم النفس المشهور إيفان بيتروفتش بافلوف. وقد افتتحت المحاكمة في نهاية سنة ١٩١٣. وكمحاكمة دريفوس في فرنسا ، أصبحت محل التنازع بين قوى سياسية متعارضة في روسيا، وكذلك الأساس في مظاهرات واحتجاجات في كثير من دول الغرب الديموقراطية.

وإنه ولا شك بسبب تلك الاحتجاجات والمظاهرات أو كجزء كبير من الأسباب أن انتهت تلك المحاكمة بالتبرئة لانعدام الأدلة وبغير قرار فيما هل وقعت جريمة القتل لمراسم دينية أم لا.

ولكن إذا كان الاتهام بالقتل الدينى قد تعثر وهزم إلى حد كبير في المحاكم والقانون، فإن تهمة المؤامرة السرية لحكم العالم والتى بالطبع لا يمكن أن تعرض على القضاء أو أقل احتمالا في عرضها على القضاء، كانت تحرز تقدما كبيرا. إنه بتقدم التحرر والخلاص اليهودى في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين أصبح اليهود أصحاب مقام في دوائر المال والبنوك، والأدب والفنون والصحافة والسياسة فإن فكرة أن اليهودى هو القوة الخفية التى تحرك المسائل بدأت تبدو للكثيرين من الغاضبين واليائسين من أعداء اليهودية إنما يقدم إجابة لكثير من الأسئلة وحلا لكثير من المشاكل التى تقوم في أذهانهم. ص١٠٨

إن ذلك المنهج كذلك كان يحتاج إلى دلائل وحيث إنه لم يكن هناك أي دليل حتى ولا دليل مستمد من مغالطات أعداء السامية الذين يعتمدون على التلمود فكان لابد من اختراع هذا الدليل. ومن أجل هذا اخترعوا بروتوكولات حكماء صهيون المشهورة التى اخترعت لتبرير تلك الحكومة السرية. إن أي قارئ حديث عاقل لهذه البروتوكولات، لابد وأن يعجب على فجاجة المخترعين لهذا النص و غفلة أولئك الذين يصدقونه.

فبين الأسرار الكثيرة الغريبة التى يكشف عنها ذلك الكتاب، أن اليهود يجعلون أبناء النبلاء يدرسون اللاتينية والإغريقية بوصفها الطريقة المثلى لتحطيم أخلاقهم، وأن اليهود أمروا ببناء سكك حديد الأنفاق في العواصم الكبرى حتى يتمكنوا عندما يحين الوقت من نسف أي عاصمة تقاوم حكمهم. والغريب أن هؤلاء الذين يصدقون هذه البروتوكولات لا يجدون غرابة في أن اليهود في كتاباتهم السرية يصفون أنفسهم بأنهم اعوان الشيطان مستخدمين في ذلك العبارات المسيحية المعتادة المعادية للسامية . ومع أن هذه وغيرها من الغرائب والعجائب والسخافات فإن هذا الكتاب طبع طبعات عديدة ووزع بملايين الأعداد ويمكن اعتباره قريبا جدا من الإنجيل في عدد اللغات التى ترجم إليها.

إن هذه البروتوكولات لها تاريخ غريب. ففى صورتها الأولى لم يكن لها أي شأن لا باليهود ولا بأعداء السامية ولكنها تكونت فقط من منشور في سنة ١٨٦٠ نشر ضد نابليون الثالث. إن المزورين أخذوا ذلك المنشور واستخدموا عبارة اليهودية العالمية بدلا من الإمبراطور الفرنسى وأضافوا عددا من التفاصيل المزخرفة استعيرت من رواية ألمانية مغمورة.

إن البروتوكولات ظهرت أولا في سنة ١٨٩٥ ومن المؤكد أنه من عمل جماعة من البوليس السرى الروسى القيصرى الذين كان مقرهم باريس. ولبعض الوقت فإن هذا الكتاب كان يستخدم فقط في روسيا، وكان له تأثير قليل جدا حتى هناك، ولا تأثير إطلاقا له في الخارج. إن شهرته العالمية بدأت بالثورة الروسية في سنة ١٩١٧. ففى الصراع الدموى المرير في الحرب الأهلية التى استعرت عبر روسيا في السنوات من سنة ١٩١٨ إلى ١٩٢١ فإن قادة الروس البيض استخدمت البروتوكولات على نطاق واسع لكى يفهموا الشعب الروسى أن تلك الثورة المزعومة لم تكن إلا مؤامرة

يهودية لفرض حكومة يهودية على روسيا كخطوة أولى نحو حكم العالم بواسطة اليهود.

إن نشر البروتوكولات والنظريات التى استخدمت في تلك البروتوكولات كان له أثره في المذابح الدموية التى عانى منها اليهود في خلال الحرب الأهلية الروسية. وفى الوقت نفسه فإن أعوان الروس البيض حملوا تلك البروتوكولات إلى كل الدول في ص١٠٩
أوروبا والأمريكتين كشاهد على تفسيرهم للثورة والحكومة الجديدتين في موسكو، وهم في ذلك حصلوا على نجاح كبير جدا . ففى بريطانيا فإن الجريدتين التايمز والمورننج بوست أعطتا البروتوكولات مساحات واسعة، مجلة الإسبكتيتور طلبت تكوين لجنة ملكية للتحقيق لتقرير ما إذا كان اليهود البريطانيون فعلا خاضعين لحكومة سرية. وفى أمريكا فإن البروتوكولات تدوولت على نطاق واسع تحت عنوان "الخطر اليهودى" وعلى وجه الخصوص فإنها نشرت ووزعت بواسطة ملك السيارات هنرى فورد الذى كان عدوا عنيفا للسامية والذى كتب سلسلة من المقالات عن اليهودى العالمى وطبعها فيما بعد في كتاب خاص.

وفى سنة ١٩٢١ نشرت جريدة التايمز اللندنية مقالات بواسطة مراسلها في إسطنبول الذى اكتشف نسخة من المنشور الأصلى الفرنسى وبذلك كشف عن تزوير أو حقيقة تلك البروتوكولات كتزوير واضح [١]

---

(1) وجدير بالذكر هنا أن الاستاذ/ آنيس منصور. وهو كاتب صحفى متخصص في الكتابات المعادية للسامية أو ضد اليهودية. كتب عن شرحه الخاص عن اكتشافات مراسل جريدة التايمز فقال : « إن العداء للسامية وصل إلى ذروته بنشر الخطة السرية لحكم العالم » « إن مراسل التايمز في إسطنبول أظهر في سنة ١٩٢٩ أن اليهود ألفوا كتابا يدعى "بروتوكولات حكماء صهيون" وذلك عندما انعقد أول مجلس صهيونى لهم في بازل في سويسرا وأنه في ذلك الاجتماع اتفقوا على سياستهم الشيطانية في حكم العالم. إن ذلك الكتاب ترجم إلى كل لغات العالم وترجم أربع مرات في مصر وأنا شخصيا كنت أول من دعا إلى الالتفات إليه وترجمت أجزاء منه منذ خمسة وعشرين عاما » أنيس منصور في كتابه في "قلب اسرائيل" القاهرة سنة ١٩٧٧ ص ١٤٠ والأستاذ/ منصور مخطئ في كل أمر من هذه الأمور. فإن مجهودات فيليب جريفز مراسل التايمز في إ سطنبول لم يكن للكشف عن البروتوكولات التى كانت في ذلك الوقت موزعة على نطاق واسع ولكن لإظهار أنها مزيفة . والسنة لم تكن سنة ١٩٢٩ بل كانت سنة ١٩٢١ . إن مقالات فيليب جريفز أعيد طبعها في كتابه=

وفي سنة ١٩٢٧ حتى هنرى فورد اعترف بأن اتهاماته لليهود كانت بغير أساس. ومنذ ذلك الوقت فإن العالم المتكلم بالانجليزية ألقى بالبروتوكولات وكل ما كتب عنها إلى تلك الطبقات في المجتمع المجنونة بالكراهية . ولكنها في عهد ألمانيا الهتلرية فإنها أي البروتوكولات كونت نغمة رئيسية في دعايتهم ضد السامية، تماما كأعوان البيض الروس من قبلهم فإن النازيين المسوقين بالعداء للسامية كانوا عنصرا مهما في نشر البروتوكولات عبر العالم كله . (المترجم : وهنا يحضرنى شيء أود أن اضيفه وهو أن الملك فيصل في السعودية كان يحتفظ بعدد من هذه الكتب ويقدم لزواره الذين يتحدثون معه عن القضية العربية الإسرائيلية نسخة من البروتوكولات كتأييد لفكره عن إسرائيل).

إن البروتوكولات بالرغم من أنها أنجح الكتابات أو الاختراعات ضد السامية لم تكن هي الاختراع الوحيد أو التأليف الوحيد . فتأليف آخر أو اختراع آخر مفصل خصيصا للجمهور الأمريكى كانت خطبة مزعومة لبنجامين فرانكلين يحض فيها الآباء المؤسسين للجمهورية الأمريكية بأن لا يقبلوا دخول اليهود في الجمهورية الجديدة ومحذرا إياهم من النتائج العويصة إذا اهملوا تحذيراته هذه. إن هذا الخطاب المزعوم المنسوب إلى بنجامين فرانكلين كان اختراعا محضا ولكنه كان مع ذلك صاحب تأثير. وطريقة اخرى وإن كانت أقل إنتاجا للاضطراب استخدمت على نطاق واسع ألا وهي أن ينسب أصل يهودى لأى شخصية يراد الحط من قدرها ثم استخدام ذلك الشخص للحط من اليهود.

إن تقدم الرأسمالية وجد اليهود في وضع جيد لكى يستفيدوا من الفرص الجديدة التى توفرها الرأسمالية . وقد عرضوا أنفسهم بذلك إذ استفادوا من تلك الفرص الرأسمالية إلى اتهامات من نوع جديد. كجالية ليس لها دولة ولا كنيسة ولا حكومة ولا جيش، فإن وجود اليهود وشخصياتهم يحددهما كتاب ألا وهو التوراة. وحتى أفقر

= الصغير في "الحقيقة حول البروتوكولات" لندن سنة ١٩٢١ . وحتى إن ادعاء الأستاذ/ منصور أنه كان أول من نبه أو لفت الأنظار إليها في العربية أيضا ادعاء بغير أساس لأن الترجمة العربية ظهرت في فلسطين في سنة ١٩٢٦ وفي مصر في سنة ١٩٢٧ . انتهى التعليق على كلام أنيس منصور.

اليهود وأكثرهم تأخرا وأكثر الجماعات اليهودية تأخرا كان على حظ من المعرفة أعلى من كثير من جيرانهم.

إن تلك المهارة الموضوعة تحت تصرف عقول شحذتها قرون من دراسة التلمود أعانتهم على أن يتخذوا موقعا ممتازا في العهد الجديد عهد الرأسمالية . إنهم ص١١٠ كمبعدين إلى أطراف المجتمع مجاهدين من أجل مجرد البقاء فإنهم كانوا أكثر استعدادا لعالم الرأسمالية المليء بخضم المنافسة القاسية، أكثر من تلك الطبقات العليا المدللة والطبقات الدنيا المحكومة الخائفة في النظام الاجتماعى القديم فيما قبل النهضة الرأسمالية .

كمقرضين للمال والمرابين في النظام القديم فإن بعضهم كان لديهم القدرة والخبرة على التعامل في المال مما مكنهم من أن ينافسوا أقرانهم المسيحيين الذين لم تكن لديهم مثل تلك الخبرة. وأخيرا فإنهم حيث لا يوجد لديهم أمراء ولا أساقفة بين ظهرانيهم فإنهم لم يكن هناك ما يعوقهم كالمسيحيين من قوى متمركزة وذات جذور في النظام القديم .

إن أعدادا كبيرة من اليهود بدءوا في تجميع المال وأحيانا تجميعا كبيرا وذلك في الأعمال التجارية والمالية. وبذلك المال فإنهم كانوا يستطيعون شراء تعليم أحسن لأولادهم وكذلك إلى درجة أكبر مما هو بين المسيحيين لبناتهم وأن يدخلوا المهن بالقدر الذى كان مسموحا به لهم. إن الحياة السياسية في كل مستوياتها كانت مازالت مغلقة أمام اليهود في معظم البلاد. ولكن البرجوازية المتنامية دائما تبحث عن التعبير السياسى. وبرغم أن اليهود لم يكن بيدهم سلطة فإن أموالهم كانت يمكن أن تقربهم إلى أولئك الذين يملكون السلطة.

فبالنسبة لبعض المسيحيين أي إصلاح في المقام المتواضع والمحتقر لليهود كان ذلك خطيئة ضد المسيح. وبالنسبة لغيرهم فإن الدور المتعاظم لليهود الرأسماليين كان على الأقل مصدرا للفساد وعلى الأكثر محاولة لحكم العالم .

إن عصر الرأسمالية أتى باتهامين جديدين مهمين ضد اليهود الأول أنهم أسسوا الرأسمالية ويحافظون عليها والثانى أنهم كانوا يحاولون هدمها والقضاء عليها.

ان الأول من هذه الاتهامات جاء في شكلين من هؤلاء الذين كان نفوذهم مهددا وقضى عليه بالرأسمالية وهؤلاء الذين كانوا يأملون قلب النظام الرأسمالى والحلول محله. فإن الكنيسة والنبلاء كانوا على إحساس بتناقص سلطانهم. وقد كانوا على حق حين نسبوا ذلك التناقص غير المرغوب فيه إلى الرأسمالية وأنهم إذ أرجعوا تناقص سلطانهم هذا إلى قيام الرأسمالية فإنهم خلطوا بين النتيجة والسبب إذ نسبوا قيام الرأسمالية إلى اليهود . إن كتابات كثيرة معظمها مكتوب بواسطة رجال الكنيسة والنبلاء ساعدت على نمو هذا الفكر.

وفى الوقت نفسه فإن نوعا آخر من معاداة الرأسمالية ومعاديا للسامية كان قد بدأ في الظهور في الحركات الاشتراكية التى تقدمت وإزدادت اهميتها في بداية القرن التاسع عشر. وحيث كان أعداء السامية هم في حقيقتهم أو في عمومهم أقلية بين الاشتراكيين، ولكنها لم تكن أقلية غير مهمة. ص١١١

أوجست بيبل الذى أسس الحزب الألمانى الديموقراطى الاشتراكى في سنة ١٨٦٩ نقل عنه أنه يقول : « إن العداء للسامية هو اشتراكية الجهلاء » . وإذا كان ذلك كذلك فإنه كان هناك كثير من أولئك الأغبياء وبينهم رواد أول مثل تشارلز فوربير ١٧٧٢ — ١٨٣٧ وألفونس توسنيل ١٨٠٣ — ١٨٨٥ وبيير ليرو ١٧٩٧ — ١٨٧١ وبيير جوزيف برودون ١٨٠٩– ١٨٦٥ وأحيانا في بعض كتاباتهم كذلك كارل ماركس وفريديريك أنجلس. بالنسبة لفوريبه فإن اليهود كانوا " تجارا ومرابين طفيليين " ويركزون جهودهم في نشاطات تجارية دنيئة.

إن فوريبه كان مضادا معاديا تماما لتحرير اليهود وخلاصهم فإنه يقول : « إن إعطاء اليهود الرعوية كان أكثر الأعمال مدعاة للخجل بين كل الخطايا الحديثة لمجتمعنا الحالى.المريضون بالجذام يجب أن يبعدوا ويوضعوا في مكان خاص » . ثم يقول : « أوليس اليهود هم مرض الجذام الذى سيدمر جسم السياسة ؟! » .

أما توسنيل وهو من الرواد الأول في الاشتراكية والعداء للسامية في فرنسا فإنه أعطى مباركته بأثر رجعى لكل أعداء السامية من الماضى حتى الحاضر إذ يقول : « إننى أفهم تماما وأقبل الاضطهاد الذى قام به الرومان والمسيحيون

والمحمديون لليهود. إن القرف الجماعى الذى يولده اليهودى ومنذ وقت طويل لم يكن إلا جزاء عادلا للكراهية التى يحملها اليهود للجنس الإنسانى » .

أما برودهون في كتاب نشر في سنة ١٨٨٣ فإنه يتبنى شكلا كلاسيكيا لكراهية السامية التى يحس بها بعض الاقتصاديين اليساريين . إن اليهودى بطبعه هو شخص ضد الإنتاج ، فهو ليس فلاحا ولا صانعا ولا حتى تاجرا حقيقيا . إنه وسيط دائما محتال ودائما طفيلى وهو يعمل في التجارة كما في الفلسفة بواسطة الكذب والتزوير والوسائل الاحتيالية.

إنه يعرف ارتفاع وانخفاض الأسعار وأخطار النقل وعدم إمكان الاعتماد على المحاصيل ومخاطر العرض والطلب ولذلك فهو يتجنبها باقتصاره على الوساطة.

إن سياسته في الاقتصاد كانت دائما سلبية ودائما ربوية. إنها المبدأ الشرير لإبليس وأهريمان مجسما في أولاد حام.

برودهون مما يلاحظ عليه في شروحاته الاشتراكية قد تبنى الاتهام السائد في القرون الوسطى بالإبليسية. وهو في الواقع قد نمى هذا الاتهام بإضافة الروح الشريرة القديمة الموجودة في الأساطير الهندية وهو أهريمان .

إن أحد الرواد الأول للاشتراكية اليوتوبية (ويتوبيا هنا تعنى المثالية) الفيلسوف جوهان جوتليب فخت ١٧٦٢– ١٨١٤ أزعجه ما هو في نظره الخطر اليهودى على الغرب.

إنه في كتابه عن الثورة الفرنسية المنشور في سنة ١٧٩٣ يرى اليهود عاملا أساسيا في الاضطرابات التى عمت أوروبا ويقدم ما يمكن اعتباره أنه أول اقتراح لحل هذه المسألة فهو يقول : « إننى لا أرى سببا آخر لحماية أنفسنا منهم إلا باحتلال أرضهم الموعودة وإرسالهم جميعا إليها » . ص١١٢

اليهود أنفسهم ، أو لكى نكون أكثر دقة ، اليهود السابقون المارقون الأعضاء في الدوائر الاشتراكية تأثروا بالأفكار المعادية لليهودية السائدة في تلك الدوائر وأنشأوا نوعهم الخاص من الاتجاه اليسارى اليهودى المعادى الكاره للنفس.

وإن أكبر مثال على ذلك هو بالطبع كارل ماركس وهو حفيد أحد الحاخامات الذى جرى تعميده وخروجه من اليهودية، وهو يقول في مقاله الشهير "عن المسألة اليهودية" (نشر في سنة ١٨٤٤) وأصبح واحدا من الكتب الدعائية المعادية للسامية الكلاسيكية. في ذلك الكتاب فإن ماركس ينسب إلى اليهود وإلى اليهودية كل الصفات السيئة للرأسمالى الطامع المعتدى وذلك النظام الرأسمالى الذى كان ماركس يسعى إلى إسقاطه. وهو كذلك يورد حلا وهو تنظيم المجتمع بحيث تلغى الوساطة والسمسرة وبذلك يصبح من المستحيل قيام وجود لليهودى. وحتى حينما لم يكن الموضوع خاصا بالمسألة اليهودية فإن ملاحظات ماركس و وأنجلس وخصوصا في كتاباتهما الصحفية احتوت على كثير من الإيحاءات والاتجاهات والتعبيرات المعادية للسامية. فإن مقالا من هذه يتحدث عن أن اليهود البولنديين "اقذر الأقوام جميعا".

وقد لاحظ مؤرخ ألماني أنه في بولندا الحديثة كما في مصر القديمة فإن أعداد اليهود تتنامى بسرعة وأن ماركس عبر عنها بقوله" إنهم يتكاثرون كالقمل".

وفى رأى ماركس فإن اليهود لم يكونوا مسئولين عن الرأسمالية فقط ولكنهم في الوقت نفسه كانوا مسئولين عن الحكومات الرأسمالية المعادية للسامية. فهو يقول : «إننا نجد كل طاغية وراءه يهودى كما أن وراء كل باب جزويتى يسوعى، في الحقيقة أن الرغبة في القهر ما كان يمكن أن تقوم ولا الحروب ما كان يمكن أن تعلن إذا لم يكن هناك جيش من اليسوعيين يعملون على كبت الفكر ومجموعة من اليهود يعملون على سرقة الجيوب» .

أما أنجلز فإنه يستعمل العبارات السوقية لأعداء السامية ويسخر من الأسماء اليهودية ويستخدم الأصول اليهودية للهجوم على معارضيه من أمثال لاسال . وماركس نفسه في خطاب إلى أنجلز وتاريخه ٣٠ يولية سنة ١٨٦٢ جمع في ذلك الخطاب بين نوعين من العداء العنصرى إذ إنه يشير إلى أصول لاسال وملامحه البربرية وكذلك أصوله اليهودية ويقول : « إن ذلك الاتحاد بين اليهودية مع الألمانية على أساس بربرى أسود كان لابد وأن ينتج نتاجا غريبا فإن وقاحة ذلك الشخص(لاسال) تكاد تكون وقاحة البرابرة السود » . ومع ذلك فإن أنجلز على ص١١٣
الأقل ولكن ليس ماركس يبدو أنه تغير ففى سنة ١٨٩٠ نشر مقالا يهاجم فيه العداء للسامية.

إن في بريطانيا وأمريكا الشمالية كان هناك عداء أقل بكثير للسامية في الحركات الاشتراكية عما كان عليه الحال في فرنسا وفى ألمانيا ولو أن العداء لم يغب تماما. ومع ذلك فإنه كان قويا في أنحاء القارة الأخرى بل حتى وفى روسيا حيث كان من البداية هناك عنصر من العداء لليهود في المقاومة الثورية للقياصرة. فإن الفوضوى مايكل ألكساندروفتش باكونين ١٨١٤– ١٨٧٦ كان عدوا مريرا للسامية يرى أن اليهودية العالمية تكون مجموعة من المستغلين الطفيليين الذين يلتهمون ما حولهم وهم مرتبطون ومترابطون ليس فقط عبر الحدود الوطنية ولكن أيضا عبر الآراء السياسية مهما اختلفت. فإنه في نظر هذا الفوضوى باكونين اليهودى ليس أهلا لأن يكون اشتراكيا وبالطبع لأن يقود حركة اشتراكية لأنه "مجرح بذلك العاطفة الجارفة التجارية التى يكون جزءا أساسيا من شخصياتهم القومية".

بالنسبة لباكونين لم يكن هناك فارق بين ماركس ورتشايلد فكلاهما كانا من نفس الأصل المقامر المضارب الطفيلي.

إن أتباع باكونين في روسيا كانوا مطردين في تفكيرهم. فحينما بدأت البوجرومز ضد اليهود فإنهم بدلا من أن يلعنوها أو يحاولوا منعها فإنهم كانوا يشجعونها. إن الهجوم على اليهود في نظرهم كان بداية للثورة الاشتراكية وبذلك كان خطوة إيجابية إلى الأمام. إن اليهود في نظرهم أو في رأى أتباع باكونين يمثلون بشكل مكبر "كل الخطايا والقرح" في المجتمع وإنه "حينما تبدأ الحركة ضد اليهود فعلى الإنسان أن يقتنع أو يفهم أن تلك الحركات تحوى في داخلها الحركة ضد النظام الاجتماعى بأكمله وأن حركة عميقة ضد هذا النظام قد بدأت". ولاشك أنه بتلك الروح فإن اللجنة التنفيذية لجماعة باكونين نشرت إعلانا في الأول من سبتمبر سنة ١٨٨١ تدعو العامة إلى الثورة ضد القيصر اليهودى واليهود والنبلاء "الدم فقط هو الذى يمكن أن يغسل متاعب الشعب . إنكم بدأتم الثورة ضد اليهود وخيرا فعلتم فإن ذلك سيتبعه ولا شك في كل الأراضى ثورة ضد القيصر واللوردات واليهود ومن الخير أن تكونوا في ذلك معنا".

إن هذه الآراء لم تكن أبدا جماعية في الحركة الاشتراكية لا في روسيا ولا في غيرها وإن أغلبية القادة الاشتراكيين كانوا يعارضون تماما ذلك النوع من التفكير سواء كان مصدره التعصب كما في حالة برودهون أو كراهية النفس، كما في حالة

ماركس، أو من التدبير الواعى لحركة باكونين الروسية. ولكن الحد الذى إليه كان على القيادة الاشتراكية أن تأخذ في حسابها قوة الإحساس بالعداء للسامية السائد بين أتباعهم ظهر في حادثة وقعت في المجلس الاشتراكى الدولى الذى عقد في بروكسل في سنة ١٨٩١ .

أبراهام كاهان ١٨٦٠-١٩٥١ وهو يهودى من قادة الحركات العمالية الذى جاء من نيويورك طلب من الكونجرس بيانا يتعاطف فيه مع العمال اليهود الذين يهددهم ص١١٤
العداء للسامية وقال : « إن كل الجرائد الروسية تهاجم اليهود ويقولون إن العمال الاشتراكيين يكرهون اليهود.

إننى أسألكم أن تقرروا أن ذلك ليس صحيحا وإنكم أيها الاشتراكيون أعداء لكل المستغلين يهوديين كانوا أو مسيحيين وأنكم لديكم تعاطف مع العمال اليهود كتعاطفكم مع العمال المسيحيين » . إن بعضا من المندوبين في الكونجرس كانوا غير راغبين في التعبير عن تعاطفهم مع العمال اليهود ولا في أن يلعنوا بغير تحفظ العداء للسامية. واخيرا وصل المجتمعون إلى قرار اتفاقى أصدره الكونجرس يلعن فيه "العداء للسامية والفلسفة المتعاطفة مع السامية وما تثيره من تحريضات " . إدموند سلبرنر مؤرخ العداء اليسارى للسامية لاحظ أن إعلان بروكسل " هى وثيقة فريدة في أحوال الاشتراكية العالمية. وفى حد علمنا إنها المرة الوحيدة التى حدث فيها أن التعاطف مع جنسية مضطهدة أعلن إدانته من التنظيم الاشتراكى العالمى" .

بعض اليهود المجروحين من استمرار العداء للسامية الذى كانوا يقابلونه في الأعضاء الاشتراكيين وحتى في بعض الأحيان في القيادة الاشتراكية فقدوا الأمل في أن يجد اليهود حلا لمشاكلهم من خلال الاشتراكية الدولية وبدءوا يفكرون بطريقة ذات صفة يهودية خاصة. إن الأيديولوجيات الاشتراكية هى عنصر مهم من العناصر التى صاحبت نمو الصهيونية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

إن عددا من الأشكال المختلفة للاشتراكية الصهيونية نشأت وكلها كانت تضع التأكيد لا على إنشاء دولة يهودية ذات سيادة بل على ميلاد جديد للشعب اليهودى بالعودة إلى العمل المنتج. ولكن كثيرا من اليهود استمروا في الحركات الاشتراكية التى برغم وجود عناصر معادية للسامية فيها كانت تقدم لهم استقبالا حارا أكثر من

أي حزب سياسى آخر في أوروبا في ذلك الوقت وكانت تلك الاشتراكية تمثل الطريق الوحيد لهم إلى الوصول إلى النفوذ السياسى.

إن ذلك بدوره أوجد الشكل الثانى من العداء للسامية ، وهو تفسير الدور اليهودى في الرأسمالية ، ذلك ألا وهو الدور الباطنى للقضاء على الرأسمالية . إن ذلك الفهم تقوى عقب الحرب العالمية الأولى حيث النظام البولشوفى في روسيا والثورة الشيوعية التى وئدت في المجر وبافاريا وفى غيرها دفعت بأسماء عدد مهم من القادة اليهود إلى الشهرة العالمية.

إن الروس البيض في دعايتهم ضد السوفييت استخدموا ذلك استخداما كبيرا في وطنهم وفى الغرب. دعايتهم عززها وأيدها ظهور أسماء مثل تروتسكى وزينوفييف وكامينيف في القيادة السوفيتية . ولبعض الوقت فإن يهودا بعينهم كانوا فعلا في مقام ملحوظ في القيادة السوفيتية وكانوا يمارسون قسطا كبيرا من النفوذ. ولكن عقب قيام ستالين فإن ذلك كله انتهى. وفعلا فإن تروتسكى نفى ثم قتل وزينوفييف ص١١٥
وكامينوف ويهودا كثيرين آخرين أعدموا لجرائم ضد الدولة.

وبينما كانت تلك الاضطهادات والمذابح في شكلها الأول مذهبية وليست معادية للسامية فإن النسبة الكبرى لمن أصابتهم كانت من اليهود ومهدت الطريق للتخلص النهائى من اليهود من الطبقات العليا للقيادة السوفيتية ولبدء حملة ضد اليهودية العالمية التى استخدمت في مضموناتها الكثير مما يذكر بالعداء القديم للسامية سواء من اليسار أو اليمين.

إن التاريخ الطويل للأعمال والأقوال ضد اليهود في أوروبا يجب أن لا تقودنا إلى أن نهمل الجانب الآخر. هؤلاء المسيحيون وغير المسيحيين الذين تمكنوا من معرفة ذلك الشر وكانوا راغبين في محاربته حتى لا ينتشر في أوساطهم. في القرون الوسطى في أوروبا الغربية ولمدة أطول في أوروبا الشرقية إن العداء لليهود كان هو الشيء الطبيعى المقبول.

ولكن حتى فى ذلك الوقت كان هناك أحبار فى الكنيسة وحكام فى المجتمع من الذين كانوا على استعداد للدفاع عن اليهود ضد مهاجميهم وعن اليهودية ضد من ينتقصون منها. إن فى سنوات سيادة الشعور الإنسانية والتنوير والتحرر الليبرالى

والدستورى كان هناك كثيرون، من بينهم رجال الكنيسة الذين كانوا على استعداد لأن يقاتلوا من أجل حقوق اليهود. وإنه على العموم فإن السجل هو سجل تقدم مستمر . فبعد الطرد من إسبانيا والبرتغال فى نهاية القرن الخامس عشر فإن إجراء مثل هذا لم يتخذ ضد اليهود فى أوروبا الغربية، وعلى العكس فإن اليهود أخذوا يقبلون تدريجا فى أماكن كانوا ممنوعين منها فى السابق.

وحتى فى أوروبا الشرقية وبالرغم من تلك الأحداث المروعة كالبوجروم فى المدن الروسية والمذابح الكبرى فى أوكرانيا فإن الصورة العامة كانت صورة الزيادة التدريجية فى التقبل و التسامح بالنسبة لليهود وعلى الأقل كان ذلك بين الأوساط السياسية المتقدمة فكرا وبين الخاصة الناشطين. وكذلك تراجع تدريجى لأعوان التعصب والاضطهاد.

إن ذلك التراجع انتهى فى سنة ١٩٣٣ حينما اعتلى منبر السلطة المعادى الأكبر للسامية فى ألمانيا وافتتاح عهد جديد من الحملات المرعبة ضد اليهود.

إنه كان هناك ولاشك حركات معادية للسامية فى أوروبا الغربية قبل حركة أعوان هتلر الوطنيين الاشتراكيين. ولكنها كانت فى مجملها ذات أهمية بسيطة وبرغم أنهم أحيانا فازوا فى بعض الانتخابات فإنهم لم يستطيعوا أبدا وضع أفكارهم محل ص١١٦
التنفيذ. كانت هناك حكومات اتبعت بعض الوقت سياسات معادية لليهود ورجال دولة أصدروا أحيانا عبارات ضد اليهود أو ملاحظات ضد اليهود. ولكنه لم يحدث حتى سنة ١٩٣٣ أن حكومة معادية للسامية صراحة، والعداء للسامية يمثل واحدا من أهم أسسها الفكرية جاءت إلى الحكم. حتى ذلك الوقت كانت الاتهامات ضد اليهود تقع تحت فرعين رئيسين.

فمن جانب كان هناك الشكوى بأن اليهود لزموا أحياءهم الجيتو واحتفظوا بطريقة حياتهم الخاصة وقاطعوا المجتمع المسيحى، ومن جهة أخرى كان الاتهام الآخر أنهم خرجوا من ذلك الجيتو واتخذوا الرداء والعادات الأوروبية وبذلك أنهم اخترقوا المجتمع المسيحى.

ان هتلر فى كتابه « كفاحى » يجمع بين الشكويين فهو قد أصبح معاديا للسامية حينما رأى اليهود الهاسيديين من شرق أوروبا حين أتوا إلى فيينا ولاحظ قبعاتهم

السـوداء وشـعرهم المضـفر عـلى آذانهـم ولحـاهم ومعـاطفهم السـوداء الطويلـة، فإنـه عندئذ تحقق من أنهم جنس غريب يحتفظ بنفسه لنفسه ومبتعدا عن الجنس الأوروبى الآرى.

وفى الوقت نفسه فإنه أحس بكراهية شديدة نحو هؤلاء اليهود الذين تخلصوا من تلك الآردية، وتخلصوا كذلك من لهجاتهم الغريبة وأدخلوا أنفسهم كجزء من المجتمع الآرى.

وحينما تولى السلطة كان عليه أن يواجه شخصيا تلك المعضلة وغيرها مما ينشأ عنها. فاليهود يجب ألا يبقوا فى أحيائهم الجيتو لأنهم بذلك يكونون وجودا عدائيا لايمكن تحمله فى أرض آرية. ومن ناحية أخرى يجب ألا يدخلوا المجتمع الآرى لأنهم جرثومة مميتة ستؤدى إلى فناء ذلك المجتمع. إنهم يجب ألا يبقوا فى ألمانيا لأن وجودهم فى ألمانيا يدنس ذلك التراب الألمانى النقى . ولكنه من الخطر أن يتركهم ليذهبوا إلى مكان آخر لأنه فى أى مكان يذهبون اليه فإنهم يكونون مراكز ضد النازية. وتجاه تلك المعضلة المركبة كان لا يمكن أن يكون هناك إلا حل واحد. إنه كان إنجاز هتلر التاريخى إنه وجد ذلك الحل وطبقه.

الفصل الخامس

المسلمـــون واليهـــود

إنـه يقـال أحـيانا أو يقـدم الادعـاء الـتالى الـذى يقدمـه العـرب ألا وهـو أن العـرب لا يمكن أن يكونـوا معـادين للسـامية لأنهـم هـم سـاميون. إن ذلك الادعـاء واضـح سخفه ص١١٧ وإن الحجـج الـتى يعتمد علـيها معيـبة من جهتين : أولاهما أن كلمة سامى لا معنى لها إذا مـا نسـبت إلى جماعـات مخـتلفة الجـنس كالعـرب أو الـيهود. وفـى الواقـع أنه يمكن القـول بـأن اسـتخدام ذلك التعبير هو في حد ذاته علامة على الكراهية الجـنسية وعلى الأقل فهو تعبير عن الجهل أو النية السيئة.

ثانـيهما العداء للسامية لم يكن في أى مكان معنيا بأى شعب إلا باليهود. وهو على ذلك متوافر عند العرب كما هو عند غيرهم من الناس كخيار لهم أن يتبعوه إذا شاءوا. إن قـدرا كـبيرا مـن الكـتابات الحـديثة عن الـيهود في الـبلاد العربـية كما في غيرها من أجزاء العالم الإسلامى توحى بأن خيار العداء للسامية هو خيار فعلا قد اختير.

فـى حـوالى الألف والأربعمائة سنة من العلاقات أو التلاقى بين اليهود والعرب فإن العـرب لم يكونـوا في الواقـع معـادين للسـامية كمـا تسـتخدم تلـك الكلمة في الغـرب. لا لأنهـم هـم شخصـيا سـاميون الشـيء الـذى هـو تعـبير لا معـنى له بـل لأنهـم في أغلـب الاحـوال لم يكونـوا مسـيحيين. في الإسـلام الإنجـيل لا محـل له في التعلـيم. والأولاد المسلمون لا يشبون على أساطير قتل اليهود للإله.

فى الواقع أن فهم أن الإله أوالمسيح قتل شيء يرفضه القرآن على أنه سخافة إلحادية. كمؤسس المسيحية فإن مؤسس الإسلام كانت له لقاءاته مع اليهود، ولكن نتيجة ذلك اللقاء اختلفت في الحالين.

فإن محمدا وأصحابه لم يكونوا يهودا ولم يعيشوا أو يوجهوا دعوتهم في مجتمع يهودى. إن اليهود الذين عرفوهم كانوا هم القبائل الثلاثة المقيمون في المدينة وهم أقلية دينية في مجتمع عربى تسوده الوثنية.

إن المسلمين لم ينظروا إلى أنفسهم أو يقدموا أنفسهم على أنهم شعب إسرائيل الجديد الحقيقى، إنهم لذلك لم يشعروا بأنهم مهددون أو مطعون فيهم نتيجة ذلك البقاء المعاند واستمرار إسرائيل القديمة.

إن القرآن لم يقدم على أنه إكمال لليهودية، بل على أنه وحى جديد يتخطى ويسود كلا الكتابين اليهودى والمسيحى اللذين أهملا وحورا بواسطة حفظته عديمى الجدارة. الإسلام على خلاف المسيحية لم يحتفظ بالعهد القديم وليس هناك تعارض في التفسيرات فلا يمكن أن يكون إذن هناك تعارض في تفسيرات أو اتجاهات بين القرآن وبين ذلك الكتاب.

إن مؤسسى الدينين المسيحية والإسلام بطرق مختلفة وقعا في خلاف مع قادة اليهود. ولكن عند ذلك يتوقف التشابه. ص١١٨

إن المسيح قد صلب ولكن محمدا [ﷺ] انتصر في حال حياته وأصبح رئيس دولة كما هو رئيس جماعة. إن صراعه أو قتاله مع القبائل اليهودية في المدينة نتج عنه هزيمتهم وتحطيمهم وليس هزيمته هو. إن التصادم بين اليهودية والإسلام فض وانتهى بانتصار الإسلام. وعلى ذلك فإنه لا يوجد مطابق إسلامى للصراع الطويل والفقهى الذى لم يحسم بعد بين الكنيسة وإسرائيل . كما أنه يوجد أيضا فرق مهم بين إنكار اليهود للمسيحيين وبين رسالة الإسلام. إن محمدا ﷺ لم يدع اطلاقا أنه المسيح المنتظر أو أنه ابن الرب ، فقط هو حوارى الرب ورسوله. إن المعارضة اليهودية لرسالته فشلت وهو ما زال حيا بعد. وعلى كل حال فإن تلك المعارضة كانت أقل أهمية وأقل خطرا واقل جرحا وأقل لوما من الرفض اليهودى للادعاءات المسيحية.

وبينما كانت تعاملات المسيح مع مؤسسة الكهنة اليهودية في القدس تكون جزءا

مهما مركزيا من التاريخ المقدس ، فإن صراع محمد [ﷺ] مع القبائل اليهودية في المدينة كان أقل أهمية، وإن كان حدث بعد ذلك تغير في ذلك الخصوص.

فى العالم الغربى أصبح من المألوف ومن المتعارف عليه التحدث عن التقاليد اليهودية المسيحية. ذلك التعبير الذى يستعمل بكثرة هذه الأيام واضح أنه تعبير حديث ومن المحتمل أنه كان سيسبب صدمة لأجداد المسيحيين واليهود الذين ينادون بهذا التقليد في الوقت الحاضر.

وعلى كل حال فإنه أصبح تعبيرا مقبولا على وجه العموم، ومستعملوه على حق في ذلك لأنه يمثل حقيقة تاريخية وثقافية. أما تعبير اليهوديات الإسلامية على النقيض فإنه تعبير عن أبحاث دراسية ويستخدم فقط في مقام تاريخى ويشير إلى تاريخ بعيد يتزايد في البعد. إن هذا التعبير لم يستخدمه لا اليهود ولا المسلمون في الأراضى الإسلامية وما كان ليقبله أي منهما تعبيرا عن معتقداتهم وآمالهم وطريقتهم في الحياة. إنه تعبير لا وزن له ولا تأثير في الأراضى الإسلامية في الوقت الحالى.

ومع ذلك ففى الماضى حينما عاش جزء كبير من الشعب اليهودى وأحيانا ازدهروا تحت حكم الإسلام فإن تعبير التقاليد اليهودية الإسلامية كان لا يمكن اعتباره غير مناسب لوصف التلاحم في العلاقات بين الديانتين والثقافتين والحضارة التى أنتجها ذلك التلاحم .

ففى الإسلام كما في المسيحية تلك الحضارة كان يسيطر عليها ويشكلها ويوجهها أتباع من الديانة الأغلبية. ولكن اليهود الذين عاشوا بينهم صاروا ص١١٩
يتقاسمون معهم كثيرا من قيمهم كما أنه كان لهم دور يؤدونه لا في الحقيقة كمساهمين ولكن كمشاركين رئيسيين في مجهود مشترك.

ورغم أن التعبير لم يستخدم أبدا في الماضى وهو من غير المناسب في الحاضر فهو مع ذلك يصور أو يعين حقيقة تاريخية في القرون الوسطى الإسلامية، مشابهة في بعض الاعتبارات ومختلفة في بعضها الآخر للجزء الذى يشترك به اليهود في المسيحية الحديثة.

إن اليهودية التى هى سابقة والبعض قد يقول إنها والدة الديانتين المسيحية

والإسلامية تقف في كثير من الأحوال موقفا توسطيا بين الاثنين المسيحية والإسلام.

ففى بعض المسائل، اليهودية حتى في البلاد المسيحية تكون أقرب إلى الإسلام وفى البعض الآخر حتى في الأراضى الإسلامية تكون اقرب إلى المسيحية. إن نظرة إلى هذا التشابه والتفارق قد يساعد على شرح العلاقة المتعارضة بين اليهودية والديانتين التاليتين وبين أتباع هاتين الديانتين وبين اليهود .

إن الأول والأكثر وضوحا ومحتملا لأن يكون أكثر أهمية في نقط التلاقى بين اليهود والمسيحيين هو في الكتابات المقدسة التى يشتركون فيها. إن اليهود لا يقبلون العهد الجديد ولكن المسيحيين يقبلون العهد القديم. نعم إنهم فعلوا ذلك بدرجات مختلفة من التحمس ولكن على الأقل فإن الموقف الرسمى في كل اشكال المسيحية هو أن العهد القديم هو جزء من كتاب الله. وفى الواقع أن العهد القديم أدى دورا مهما في تشكيل وتطوير تحول ونمو الحضارة المسيحية في فنها وأدبها بل إن لغاتها المختلفة مطعمة تطعيما عميقا بقصص وأفكار وروح بل وتعبيرات العهد القديم .

إن هذا عنصر مهم جدا في الميراث اليهودى المسيحى. وليس لذلك نظير في الإسلام حيث كلا العهدين معتبر أنه قد حل محلهما القرآن . وفيما يتعلق برسالة
وصلب المسيح فإن الإسلام يحتل مكانا متوسطيا بين الدينين الآخرين. فكل من ص١٢٠
اليهودية والاسلام يرفض المعنى أو الفكرة التى تقول إن المسيح هو ابن الرب، وكلاهما لا يقبل أنه أتى بالخلاص والفداء للجنس البشرى، وبينما لا تعترف اليهودية للمسيح بأي دور على الإطلاق فإن الإسلام يعترف بالمسيح رسولا للإله وليس مخلصا أو فاديا ولكن كنبى وواحد من سلسلة الأنبياء التى انتهت برسالة محمد [ﷺ] وما أتى به من وحى كامل نهائى. إن كثيرا من معالم الإنجيل مذكورة أو على الأقل مشار اليها في القرآن. ولكن بالإضافة إلى إنكار علاقة البنوة القدسية هذه فإن هناك فارقا آخر بين الرواية المسيحية الإسلامية لواقعة الصلب. إنه في القرآن كما في الإنجيل فإن اليهود رفضوا المسيح وحاولوا صلبه ، وبينما الإنجيل يقول إنهم نجحوا فإن القرآن يقول إنهم فشلوا. وللإجابة على اليهود الذين يدعون أنهم قتلوا المسيح بن مريم رسول الله فإنه يقول إنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه وإنما صور لهم وإن الله رفعه إليه.

المعلقون المسلمون يقولون إن الاله أنقذ المسيح ورفعه إلى السماء ووضع مكانه على الصليب شبيها أو شبحا. وهكذا فحيث إن الإسلام يقبل رواية المسيحية عن النوايا السيئة تجاه المسيح فإنه يقرر أن مجهوداتهم انتهت إلى فشل مطبق.

ويقول القرآن في ذلك إنهم مكروا ولكن الله مكر وإن الله هو أحسن الماكرين. إن الصلب في النظرة الإسلامية كان وهما، وكل الفقه والتصورات التى كتبت عنه وقامت عليه لا مكان لها في الفكر الإسلامى أو العقيدة.

وعلى العموم وبوجه عام الفقهان اليهودى والإسلامى أقرب بعضهما إلى بعض من علاقة أي منهما بالمسيحية. فكلا اليهود والمسلمين يعتقدون في التوحيد المطلق. وبغير شك لأنهما لم يفهما فهما صحيحا فقه التثليث في المسيحية تشككا أحيانا في أن المسيحيين يميلون نحو تعدد الالهة. إن المحاولة المهمة الأولى في تكوين فقه يهودى بمعنى نص منظم لقواعد ومعتقدات يهودية في عبارات فلسفية كتبت في البلاد الإسلامية في القرون الوسطى وهو لذلك متأثر بالطرق الإسلامية في التفكير.

إن هذا التأليف بقى عاملا قويا في الحياة الدينية اليهودية في كل مكان حتى وقتنا الحالى.

ولعل أهم مناطق أو مساحات تمازج الإسلام واليهودية أو التمازج الإسلامى اليهودى هو في القانون المقدس أو الشريعة، وفى الرجال الذين هم منوط بهم المحافظة عليها وإقامتها.

إن كلا من اليهودية والإسلام ديانة قانونية بمعنى أن للتشريع فيها جانبا كبيرا والهالاكا HALAKHA اليهودية والشريعة الإسلامية بينهما مسائل كثيرة مشتركة. وواضح أنه هناك خلافات في التفاصيل. ولكن هذه الاختلافات تعلو عليها الفكرة المشتركة في أنه هناك قانون إلهى أتى من الرب ومعلن في الوحى وهو ينظم كل شأن من شئون الحياة العامة والخاصة، الجماعية والشخصية.

إن هذه الفكرة المشتركة بين اليهودية والإسلام هى فكرة غريبة على المسيحية.
ص١٢١ اليهود والمسلمون لا يتبعون نفس قوانين الغذاء ، ولكنهم يتفقون في أنه هناك قوانين تنظم الطعام وكلاهما ينظر بعين الرفض إلى المسيحيين والاخرين الذين لا يعرفون مثل هذه القيود .

ومن الغريب أن هذا التقارب في قوانين التغذية معترف به من الجانب الإسلامي.

فالقوانين اليهودية التى تنظم الطعام ولو أنها مختلفة فهى أكثر تحفظا ومن أجل ذلك فإن المشرعين المسلمين قضوا بأن اللحم الذى يذبحه ويجهزه اليهود هو شرعيا حلال بالنسبة للمسلمين.

إن هذه القاعدة كانت مقصورة على الإسلام السنى، حيث أنه بالنسبة للشيعة أي شيء مسه غير مسلم سواء كان يهوديا أو غيره فهو غير طاهر وإذا أخذه أو تعاطاه مسلم فإنه يؤدى إلى نجاسته. ولكن الشيعة كانوا دائما أقلية والحكم السنى كان دائما له أثر اجتماعى كبير. وكذلك فإن كلا من اليهود والمسلمين يمارسون الختان وبالرغم من أن قواعدهم وإجراءاتهم مختلفة فإنهم يشتركون في الاشمئزاز من هؤلاء غير المختنين.

إن التمازج بين الدين وبين القانون في اليهودية والإسلام اوجد نقطة أخرى من نقط التشابه ألا وهى ظهور طبقة من أشباه الاحبار الذين هم علماء في الفقه والشريعة ولكنهم ليسوا كهنة. ومنذ تحطيم المعبد فإنه لم يعد هناك كهنوت مقدس في اليهودية. ولم يحدث إطلاقا أنه كان هناك أي كهنوت في الإسلام. وعلى خلاف المسيحية فإنه لا يوجد ترسيم ولا طقوس دينية ولا وظيفة كنسية من أي نوع وكذلك لا يوجد أي فريضة لا يمكن لأى شخص عاقل بالغ حائز للمعلومات اللازمة أن يزاولها. والعلماء في الإسلام كالحاخامات في اليهودية ، هم أولا رجال علم، إنهم دكاترة القانون المقدس.

وفى وقت ما فإن كلتا الديانتين طورتا نظاما لتحقق تلك الصفة ، صفة العالمية. وهذا النظام على أي حال ليس بأى معنى ترسيما كما تستخدم تلك الكلمة في الكنائس المسيحية. إن الحاخامات والعلماء أصبحوا رجال دين في المعنى الاجتماعى ولكنهم لم يصبحوا أبدا كهنة في المعنى الفقهى الدينى.

وفى ضوء هذه التشابهات وهذه الاختلافات كيف نظر المسلمون إلى اليهود ؟ وكيف عاملوهم ؟ إن اليهود عاشوا تحت حكم الإسلام لمدة أربعة عشر قرنا وفى بلاد كثيرة ولذلك فإنه الصعب التعميم في شأن تجاربهم. ومع ذلك فإنه يمكن القول بقدر معقول من التأكد إنهم لم يكونوا أبدا أحرارا من التفرقة أو المعاملة المختلفة ولكنهم

نادرا ما تعرضوا إلى الاضطهاد، وإن حالهم لم يكن أبدا سيئا سوءه في المسيحية في أسوإ حالاتها ، وكذلك لم يكن حسنا كحسنه في المسيحية في أحسن حالاتها. إنه لا يوجد شيئا في التاريخ الإسلامى يوازى ما فعله الإسبان من طرد وإقامة محاكم التفتيش أو مذابح البوجرومز(المذابح الروسية) أو المحرقة النازية، كما أنه لا يوجد ص١٢٢ ما يمكن مقارنته بالتحرر التقدمى والقبول التام الذى حازه اليهود في الغرب الديموقراطى خلال القرون الثلاث الماضية.

وعند النظر إلى هذه المسائل فإنه يجب إحداث تفرقة واضحة بين حقب محتلفة في التاريخ الإسلامى. الأولي والتي يمكن أن نسميها الإسلام الكلاسيكى ، تبدأ من قيام الإسلام في القرن السابع وتستمر حتى تقهقر الإسلام الكبير امام تقدم أوروبا.

إنه في أقصى الغرب الإسلامى حدث هذا التقهقر بإعادة فتح إسبانيا والبرتغال والتهديد المسيحى لشمال إفريقيا. وفى القلب من بلاد الشرق الأوسط فإن ذلك التقهقر تأخر بسبب الإمبراطورية العثمانية والتى حتى في سنوات انحدارها كانت قوة حربية لها اعتبارها، وعلى ذلك فإن تقهقر الإسلام لم يحس به إلا في أواخر القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر.

إن الحقبة الأولى كانت عصرا من القوة والثقة بالنفس حين كان العالم الإسلامى باستثناء بعض الهزائم المحلية متقدما في القوة وأخذ في التقدم في النفوذ والاتساع في المساحة. إنها أيضا كانت حقبة كان النفوذ الخارجى فيها ولو أنه كان حاضرا وأحيانا مهما فإنه لم يستطع التحكم أو توجيه مسار الأحداث، وحينما كانت الحضارة الاسلامية مازالت في مرحلة النمو متبعة في ذلك خطوطا من منطقها الخاص.

وهناك نصوص كثيرة في القرآن وفى السيرة حيث تستعمل كلمات قاسية ضد اليهود. إن هذه النصوص معنية في الأغلب الأعم بصراع النبى [ﷺ] مع اليهود والذى انتصر فيه انتصارا كاملا . إن هذه النصوص إلى حد ما توازنها نصوص اخرى تتكلم باحترام عن اليهود على أنهم الحائزون على الوحى المبكر السابق وتحض على درجة من التسامح تجاههم. وأهم من هذا كله أنه لا يوجد تاريخ لفكرة

الخطيئة والخيانة كالتى لونت أو شابت شعور العامة وحتى الاتجاهات المسيحية الكنسية نحو الديانة اليهودية وهؤلاء الذين يدينون بها.

إن وضع اليهود كوضع الأقليات الأخرى تحت الحكم الإسلامى ، اختلف اختلافا عظيما وكان بالطبع متأثرا بأحداث داخلية وخارجية.

إنهم أي اليهود أحيانا ازدهروا ازدهارا عظيما وفى أحيان أخرى تحملوا اضطهادا مريرا. ولكن حتى في أسوإ حالاتهم فإن هذه الاضطهادات كانت من النوع الذى وصفناه من قبل على أنه طبيعي بمعنى أنه يقوم أو ينشأ من اختلافات حقيقية وأحوال بعينها. إن معظم الأوصاف المميزة للعداء المسيحى للسامية كانت غائبة عن ص١٢٣
الإسلام. فإنه لم يكن هناك مخاوف من مؤامرة يهودية، ولا من سيطرة يهودية، أو اتهامات بشرور شيطانية.

إن اليهود لم يتهموا بتسميم الآبار أو بنشر الطاعون كما اتهمهم المسيحيون ، وحتى فإن تهمة الدم لم تظهر بين المسلمين إلى أن قدمها الرعايا المسيحيون الجدد لأسيادهم من العثمانيين الفاتحين في القرن الخامس عشر.

فى البلاد الإسلامية الجاليات اليهودية تمتعت بالتسامح بالشكل والطريقة الموصوفين بقوانين وعادات الإسلام. اليهود كغيرهم من المسلمين تمتعوا بحقوق محدودة يصاحبها من جانبهم قبول لوضع دونى محدد رسميا- ولكن هذه الحقوق المحدودة كان معترفا بها ومنفذة ومفروضة فرضا إلزاميا. ففى هذه البلاد قبل اختراق وتبنى الأفكار الغربية كالوطنية والقومية فإن الولاء الأساسى كان لجماعة الفرد الدينية والولاء السياسى للدولة والذى في الواقع كان معناه الولاء للحاكم الوراثى لتلك الدولة. في الإمبراطورية العثمانية على سبيل المثال، اليهود كانوا يدينون بالولاء للسلطان والبعض منهم تمكن من أن يقوم بوظائف وإن كانت ليست من الدرجة الأولى ولكنها لم تكن مهام قليلة الأهمية في خدمته.

وهم كالمسيحيين فإنهم لم يكن مطلوبا منهم ولا مقبولا – مع بعض الاستثناءات أن يحملوا السلاح.

إن القتال في سبيل الدفاع أو تقدم الإسلام كان ميزة وواجب المسلمين أنفسهم. أما غير المؤمنين وحتى رعايا الدولة الاسلامية منهم فإنه لم يكن مطلوبا منهم أو مدعوين إلى المشاركة في هذا الواجب.

وإنه لم يحدث إلا في وقت متأخر أن قبول الأفكار الغربية عن الشخصية الوطنية والقومية و الولاء الوطنى من جانب وإدخال القواعد الأوروبية في التجنيد من جانب آخر أحدث تغييرا. ومع ذلك فإنه كان كان تغييرا بطيئا وعلى وجل. فلوقت طويل اليهود والمسيحيون كانوا معفين من الخدمة العسكرية و كان مطلوبا منهم أن يدفعوا بدلا منها ضريبة "بدلية". وفى النهاية حينما بدئ في تجنيدهم فإن ذلك كان مقصورا على المهام غير الحربية ، وباستثناء بعض الوظائف الطبية والهندسية فإنهم كانوا محرومين من رتب وواجبات الضباط. إن الاندماج الكامل للأقليات المسيحية في القوات المسلحة لم يحدث إلا في وقت حديث نسبيا. وبحلول ذلك الوقت فإنه كان وقتا متأخرا بالنسبة لليهود في كل الأراضى الإسلامية باستثناء تركيا.

إن ذلك كله ليس معناه بالطبيعة أن اليهود تحت الحكم الإسلامى التقليدى عاشوا في يوتوبيا أو أرض الأحلام للديانات المتعايشة التى اخترعها مخترعو الأساطير الحديثة. إن اليهود كالمسيحيين كانوا نظريا وعمليا "مواطنين من الدرجة الثانية".

ولكن هذا الوضع لم يكن سيئا بالمعنى الحديث الذى قد يوحى به هذا التعبير في الوقت الحاضر. إنهم كأعضاء في جاليات معترف بها ومحمية تمتعوا بحقوق وإن كانت محدودة إلا أنها كانت على قدر محترم وقد حوفظ على تلك الحقوق في معظم الأوقات.

إنه كان من المنتظر منهم أن يحتفظوا بأنفسهم في مكانهم المتأخر هذا ، وتفجرات العنف النادرة التى حدثت ضد اليهود والمسيحيين تكاد تكون دائما نتيجة لشعور ص١٢٤ المسلمين بأنهم لم يراعوا مقامهم المتأخر هذا. وفى الواقع فإنهم فشلوا في المحافظة على هذا الوضع في السنوات الحديثة.

إن الفقهاء المسلمين على خلاف زملائهم المسيحيين و الكتاب المسلمين الذين تعرضوا للمسائل الخلافية ركزوا جزءا قليلا من اهتمامهم لليهودية التى رأوها على

أهمية ضئيلة ولا تقدم أي تحد جدي. وعلى العكس فإنهم وجهوا انتقاداتهم إلى المسيحية التى رءوا فيها أنها هى المنافس الرئيسى كديانة وحضارة عالمية.

إن الكتابات ضد اليهود في أدبيات النقد الإسلامي هى في أغلب الوقت مرجعها إما اليهود الذين تحولوا إلى الإسلام محاولين بذلك النقد تبرير تغييرهم لديانتهم وإما المسيحيون الذين تحولوا إلى الإسلام والذين حولوا بعض شجونهم من ديانتهم القديمة إلى ديانتهم الجديدة.

إن ما كان اليهودى يعانى منه تحت حكم الإسلام لم يكن الكره أو الحسد أو الخوف ولكنه الاحتقار.

إن ما كان يلقاه من معاملة كان نوعا من التنازل الذى يمكن أن يتحول سريعا إلى اضطهاد إذا بدا انه يتعدى حدوده .

إن الاضطهاد العنيف و الإجبار على التحول إلى دين الإسلام و النفى كان شيئا نادرا ولكنه كان معروفا. إن ذلك كان يحدث في أوقات التوتر والخطر حينما أحس العالم الإسلامي بالتهديد من داخله أو خارجه بواسطة الطاعون والأوبئة والمجاعات أو الغزو الخارجى الدينى .

إن الحرب ضد الصليبيين أدت إلى نشوء اتجاهات قاسية واضطهادية نحو غير المسلمين الذين كانوا الآن ولأول مرة منذ قيام الإسلام معرضين لنوع من التفرقة الاجتماعية.

إن الاضطرابات العظمى في القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر التى نشأت من غزو المغول وما أعقب ذلك من نتائج وما تلاه أدى إلى موجة من عدم الثقة أو الشك عبر عنها في كتابات ناقدة مضادة لغير المسلمين، وإلى محاولات لتخفيض دورهم الاقتصادى. في كل ذلك كان المسيحيون هم الهدف الرئيسى. ولكن اليهود أيضا تأثروا وخصوصا في شمالى إفريقيا، حيث أصبح اليهود بعد انقضاء الجاليات المسيحية المحلية كما في أوروبا المسيحية، الأقلية الدينية الوحيدة. إن ذلك كان موقفا مكشوفا ضعيفا لا يمكن أن ينتج عنه أي شيء في صالحهم .

فى الشرق تحت الحكم العثمانى ذلك التغير إلى الشك والمعاملة السيئة كان بطيئا.

ولكن ما أن جاءت نهاية القرن الثامن عشر أو بداية القرن التاسع عشر فإن يهود البلاد العثمانية وأكثر من ذلك في إيران انحدروا إلى درجة من الانحطاط لاحظها وعلق عليها المسافرون الأوروبيون والرحالة الأوروبيون. وقد كانوا مكبوحين بالجهل والفقر محتقرين من المسلمين والمسيحيين على السواء، ولم يكن اذن باستطاعتهم حتى الاحتفاظ بالأوضاع التى كانوا يحظون بها سابقا. وقد حل محلهم اليونانيون الذين سبقوهم في المجالات كافة وكذلك الأرمن والمسيحيون العرب. إنهم لم يبدءوا في الإفاقة حتى أواخر القرن التاسع عشر حينما بدأت حماية الأوساط الغربية و رعايتها ص١٢٥
لليهود. و بالطبع ضمن هؤلاء الحماة كانت المؤسسات والمنظمات اليهودية من جانب، والحركات الليبرالية الاسلامية الوطنية من جانب آخر مما أدى إلى بدء خلاصهم. ولكن ذلك جاء متأخرا. وانهيار القوى الغربية متبوعا بانسحاب الحكام الذين يتبعون الطرق الغربية أتى بالمصائب لكل هؤلاء المرتبطين في العقل الإسلامي بالعدو الخارجى.

الأعداء الثلاثة الخارجيون الذين غزوا الإسلام بالتتابع هم الصليبيون والمغول ثم الإمبراطوريات الأوروبية الحديثة التى أثبتت أنها بين الثلاثة أكثرها خطرا وأدومها بقاء.

في عصر الصعود الأوروبى تعرض المجتمع الإسلامي لتغيرات عميقة. إن تعاقب الهزائم الاسلامية على أيدى اعدائهم الأوروبيين و تعاظم الإحساس بالضعف وازدياد السيطرة على الشعوب الإسلامية بواسطة الإمبراطوريات الأوروبية، والتغيرات الاقتصادية والسياسية وحتى الثقافية والاجتماعية التى نتجت عن التسيد الغربى في العالم الإسلامى، تجمعت كلها لكى تضعف ثقة المسلم بنفسه و معها استعداد المسلم لتقبل وتحمل الآخرين.

إن الشعوب غير المسلمة التى تعيش بين المسلمين أصبح ينظر إليها الآن في ضوء جديد كرعايا موالين للأجنبى وخونة ترقد عواطفهم مع العدو الأوروبى وبذلك أصبحوا يكونون خطرا على الإسلام.

تلك الشكوك والارتيابات قوى منها الثروة والتقدم للذين حصل عليهما المسيحيون وإلى درجة أقل اليهود في أوقات السيطرة الأوروبية أو حتى النفوذ الأوروبى.

إن ذلك أعطاهم شيئا من النفوذ وأحيانا من السلطة التى لم يتمكنوا إطلاقا من الحصول عليها في الدول الإسلامية التقليدية أو التاريخية .

إن التغير الذى بدأ في نهاية القرن الثامن عشر زاد قوة في القرن التاسع عشر حينما وجد العالم الإسلامي نفسه مهددا بالإمبراطوريات المسيحية التى أخذت تتوسع من شرق وغرب أوروبا و انتهت في النهاية بإخضاع العالم الإسلامي كله لحكمهم أو على الأقل لنفوذهم. إنه كان عصرا انقلبت فيه الثقة إلى الحيرة والقلق وولدت معانى ومؤسسات جديدة نتجت عن محاكاة أولئك الكافرين الذين كانوا محتقرين في الماضى وتحولت قطرات النفوذ الغربى إلى فيضان دافق.

وفى خلال القرن التاسع عشر و القرن العشرين فإن تغيرا مهما حدث في طبيعة العداء الإسلامي لليهود . إن العداء القديم كان تاريخيا أو تقليديا و حتى يمكن القول بأنه طبيعي معهود. كان هناك ولا شك أشكال متغايرة في الأزمنة والأماكن المختلفة لذلك العداء ومعاملة المسلمين للأقليات غير المسلمة تراوحت بين القبول والتسامح الكاملين وبين الاضطهاد القاسى.

وعلى العموم فإن شعورهم أو اتجاههم كان هو شعور السادة نحو رعاياهم الذين هم على استعداد لمعاملتهم ببعض التنازل السيادى طالما حافظ هؤلاء على مكانهم ص١٢٦
وارعووا في سلوكهم ، ولكن مع تغير الأحوال في عصر السيادة الأوروبية فإن غير المسلمين لم يعودوا محتقرين في الأعين الإسلامية ولكنهم أصبحوا خطرين. وفى حالة اليهود فإن ذلك الشعور الجديد شجعه ما دخل على المسلمين من نوع الأفكار الخاصة بعداء السامية الأوروبي، والذى لم يكن في السابق معروفا حتى بالنسبة لأكثر الإسلاميين تعصبا ضد اليهود وغير المسلمين الآخرين.

وبين شعور المسيحيين و شعور المسلمين تجاه اليهودية واليهود كان هناك فرق أساسى في أهميته . عالم المسيحية كانت الأقلية الوحيدة الدينية هى الأقلية اليهودية. أما الإسلام فكان لديه دينان سابقان المسيحية ، ولذلك فإنه كان لديه أقليتان دينيتان المسيحيون منهما هم الأكثر عددا وأكثر نفوذا . والمسيحية كانت أيضا هى الديانة

الرئيسية للعدو الخارجى للإسلام، أولا الإمبراطورية البيزنطية ثم الصليبيون وأخيرا دول العالم الحديث.

إن المسيحية كانت دينا منزلا منافسا للإسلام في محاولة التسيد على بقية العالم . أما اليهودية بالمقارنة فانها كانت معتنقة بأقليات صغيرة فقدت منذ زمن بعيد أي أمل في أن يضيفوا إلى أعدادهم ممن يتحولون إلى ديانتهم. وإتباع تلك الديانة لم يكن لديهم لا سلطة سياسية ولا سلطة حربية ولم يكونوا أي تهديد للاسلام أو للدولة الإسلامية. بل على العكس إن اليهود أحيانا كانوا نافعين للحكام المسلمين لأنهم على خلاف المسيحين لم يكن مشكوكا في ولائهم أو تعاطفهم مع العدو الخارجى الذى هو مسيحى.

وإن الصفة الغالبة لليهود كما يتعامل معها في العالم الإسلامي التقليدى كانت هى عدم أهميتهم . ففى الكتابات الإسلامية الكلاسيكية دينية أو فلسفية أو أدبية لا يوجد أي قلق من اليهود الشيء الذى يميز كتابات مسيحية معينة من الأوقات الأولى القديمة حتى وقتنا الحالى.

إن علماء الكلام الدينيين المسلمون يخصصون مجهوداتهم الأساسية لرفض العدو الأول وهو المسيحية. قليل منهم يضيع أي وقت أو مجهود في نفى اليهودية. والقليلون كما لاحظنا الذين فعلوا ذلك كانوا في الأغلب مسلمين من أصول مسيحية أو يهودية حديثة . وباستثناء واحد ألا وهو الاسبانى ابن حزم (٩٩٤ إلى ١٠٦٤) لا يوجد في الأدب الدينى الإسلامي سواء تعلق بالفقه الدينى أو بالدعوة يمكن مقارنته بإنكارات اليهودية المنسوبة إلى بطرس القديس أو ريمند لل Raymond Lull أو الكتابات المتوحشة ضد اليهودية لمرتن لوثر. أو لنشاطات القديس الفرنسسكانى ص١٢٧
جون كبسترانوا و برنردينو من سينا إلى عدد آخر من شخصيات أقل اهمية .

والمثل يمكن أن يقال عن الفلاسفة . في أوروبا حتى في قرن التنوير الثامن عشر والتاسع عشر فإن أغلب كبار الفلاسفة الفرنسيين والألمان نفسوا في وقت أو آخر عن شعورهم المعادى للسامية بتصريحات أو أقوال.

إن شيئا مثل هذا لا يمكن العثور عليه في كتابات الفلاسفة العظام في الإسلام الكلاسيكى . وكذلك فإن الأدب الإسلامي الكلاسيكى ولو أنه أحيانا يصور

شخصيات يهودية إلا أنها في الغالب ذات أهمية قليلة، ولا يوجد فيها أو يصور شخصيات شيطانية مثل فاجن الشخصية التى أوردها تشارلز ديكنز في كتاباته، أو غيرهم من الشخصيات المكروهة اليهودية الذين سكنوا دائما في الخيال الأدبى لفرنسا وألمانيا وروسيا و بدءوا في غزو القصة والدراما العربية الحديثة.

إن العداء للسامية الفلسفى والأدبى في المسيحية هو تعبير عن خوف دفين و اتهامات بعينها . هذان الشيئان الخوف والاتهام غير معروفين للكتابات الإسلامية الكلاسيكية أو في العالم الإسلامي الكلاسيكى. إن اليهود تحت الحكم الإسلامي تلقوا مدحا قليلا أو حتى احتراما و كانوا يلامون في بعض الأوقات أوتنسب إليهم أخطاء مختلفة. ولكنهم لم يكونوا متهمين بـأنهم أشرار بالطبيعة أو متآمرون لكى يحكموا العالم .إنه لم يحدث إلا بعد قرون عديدة أن ذلك النوع من عقدة الخوف بدا يصيب العالم الإسلامي بالعدوى . وحينما فعل فإن مصادر تلك العدوى ومراحل نموها هذه واضحة للمدقق .

إذا كان العداء المسيحي في الأدب غائبا عن الإسلام فإنه كذلك غابت الفلسفة المتعاطفة مع السامية والتى هى نتيجة لذلك العداء. إن الادب الإسلامي لا يخصص وقتا كثيرا ولا مجهودا يذكر لكى يتحدث عن شر اليهود، وفى الوقت نفسه فإنه أقل من ذلك كثيرا في التحدث لمصلحتهم .

من القرآن والحديث و التعليقات ومن الأدب الذى تلاها ومن الدراسات التاريخية ومن الأساطير الشعبية فإنه من الممكن إعادة خلق مثال اليهودى كما بدا للأعين الإسلامية .

إن الذكريات الأولى العربية عن اليهود تؤرخ من القرن الذى سبق ظهور الإسلام مباشرة. وعلى كل حال فإن تلك الذكريات أو الانطباعات كانت في مجملها حسنة . إن ثلاث قبائل يهودية عاشت في المدينة و جماعات أخرى صغيرة من اليهود كانت مبعثرة في واحات الجزيرة العربية في الشمال من بلاد العرب .وليس هناك شيء محدد معروف عن أصولهم وقد وصفوا مرة بأنهم عرب متهودون أو يهود مستعربون . ولم يكن ذلك يمثل مشكلة لمعاصريهم . وبقدوم القرن القرن السادس فإنهم كانوا عربيا في حديثهم وثقافتهم وطريقتهم في الحياة و مندمجين تماما في المجتمع القبلى في

الشمال العربى والذى كونوا فيه جزءا بل وجانبا محترما . واحد منهم هو السموأل بن عدى الذى تفتح وازدهر في منتصف القرن السادس بعد الميلاد يذكر ليس فقط لقصائده ولكن على الخصوص لإخلاصه وولائه الشيئين اللذين اصبحا مضرب الأمثال. ص١٢٨

الصراع أو التعارض بدأ بهجرة النبى محمد [ﷺ] من مكة إلى المدينة حيث كانت هناك القبائل اليهودية الثلاث. إن اليهود في معظم الوقت رفضوا رسالته وقاوموا زعامته السياسية و الحربية . و الصراع الذى نجم والعداء الذى ولده ينعكسان في القرآن والحديث وفى التعليقات حيث اليهودى منظور إليه على أنه شخص عنيد ومعاد ثائر ضد أحكام الله رافض وقاتل أو محاول لقتل رسوله.

وفى الأوقات الحديثة تحت النفوذ الخارجى الذى يمكن بسهولة التعرف عليه فإن صراع محمد [ﷺ] مع اليهود صور على أنه جزء أساسي في تاريخه و عداوتهم له أعطيت أهمية كونية . إن ذلك شيء جديد و ناتج مباشرة من أوضاع ومؤثرات جديدة

إن الأدب الإسلامي الكلاسيكى يتخذ نظرة أكثر استرخاء ويعامل النضال مع اليهود على أنه مرحلة عديمة الأهمية في تاريخ الرسول وهى مرحلة على أي حال انتهت بهزيمتهم المطلقة .

وبرغم أن القرآن في ذكره لمعاملات النبى [ﷺ] مع اليهود ومع المسيحيين يقول بصراحة إنه بين غير المؤمنين فإن اليهود هم أكثر عداء وإن المسيحيين هم أكثر صداقة للمسلمين، ومع ذلك فإن القانون الإسلامي لم يفرق بين الاثنين و عامل كليهما على قدم المساواة .

إن ذلك كانت أيضا هى الأحوال الطبيعية المتبعة في الحكومات الإسلامية حتى وقت حديث نسبيا . في القرآن وفى السيرة النبوية الشيء المهم عن اليهود في المدينة لم يكن هو معارضتهم للرسول بل كونهم هزموا و حقروا .

إن النص القرآنى في السورة الثانية آيه ٦١ التى تقول عن أولاد إسرائيل إنهم كانوا مصابين بالفقر والذلة والمسكنة وإنهم وقع عليهم غضب الرب وما ذلك إلا لأنهم لم يصدقوا علامات الإله وقتلوا رسوله بغير حق كما أنهم لم يطيعوا وتعدوا .

إن عبارات مذلة ومسكنة تأتى كثيرة في القرآن وفى كتابات تالية بالنسبة لليهود . إن ذلك في النظرة الإسلامية كان هو عقابهم على ماضيهم المتمرد كما يظهر في حاضرهم العاجز إذ هم واقفون بين الإمبراطوريتين القويتين المسيحية والاسلام .

إن في الشعر العربى والأساطير الشعبية الضعة أصبحت مثالا لليهود أو تشخيصا مثاليا لهم وتعرض كثيرا في أمثلة و حكايات. والبعض يرى أن ضعة اليهود هذه هى عقاب من الرب لتمردهم وهى لذلك دائما محكوم عليهم بها أبدا. ص١٢٩
وأحيانا فإن ذلك العقاب المستمر يرجع إلى العداوة التى أظهروها تجاه النبى [ﷺ] و المفروض أنها مستمرة في شعور اليهود اللاحقين تجاه المسلمين اللاحقين. وهذا الفرق يظهر أحيانا في الحديث ولكنه ليس نمطا مهما في الكتابات الإسلامية . إن نغمة الذلة و المسكنة تصبح ذات أهمية حيث يحدث من وقت لوقت في التاريخ الإسلامي أن يصعد بعض أفراد اليهود إلى أماكن مرموقة وأصبحوا يرون في حالة تمتعهم بالثروة والعزة مما أنتج أحيانا أثرا حادا وفى بعض الأحيان عنيفا . ولكن ذلك كان أكثر حدوثا مع المسيحيين أكثر منه مع اليهود .

إنه في النصوص الأصولية الإسلامية كما في النصوص المسيحية فإن اليهودى شخص معاد وحامل للنوايا السيئة. ولكن الفارق الكبير هو في أن النصوص الاسلامية فإن عداءه هذا غير ذي أثر و نواياه السيئة تنتهى بالهزيمة .

ففى القرآن اليهود يعصون موسى ويكبحون، إنهم يحاولون صلب المسيح و لكنهم يفشلون ويخيل إليهم أنهم نجحوا في ذلك. وفى تاريخ النبى [ﷺ] اليهود يعارضونه ولكنهم يقهرون ويعاقبون عقابا قاسيا يستحقونه، البعض بالطرد والبعض بالاسترقاق أو بالموت . أن نفس الصورة تظهر في الحديث وفى التعليقات وفى كتابات دينية لاحقه عن اليهودى كشخص معاد ولكن بغير أن تجعل لهذا العداء أثرا أو قوة .

ذلك الاختلاف الجوهرى بين نجاح اليهودى ضد المسيح و هزيمتهم ضد محمد [ﷺ] كان له تأثير عظيم أو حاسم في اتجاهات أو أحاسيس كاره اليهود في الديانيتين .

فبالنسبة للمسيحيين فإن اليهودى يمثل قوة مظلمة سوداء مميتة قادرة على أعمال شر كونية شاملة. بالنسبة للمسلم فإن اليهودى يمكن أن يكون معاديا ماكرا منتقما ولكنه كان ضعيفا لا أثر له، إنه شيىء محل الاحتقار لا محل الخوف. إن تلك الصورة من الضعف و عدم الأهمية يمكن التأكد منها وتأكيدها بما تلا ذلك من تاريخ عن حياة اليهود في البلاد الإسلامية .

كالمسيحيين تحت الحكم الإسلامي فإن اليهودى لم يكن مسموحا له أن يحمل سلاحا أو حتى أن يركب الخيل. ولكن على خلاف المسيحي فإن ذلك كان قدره في كل مكان.

إن الطراز الممثل للذلة مصاحب بطراز متمثل فيه الجبن عرضا اليهود إلى احتقار خاص بين اهالى الإسلام ذوى الطبيعة القتالية. إنه في الأساطير الشعبية الساخرة التى تضحك من خصائص الجاليات والعناصر الأخرى في العالم الإسلامي فإن الصفة الغالب نسبتها إلى اليهود هى الجبن.

مثال واحد لذلك يكفى من تركيا في السنوات الأخيرة للإمبراطورية العثمانية . فتحت تأثير الأيديولوجيات أو النظريات الليبرالية و الاحتياج العملى فإن غير المسلمين سمح لهم أخيرا بالانضمام إلى القوات الحربية العثمانية. ولأسباب بديهيه ص١٣٠ فإن اليهود كانوا موثوق فيهم أكثر من مواطنيهم المسيحيين و لكنهم كانوا أقل احتراما .

وهناك قصة كانت سارية في ذلك الوقت هى إن بعض اليهود الأتراك حركتهم النعرة الوطنية خلال حرب البلقان فكونوا فرقة من المتطوعين للدفاع عن الوطن الأم . و حينما تم تمرينهم وتجهيزهم وأصبحوا مستعدين للذهاب إلى ساحة المعركة فإنهم طلبوا من الحكومة أن تعطيهم عساكر من البوليس لمرافقتهم لأنه يوجد قطاع طريق في طريقهم .

ومع هذه الخلفية من الذلة و انعدام القوة فإن ظهور قوة حربية يهودية وما حازته من انتصارات ساحقة أتى كصدمة عنيفة . إن إجابة جزئية لهذا السؤال المعذب الذى فرضه ذلك التحول أمكن العثور عليه في مثال متقدم سابق مرتبط بالضعف والذلة ألا وهو الخديعة.

ابن خلدون(١٣٢٣ إلى ١٤٠٦) أعظم المؤرخين في القرون الوسطى العربية قدم تفسيرا اجتماعيا يقول : « إن الضر قد لحق بكل أمة حكمت بالأجنبى وعوملت بقسوة. نفس الشيء يمكن أن يرى بوضوح في أولئك الأشخاص الذين هم خاضعون لمشيئة الآخرين والذين لا يتمتعون بالتحكم الكامل في أقدارهم .

خذ على سبيل المثال اليهود الذين شخصياتهم بسبب مثل تلك المعاملة انحطت وتآكلت حتى إنهم أصبحوا معروفين في كل عصر ومناخ بشرهم وسوئهم و مكرهم . إن السبب في ذلك يكمن في الأسباب السابق ذكرها ».

آخرون من الذين ليس لديهم نظرات ابن خلدون الاجتماعية التاريخية رأوا تلك الصفة من الخديعة و الحيلة على أنها شيء متأصل في اليهود .فى الأيام الأولى تلك الصفة كانت نغمة غير مهمة في المناقشة بشأن اليهود والمسائل اليهودية . ولكن في العصر الحديث فإن تلك الصفات أتت بشرح مفيد بالنسبة للهزيمة الحربية .

إن تعاملهم مع غير المسلمين من رعاياهم الحكام المسلمون والشعوب الاسلامية كانت لا تفرق عادة بين المسيحين واليهود معطية أو مانحة كليهما نفس القدر من التسامح.

من وقت لوقت كان هناك نوبات للاضطهاد غالبا ما ترتبط بأحداث معينة كتهديد من عدو خارجى أو الإحساس بأن غير المسلمين قد تقدموا أكثر مما يجب و على ذلك يجب تحجيمهم وإرجاعهم إلى حجمهم المناسب . تلك الحوداث كانت هى الاستثناء وليست القاعدة و مركز أو وضع غير المسلمين كان على العموم شيء محتمل وإن لم يكن دائما آمنا تمام الأمن.

على العموم اليهود و المسيحيون لم يتعرضوا للطرد . أن الاستثناء الوحيد يبدو أنه كان في الجزيرة العربية ، وإن الرواية المقبولة في هذا تشير إلى الحديث الذى يقول إن دينين لن يبقيا في بلاد العرب وعلى ذلك واتباعا لهذا الحديث فإن الخليفة ص١٣١
عمر طرد كل اليهود والمسيحيين من الجزيرة العربية أو من بلاد العرب التى قرر أن تكون بلاد إسلامية خالصة . وفى الواقع فإن اليهود و المسيحيين يبدو أنهم بقوا في جنوب الجزيرة العربية وأن الإبعاد أو الطرد كان مقصورا على الحجاز. كلاهما كان هناك في حياة الرسول [ﷺ] ولكن حكم الإبعاد هذا طبق بجدية متنامية تحت حكم

خلفائه. وحتى الوقت الحالى فإن غير المسلمين ممنوعون من كل الحجاز باستثناء جدة و الطائف و أما اليهود فهم ممنوعون من كل الجزيرة العربية السعودية.

وعلى عكس حال اليهود والهراطقة في المسيحية ، فإن غير المسلمين تحت الحكم الإسلامي نادرا ما تعرضوا للاستشهاد أو للنفى أو للضغط أو للإجبار على تغيير دينهم.

وعلى غير حال اليهود في أوروبا فإنهم كانوا باستثناءات خاصة على سبيل المثال في إيران ومراكش غير محصورين في جيتو حدودى أو مهنى بل إنهم كانوا أحرارا في اختيارهم للمقام وللمهنة. إنهم استمتعوا بحرية العبادة و باستقلالية في إدارة شئون جاليتهم. إنهم كانوا خاضعين لمجموعة من المعوقات الاجتماعية و السياسية و المالية التى كان تطبيقها على كل حال يختلف اختلافا كبيرا من وقت لوقت ومن مكان لمكان . إن أكثر تلك المعوقات ثقلا والتى لم تيسر إطلاقا حتى دخول تأثير الإصلاحات الغربية في الأوقات الحديثة كان هو دفع ضرائب أعلى من الآخرين.

وأكثر تلك القيود مدعاة للذلة وإن كان تطبيقها كان عشوائيا في معظم الأحوال كان هو إلزام اليهود بلبس ملابس خاصة وعلامات خاصة و بطاقات خاصة تميزهم عن هؤلاء المعتبرين مؤمنين حقيقيين.

إن البطاقات الصفراء التى كان سيصبح لها تاريخ طويل في العالم المسيحيى الغربى كانت لها أصولها في القرون الوسطى المبكرة في بغداد . إن تلك كانت حالة واحدة حيث تلقى الغرب من الشرق درسا في التعصب .

وإن خاصية مميزة لذلك العداء للسامية من النوع الأوروبى كانت غائبة تماما عن العالم الإسلامي وذلك في طريقة التفرقة التى فرضتها تلك الخاصية ألا وهى العنصرية.

إنه كان هناك مسيحيون ويهود في بلاد العرب القديمة وكلاهما كان ينظر إليه على أنه جزء من العائلة العربية.

إن اليهودية كالمسيحية كان ينظر إليها على أنها ديانة يمكن للإنسان أن يعتنقها أو يرفضها أو يتركها وليس كشخصية عنصرية متأصلة وغبر قابلة للتغيير . إن

مفهوم الشخصية العنصرية لم يكن أبدا شيئا ينقص عند العرب، وقد عبر ذلك المفهوم عن نفسه في الأوقات الأولى بشكل التعالى العربى على غير العرب، وبعد ذلك فيما تلاها من أوقات فإنها ظهرت في العلاقة بين البيض والسود.

إنه يحتمل أن يوجد نغمات عنصرية في بعض الإشارات لليهود ومثال ذلك في القرن التاسع عشر حينما كتب الكاتب العربى الجاحظ عن انحطاط أو تراجع العنصر اليهودى الناتج عن كثرة الزواج بعضهم من البعض بلا دخول دم جديد، أو ص١٣٢
حينما الكاتب المشاكس ابن حزم في قرطبة هاجم اليهود فإن هجومه يوحى ولكن لا يؤكد الصفات العنصرية لهم. ولكن ابن حزم كان يكتب في إسبانيا حيث سادت أحوال مخالفة أو مغايرة ولم يكن هناك سابقون له ولا لاحقون في الشرق العربى. فإنه لم يحدث حتى وقت حديث نسبى أن تلك الفكرة العنصرية استوردت من أوروبا ألا وهى أن اليهود جنس خاص مفترق متصف بصفات شريرة وصفات عنصرية خاصة.

إن حال الأقليات غير المسلمة في الدول الإسلامية الكلاسيكية يبتعد بمسافة طويلة عن المستوى الذى تحافظ عليه الديمقرطيات في يومنا هذا. إنها مع ذلك تقارن مقارنة أفضل بالأحوال السائدة في أوروبا الغربية في القرون الوسطى وبالأحوال السائدة في أوروبا الشرقية لوقت اطول.

ومع ذلك فإنها لم تستمر. فإن المسلمين حينما بدءوا يحسون بضعفهم و بأنهم مهددون ومحاطون فإنهم أصبحوا متشككين في رعاياهم غير المسلمين الذين كان معظمهم من المسيحيين، وعلى ذلك فهو مشكوك في أنهم على الأقل متعاطفون مع العدو الذى كان هو مسيحيا.

ومن نفس ذلك العدو فإن المسلمين سرعان ما تعلموا أفكارا جديدة في الكراهية ووسائل جديدة في الاضطهاد . أن دخول ذلك النوع المسيحى الخاص من كراهية اليهود في العالم الإسلامي يمكن تعقب حدوثه على عدة مراحل. ويمكن أن يقال إنها بدأت في أواسط القرون الوسطى بواسطة المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام.

المرحلة الثانية جاءت مع الاتساع العثمانى في أوربا و الاستيلاء على القسطنطينية الأشياء التى أتت بأعداد كبيرة من اليونانيين المسيحيين الأورثوذكس وأدخلتهم في الحكم الإسلامي. إن اتهام اليهود بالقتل كجزء من المراسم الدينية كان

شيئا متوطنا في تلك الأنحاء وضع تحت نظر السلطات العثمانية أو أخذت السلطات العثمانية علما به و ذلك من الاضطرابات التى كانت تحدث عادة وقت عيد الفصح، ذلك الوقت الذى كان ينسب فيه إلى اليهود أنهم كانوا يقتلون ضحاياهم. إن ذلك كان أول مرة عرفت فيها تلك القصة "قصة الدم" هذا في البلاد الإسلامية.

إن الاختراق الحقيقى للعداء للسامية في الأوقات الحديثة أو على الطراز الحديث على أي حال يؤرخ من القرن التاسع عشر. إنه بدأ بالأقليات المسيحية العربية التى هى من دون كل الجاليات في الشرق الأوسط كانت الأكثر اتصالا بالغرب.

إنها كانت تشجع بواسطة المبعوثيين الغربيين من أصناف مختلفة كالممثلين القنصليين و التجاريين من جانب و القساوسة و المبشرين من جانب آخر . إن الأقليات المسيحية كانت عندها أسباب عملية لمعارضة اليهود الذين كانوا هم منافسيهم الرئيسين التجاريين. ويكفى في بيان ذلك أن تفجر الاضطرابات ضد اليهود كان دائما مقرونا بدعوة إلى المقاطعة التجارية .

وفى خلال القرن التاسع عشر فإن الاتهام بالقتل للمراسم الدينية أصبح تقريبا شيئا متداولا يظهر في كل أنحاء الإمبراطورية في المقاطعات العربية واليونانية ص١٣٢
والتركية .

إنه في خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر فإن أول مصنف عربي من الكتابات المحاكيه للعداء السامى الأوربى نشر . وإن النشرات المبكرة المعادية للسامية في العربية كانت كلها ترجمات غالبا إن لم تكن كلها من أصول فرنسية و بواسطة مترجمين عرب مسيحيين. إن أول تلك النشرات يبدو أنها نشرت في بيروت في سنة ١٨٦٩ وهي ترجمة لوثيقة مزورة مشهورة أو محبوبة في الدوائر المعادية للسامية في ذاك الوقت والتى تدعى انها اعترافات حاخام ملدوفيا تحول إلى المسيحية وأخذ يظهر فظائع الديانة اليهودية.

وثانى المنشورات المعادية للسامية في العربية كان ترجمة لكتاب مطول فرنسى كتبه من يدعى جورج كورنيلهان نشر في باريس سنة ١٨٨٩ و ينسب لنفسه أنه يعالج فيه حالة اليهود في مصر وسوريا .

إن الصيغة العربية ظهرت في القاهرة سنه ١٨٩٣ و المترجم كان هو المراسل المحلى لجريدة تصدر بالإنجليزية تدعى ليفنت هرلد LEVANT HERALD. ومعناه الرسول اللبناني. ذلك الكتاب مثال جيدعلى الأدب الفرنسى المعادي للسامية في ذلك الوقت الذى يدين اليهود ويلعنهم على أنهم مصدر كل فساد يدمر فرنسا وفى الواقع كل العالم و يقترح كعلاج طردهم طردا جماعيا.

إن السبب المباشر في ذلك التفجر المفاجئ للأدب المعادي للسامية كان هو محاكمة والحكم على الكابتن دريفوس DREYFUS وما تبع ذلك من خلافات.

إن التفجر العاطفى الحار للعداء للسامية في فرنسا كان له توابع وتأثيرات في كل الأماكن الخاضعة للتأثير الفرنسى. إن العلاقة بين فرنسا والمسيحيين المارونيين في لبنان كانت علاقة قوية على وجه خاص. وإن المارون الذين تعاظم تأثرهم بالتعليم الفرنسى والثقافة الفرنسية تأثروا فورا بتلك المحاكمة وغيرها من الأحداث . بعض من الصحافة الإسلامية بالتركية والعربية كانت تتعاطف مع كابتن دريفوس الذى اتهم ظلما، وأخذت الفرصة لتسجل نقاطا ضد تلك الحضارة الغربية الليبرالية المزعومة . وإن شخصية مهمة مثل رشيد رضا، وهو واحد من القادة الدينيين والفكريين المبرزين في العالم الإسلامي في ذلك الوقت علق بسخرية على الإذلال والاضطهاد لليهود في فرنسا .إن ذلك لم يكن مرجعه كما لاحظ هو إلى التعصب الدينى، حيث إن الفرنسيين كانوا أبعد ما يكون عن التمسك بالعقائد الدينية، ولكنه نسبها إلى الكراهة العنصرية والحقد على نجاح اليهود .

إن رشيد رضا يلاحظ و بشيء كثير من التبرير ومعه الحق أن تلك الأحداث لو حدثت في الشرق فإن نفس الصحفيين الذين كانوا يطاردون دريفوس واليهود كانوا لعنوا أو هاجموا أهل الشرق في مقالات مسمومة و صرخوا لتطبيق الحرية غير ص١٣٤
المحدودة وقواعد العدالة العالمية. ومما هو جدير بالاعتبار إنه يدين بعض الصحفيين المصريين لأنهم تبعوا الخط الفرنسى في مهاجمة اليهود .

إن التعضيد لأعداء دريفوس كان في أساسه محصورا في الأقلية المسيحية، وحتى في ذلك فإنه كان ذا أثر محدود وواضح أنه منبعث من تأثيرات أجنبية . ولكنه مع ذلك

أوجد المناسبة لأول مجموعة من ترجمات الأدب الأوروبى المعاد للسامية إلى اللغة العربية.

ان إدخال النغمة التلمودية في الكتابات الإسلامية المعادية لليهود تؤرخ من تلك الحقبة وكانت في البداية مسيحية خالصة في أصلها وفى وسائل بثها إلى العربية.

ومن تاريخ مبكر كسنة ١٨٩٠ فإن مؤلفا مسيحيا يسمى حبيب فارس نشر كتابا في القاهرة يدعى "صرخة البريء في بوق الحرية" وذلك الكتاب أعيد طبعه بعنوان "الذبائح البشرية التلمودية".

إن هذا تجميع للأساطير المعادية للسامية في أغلبها ولكنها ليست كلها مأخوذة من مصادر أوروبية متهمة اليهود بالتضحيات البشرية في المراسم الدينية ناسبة ذلك إلى التعاليم التلمودية.

وبالإضافة إلى الاتهامات الأوروبية المعتادة فإن المؤلف يضيف عددا من الأمثلة من الشرق الأوسط، ويشرح بتفصيل الاتهامات المختلفة بالقتل لأسباب ومراسم دينية في القرن التاسع عشر في سوريا ودمشق وأنطاكية وفى غيرها. إن الكتاب أعيد طبعه في نسخة جديدة بمقدمة وتعليقات في القاهرة في سنة ١٩٦٢. وعمل آخر مبكر ومن نفس النوع هو "الكنز المرصود في قواعد التلمود".

إن هذه هى ترجمة لكتاب الحبر روهلينز المعادى للسامية المعروف والذى نشر أصلا في ألمانيا. إن النسخة العربية مأخوذة من ترجمة فرنسية والمترجم للعربية كان واحدا يدعى يوسف نصرالله.

إن أول نسخة نشرت في القاهرة في سنة ١٨٩٩ والثانية في بيروت في سنة ١٩٦٨.

وفى كلتا الحالتين فإن الطبعة الأولى يكاد لم يلحظها أحد حتى بين الأقليات المسيحية.

ولكن الثانية كانت محل اهتمام كبير. وهذا أيضا صحيح بالنسبة لكتابات أخرى مماثلة أخرجت في نفس الحقبة.

إن هذه المحاولات المبكرة لنشر الكتابات المعادية للسامية باللغة العربية لم تمر دون مقاومة.

ففي البلاد العثمانية السلطات أوقفت تداول نشرة صدرت في سنة ١٨٦٩ ومن وقت لآخر أغلقت دار صحف من التى نشرت تحريضات ضد اليهود لما في ذلك من تهديد للأمن العام. وعرب مسيحيون بارزون كتاب وصحفيون في ذلك الوقت كتبوا يدينون مثل هذه الهجمات على اليهود داعين إلى تفاهم أحسن بين الديانات الثلاث. ص١٣٥

ولكن ذلك لم يكن ليحدث، وفى السنوات التى تلت ذلك فإن الحالة أخذت تتدهور وتسوء. إن تزايد المد في العداء لليهود وإزاحة الجاليات العربية اليهودية القديمة يجب أن ينظر إليه على خلفية الأحداث الكبيرة في ذلك الوقت. تلك الأحداث وأكثرها تأثيرا وأعظمها تدميرا في آثارها كان هو تغير ميزان القوى بين الإسلام وأوروبا.

فلقرون عديدة كان الإسلام آخذا في الضعف وأوروبا آخذة في القوة . ولحين فإن المسلمين في قلب بلاد الشرق الأوسط كانوا مازالوا يستطيعون أن يغمضوا أعينهم عن حقائق ذلك التغير. ولكن بقدوم نهاية القرن التاسع عشر وأكثر من ذلك في القرن العشرين فإن أوهاما قليلة بقيت. فإن جزءا كبيرا من العالم الإسلامي قد تم قهره ودمجه في أربع إمبراطوريات أوروبية كبيرة بريطانيا وفرنسا وهولندا وروسيا وحتى الدولتين الباقيتين المستقلتين وهى الإمبراطورية العثمانية وإيران فإنهما كانتا معرضتين بشكل متزايد للنفوذ الاقتصادى والسياسى الأوروبي.

إن القوى السياسية والضغوط الاقتصادية فتحت الباب للتأثيرات الثقافية أيضا. فلأول مرة المسلمون العرب والفرس والأتراك بدءوا يتعلمون اللغات الأوروبية ويقرءون الكتب الأوروبية ، بل ويرسلون أولادهم إلى المدارس الأوروبية. وإن الخطر العظيم الذى كان يتهدد العالم الإسلامي بأكمله كان هو سيطرة أوروبا عليه. ولمواجهة ذلك الخطر كان من الضرورى فهم ودراسة العدو كما أن كثيرين احسوا أنه من اللازم محاكاة ذلك العدو.

إن أوروبا في ذلك الوقت من الشرق إلى الغرب كانت تقدم مجالا واسعا من الطرز التنظيمية والمؤسسية و الأفكار والأيدولوجيات التى توجه السلوك.

إن ذلك كله وجد أتباعا بين الخدام والنقاد للحكومات الشرق أوسطية. فمن جانب الأنماط والإجراءات للإدارة أعيد تشكيلها على خطوط أوروبية ، ومن جانب آخر فإن الأقلية المختارة المستغربة التى حكمت دول الشرق الأوسط بدأ أعضاؤها يفكرون في

أنفسـهم وفي أاقوامهـم ودولهم في ضـوء اللغـة الجديـدة والتى لم تكن معروفة من قبل وهى الوطنية والقومية.

كل ذلك أتـى بتغييرات مهمـة في حالـة الأقليات غير المسلمة و الطريقة التى كان ينظر مواطنوهم المسلمون بهـا إليهم. إن العلاقـة القديمـة التى حض عليها القـانون الإسلامي والعـادات والتى جمعت مـا بـين التقبل والتسـامح مـع عدم المساواة كانت ناجحة لما يقرب من ألف عام.

ولكنه لم يعد مـن المقبول بالنسبة للقرن التاسع عشر المتنور سواء بالنسبة للقوى الأوروبية أو إلى الـرعايا المسـيحيين للإمـبراطورية العثمانـية الذيـن أصـبحوا بشـكل ص١٣٦ متزايد متمتعين بحماية تلك القوى.

وبالهجـر الـتدريجى للوضـع القديـم فـإن مـا حـل محلـه لم يكـن دائمـا تقدمـا أو إصـلاحا . فعلـى الـورق الأقليات الدينية كان حالها أحسن كثيرا مما قبل. فبدلا من أن يكونـوا جاليات محكومـة في دولـة معينـة بالإسـلام فإنهم أصبحوا الآن أعضـاء في أمة ورعايا لدولـة. في النظام القديـم الأمـم كانت أقساما أو أجزاء من الدين أما في النظام الجديـد فالديانـات أصـبحت أجـزاء مـن الأمـة الـتى فـيها كـل أتـبا ع الأديـان جمـيعا يسـتطيعون مـن حيـث المبدأ علـى الأقـل المطالبة بحقـوق متسـاوية. وبـين المسـيحيين واليهود فإن هذه التغييرات أثارت آمالا كبيرة، وحتى بين المسلمين، وعلى الأخص في تلك الولايات التى لم تكن خاضعة بطريقة مباشـرة للهيمنة العثمانية، كان يوجد هناك ممن شـاركوا في تطلعـات هـؤلاء المواطنين الليبـراليين وفـى إيمـانهم بشـخصـية وطنـية واحدة مشتركة تعلو على الفروقات الدينية.

ولكـن كانـت هـناك مصـاعب جمـة، لم يكـن أقـلها التميـيز الـذى حبـت بـه الإمـبراطوريات الأوروبـية المسـيحيين، وإلى درجـة أقـل الجاليات اليـهودية وما نتج عن ذلك من تقدم سريع لها في التعليم، والثروة وفى النهاية النفوذ.

إن هـذه الـتحولات كـان مـن الحـتم أن تـثير حفيظة المسـلمين الذيـن لم يـروا سـببا وجيها لأن يقبلوا كأقـران متسـاويين مـع أولـئك الذين كانوا لزمن طويل أقل في المرتبة منهم والذين بفضل التشجيع والحماية الأوروبية صعدوا إلى مكان أعلى.

وحـتى المسـيحيون لم يكونـوا دائمـا راضـين عن هـذه المسـاواة الجديـدة الـتى كـان معـناها رفـع مكانـتهم إلى أعـلى مـع المسـلمين وفـى الوقـت نفسـه خفضـهم ليتسـاووا

باليهود. إن مذكرة كتبها موظف عثمانى كبير معلقا على المرسوم الصادر في ١٨٥٦ الخاص بالمساواة بين المسلمين وغير المسلمين، كتب يصف ردود الفعل لهذا المرسوم في الحالتين المسيحية والمسلمة : « إنه طبقا لهذا الفرمان فإن الرعايا المسلمين وغير المسلمين أصبحوا متساويين في كل الحقوق. إن ذلك كان له أثر سيئ جدا على المسلمين. كثير من المسلمين بدءوا يزمجرون ويقولون " إننا اليوم فقدنا حقوقنا المقدسة التى كسبها آباؤنا وأجدادنا بدمائهم، إن هذا يوم للحزن والبكاء بالنسبة لأهل الاسلام". أما بالنسبة لغير المسلمين فإن هذا اليوم الذى حازوا فيه المساواة فإنه كان يوم فرحة. ولكن المطارنة والقادة الروحيين كانوا غير مسرورين لأنهم كانوا قبل الفرمان كانت الجاليات مصنفة : المسلمون أولا ثم اليونانيون ثم الأرمن ثم اليهود، أما الآن فإن هؤلاء جميعا وضعوا على نفس المستوى.

إن بعض اليونانيين اعترض على ذلك بقولهم إن الحكومة وضعتنا في موضع واحد مع اليهود. إننا كنا سعداء بالنظام القديم وكنا مرتاحين لسيادة الاسلام ». ص١٣٧

وبينما كانت مظاهر الضيق الاسلامية هذه الجديدة موجهة بالدرجة الأولى نحو المسيحيين فإن المستفيدين الأعاظم من ذلك التغيير ألا وهم اليهود أيضا تأثروا بذلك.

وحيث إنهم لم يكونوا متمتعين بالمزايا التى حصل عليها المسيحيون بزيادة عددهم وثروتهم وسلاحهم والحماية الأجنبية ، فإنهم كانوا في بعض المرات المتنفس المتبادر لذلك الضيق الإسلامى. إن المسيحيين المحليين أنفسهم ساهموا أحيانا في ذلك بإثارة المشاعر ضد اليهود وذلك بدافع المنافسة التجارية من جانب ومن جانب آخر لتوجيه الغضب الإسلامي بعيدا عنهم ونحو اليهود. وفى ذلك كانوا غالبا متمتعين بتعضيد أصدقائهم وحماتهم الأوروبيين .

إنه كان هناك أكثر من مثال أو طراز أوروبى يمكن للشرق أوسطيين الآملين في الرفعة أو الطامحون أن يتبعوه . فلوقت طويل كان اكثر تلك الأنمطة الأوروبية محلا للإعجاب كان هو أوروبا الغربية ذات النمط الأمثل في الديموقراطية الليبرالية والحكومة الملتزمة بالدستور والحقوق المتساوية بلا تفرقة بين الجنس أو العقيدة.

ولكن هناك أنماطا أوروبية أخرى من التعصب الدينى والقومية العنصرية الممتزجة بالتعصب الجنسى والتى كان لها معضدون أو تابعون أو محبذون كثيرون

في أوروبا وأتباع في الشرق الاوسط . إن بداية الطراز الجديد من العداء للسامية في الشرق الأوسط يمكن نسبته بشكل كبير إلى هؤلاء المعلمين الأجانب وخلصائهم المحليين. إن القنوات التى جاءوا من خلالها كانت عادة نوعين : دينيا ورسميا. فإن القساوسة في كل من الكنيستين الأرثوذكسية اليونانية والكنيسة الكاثوليكية بذلوا جهودا عظيمة لتعبئة أتباعهم من رعايا الإمبراطورية العثمانية الأولى. منهما اليونانية كانت تعمل لصالح روسيا والثانية تعمل لصالح القوى الكاثوليكية وعلى الأخص فرنسا. الاتهامات ضد اليهود بالقتل الدينى في مدن الشرق الأوسط استمرت لوقت طويل مستمدة حصريا من مصادر مسيحية.

وإن أشهر تلك الاتهامات وهو حادثة القضية الدمشقية في سنة ١٨٤٠ بدأ ببعض الرهبان الكابوشين وشجع بواسطة القنصل الفرنسى.

إن التدخل القنصلى والكهنوتى كان يمكن رؤيتهما أو ملاحظتهما في عدد من القضايا المماثلة. وبدخول نهاية القرن التاسع عشر فإن تلك الاتهامات أخذت تأتى أيضا من مصادر إسلامية. وفى القرن العشرين تلك الاتهامات أصبحت شيئا عاما متعارفا عليه. ونغمة جديدة في هذا كانت هي الدعوة إلى تحالف مسيحى إسلامى لمجابهة العدو المشترك اليهودى. إن هذا الخط من التفكير مازال يعرض من وقت لآخر ولوأنه لم يحصل إلا على تأييد محدود .

وخطوة أخرى مهمة في نشر الطراز الأوروبى من العداء للسامية في الشرق الأوسط جاء تابعا لثورة تركيا الفتاة في سنة ١٩٠٨ والتى أنهت استبداد السلطان ص ١٣٨
عبد الحميد الثانى وأقامت نظاما دستوريا . في ذلك الوقت فإن الثورة رحب بها كثير من المسلمين كما رحب بها معظم المسيحيين واليهود وكان ينظر إليها على أنها فجر عهد جيد من الحرية والتعاون. ولكن كان هناك محافظون مسلمون كثيرون من الذين رأوا في خلع السلطان وتحديد سلطات خليفته ضربة للإسلام.

إنهم كانوا على وجه الخصوص مستثارين بالمساواة بين الأديان التى وعدت بها حركة تركيا الفتاة، وبالرغم من أن ذلك الوعد لم ينفذ تماما فإن التغيرات التى كانت تحدث كانت كافية لإثارة معارضة جدية في العاصمة وعلى الخصوص في الولايات العربية.

وفى مرحلة مبكرة فإن معارضـي تركيا الفتاة ادعوا أن ثورتهم هذه كانت نتيجة للتآمر اليهودى. إن ذلك لم يكن اتجاها جديدا في البلاد الإسلامية حيث ولقرون كان نسبة أصل يهودى لحركة ما طريقة معترف بها في محاولة الانتقاص من قدر تلك الحركة. ففى الماضى مثل هذه الاتهامات نادرا ما كانت تتبع، ولم تكن إلا جزءا بسيطا من مفردات العيب والشتيمة المتداولة. ولكن في هذه المرة فإن الأمر كان مختلفا.

إن الاتهامات أعطيت فكرا جديدا متميزا وتناسقا وبنيت على مفاهيم ومعتقدات معادية للسامية التى كان قد تم استيرادها من أوروبا. إن بعض الصحفيين الأوربيين والدبلوماسيين تبنوا هذا الخط من التفكير وخصوصا السفير البريطانى سير جيرارد لوثر ورئيس التراجمة في سفارته جيرالد فتس موريس ، وقد كان كلاهما مدمنين لنظريات المؤامرة فيما يتعلق باليهود. إن حكايات من هذه القبيل بدأت تتداول في الجالية الأجنبية . إن هذه الروايات ظهرت في الجرائد المسيحية المحلية وهى اليونانية والأرمنية والمسيحية العربية، وبحلول سنة ١٩١١ فإنها تسللت إلى واخترقت الصحافة التركية.

وقد اكتسبت تلك الروايات حياة جديدة في الحرب العالمية الأولى حينما القوات الإمبراطورية واجدة نفسها في حالة حرب مع الأتراك والخوف من ثورة رعاياهم المسلمين حاولوا بكل طريقة الانتقاص من الامبراطورية العثمانية وعلى الأخص من نظام الأتراك الشباب الذى كان يحكم تلك الإمبراطورية . إن القول بأن النظام التركى الجديد لم يكن في حقيقته إسلاميا بل محكوما باليهود وبالماسونيين، كان لذلك القول بعض القيمة في دعاية الحلفاء الموجهة للعرب وإلى العالم الإسلامي عامة.

إن الدلائل الحديثة تشير إلى أن رد الفعل ضد الثورة التركية أو ثورة الأتراك الشباب في الولايات العربية وفى غيرها، كانت معنية أصلا بالمساواة بغير المسلمين ص١٣٩ عامة ولم تكن موجهة ضد اليهود بشكل خاص. ولكن نشر وترويج المعانى والمفاهيم والكتابات المعادية للسامية في الشرق الأوسط كان قد بدأ. وفى ذلك الوقت فإنه كان منحصرا في جماعات غير ذات أهمية من الجماعات المتطرفة ولم يكن له تأثير لا على الاتجاهات السياسية ولا الأدبية في ذلك الوقت. ولكن بعض النصوص المعادية

للسامية والأفكار التى احتوتها أصبحت الآن في المتناول بالعربية، جاهزة للاستخدام وللإذاعة والنشر على نطاق أوسع حينما يحين الوقت.

إن ما تلا ذلك من نمو في العداء العربى للسامية حتى وصل إلى الفيضان الحالى يرجع إلى أسباب عديدة. التحدى الإمبريالى والرد الوطنى على ذلك التحدى، وخلط التعصب المستورد مع التعصب الناشئ محليا وفى التغيرات العنيفة والمؤلمة التى أدت إلى قيام تعصب جديد جعل العداوات أكثر حدة مما هدد كل الأقليات .

أما بالنسبة لليهود فإن عاملين جديدين كان لهما أهمية قصوى. واحد منهما كان صعود أدولف هتلر والحزب النازى في ألمانيا والدعاية الضخمة التى كانوا يبثونها. أما العامل الآخر فكان هو بداية الاستقرار والتوطن الصهيونى في فلسطين مؤديا إلى قيام دولة إسرائيل وما تلاها من حروب عربية إسرائيلية.

الفصل السادس

النازيون والمسألة الفلسطينية

إن العلاقة الحميمة والناشطة التى تكونت ونمت بين ألمانيا النازية وأقسام من القيادات العربية في السنوات من ١٩٣٣ : ١٩٤٥ لم تكن راجعة إلى محاولة ألمانية ص١٤٠ لكسب العرب ولكن في الواقع راجعة إلى سلسلة من التقربات العربية من الألمان.

فلوقت طويل الحكومة النازية أظهرت نقصا مدهشا في الاهتمام بالعالم العربى وبشئونه. إنه كان هناك أسباب عديدة لهذا. واحد مع عدم المبالغة في أهميته- كان عقائديا.

إن العرب كانوا في التصنيفات الألمانية ساميين وعلى هذا فإنهم مشاركون في الدونية التى ينسبها المفكرون النازيون إلى اليهود. مثل هذه الآراء والنظرات كان يعبر عنها من وقت لآخر في الكتابات النازية وأعطيت تعبيرا دراميا أطلقه أدولف هتلر نفسه حينما قال في خطبة إلى القادة الحربيين ألقيت في أغسطس ١٩٣٩ وقبل اندلاع الحرب عن شعوب الشرق الأوسط بأنها كغيرها من الشعوب غير الأوروبية : « إنهم أنصاف قرود محتاجون لأن يشعروا بوقع السوط».

وأهم من الاعتبارات الأيدولوجية كان هو التقدير المنخفض الذى قدره الخبراء الألمانيون بالنسبة للامكانات العربية. إن هذه السياسة السلبية الداعية للدهشة تجاه العرب كانت *في الأساس* مقررة لا على *أساس أفكار أو أحكام عملية ولكن* بسبب نظامهم *الخاص في* الأفضليات . فبغير *شك إن الهدف النازى النهائى كان هو* الاستيلاء أو حكم العالم.

والهدف الثانى مع ذلك كان هو أوروبا، وكل الاعتبارات الأخرى كانت خاضعة في الوقت الحالى إلى تحقيق إقامة تميزهم وحكمهم و سيادتهم في القارة الأوروبية. إن الشرق الأوسط كان ينظر إليه على أنه شيء قليل الأهمية لايساوى التضحية بمصالح أخرى ولا المخاطرة بتحالفات محتملة.

فطالما كان النازيون محتفظين بأى أمل في البقاء على علاقات طيبة مع بريطانيا، فإن هؤلاء الألمان كانوا حريصين على البعد عن أي عمل واضح العداء للبريطانيين. ص١٤١ إن النازيين في البداية لم يبتعدوا عن النظرة التقليدية التى عبر عنها بسمارك في عبارة مشهورة تقول إن "المسألة الشرقية بأكملها لا تستحق عظام جندى بروسى واحد".

وبقيام الأزمة العالمية في ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ فإن وجودا مريحا مع بريطانيا لم يعد يعتبر ممكنا. ولكن كان هناك آخرون من الذين ألمانيا مستعدة لأن تتنازل لهم عن أجزاء من الشرق الأوسط. وعقب التسليم الفرنسى في يونية سنة ١٩٤٠ فإن اللألمان النازيين كانوا مستعدين للاعتراف باستمرار حكومة فيشى الفرنسية في كل من سوريا وشمال إفريقيا. وفى الاجتماع بين هتلر ومولوتوف في نوفمبر سنة ١٩٤٠ فإنهم قبلوا الطلب السوفييتى بالاعتراف الألمانى بحقوق روسيا في المنطقة جنوب باتوم وباكو في الاتجاه العام نحو الخليج الفارسى كمركز ومحور لآمال الاتحاد السوفيتى. وأهم من هذا كانت مطالبات عضو المحور إيطاليا الفاشية.

إن السياسة الخارجية الألمانية بانتظام اعترفت بأفضلية المصالح والمطالب والأطماع الإيطالية في الشرق الأوسط وابتعدت عن أي عمل أو قول يمكن أن يؤدى إلى تصادم بين ألمانيا وحليفتها إيطاليا. إن خبراء الشرق الأوسط الالمانيين كانوا ولا شك يحسون تماما بالاضطرابات والمتاعب التى واجهها البريطانيون في المدة ما بين الحربين الأولى والثانية نتيجة لبعض الوعود السياسية المتسرعة إلى العرب وعدم الاهتمام الكافى بمصالح وحساسيات حلفائهم الفرنسيين. إن الالمان كانوا مصممين على ألايعيدوا تلك الأخطاء.

ثم إنه كانت هناك عوامل أخرى عديدة مختلفة دخلت في تكوين الاتجاه النازى بالنسبة للشرق الأوسط. وإن تلك العوامل كان يمثلها مجموعات مختلفة أو اقسام من المؤسسة النازية.

وفى هذا كما في غيره من المسائل عدم الاتفاق وحتى التجادل بين اهتمامات وآراء مختلفة في داخل الدولة النازية كان ممكنا وذلك حتى يعقد هتلر عزمه بحيث تصبح إراداته هى القانون ولا يمكن مناقشتها.

ففى السنوات الأولى من الحكومة النازية فإن الاهتمام الأعلى للقيادة وبالتبعية فهو اهتمام الحكومة كان هو التخلص من اليهود. إن فكرة إتمام ذلك بوسائل الاستئصال المادى كان قد اقترحها فعلا بعض القادة النازيين ولكنها لم يكن من الممكن اعتبارها في ذلك الحين سياسة رسمية. وبدلا من ذلك فإن الخيار الآخر كان ص١٤٢
هو التهجير وأى شيء يمكن من الإسراع في ذلك الإجراء يقرب ألمانيا من الهدف المطلوب وهو أن تصبح تماما متحررة من أي أثر يهودى. أي إجراء مثل هذا كان منظورا إليه على أنه شيء مرغوب فيه. ولكن في عالم ذلك الوقت سنة ١٩٣٠ الغارق في الأزمة الاقتصادية فإن بلادا قليلة كانت مستعدة لقبول مهاجرين مفلسين و مدقعين والاختيارات أمام اليهود الألمان كانت محدودة جدا. ولذلك فالألمان رأوا في فلسطين الانتداب أرضا جيدة يلقى فيها أولئك اليهود غير المرغوب فيهم من رعاياهم، وقد كانوا مستعدين لاتخاذ بعض الخطوات العملية نحو ذلك الهدف. وإذا كان ذلك الإبعاد إلى فلسطين سوف يخدم الهدف الإضافى من إحداث الاضطرابات للإنجليز وتحريك الشعور المعادى لليهود فإن ذلك كان يعتبر زيادة في الخير من وجهة النظر النازية.

إن شعور النازية تجاه الصهيونية وتجاه فكرة الدولة اليهودية كان في البداية يشوبه الاحتقار ثم تلا ذلك العداء. فطبقا للنظريات العنصرية النازية الآريون فقط هم الذين يستحقون الهيمنة السياسية، وهم الوحيدون الذين يمكن أن يباشروها. إن اليهود ينقصهم القدرة التخليقية والمثاليات اللازمة لإقامة واستمرار دولة. وبالنسبة لألفريد روزنبرج الصهيونية كانت خطوة اتخذها بعض المغامرين لكى يؤمنوا لانفسهم مجالا جديدا لمزاولة النشاطات المؤدية لاستغلال العالم.

وبالنسبة لهتلر فإن اليهود لو تركوا لأنفسهم فإنهم سيكونون كقطيع من الفئران يحارب بعضهم البعض حتى الموت. ويقول في ذلك : « إن اليهود لو كانوا وحدهم في العالم فإنهم سيغرقون في أوساخهم ». وإن وجهة نظر ممثلة للفكر النازى ذكرها

محرر في جريدة الحزب المسماة أنجريف الذى طاف في فلسطين في سنة ١٩٣٧. تلك النظرة جاءت في خطاب إلى رئيس قسم الشرق الأدنى في وزارة الخارجية الألمانية ص١٤٣ ويقول فيه : « إنه من الخير أن اليهود من ألمانيا جاءوا إلى فلسطين وأنفقوا ثرواتهم هناك ، ففلسطين مكان مناسب للهجرة اليهودية الألمانية. إنهم لم ينبتوا جذورا هناك وستضيع أموالهم وسيصفيهم العرب.

إن اليهود في فلسطين محكوم عليهم بالفناء وآخرتهم ستكون كمن يقفز من المقلاة إلى النار ». ومن الواضح أنه بالنسبة لهؤلاء الذين يعتنقون مثل تلك الآراء فإن فكرة دولة يهودية لم يكن من الممكن تحقيقها وعلى ذلك فهى لم تكن تمثل أي مشكلة بالنسبة لألمانيا. ولكنه في الوقت نفسه مدرسة أخرى من الفكر بدأت تتكون خصوصا في وزارة الخارجية الألمانية وعبرت عن نفسها في مذكرتين مهمتين نشرا في يونية ١٩٣٧.

الأولى كتبها فون نيوراث الوزير الألمانى للشئون الخارجية وأرسلت في أول يونيو إلى السفارة الألمانية في لندن والقنصل العام في القدس وللمفوضية الألمانية في بغداد. والثانية مؤرخة في ٢٢يونيو أعدها قسم الإشراف على المسائل النازية في وزارة الخارجية وعممت على كل الجهات الدبلوماسية والقنصلية في الخارج. إن الاضطهاد النازى كان له تأثير عظيم في نمو المستعمرات اليهودية في فلسطين والتى ارتفع ص١٤٣ عددها ومواردها بقدر كبير في سنوات الثلاثينيات. وأهم من ذلك أن اللجنة الملكية البريطانية التى رأسها اللورد بيل كانت بسبيل إكمال تقريرها بعد تحقيق طويل في المشكلة الفلسطينية. وبرغم أن تقرير لجنة بيل لم ينشر حتى شهر يولية فإن اتجاهها العام كان قد اصبح معروفا. إن التقرير كان يتميز بالفهم المتعاطف تجاه كل من الصهيونية والقومية العربية.

وأهم توصيات ذلك التقرير كان هو إعطاء ترضية جزئية لكل منهما وذلك بتقسيم فلسطين الانتداب وخلق دولتين منفصلتين واحدة يهودية والأخرى عربية. إن فكرة التقسيم التى تسيدت ولوقت طويل كافة الاعتبارات في المشكلة الفلسطينية أعطيت هنا تعبيرا رسميا لأول مرة. ومع صدورتلك التوصيات فإن فكرة قيام دولة يهودية لم تصبح بعد شيئا من الخيال الصهيونى. إنها أصبحت اقتراحا عمليا تحتويه توصيات حكومة بريطانية أو بمعنى آخر حكومة آرية .

إن صناع السياسة الألمان كانوا سريعين في أخذ ذلك التحول في الحسبان. وفى كلمات فون نيوراث وتعليماته " منذ الآن فإن الهدف الأول لسياسة ألمانيا تجاه اليهود هى تشجيع هجرة اليهود من ألمانيا بكل الوسائل الممكنة. ومن أجل تحقيق ذلك الهدف فإنه يمكن حتى تحمل بعض التضحيات في مجال سياسة إدارة النقد الخارجى، (وذلك إشارة للتحويلات التى يسمح بها لليهود الذين يتركون ألمانيا إلى فلسطين) . في هذا الوضع الجديد فإن الوثيقة تشرح أن الاتجاه الألمانى للشئون الفلسطينية لم يعد في الإمكان تحديده بالاعتبارات السياسية الداخلية فقط ويقول التقرير في ذلك : « إن تكوين دولة يهودية أو كيان سياسى يقوده اليهود تحت الانتداب البريطانى ليس في مصلحة ألمانيا حيث أن دولة فلسطينية لن تستوعب يهود العالم ولكنها ستخلق مركزا إضافيا من مراكز القوى - في ظل القانون الدولى - لليهودية العالمية شيئا مثل دولة الفاتيكان بالنسبة للكاثوليكية السياسية أو موسكو بالنسبة للكومنترن ». إن معارضة الدولة اليهودية تعنى التعضيد لمعارضيها العرب. ثم يستطرد فيقول « ولذلك فإن المانيا لها مصلحة في تقوية العالم العربى كثقل معاد ضد أي زيادة في قوة اليهودية العالمية ».

والمعارضة الألمانية للدولة اليهودية يعبر عنها بعبارات مشابهة في المنشور المؤرخ ٢٢ يونية مع إضافة تبريرات أيديولوجية فكرية فيقول : « فى الحقيقة إنه توجد مصلحة كبرى لألمانيا في الاحتفاظ بالبعثرة الحالية لليهود، وحتى حين لا يصبح لأى يهودى وجود على الأرض الالمانية فإن المشكلة اليهودية ستكون لم تحل بعد بالنسبة لألمانيا بل على العكس فإن التطورات في السنوات القريبة بينت أن اليهودية العالمية ستكون دائما عدوا فكريا وعلى ذلك عدوا سياسيا للوطنية الاشتراكية الألمانية. إن المسالة اليهودية هى إذاك واحدة من أهم مشاكل السياسية الألمانية الغربية ». ص١٤٤

ولقد أرسلت التعليمات إلى البعثات الألمانية في الشرق الأوسط لاتخاذ سياسة أكثر تعاطفا وإن كانت محتاطة في اتجاهاتها نحو العرب. فريتس جروبا الوزير الألمانى في بغداد أمر بأن العطف الألمانى على الآمال العربية القومية يجب أن يصرح به بطريقة أكثر وضوحا ولكن بدون إعطاء أي وعود محددة.

إن السبب في هذا التحوط المستمر كان مبعثه بقاء الأمل في تجنب قطيعة نهائية

مع بريطانيا. وحتى المعونة المالية للثوار العرب التى أوردتها مصادر المخابرات الألمانية كانت صغيرة ومتقطعة أو غير منتظمة. إن ألمانيا كانت مستعدة لأن تعطى تشجيعا عاما وبعض المساعدة السرية للعرب المعارضين للقوى البريطانية ولكن وحتى ميونيخ فإنها توقفت عند النقطة التى يمكن أن تتعرض فيها العلاقات البريطانية الألمانية للخطر. إنه في أعقاب اتفاقية ميونيخ في سنة ١٩٣٨ وخصوصا بعد غزو تشيكوسلوفاكيا في مارس سنة ١٩٣٩ أصبح من الواضح في برلين أن ألمانيا وبريطانيا سيكونان في جانبين متعارضين في الحرب التى تقترب، إن الدعاية الألمانية للعالم العربى لذلك أصبحت أكثر نشاطا وأكثر تأكيدا. إن الإذاعات باللغة العربية بدأت في صيف سنة ١٩٣٨ وأثبتت فعاليتها العظيمة في وقت كان المستمعون فيه للراديو لم يكونوا بعد أذواقا ذكية متفهمة كالتى يحوزونها الآن.

وبالإضافة لهذه الإذاعات أشكال اخرى من الدعاية إذاعية ومطبوعة أثارت أو أحدثت استجابة قوية.

ومع ذلك فإن العرب كانوا لا يحصلون على الوعود المحددة والمساعدة الملموسة التى كانوا يرغبون فيها والتى كانوا ينتظرونها من ألمانيا. وبرغم أن مراعاة الأحاسيس البريطانية لم تعد بعد لها اعتبار في نظر صانعى السياسة الألمانية فإنه كانت مازال هناك قوى أخرى صاحبة اهتمام في الشرق الأوسط. تلك القوى كان استمرار شعورها الطيب أو نياتها الطيبة أهم بكثير من شعور العرب أو نياتهم.

إن صناع السياسة الألمانية والرسميين والموظفين المتعاملين مع الشئون العربية كانوا خاضعين لعدد من التحديدات. ولكن أولئك المتحدثين باسم العرب والذين يحبذون تحالفا ألمانيا لم يكن يقاسون أو يعانون من مثل تلك التحديدات. وحيث انهم أعادوا مرارا أو شرحوا مرارا لشخصيات ألمانية عالية المقام ومنها المستشار الفوهرر شخصيا أن العرب شجعوا ووثقوا في ألمانيا لأنهم في صف واحد ضد العدو المشترك. إن ذلك العدو في البداية كان معناه البريطانيين والفرنسيين واليهود. ثم بعد ذلك لاحقا وبتغير التحالفات في الحرب، فإن الفرنسيين خرجوا من هذه المعادلة ودخل محلهم السوفييت أولا ثم الامريكان. ص١٤٥

إن الاشتراك في القتال ضد العدو الواحد هو لاشك باعث قوى على توحيد

الأهداف ومؤد إلى خلق الهدف المشترك. ولكن كان هناك عوامل أخرى عميقة أدت إلى محاباة أو اختصاص الدعاية الألمانية بالرضا في الأراضى العربية وساعدت على أن تحوز تلك الدعاية استقبالا تعاطفيا . إن الإمبراطورية البريطانية والفرنسية لم تكونا فقط هما الإمبراطوريتين اللتين تحكمتا في وقت ما في الشرق الأوسط. إن تلك الإمبراطوريات كانت تمثل أمما آمنة وقوميتهم التى كان معبرا عنها في شكل الأمة – الدولة كانت كافية لإرضاء تطلعاتهم القومية والإقليمية. إن الوطنية الهادئة في أوروبا الغربية التى تدين لما هو فقط تعريف قانونى للرعوية كان لا يشابه الوطنية الناهضة في العالم العربى. فعلى خلاف الإنجليز أو الفرنسيين العرب لم يكن لديهم دولة أممية واحدة ولكنهم كانوا مقسمين إلى عدد كبير من الوحدات السياسية كلها تقريبا تحت التحكم الأجنبى عظم ذلك التحكم أو نقص في درجته.

إن احساسهم بالقومية كان قديما وعميق الجذور، ولكن تلك القومية في أشكالها التقليدية عبرت عن نفسها بأشكال اللغة والثقافة وأحيانا الأصل الذى ينحدر منه بعضهم. ولقرون كثيرة خلت فإن معنى القومية العربية لم يؤثر أو يتأثر بفكرة الشخصية السياسية والولاء لتلك الشخصية. ولم يحدث إلا من قريب جدا تحت تأثير التغيرات التى حدثت في أحوالهم ودخول الأفكار الجديدة أن المفكرين العرب وإلى درجة أقل السياسيون بدءوا في التفكير على أساس مفهوم الأمة العربية التى لها حقوق سياسية وتطلعات وآمال ومن حقها أن تعبر عن قوميتها في شكل الدولة .

بالنسبة للقوميين العرب فإن تجربة الأمتين البريطانية أو الفرنسية لم يكن في نظرهم لها علاقة بهم أو أهمية كبيرة وأن فهمهما للقومية والوطنية كان فهما غريبا ومحيرا . وعلى العكس فإن التاريخ القريب لإيطاليا واكثر من ذلك ألمانيا قدم مثالا أكثر قربا من معاناتهم أي معاناة العرب .

إن الأمة الألمانية هى الأخرى تماما كالعرب كانت مقسمة إلى عدد كبير من الدويلات والإمارات المتفرقة ، وبعض منها حتى كان مدمجا في ممالك غير ألمانية. إن الجهاد الناجح الذى بواسطته نجحت بروسيا في تحقيق الوحدة بين غالبية الألمان قدم مثالا بل في الحقيقة طرازا يحتذى كما بدا أن أدولف هتلر إنما يكمل ويستمر في العمل لجمع الألمان في دولة موحدة قوية .

إن عوامل أخرى غير إستراتيجية التوحيد السياسى كانت متداخلة في الأمر. فخلافا للإحساس بالقومية البريطانية أو الفرنسية فإن الإحساس الألماني بالقومية لم يكن محددا في شكل رعويات وولاء أو العضوية في مجتمع سياسى والولاء والاخلاص الواجب تجاه الحكام . إن الشخصية الألمانية لم يكن يكونها الحدود ص١٤٦ والسيادة ولكن اللغة والثقافة والتاريخ وبالنسبة للنازيين الدم. إن الحالة في الأراضى الألمانية وخصوصا في القرن التاسع عشر كانت أقرب ما تكون إلى الاختلاط والحيرة العرقية والتفسخ السياسى للشرق الأوسط.

إن الطراز الألماني للقومية ولنفس الأسباب كان أقرب إلى الفهم واكثر مدعاة للتعاطف بالنسبة للعرب من الطرازين البريطانى والفرنسى في الوطنية.

وحتى قبل أن يقوم الألمان بتوجيه دعاية كبيرة على نطاق واسع إلى العالم العربى فإن وقع أفكارهم كان محسوسا . إن نغمة المعاداة لليهود التى كانت على الأكثر عاملا ضعيفا في الصورة المبكرة للقومية الألمانية والتى أصبحت بعد ذلك خطا أساسيا في العصر النازى أعطى تعاطفا أو تجاذبا اضافيا لقوم أخذوا يحسون بأنهم مهددون بنمو الوطن القومى اليهودى بين ظهرانهم واحتمالات إقامة دولة يهودية. إن العداوة لليهود كان يؤكد عليها في الدعاية الألمانية الموجهة للعرب وفى الاستغاثات العربية الموجهة إلى الألمان . إن الرسميين الألمان الذين كانوا يراقبون الشئون العربية اشاروا إلى قيمة الشعور أو الأحاسيس المعادية لليهود في تشجيع وتدعيم أهداف الألمان .

وفى الأساس وطبيعيا فإن الألمان لم يكونوا فقط ضد اليهود ولكن ضد الساميين كذلك. والعرب واليهود كانوا نظريا خاضعين لنفس العداوة والاحتقار المتضمنين في نظريات النازى العنصرية. بعض الألمان ومنهم الفوهرر نفسه كانوا فعلا ينظرون إلى العرب في ذلك الضوء. والحال لا يخلو من إشارات مهينة في الوثائق الألمانية بالنسبة إلى أصول العرب العنصرية. ولكن هذا النهج العنصرى يبدو أنه كان ذا تأثير قليل على العلاقات الألمانية العربية. فكلا الطرفين ، وخصوصا بدءا من صيف سنة ١٩٣٧ حينما بدئ في سياسية ألمانية ناشطة جديدة نحو العرب ، كلاهما حاول تجنب إثارة ذلك الموضوع الشائك. بعض المستعربين الألمان أو الألمان دارسو العرب كغيرهم في أماكن أخرى أصبحوا مرتبطين وبعمق بالأهداف العربية.

إن بعضهم حتى حاول أن يقنع الحزب الاشتراكى الوطنى بأن يعدل النصوص العنصرية في قواعده وحصرها في اليهود. وحتى كانت هناك اقتراحات من السفراء الألمان والقناصل في البلاد العربية بتعديل العبارات المعادية للسامية في كتاب "كفاحى" حتى تصبح فقط ضد اليهود. هذه الاقتراحات لتعديل "النص المقدس" طبعا رفضت ولكن كان هناك بعض العلامات في الدوائر النازية على استعدادهم لإعطاء الوضعية الآرية الشرفية على الأقل إلى بعض العرب.

وأحد المرشحين لذلك الشرف كان مفتى القدس ورئيس اللجنة العربية العليا لفلسطين الحاج / أمين الحسينى المهندس الأساسى في التحالف وقت الحرب بين ص١٤٧
النازية الألمانية والفاشية الإيطالية والقومية العربية. إن المفتى إتخذ خطواته الأولى في الاقتراب من القنصل الألماني في القدس في سنة ١٩٣٣ عقب صعود هتلر إلى السلطة. وكانت مقاصده كما شرحها في كثير من المناسبات للرسميين الألمان بعيدة المدى. إن هدفه الآنى المباشر كان هو إيقاف والقضاء على المستعمرات اليهودية في فلسطين.

وفيما وراء ذلك على كل حال فإنه كان يقصد إلى مقاصد أكثر اتساعا مبعثها ليس في أفكار الوحدة العربية أكثر مما هى في الوحدة الإسلامية تلك الأهداف كانت هى حربا إسلامية مقدسة بالتحالف مع ألمانيا ضد اليهودية العالمية لتحقيق الحل النهائى للمشكلة اليهودية في كل مكان.

إن كاتبا في جريدة الحزب النازى فولكيشر بوبختر في ٤ من ديسمبر سنة ١٩٣٧ يرفض فكرة أن العرب ساميون خلصاء ويتكلم عن الجزء الآرى الذى دخل في دمائهم من العناصر الأرمنية والشركسية. وهو يذكر على سبيل المثال مفتى القدس الذى كانت لحيته الحمراء وعيونه الزرقاء تكشف عن العرق الشركسى الغالب والآتى من والدته. وأكثر إقناعا من ملامح وجهه في نظر ذلك الكاتب كانت هى شخصيته ، فهو يقول : « لو كان المفتى عربيا خالصا فإنه ولابد كان سيفتقد العزيمة والتحمل في نضاله المستمر ضد البريطانيين وكان سيكون ولاشك عرضة لتقبل الرشوة ».

إن مثل هذا الإطراء المشكوك في قيمته والمحتوى في حقيقته على قدح للعرب. الصادر من المنظرين النازيين يبدو أنه لم يقلق أصدقاءهم العرب الذين رأوا في العداء النازى للسامية شيئا موجها ضد اليهود وضد اليهود وحدهم . سرعان ما لاحظوا

أن الإشارات إلى الساميين الآخرين لم تكن أكثر من هراء أيديولوجي لا علاقة له بحقائق علاقتهم الحربية والسياسية بالألمان .

إن اول محاولة لتأسيس حركة عربية نازية يبدو أنها ترجع إلى صيف سنة ١٩٣٣ حينما تقدم مراسل جريدة الأهرام القاهرية في يافا للقنصل الألماني بطلب المساعدة في تأسيس تلك الحركة. إن تلك المساعدة لم تكن لتأتى. وبرغم ذلك الصد المنبعث من أهداف أو اعتبارات إستراتيجية كبرى فإن نفوذ الأفكار النازية استمر في النمو.

إن الشعور في الثلاثينيات وصف وصفا حيا بواسطة السورى سامى الجندى ، وهو من الزعماء الأول لحزب البعث، نشر في مذكراته يقول : « إننا كنا عنصريين معجبين بالنازية نقرأ كتبها ونبحث عن منابع أفكارها خصوصا الفيلسوف نيتشا وفيخت ومؤسسة هـ س شامبرلين للقرن التاسع عشر والتى تقوم على الفكر العنصرى. إننا كنا أول من فكر في ترجمة كتاب كفاحى. إن كل من عاش خلال تلك الفترة في دمشق كان لابد وأن يوافق على ميول العرب للنازية لأن النازية كانت هى القوة التى يمكن أن تقوم بدور البطل وأن المهزوم بالطبيعة يحب المنتصر ».

ثم بعد ذلك فإن سامى الجندى يصف كيف أنه في سنة ١٩٤٠ كان يبحث عن نسخة من كتاب روزنبرج " أساطير القرن العشرين" في دمشق وأخيرا فإنه وجد تلخيصا فرنسيا لهذا الكتاب قام به ميشيل عفلق أحد من المؤسسين الاثنين لحزب البعث.

إن كثيرا من الأحزاب السياسية التى أسست في ذلك الوقت تكشف عن تأثير الطراز النازى. إنه في سنة ١٩٣٤ حينما نشرت قوانين نورمبرج ضد اليهود فإن تلغرافات التهنئة أرسلت إلى الفوهرر من كل أنحاء العالم العربى والإسلامى وخصوصا من مراكش وفلسطين حيث كانت الدعاية الألمانية على أشدها .

ويحلول سبتمبر سنة ١٩٣٧ حين انعقد مؤتمر كبير اسمه "عبر العالم العربى" في بلودان وكان الموضوع الأساسى فيه هو الكفاح ضد الصهيونية فإن الحضور الأوروبي الوحيد كان هو الحضور الألمانى.

وقبل مرور وقت طويل فإن الأحزاب السياسية من النوع النازى الفاشستى بدأت في الظهور محتوية على كل التنظيمات الشبابية شبه الحربية كالقمصان الملونة

والانضباط الدقيق والقيادة الجذابة الكاريزمية. وحتى بعض الأحزاب القديمة تأثرت بهذه الاتجاهات.

ومن أكثر تلك الأحزاب الجديدة اجتذابا أو استرعاء للانتباه كان هو الحزب السورى الشعبى المعروف أيضا باسم الحزب السورى الوطنى الاشتراكى (سمى فيما بعد الحزب الاشتراكى الوطنى) الذى ألفه أنطون سعادة والذى جذب إليه الشباب العربى في سوريا ولبنان في الثلاثينيات. إن الحزب انتهى به الأمر إلى أنه ألغى بواسطة سلطات الانتداب الفرنسية ثم بالأنظمة التى تبعت ذلك ولكن روحه عاشت واستمرت كالقوميين العرب وهو الحزب القومى العربى في سنوات ما بعد الحرب. وأكثر من ذلك وضوحا في شكله النازى كان حزب مصر الفتاة الذى أسس في اكتوبر سنة ١٩٣٣ والذى كان معروفا بين العامة باسم القمصان الخضراء والذى كان يحتوى على تنظيم شبه حربى من الفرق والكتائب والفصائل وكلها تحت قيادة هيئة أركان حرب. والحزب المصرى السياسى الرئيسى الوفد أحس بأنه محتاج إلى مقاومة شعبية حزب مصر الفتاة هذا بأن نظم لنفسه فرقا للشباب تسمى بالقمصان الزرقاء.

إن الاتجاهات النازية لأحمد حسين المؤسس والقائد لحزب مصر الفتاة كانت واضحة منذ البداية. ففى يونية ١٩٣٤ ذهب لزيارة السفير الألماني في مصر لكى يعبر عن عواطفه تجاه ألمانيا الجديدة . وفى سنة ١٩٣٦ أرسل وفدا إلى مهرجان نورمبرج. وفى صيف سنة ١٩٣٨ ذهب بنفسه إلى زيارة لألمانيا حيث استقبل ص١٤٩
استقبالا حسنا وقد عاد من تلك الزيارة وهو مليء بالحماسة. ذلك الحماس انتهى فجأة بأزمة ميونيخ في سبتمبر سنة ١٩٣٨ والتى بعدها أدان قادة مصر الفتاة قوات المحور لاعتدائها على الدول الصغيرة كتشيكوسلوفاكيا . إن أفكار وأشكال هذه التنظيمات والنشاطات بقيت مع ذلك نازية تماما وحتى محتوية على مظاهر الفاشستية كالتحية برفع اليد واستعراضات المشاعل وتقديس القيادة " كان شعارهم حزبا واحدا وطنا واحدا قيادة واحدة " . وأهم تلك الصفات كانت هى في استعمالهم عصابات من البلطجية لإرهاب وإسكات معارضيهم السياسيين.

وأهم المعانى التى استعارها حزب مصر الفتاة من ألمانيا الجديدة كان هوالتعصب العنصرى والعداء للسامية. وقد تضمن ذلك التعضيد للفلسفة النازية

والدعاية المفحشة ضد اليهود في مطبوعات الحزب وتنظيم المقاطعات والمضايقات الموجهة ضد الجالية اليهودية في مصر.

وبالرغم من القطيعة المعلنة ضد الألمان بعد غزو تشيكوسلوفاكيا فإن الدوائر الباطنية السياسية المؤيدة للمحور تجمعت حول الملك بقيادة على ماهر باشا الذى كان رئيسا للحكومة من سنة ١٩٣٩ إلى سنة ١٩٤٠ والذى استمر في الاتصال بمصر الفتاة التى أعطوها تأييدا سياسيا وماليا. كما أن اللواء عزيز على المصرى وهو عضو بارز من جماعة محبى الألمان في مصر ورفيق مقرب إلى قائد مصر الفتاة كون حلقة تجسس تعمل لصالح المخابرات الألمانية . وعدد من أولئك الضباط الذين كانوا يعملون في هذه النشاطات يبدو أنهم كانوا على صلات بمصر الفتاة.

إن تأثير جماعة مصر الفتاة في السياسة المصرية قبل اندلاع الحرب في سنة ١٩٣٩ كان بالمقارنة خفيف الأثر ومجهودات هؤلاء الضباط الشبان المتجمعين حول عزيز على المصرى في التجسس كانت مجهودات غير فعالة ولم يكن لها قيمة كبيرة بالنسبة للألمان.

ولكن الحزب مع ذلك كان له تأثير عظيم فكرى على مجموعة من الضباط هم في النهاية الذين قاموا بثورة سنة ١٩٥٢ وأقاموا النظام الناصرى في مصر. إن كلا من جمال عبد الناصر وأنور السادات جاءوا من هذه الدائرة وكذلك عدد آخر من الضباط الذين تآمروا معهم ضد الملك فاروق وحكموا مصر بعد نجاح انقلابهم.

وفى صيف سنة ١٩٤٠ فإن هزيمة الحلفاء الساحقة في أوروبا الغربية ، ودخول إيطاليا في تلك الحرب وتوقيع معاهدة صلح منفردة مع فرنسا جعل كثيرا من القادة العرب يعتقد ولهم بعض الحق أن الوقت أخيرا قد حان لأن يستطيعوا أن يزيحوا عن عاتقهم نير الاحتلال البريطانى والفرنسى.

ومن أجل ذلك فهم كانوا محتاجين إلى المعونة الألمانية حيث أن البريطانيين وحتى حكومة فيشى في فرنسا كانا ما زالا على قوة حربية في الشرق الأوسط كافية لأن تتعامل مع أي انتفاضة عربية. إن بعثة عربية مشتركة نظمت بواسطة المفتى وأرسلت عبر تركيا المحايدة إلى برلين ، لكى تقيم اتصالا مع الحكومة الألمانية على أعلى مستوى ممكن. تلك اللجنة احتوت على ممثلين معينين أو مختارين من حكومات تلك

الدول العربية مثل العراق والمملكة العربية السعودية واللتين كانتا على قدر من الاستقلال يكفل لهما أن يفعلا ذلك ومندوبين من الجمعيات أو اللجان الوطنية في تلك البلاد التى كانت ما زالت محكومة بقوى الحلفاء.

إن المفتى في ذلك الوقت كان قد انتقل من فلسطين الانتداب إلى لبنان ومنها في أكتوبر سنة ١٩٣٩ إلى العراق حيث استمر في مجهوداته. إنه أدى دورا في قيام وفى نشاطات نظام رشيد على الكيلانى الموالى للألمان والذى اصبح رئيسا للحكومة للعراقية في مارس سنة ١٩٤٨.

رشيد على والمفتى سعيا وحصلا على وعود من المحور بالمعاونة ، وفى أبريل سنة ١٩٤١ قاما بانقلاب ضد الإنجليز وموال للألمان. ومن العراق حاولا أن يمدا نفوذهما إلى دول عربية أخرى وعلى الأخص سوريا التى كانت في ذلك الوقت تحت حكم السلطات الفرنسية التابعة لفيشى. وفى دمشق فإن اثنين من مدرسى المدارس ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار كونا جمعية " لمعاونة العراق " وقد كانت هذه الجمعية هى النواة التى أصبحت فيما بعد حزب البعث. إن المساعدة الألمانية كانت قليلة ومتأخرة بحيث لم تستطع إنقاذ رشيد على من الهزيمة بواسطة قوة صغيرة مكونة من فلول بريطانية وأردنية وقوات أخرى. والمفتى هرب إلى إيران مع رشيد على وأعضاء من تنظيمهم.

إن إيران أصبحت في ذلك الوقت غير آمنة لأصدقاء المحور الذي مع ذلك لم يتوان عن مساعدة أعوانه. ففى أغسطس سنة ١٩٤١ أخذ المفتى أولا إلى السفارة اليابانية ثم إلى المفوضية الإيطالية حيث بقى مختبئا لبعض الوقت. وفى ٨ من أكتوبر سنة ١٩٤١ حينما أمر السادة الجدد لإيران وهم الروس والإنجليز بقطع العلاقات الدبلوماسية مع قوات المحور وهى اليابان وألمانيا وايطاليا فإن المفتى الذى حلق لحيته وصبغ شعره وبواسطة جواز سفر إيطالى سافر إلى إيطاليا مع هيئة المفوضية التى خرجت من إيران بعد قطع العلاقات. وعند وصوله إلى روما في ١١من أكتوبر فإنه اتصل على الفور بالمخابرات الحربية الإيطالية ثم بموسيلينى نفسه الذى احتفى به احتفاء حارا والذى لاشك في أنه كان يأمل في استخدامه في أهداف سياسته العربية. إن المفتى إدعى انه زعيم مؤسسة عربية وطنيه ذات فروع في كل الدول

العربية والتى كانت كما يقول على استعداد للانضمام لقوات المحور في حربها ضد البريطانيين، على شرط أن يعترف من حيث المبدأ بوحدة واستقلال وسيادة دولة عربية على الطراز الفاشى تشمل العراق وسوريا وفلسطين وشرق الأردن. وفى مقابل ذلك فإن العرب طبقا للمفتى كانوا مستعدين لمناقشة المسائل السياسية والحربية التى تهم قوات المحور عموما وإيطاليا على الخصوص مثل الأماكن المقدسة في لبنان وقناة السويس والعقبة. ص١٥١

إن اقتراح المفتى وافقت عليه وزارة الخارجية الإيطالية التى أوصت بأن يعطى منحة قدرها مليون ليرة (تساوى أربعين الف دولار في ذلك الوقت) وأرسلت باوراق الموافقة هذه إلى موسيلينى. والدوتشى أعطى موافقته ومباركته ووافق على أن يقابل المفتى. التقى الاثنان في روما في ٢٧ من أكتوبر سنة ١٩٤١ أي بعد مرور أسبوعين فقط من وصول المفتى إلى إيطاليا. وطبقا لرواية المفتى عن هذا اللقاء وهو اللقاء الوحيد الذى ظهر للضوء حتى الآن، فإن موسيلينى عبر عن عدائه لليهود الذين وصفهم بأنهم جواسيس وأعوان ودعاة للبريطانيين : « إنهم اعداءنا ولن يكون لهم مكان في أوروبا وحتى في إيطاليا حيث كان لا يوجد أكثر من ٤٥ ألف يهودى في شعب تعداده ٤٥ مليونا، إنهم اقلية ولكن لن يبقى منهم إلا أولئك الذين يستحقون البقاء وذلك لن يزيد على ٢٥٠٠ على الاكثر» وطبقا لهذا التقرير فإن موسيلينى الذى هو "معاد قديم للصهيونية وافق مع المفتى على معارضة إنشاء دولة صهيونية في فلسطين حيث إنهم ليس لهم أي جذور تاريخية أو عرقية أو أي سبب يخول لهم إقامة دولة في فلسطين. إن اليهود إذا أرادوا فعليهم أن يقيموا تل أبيب في امريكا ".

إنه من وجهة نظر المفتى فإن المقابلة مع موسيلينى كانت ناجحة وحققت اتفاقا عاما بين الفريقين. ولكن بقى الكثير الذى يجب فعله. إن إعلان دول المحور في تعضيد العرب لم يكن بعد قد تمت صياغته. وأكثر من هذا فإن ألمانيا وهى العضو الرئيسى في المحور لم تكن قد أعطت موافقتها بعد. وفى ٣ من نوفمبر أي بعد أيام قليلة من مقابلة موسيلينى فإن المفتى أعد مسودة لذلك الإعلان المرجو. وبعد تعديلات بسيطة من وزارة الخارجية الإيطالية فإن مسودة المشروع قدمت إلى موسيلينى ثم أرسلت مع موافقته في ٦ من نوفمبر إلى السفارة الألمانية في روما. وفى نفس اليوم وصل المفتى إلى برلين حيث قابل ارنست فون وايز شاكار سكرتير وزير الدولة في

وزارة الخارجية الألمانية. وبعد مناقشات في موضوع مسودة الإعلان معه ومع رسميين ألمان اخرين فإن نص الإعلان ووفق عليه مع تعديلات بسيطة قبلت من الايطاليين. أن هذا الإعلان طبقا للملخص الذى نشر لم يكن أكثر من تصريح باهت لمبادئ عامة. إنه مع ذلك احتوى على نص تعلن فيه قوى المحور عن أنها مستعدة ص١٥٢ لإعطاء موافقتها على استبعاد أو إزالة الوطن القومى لليهود في فلسطين.

إن إعلان النوايا هذا قال: « في المستقبل القريب إنه سيوضع في قالب وثائقى رسمى تلك الوثيقة التى توجد وتعزز الصداقة المخلصة والتعاون الوثيق في المستقبل بين قوى المحور وبين العرب. والمفاوضات في سبيل إنهاء مثل هذه المعاهدة سيشرع فيها بأسرع ما يمكن ».

إن الموقف على ذلك بدا مشجعا جدا من وجهة نظر المفتى حينما حصل على مقابلته مع هتلر في ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٤١ . ولكن في الحقيقة فإن المفتى أصيب بخيبة الأمل بعض الشيء مما سمعه من هتلر فهو كجواب لتقريره الافتتاحى عما كان العرب مستعدين وقادرين على القيام به لمعاونة الهدف العام.

وما يأملون في الحصول عليه في المقابل فإن الفوهرر هتلر في إجابته بدأ بالتأكيد القوى على مركزه ضد اليهود. فقد قال: « أن اسس النضال الذى كان يقوده كانت واضحة، إنه كان يشن حربا لا هوادة فيها ضد اليهود. ذلك يتضمن مقاومة التوطن اليهودى في فلسطين لأنه بذلك التوطن فإن اليهود يريدون إقامة دولة تكون قاعدة لنشاطاتهم التخريبية في الدول الأخرى. إنه كان من الواضح أن اليهود لم يقوموا بأى عمل بناء في فلسطين. والتأكيد بأنهم قاموا بأى عمل بناء لم يكن إلا احتيالا، وإن العمل الذى تم في فلسطين فإنه تم بواسطة العرب ». إن الفوهرر كان مصمما على حل المعضلة اليهودية درجة بدرجة وأن يوجه نداء بذلك إلى الشعوب الأخرى وكذلك الشعوب غير الأوروبية.

ولكن خيبة الأمل بعض الشيء جاءت من أن الفوهرر بينما كان كريما في تصريحاته ضد اليهود فإنه كان أكثر احتياطا في إعطاء التصريحات الموالية المؤيدة للعرب التى كان يطمع فيها المفتى. فإن هتلرقال: « إن التأكيدات الأفلاطونية ستكون عديمة الفائدة تماما وفقط التأكيدات الصادرة عن قوة منتصرة هى التى

يكون لها أي قيمة حقيقية ». إن الامر المهم الحقيقى كانت تحدد مصيره المعارك الكبرى في أوروبا الشرقية. وفى هذه الأثناء التأكيدات للعرب التى لا تعتمد على قوة حقيقية ستقوى أهداف شارلز ديجول زعيم فرنسا الحرة ضد حكومة فيشى الفرتسية. إن أي إعلان الآن لن يفيد العرب وقد يضر بقضيتهم.

وفى الإجابة عن اقتراح المفتى بأن يعطيه الفوهرر هو أو رشيد على تصريحا سريا مكتوبا فإن الفوهرر أجاب بأن أي إعلان يعلم بوجوده أناس كثيرون لم يعد سريا بل علنيا.

إنه قد أعطى تصريحات قليلة في حياته حيث الإنجليز كانوا دائمى إعطاء التصريحات. إنه لو أعطى تصريحا فإنه سيقف بجانبه ويتمسك به وفى الوقت نفسه فإنه سيقوم بمواصلة الكفاح حتى تفنى تماما الإمبراطورية اليهودية الشيوعية في أوروبا.

ص١٥٢

وفى خلال ذلك الكفاح وفى المستقبل غير البعيد فإن القوات الألمانية ستصل إلى الحدود الجنوبية لسفوح القوقاز، " إنه حينذاك سيكون مستعدا لإصدار مثل هذا الإعلان لأن ساعة تحرير العرب تكون آنذاك قد حانت. إن ألمانيا لا اهتمام لها في الدول العربية غير القضاء على القوى التى تحمى اليهودية ". وبتمام ذلك الاختراق الألماني فإن تدمير الإمبراطورية البريطانية بالنسبة إليه سيكون قد بدأ. وعند ذلك فإنه لن يعنى بما تقوله أوروبا الغربية. وقد ذكر مستمعيه أن الطريق من روستوف إلى إيران أو العراق كان أقصر من الطريق من برلين إلى روستوف. ثم أنهى تصريحاته بملاحظة متعاطفة مع المفتى واهدافه ثم كرر: « إننا عندما نأتى إلى جنوب القوقاز فاننا سنأتى إلى تحرير العرب وإن المفتى يمكنه الاعتماد تماما على وعده هذا ».

وبعد مرور أيام قليلة فإن الألمان أخبروا حلفاءهم الإيطاليين بوقائع ذلك اللقاء وبقرار هتلر أن مسألة الإعلان يجب تأجيلها لأسباب حربية. إن الإيطاليين لم يوافقوا على ذلك ولكنهم انصاعوا للرغبات الالمانية.

أما المفتى ولو أنه خاب أمله إلا أنه لم ييأس وحاول سلوك خطة دبلوماسية جديدة اذ إنه طلب من قوات المحور أن تصدر تصريحين، واحدًا لرشيد عالى الكيلانى

تعترف فيه باستقلال العراق، والآخر للمفتى ولرشيد عالى مجتمعين تؤكد فيه استقلال ووحدة البلاد العربية في الهلال الخصيب. وبعد مفاوضات طويلة مع قوتى المحور تسلم المفتى موافقة محدودة جدا على اقتراحه هذا.

فقد أرسلت رسالتان صادرتان من وزارتى الخارجية الألمانية والإيطالية إلى القائدين العربيين ، الأولى وتاريخها ٣١ من مارس أرسلت إلى رشيد عالى ووعدت بالاعتراف باستقلال العراق، والثانية وتاريخها ٢٨ من إبريل سنة ١٩٤٢ وجهت إلى رشيد عالى والمفتى تعد بتعضيد المحور لاستقلال أقطار الشرق الأوسط العربية وتأييد وحدتهم إذا رغبوا في ذلك ، وإزالة " الوطن القومى لليهود في فلسطين " . إن نص هاتين الرسالتين كان مليئا بالألفاظ المصوغة بطريقة ملتوية تحتوى على شروط كثيرة تمكن من التهرب من تلك الوعود، وفوق ذلك فإنها صدرت على أن تبقى سرية غير معلنة. وكما لاحظ الكاتب هيرزووتز " إن الشيء الوحيد الذى لا لبس فيه كان هو الوعد بإزالة الوطن القومى لليهود في فلسطين". ويبدو أن قوى المحور لم تعط أي أهمية إلى تلك الوثائق وأن المفتى وشركاءه لم يكن عندهم بالنسبة لهذه الوثائق أي اعتبار جدى لقيمتها. إنهم استمروا مع ذلك في التعضيد القوى للمحور على اعتقاد – وربما كان هذا الاعتقاد قائما على أساس قوى – إن انتصار المحور ينشئ عالما أكثر اتفاقا مع أهدافهم وأغراضهم أكثر من عالم يسيطر عليه الحلفاء الغربيون. وفى السنوات التى تلت ذلك فإن المفتى مع رشيد عالى وآخرين استمروا في التنقل بين روما وبرلين على أمل الحصول على تصريحات علنية لتعضيد الأهداف السياسية العربية التى كانوا يرغبون فيها. ومن الغريب أن المفتى حصل على إجابات أكثر تعاطفا مما حصل عليه من الألمان. إن الحكومة الإيطالية الفاشيستية التى كان لديها ص١٥٤ خططها الإمبراطورية الخاصة فيما يتعلق بالعالم العربى كانت أكثر إحساسا بقيمة المفتى وإمكاناته المحتملة وأكثر استعدادا لاستخدامه. وحيث إنهم كانوا أقل تثقلا من النازيين بالأفكار العنصرية فإنهم قدروا قيمة أكبر للعرب كأعوان وحلفاء. وفى التحليل الأخير فإن قوى المحور لم تكن مستعدة لأن تربط نفسها علانية ولا حتى سريا بالتعضيد الكامل لفكرة المفتى ومشاريعه الخاصة بالوحدة العربية والاسلامية ولا حتى لأن تعطيه الاعتراف الشخصى الكامل الذى كان يطمع فيه بأن يصبح المستشار الاعلى أو فوهرر الأمة العربية.

وبالإضافة إلى عمله بين العرب والذى كان موجها معظمه من خلال المكتب العربى في برلين، فإن المفتى جعل من نفسه شيئا نافعا لمضيفيه الألمان بطرق أخرى وأهمها تنظيم التعضيد للألمان بين المسلمين السوفيت في البلقان. إن ذلك التعضيد كان له تأثير حربى وكذلك سياسى . إن الفرقة الألمانية العربية والموضوعة في اليونان لم تكن في الحقيقة ذات أهمية كبيرة. ولكن أزيد في الأهمية كانت الوحدات المسلمة في الجيش الألماني التى جند معظمها من المسلمين السوفيت من أسرى الحرب ومن غيرهم. إن المفتى أدى دورا في تنشيط وتنظيم تلك الحركة وفى القيام بدور الوسيط بين الألمان وبين الجماعات المسلمة المعارضة للسوفيت في شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز وآسيا الوسطى. ويبدو أنه كان على اهتمام خاص بتشكيل وحدات من الوافن SS WAFFEN الفرقة الجبلية المتطوعة والمجندين من المسلمين في البوسنة وهيرسجوفينا . إن تلك الوحدات أدتت بعض الدور في تدمير اليهودية اليوغسلافية.

وبينما كانت جهود المفتى الدبلوماسية نحو تحقيق الأهداف العربية قد باءت بالفشل حتى فيما لو تحقق الانتصار النازى فإن مجهوداته الدعائية لتأييد أهداف المحور كانت مؤثرة بشكل ملحوظ. إن النقطة التى تم الاتفاق عليها تماما وبلا أي شك بينه وبين مضيفيه النازيين كانت هى المسألة اليهودية. وقد ركز المفتى على تلك النقطة في دعايته الواسعة التى كان يوجهها إلى العالم العربى خاصة وعلى العالم الإسلامى عامة.

وقد عبر المفتى عن فهمه للحرب تعبيرا مليئا بالحيوية في خطبة أذاعها في ١١ من نوفمبر سنة ١٩٤٢ في ذكرى شهداء القضية العربية. حيث قال : « إنه قبل قيام هذه ص١٥٥ الحرب وقبل أن تحمل قوى المحور السلاح لوضع حد للطمع الأنجلو ساكسونى اليهودى فإنه كان هناك أمة واحدة هى التى حاربت وحدها ضد تلك القوى ولمدة تزيد على عشرين عاما.

إن تلك الأمة هي امتنا العربية التى حاربت ضد الإنجليز واليهود في مصر وفلسطين والعراق وسوريا في كل أجزاء الجزيرة العربية. وعقب قيام هذه الحرب فإن أمتنا واصلت كفاحها مصممة على تحقيق أهدافها ألا وهى الحرية والاستقلال والوحدة والسيادة..

ومنذ قيام هذه الحرب فإن الأمة العربية لم تعرف السلم ولا الحياد. إنها اشتبكت

وحدها في أقصى أنواع الكفاح ضد السياسات الأنجلو ساكسونية اليهودية. فهذه الحرب كانت بالنسبة للعرب ليست إلا استمرارا لكفاح غير متقطع والتى تحملته وحدها لمدة عشرين عاما. إن العرب اليوم حازوا إلى جانبهم الأعداء الأقوياء لأعدائهم. إن العرب في هذه الحرب ليسوا محايدين. إنهم لا يمكنهم أن يكونوا محايدين للأسباب التى قدمتها ولمصالحهم واهتماماتهم المتعلقة بنتيجة هذه الحرب. وإن لا سمح الله انتصرت بريطانيا فإن اليهود سيتسيدون العالم.

إن إنجلترا وحلفاءها سيحرمون العرب من أي حرية أو استقلال وسيضربون الوطن القومى العربى في قلبه وسينتزعون منه أجزاء ليكونوا وطنا قوميا يهوديا أهدافه الأولى لن تقتصر على فلسطين ولكنها ستمتد إلى باقى الدول العربية.

ولكن إذا على العكس خسرت بريطانيا الحرب وانهزم حلفاؤها فإن المسألة اليهودية - والتى هى بالنسبة إلينا تمثل أعظم الخطر - ستحل نهائيا وكل تهديدات ضد الدول العربية ستختفى وملايين العرب سيصبحون أحرارا وملايين المسلمين في آسيا وإفريقيا سيتم انقاذهم ».

إن السؤال الذى لابد أن ينتج من هذه الملاحظات هو إلى أي حد كان المفتى عالما بمعنى إشارته إلى الحل النهائى للمسألة اليهودية.

إنه في مذكراته بعد الحرب فإن المفتى يصر على أن هدفه لم يكن هو القضاء على اليهودية الأوروبية وفقط هو منع هجرتها. وعلى خلاف كثير من رفقائه الألمان أيام الحرب فإنه لا يدعى أنه لم يكن يعلم بمعسكرات الموت.

إنه بالنسبة للمفتى الكفاح ضد اليهود كان هو الخط الرئيسى في الحرب العالمية الثانية، النقطة التى أصر عليها وأعادها كثيرا في إذاعاته وفى تصريحاته الأخرى. إنه ولا شك أحدث مساهمته التى ليست بقليلة الأهمية نحو تدمير اليهودية الأوروبية.

وإن تلك المساهمة حدثت بطرق كثيرة أو طرق متعددة. واحد منها كان بإعاقة هجرة اليهود من أوروبا. فإن يهود المجر ورومانيا وبلغاريا وايطاليا كانوا رعايا حكومات متحالفة مع الألمان. إن ذلك كان شيئا سيئا، ولكنه لم يكن يقترب في سوئه من شقاء اليهود في تلك البلاد التى قهرها وحكمها مباشرة الألمان. إن هؤلاء الحلفاء للمحور أظهروا بعض الرغبة في التخلص من رعاياهم اليهود بالهجرة وليس بالقضاء ص١٥٦

عليهم. وفى مايو ويونية سنة ١٩٤٣ فإن المفتى أرسل خطابات لهذه الحكومات الأربع يطالب فيها بأن يسحبوا تصريحهم بالهجرة اليهودية ويحضهم على أن يرسلوا يهودهم إلى بولندا حيث سيكونون تحت التحكم المباشر للألمان.

الى أي مدى كان المفتى يفهم الطبيعة الحقيقية لذلك "التحكم الفعلى" ، هو شيء لا يمكن التأكد منه على وجه اليقين. إنه في خلال محكامات نورنبرج لمجرمى الحرب الألمان واحد من المتهمين واسمه ديتر ويزليسينى أصدر بعض التصريحات عن تلك النقطة. إن ويزليسينى كان مساعدا لأدولف أيخمن، وهو واحد من أعوان هتلر الرئيسيين في إبادة اليهود. وطبقا لأقوال ويزليسينى فإن المفتى كان صديقا لأيخمن وإنه ذهب بصحبته متنكرا لزيارة غرف الغاز السام في أوشوتس معسكر الموت الألمانى. وإن ويزليسينى ذهب في وصف المفتى إلى حد اتهامه بأنه كان منشئا لسياسة الابادة التى اتبعها الألمان.

إن ذلك نفاه كل من أيخمن في محاكمته في سنة ١٩٦١ في القدس والمفتى في مؤتمر صحفى حوالى ذلك الوقت. إنه لاتوجد أي وثائق مستقلة تؤكد أقوال ويزليسينى ويبدو إنه من غير المحتمل أن الألمان كانوا محتاجين لذلك التشجيع الإضافى من جهة خارجية.

ومع ذلك فإن بعض النقط جديرة بالاهتمام. إن المفتى على خلاف القادة الألمان كان لديه دوافع قوية لمعارضة الهجرة كطريقة للتخلص من يهود أوروبا وإنه تدخل تدخلا نشيطا – وعلى هذه النقطة يوجد كثير من الوثائق المكتوبة – لمنع اليهود من المغادرة. إن في شهادة المفتى الشخصية التى وردت في مذكراته المنشورة هى شهادة على شيء من الأهمية. إن خطاباته التى أرسلها إلى حكومات أوروبية عديدة يعلق عليها بأنها انتجت نتائج إيجابية ونافعة للقضية الفلسطينية. وإن تلك الخطابات كونت الأساس للشكوى اليهودية المقدمة لهيئة الأمم في سنة ١٩٤٧ فى محاولتهم غير الناجحة لأن يخضعوه للمحاكمة مع المتهمين الأخرين في نورمبرج كمجرم حرب .

إن قضيتهم كما يلاحظ هو في مذكراته كانت مؤسسة على "شهادة كرومى ، واحد أخر من مساعدى أيخمن ويقول : « إنهم وعدوه بأنهم سينقذونه من عقوبة ص١٥٧
الإعدام إذا وقع على شهادة مزورة غير صحيحة ولكنهم وهم المشهورون أو

المعروفون بالخديعة والتزوير وتغيير الحقيقة وبالقسوة والصفات التى أوردها القرآن الكريم في تقريراته ضدهم بأنهم لم يفوا بوعودهم لأى شخص ولم يفوا بوعدهم له وحكم عليه بالإعدام في نورمبرج ». أن المفتى لا يذكر ويزليسينى وإن كان هو يزجى المديح "لأيخمن" كرجل كريم نبيل حيث إنه رفض أو أنكر وهو تحت التحفظ الاسرائيلى أنه كان هناك أي علاقة بين الرجلين. وعن دوره الخاص فإن المفتى كان لديه هذا ليقوله.

« إننى عندما أرسلت تلك الخطابات إلى السلطات المسئولة في الرايخ الألمانى وحكومات تلك الدول المذكورة آنفا فإننى لم اكن اقصد إلى إبادة اليهود. إننى كنت فقط أحاول أن أمنع الفيض العاتى للهجرة اليهودية والتى تقصد إلى إغراق فلسطين وطرد أهاليها كما حدث فعلا فيما بعد وذلك بمساعدة بريطانيا والولايات المتحدة ».

وفى إذاعه من برلين في ٢١ من سبتمبر سنة ١٩٤٤ فإنه تكلم عن «١١ مليونا من يهود العالم». إن المفتى، وهو المشغول دائما بالمسائل اليهودية، لابد وأنه كان يعرف أنه في سنة ١٩٣٩ كان هناك ١٧ مليون يهودى في هذا العالم. إن هناك دقة تدعو إلى رعشة الخوف في رقم ١١ مليون هذا الذى ذكره. (المترجم: يلاحظ هنا أن عدد اليهود الذين أبيدوا في المحرقة كانوا ٦ مليون ومن هنا كان عجب المؤلف لهذه الدقة في الفرق بين الرقمين).

إنهم في مناقشاتهم مع القادة الألمان فإن المفتى وغيره من القادة العرب قدموا ما بدا أنه اولى السلاسل من المسودات والتصريحات في تأييد القضية العربية وأهدافها تلك التى كانوا يطلبون من الحكومة الألمانية نشرها.

وبهذه الإعلانات فإنهم اعتقدوا أنه يمكنهم أن يجندوا تأييدا عربيا ساحقا ضد البريطانيين ولصالح ألمانيا. واحد من الفقرات في مسودات التصريحات هذه التى قدمتها اللجنة العربية إلى الحكومة الألمانية برجاء الموافقة عليها ونشرها له دلالة خاصة.." إن ألمانيا وإيطاليا يعترفان بحق الدول العربية في حل مسألة العناصر اليهودية التى توجد في فلسطين وفى غيرها من الدول العربية وذلك كما تقتضيه الحاجة الوطنية والعرقية للمصالح العربية وكما حلت المسألة اليهودية في ألمانيا وإيطاليا ".

فى صيف سنة ١٩٤٠ لم تكن غرف الغاز قد أقيمت بعد وإبادة اليهود المنظمة كانت مقتصرة على بولندا.

ولكن حرمان أو سحب كل الحقوق المدنية والسياسية والإنسانية من اليهود كانت حقيقة واقعة في ألمانيا، وفى الدول الخاضعة لحكم الألمان أو نفوذهم. وذلك كان شيئا لابد أنه معروف تماما في اللجنة العربية.

إنه ولاشك ذو معنى خاص أن ذلك النص في الإعلان المقترح لم يتعامل فقط مع المستوطنات الصهيونية في فلسطين ولكنه امتد إلى عموم اليهود في الدول العربية والذين كان مقدرا لهم أن يلقوا نفس المصير. وفعلا لقى بعضهم ذلك المصير.

إن لغة ومحتويات هذا الشرط في ذلك الإعلان تظهر بوضوح النفوذ النازى والتأثير النازى في تكوين تلك المقترحات العربية. ص١٥٨

إن الألمان لأسباب عديدة ينبعث معظمها من تعاملاتهم مع القوى الأخرى التى هم أهم في نظرهم من العرب أعطوا دائما إجابات مراوغة في موضوع هذا الإعلان الذى طلبه العرب منهم.

إن نصا معدلا أرسل إلى قيادة الفوهرر في فبراير سنة ١٩٤١ ، وللمرة الثانية لم يحز على إجابة قاطعة. وفى هذه الصورة المعدلة فإن الشرط أو النص الخاص باليهود عدل لكى يقرأ كالتالي: « إن ألمانيا وإيطاليا تعترفان بعدم شرعية الوطن القومى في فلسطين. إنهما يعترفان بحق الفلسطينيين وغيرهم من الدول العربية في أن يحلوا مسألة العناصر اليهودية في فلسطين وفى الدول العربية الأخرى كما تقتضيها المصالح الوطنية العربية وبنفس الطريقة التى تحل بها المسألة اليهودية في بلاد المحور. ونتيجة لذلك فإن أي هجرة للبلاد العربية غير مسموح بها ».

إن ذلك التعديل يختلف اختلافا جوهريا في موضعين عن مسودة إعلان يونية سنة ١٩٤٠ . الأول هو التغيير من الفعل الماضى إلى الفعل الحاضر في الإشارة إلى حل المسألة اليهودية في أوروبا والتى عرفت بـ " أراضى المحور وليس فقط ألمانيا وإيطاليا". والثانى مرتبط بالأول ألا وهوتحريم هجرة اليهود إلى الاراضى العربية.

إن أول هجوم على جالية يهودية من الطراز المحورى وقع في البلاد العربية حدث

في بغداد في ١ ، ٢ يونية سنة ١٩٤١ ، وذلك في الفترة ما بين انهيار نظام رشيد عالى الموالى للألمان ووصول القوات البريطانية.

وفى تلك الواقعة فإن الغوغاء هم الذين قاموا بالمهاجمة وليست السلطات. وطبقا للمصادر الرسمية إن ٦٠٠ من اليهود قتلوا و٢٤٠ جرحوا و ٥٨٦ محل عمل نهبت و ٩١١ بيتا هدمت. أما التقديرات غير الرسمية فقد كانت أكثر من ذلك قليلا.

إن المذبحة قام بها قوات غير نظامية من فلول الجيش والبوليس وعناصر أخرى غوغائية من التى أثارها سقوط نظام رشيد عالى والذين سعوا إلى الانتقام لتلك الهزيمة. مدة يومين استمرت تلك المذبحة بلا أي مقاومة، بينما كان الجيش البريطانى في ذلك الوقت تقع المدينة تحت رحمته ومع ذلك لم يتخذ أي إجراء بل قبع في ضواحى المدينة.

وفى ذلك يقول سومر ست دى شير وهو الذى كان يخدم مع القوات البريطانية كضابط مخابرات قال يشرح ما حدث:

« جاءنى ردينج (وهو شخص يعمل معه) وقال لماذا لا تدخل قواتنا إلى بغداد؟ أن الغوغاء تقوم الآن بالنهب وإنى متأكد أن هناك أناسا كثيرين سيقتلون، وقواتنا يجب أن تتدخل.

إن ذلك كان هو رأيى ولكن سياسة وزارة الخارجية التى منعت من التدخل كانت شيئا لاأستطيع فهمه. إنه منذ ساعة وقف القتال فإن كلمة وزارة الخارجية كانت هى السائدة. إن القوات البريطانية وقد حاربت خطوة بخطوة إلى مشارف المدينة كان عليها طبقا لهذه السياسة أن تتوقف خارج المدينة ولا تفعل شيئا.

إنه يبدو أنه كان يدخل في حسابات وزارة الخارجية أنه من الانتقاص لكرامة حليفنا الوصى على العرش أن يرى وكأنه عائد على أسنة الحراب البريطانية ».

إن السفير البريطانى إلى العراق سير" كينا هان كورنووليس" قد عبر سلفا عن ص١٥٩
رأيه بأن القوات البريطانية يجب ألا تحتل بغداد قائلا « إلا بشكل مؤقت وذلك لإقامة حكومة موالية بناء على طلب السلطات العراقية ».

إن اليهود في بغداد تعلموا في هذين اليومين العصيبين أنهم كانوا تحت رحمة

جيرانهم الذين هم في الواقع أسيادهم. وكذلك تعلموا أن الحكومات الغربية التى تبغى أو تريد إقامة علاقات حسنة مع هؤلاء السادة لن يفعلوا أي شيء لمساعدتهم .

ومن نافلة القول أن مغزى هذا الدرس لم يغب أيضا عن أذهان هؤلاء الجيران السادة أنفسهم.

وبينما كان المفتى وأعوانه قائمين بالعمل في ألمانيا فإنه كان هناك الكثيرون في البلاد العربية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا من الذين كانوا على الأقل متعاطفين مع نفس الأهداف وكانوا هم أيضا نشطين في ذلك المجال.

إن شعور أو إحساس الضباط الشبان في مصر في ذلك الوقت يصفه أحدهم وهو أنور السادات وصفا دافقا بالشعور إذ يقول: « بالنسبة لإنجلترا فإن سنة ١٩٤١ كانت سنة مأساوية، وبالنسبة لمصر فإنها كانت سنة عامرة بالأمل. إن الإمبراطورية البريطانية كانت مواجهة بأكثر الاوضاع خطرا في تاريخها .

ففى شرق البحر الأبيض المتوسط ثورة رشيد عالى الكيلانى أشعلت العراق ، وفى الغرب فإن قوات المحور كانت تتقدم وبين الاثنين كانت مصر تغلى وتستعد لدخول المعركة. وبالنسبة لتشرشل فإن ذلك كان فعلا ساعة عصيبة. إن المحور كانت لديه القوات الأعظم والأقوى . إن آلة الحرب الفاشيستية كانت الآن في أيدى الألمان الخبيرة.

إن الهزيمة كانت تنظر إلى بريطانيا وجها لوجه. أما مصر فقد كان عليها أن تستفيد من هذه الأحوال الموائمة.

إن الروح المعنوية لقواتنا كانت في غاية الارتفاع وكانوا مستعدين للحرب.

وقد اتصلنا فعلا بمقر القيادة الألمانية في ليبيا وأخذنا في التصرف بالتنسيق الكامل معهم.

ولكن تدخل مصر لم يكن يمكن أن يأخذ شكل ثورات أو ثورة داخلية بغير معونة. إننا لم نكن مستعدين للتصرف وحدنا . وأي حرب نظامية مع البريطانيين كانت مسألة لا يمكن إدخالها في الحساب لأنه وبرغم ضعفها فإن انجلترا قد بنت قواتها وجمعت السلاح والعتاد إلى حد مؤثر فعال.

أما اذا قام تعاون وصلة بين الثوار المصريين وقوات المحور فإن حربنا يمكن أن تصبح مسألة ذات تأثير دولي. إننا كنا نتتبع الأحداث من يوم إلى يوم ماضين في الاستعداد والتأهب ومستعملين احسن الاستعمال الموارد المحدودة التي هي تحت يدنا ».

إن انور السادات هذا قبض عليه وأودع المعتقل ، كما حدث ذلك لعدد من زملائه. آخرون كانوا أكثر حظا وإن لم يكونوا أكثر فاعلية. إن كثيرين من السياسيين المحايدين في الظاهر أو حتى المؤيدين للحلفاء احتفظوا بخطوطهم مفتوحة مع قوى المحور، وعلى الأقل طالما كان يبدو انها ستكسب الحرب. واحيانا كثيرة حتى بعد ذلك.

إن الملك فاروقا وبعضا من وزرائه كانوا على اتصال مستمر مع المحور وحتى بعض الأصدقاء القدامى والمحترمين من حلفاء بريطانيا كابن سعود مؤسس المملكة ص١٦٠
العربية السعودية ونور السعيد رئيس وزراء العراق كانوا على اتصال ببرلين. ونور السعيد ذهب إلى حد أن عرض خدماته للألمان ولكنه قوبل بالرفض المهين لأنهم لم يثقوا به وتصوروا أن في عرضه هذا حيلة بريطانية.

إن الشعور الموالي للألمان كان قويا إلى حد أنه حتى بعد الهزيمة النهائية للرايخ الثالث فإن ذلك الشعور لم ينته ولم يمت.

وأكثر من ذلك دلالة أنه لم يخف بل كان يجاهر به. بل إن ماضيا مواليا للنازية كان مبعثا للفخر وليس للعار.

المفتي مع غيره من قبيلة الحسيني هربوا من ألمانيا قبل الانهيار الأخير، ورحلوا عبر باريس إلى الشرق الأوسط، حيث أصبح يمكنه من جديد أن يؤدي دورا على شيء من الأهمية في أحداث سنوات ما بعد الحرب. وبرغم أنه حرم من دخول فلسطين تحت الانتداب البريطاني فإنه رحب به من الحكومة المصرية . وفي سنة ١٩٥١ فإنه ترأس المؤتمر الإسلامي العالمي، وفي سنة ١٩٦٥ حضر أول مؤتمر إفريقي آسيوي في باندونج. ولم يحدث في أي من هذه المراحل أن أعلن ندمه أو رجع عن آرائه أو عدلها فيما يختص باليهود، ولو أنه في سنة ١٩٦١ في وقت محاكمة

أيخمن في إسرائيل فإنه أنكر أنه كان على علاقة شخصية به أو أنه زار أي من معسكرات الموت.

وفى السنوات المبكرة لنظام ناصر قبل دخول وتأسس النفوذ السوفيتى في مصر فإن المتعاطفين مع النازية من حكام مصر الجدد لم يكن يخفون شعورهم. ولعلنا نذكر أنه في تلك السنوات فإن مصر كانت تتنافس مع إسبانيا الفاشية، وجنوب إفريقيا العنصرية، والدكتاتوريات العسكرية في أمريكا الجنوبية، في توفير ملجأ آمن وميدان نشاط جديد لمجرمى الحرب الألمان الهاربين .

إنهم جميعا كانوا يقدمون إغراءات مختلفة. ففى إفريقيا الجنوبية المهاجرون النازيون كانوا باستطاعتهم استئناف حياتهم كأعضاء في جنس رفيع متميز. وفى إسبانيا وأمريكا الجنوبية فإنهم كانوا يستطيعون التمتع بالجو المتعاطف الذى توفره الأفكار الدكتاتورية والحياة في ظل الفاشستية. وفى مصر فإنهم كانوا يستطيعون مواصلة الحرب ضد اليهود. وهؤلاء الذين اختاروا ذلك الطريق فإنهم قوبلوا مقابلة حارة ووفر لهم مجال جديد من النشاط.

إن استعمال كلمة نازى في الدول العربية تعبيرا عن الشتيمة هو شيء حديث نسبيا ويرجع إلى مرحلة حكم اللواء / قاسم في العراق.

استعمال تعبير " هتلرى " كان لشتم الرئيس ناصر، وذلك في وقت الصراع بين الاثنين. إن ذلك الاستعمال لوحظ في ذلك الوقت أنه علامة من علامات الاختراق السوفيتى في الشرق. إن العرب الليبراليين والاشتراكيين بالمعنى المتعارف عليه للكلمة كانوا فزعين من النازية شأنهم شأن قرنائهم الغربيين. ولكن القادة الثوريين للقومية العربية من اليمين ومن اليسار رأوا في ألمانيا الهتلرية الطراز للقومية الناجحة أو للقومية الاشتراكية ومرشدا ملهما ومعاونا في نضالهم ضد عدويهما الأكبرين الغرب واليهود. وحيث إن ذلك الدور المحتذى قد انتحلته روسيا السوفيتية فإن بعض التعديل في التعبيرات السياسية كان لابد أن يحدث أو أصبح ضروريا . ولكن ذكرى هتلر بقيت خضراء وكتابات أعوانه والسابقين في كراهية اليهود عليه كانت مازالت تترجم وتقرأ وعلى الأخص في البلاد العربية الاشتراكية الثورية المزعومة. ص١٦١

وبعض العلامات على تلك الصلة بالرايخ الثالث بقيت وقتا طويلا حتى بعد أن جعل النفوذ السوفيتي كلمات مثل نازى وهتلرى كلمات بذيئة.

إن كلا من جمال عبد الناصر وأنور السادات مسجل لهما تعبيرات عن الإعجاب بهتلر والأخير أي أنور السادات له تعبيرعن تحمسه لهتلر وأسف الاثنين العميق على هزيمة النازى. وفى سبتمبر سنة ١٩٥٣ حين ذاعت إشاعة عبر العالم أن هتلر مازال حيا وأنه يعيش في البرازيل فإن المجلة الأسبوعية القاهرية "المصور" وجهت سؤالا لبعض الشخصيات العامة في مصر تقول فيه « ماذا يمكن أن تكتبوا إلى الفوهرر إذا ثبت أن تلك الأخبار صحيحة ». إن معظم الإجابات جاءت معبرة عن عدم الإعجاب أو الاحتقار.

على سبيل المثال الكاتب والصحفى إحسان عبد القدوس قال لهتلر في إجابته : «اذهب راجعا إلى حيث كنت مختبئا لأنه لايوجد مكان في العالم الحر لدكتاتور، ألا تذكر الملايين التى قتلتها؟ وألا تذكر غرف الغاز؟ ».

ولكن واحدا من هذه الشخصيات العامة كان لها إجابة مختلفة فإنه قال : «سيدى إننى اهنئك من كل قلبى لأنه برغم أنه يبدو وكأنك هزمت ولكنك في الواقع كنت المنتصر الحقيقى. إنك استطعت أن تبذر بذور الفرقة بين تشرشل الرجل العجوز وحلفائه من جانب، وبين حليفتهم روسيا من جانب آخر . إن ألمانيا انتصرت لأنه اصبح ضروريا لتوازن القوى في العالم أن يعاد بناؤها من جديد مهما كانت اعتراضات الشرق أو الغرب. إنه لن يكون هناك سلام حتى تعود ألمانيا إلى ما كانت عليه، وإن هذا ما سيضطر الغرب والشرق إلى المساعدة على حدوثه بالرغم من أنفسهم. أما فيما يتعلق بالماضى فإننى أعتقد أنك ارتكبت بعض الأخطاء كفتحك لجبهات عديدة، أو لقصر نظر وزير خارجيتك روبنتروب في مواجهة سياسة الرجل العجوز في بريطانيا. ولكنك نلت الصفح بسبب ثقتك في أهلك ووطنك. وكونك أصبحت من الشخصيات المخلدة في ألمانيا فهو شيء يبعث على الفخر وإننا يجب ألا نندهش لرؤيتك ثانية في ألمانيا أو هتلر جديد في مكانك- التوقيع أنور السادات ». إن أنور السادات لم يتكلم عن اضطهاد اليهود سلبا أو إيجابا في هذه الوثيقة وأخيرا فإنه فيما بعد أوضح تماما أنه وصل إلى فهم أعمق وأحسن عما حدث لليهود في أوروبا المحتلة في سنوات هتلر .

وآخرون كانوا أكثر إخلاصا لذكرى الفوهرر ومبادئه. ففى ٢٦ من يونية سنة ١٩٧٤ نشرت جريدة البيرق البروتية مباحثات جرت في دمشق بين زعيم الحزب ص١٦٢ التقدمى الاشتراكى اللبنانى كمال جنبلاط وبين الرئيس السورى حافظ الأسد ووزير خارجيته وقادة حزب البعث السورى.

وفى تلك المناقشات فإن واحدا من السوريين قال : « إننا اليوم نحن العرب نتذكر بالخير هتلر » ، وقد أجاب على ذلك جنبلاط بقوله : « على الأقل إنه كان سينقذنا من الصهيونية إننا يجب ألا نأخذ موقفا متشددا من النازية كما أننا يجب ألا نوافق على كل شيء يقوله اليساريون. النازية يجب إحياؤها بعض الشيء أو بطريقة ما. إن بعض الدراسات تقول إن أعداد اليهود الذين قتلهم النازى مبالغ فيه كثيرا . إن هناك أعدادا كبيرة من هؤلاء اليهود استطاعوا الفرار من ألمانيا ».

إن إنكار حدوث المحرقة هو طبعا نغمة محببة لدى مؤيدى أو محبى النازية والنازيين الجدد ودعايتهم. إن هذه الدعاية تعرض كثيرا في الكتابات العربية عن هذا الموضوع وتأتى أحيانا حتى في التصريحات الرسمية.

فإن " ناصر " نفسه في مقابلة صحفية مع المجلة الأسبوعية اليمينية المتطرفة "الدويتش ناشيونال زايتونج" والمنشورة في أول مايو سنة ١٩٦٤ قال بعد أن لاحظ «إن عواطفنا في خلال الحرب العالمية الثانية كانت مع الألمان» ، ثم قال : « إن فرية قتل ستة ملايين يهودى فرية لا يصدقها احد ».

إن ذلك كان هو الرأى السائد في الدوائر التى كان يتحرك فيها الرئيس السابق. وفى وقت القبض على "أيخمن" ومحاكمته في القدس في سنة ١٩٦١ فإن وسائل النشر العربية كانت تعليقاتها مختلطة. ومثال جيد على رد الفعل المعادى لهذه المسألة كان مقالة إخبارية في الجريدة العربية (البلاد) في ٣١ مايو سنة ١٩٦٠ تحت عنوان "القبض على أيخمن الذى كان له شرف قتل خمسة ملايين يهودى". وفى هذه الأثناء فإن النمو المضطرد للنفوذ السوفيتى كان يغير محتوى ومفهوم تعبير "نازى" في العالم العربى.

فإن السوفيت ولأسبابهم الخاصة، كانوا بطريقة منظمة يقللون من أهمية أو حتى يحاولون حيث يمكن – إخفاء الاتجاهات العدائية أو عنصر معاداة اليهود المكون

للنازية، وعلى سبيل المثال فإنهم فضلوا ألا يذكروا الأسباب الحقيقية اليهودية التى كانت أساسا لاستشهاد كثير من الرعايا السوفيت في منطقة بابي يار وفى غيرها.

إن الإصرار على إظهار النازية على أنها معادية للسامية كان يمكن أن يكون له نتائج غير مرغوب فيها. فإنه كان يمكن أن تثير التعاطف بين بعض من أقوامهم للنازية، وبين البعض الآخر للتعاطف مع اليهود، وكلا الشعورين كان غير مرغوب فيه من وجهة نظر الرسميين السوفييت. النازى بذلك أصبح تعبيرا عاما للعيب لا دلالة ص١٦٣ خاصة له عن العداء لليهود. وحيث إن النازية أصبحت الآن شيئا معيبا فإنه يتبع ذلك أنه من المفيد تصوير اليهود أنفسهم على أنهم نازيون. إن ذلك التحول كان كذلك ضروريا لملء فراغ فكرى أيديولوجى حدث. فمن سنة ١٩١٧ حتى سنة ١٩٤٥ وفى بعض الأنحاء أو الأقطار لمدة طويلة بعد ذلك فإن اليهود على وجه العموم والصهيونيين على وجه الخصوص كانوا يصورون في الدعاية العربية على أنهم شيوعيون وبلاشفة وأعوان للسوفييت. إن الشيوعى كان يمكن أن يقال إنه هو صيغة العداء المحببة ليس فقط في ألمانيا النازية ولكن حتى في الغرب الديموقراطى. والاتهام بالشيوعية كان أسرع وأفعل طريقة للانتقاص من قدر المعارضين. وحتى ناصر نفسه قبل أن يتجه نحو السوفييت أحيانا استعمل ذلك الوصف ضد معارضيه. ولكن مع تأسس النفوذ السوفيتى والقبول العام لبعض أشكال الاشتراكية أو اليسارية كسياسة معترف بها للدولة فإن تلك الكلمات كشيوعى واشتراكى لم تصبح بعد شتائم ولكنها مدائح وعلى ذلك فلم يكن من المناسب وصف اليهود بها.

إن تعبير "النازى" الذى كان شيئا معيبا أصبح يمكن استخدامه بديلا نافعا لتلك الكلمات، وأصبح العالم بذلك يواجه منظرا غريبا ألا وهو أن حلفاء هتلر السابقين أخذوا يهاجمون أكثر الضحايا تضررا من هتلر بوصفهم بانهم نازيون وعنصريون.

وحديثا فإن الصفة الشيوعية قد تجدد استخدامها ليس فقط في المملكة العربية السعودية حيث لم تكن تلك الكلمة قد هجرت تماما، ولكن كذلك في مصر حيث التحول من موالاة السوفيت إلى موالاة الغرب جعل محاربة الشيوعية من جديد شيئا محترما، وكلمة شيوعى أصبحت مرة أخرى شتيمة يمكن الاستفادة من استخدامها للانتقاص من أي معارض.

الفصل السابع

الحرب ضد الصهيــونية

إن نفوذ أوروبا وعلى الخصوص عداء السامية الأوروبى، بإعطاء المثال وبالدعاية الصريحة، مهد الأرض وزرع بذور الشعور العربى الجديد بعداء السامية . إن تغير المفهومات فيما يتعلق بالشخصية الدينية والقومية والعنصرية وحتى العرقية ص١٦٤ ساعدت على نمو وازدهار تلك البذور.

إن التعريفات الجديدة للولاء الناشئة في عصر من التحكم أو السيطرة الأجنبية والصراع القومى أتت بشعور جديد من عدم القبول وعدم التحمل لأى اختلاف عن المعهود الشىء الذى أضعف التسامح مع الديانات الأخرى وفى وضع الأقليات الدينية والعرقية مسيحية كانت أو يهودية. ولكن أهم العوامل الخاصة المؤثرة في اليهود كانت ولاشك هى المسألة الفلسطينية. والتحول العربى وفى النهاية الإسلامى في شعورهم تجاه اليهود لابد أن ينظر إليهم على خلفية المراحل المتعاقبة في الصراع العربى الصهيونى والصراع العربى الإسرائيلى .

إن تطور الصراع يقع في أربعة مراحل محددة يفصل بينها ويؤكدها أربعة حادثات حاسمة : أولا بداية المستوطنات الصهيونية في فلسطين العثمانية في سنة ١٨٨٢، وحلول الحكم البريطانى في سنة ١٩١٨ محل العثمانى، وميلاد إسرائيل في سنة ١٩٤٨، والنصر الإسرائيلى في سنة ١٩٦٧ الذى وسع الحكم الإسرائيلى ليشمل كل فلسطين الانتداب. إنه كان هناك تحرك مضطرد لليهود نحو الأراضى المقدسة

خلال القرون الماضية أحيانا في أعداد كبيرة وأحيانا في أعداد صغيرة طبقا للأحوال المتغيرة.

ولكن تلك الهجرات كانت دائما منبعثة من باعث ديني وأيضا مما يمكن للمرء أن يسميه بواعث ثقافية وأبدا لم تكن لأسباب سياسية. وأحيانا فإنهم بلغوا أعدادا محترمة كما حدث في القرن السادس عشر حينما أحدث اندماج فلسطين في الإمبراطورية العثمانية حالة جديدة من الأمان وفرصا لليهود مكنتهم من إقامة مراكز جديدة للشعب اليهودى في القدس وصفد وأماكن أخرى. وخلال الجزء المتأخر من القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر فإن اليهود من أوروبا الشرقية بدءوا ص١٦٥
في الانتقال إلى فلسطين. وبحلول سنة ١٨٥١ فإن نائب القنصل البريطانى في القدس وصفهم بأنهم عنصر مهم من عناصر الشعب. وبالرغم من أن أسبابهم للإقامة أو للتوطن في الأرض المقدسة كانت أسبابا دينية وأن بعضهم في الحقيقة كانوا رجال دين متخصصين من نوع أو آخر يعيشون على التبرعات التى يبعث بها إليهم زملاؤهم في الدين المقيمون في الخارج فإن كثيرين منهم أخذوا يشتغلون بنشاطات اقتصادية.

وفى سنة ١٨٥١ نائب القنصل في القدس كتب في تقريره : « إن اليهود هم تقريبا الحرفيون الوحيدون ، ومما يلفت النظر أن صانعي الأحذية وقاطعي الزجاج ومجلدي الكتب هم من اليهود فقط ». إن نشأة المستوطنات الصهيونية أضافت بعدا جديدا إلا وهو الزراعة التى أصبح لها دورا مهما فيما تلا من التطورات للجالية اليهودية وفى الصلات اليهودية العربية في فلسطين . وفى سنة ١٨٨٢ حينما بدأت المستوطنات الصهيونية فإن يهود فلسطين بلغ عددهم حوالى أربعة وعشرين ألف يمثلون على وجه التقريب ١٠٪ من مجموع الشعب في فلسطين. إن مركزهم لم يكن أسوأ مما كان منتظرا بالنسبة إلى أقلية دينية في اقليم بعيد تابع لإمبراطورية آخذة في الانحدار. إن البعض منهم متمتعون بحماية الحكومات الأجنبية وكذلك بتسامح السلطات العثمانية تمكنوا من أن يزدهروا إلى حد كبير.

إن فكرة إقامة دولة يهودية بوصفها حاجزا بين مصر والإمبراطورية التركية ص١٦٥

اقترحها نابليون أولا ثم سرعان ما هجرها . تلك النظرية عاودت الظهور من وقت لآخر خلال القرن التاسع عشر. ولكن مثل هذه الافكار حازت اهتماما قليلا أو حتى غير جدى إطلاقا ، وأقل الجميع اهتماما بها كانوا هم اليهود.

إن الخطوات الأولى نحو تحقيق هدف إقامة دولة يهودية اتخذت في سنة ١٨٨٢ مع وصول حوالى ثلاثة أو أربعة آلاف يهودى من الإمبراطورية الروسية إلى فلسطين. فهم على خلاف من سبقوهم لم يكونوا رجالا طاعنين في السن جاءوا للدراسة الدينية والصلاة والموت في الأرض المقدسة، ولكنهم كانوا رجالا ونساء شبابا جاءوا للعمل والبناء والحياة. إن ذلك كان أول سلسلة من موجات الهجرة وأغلبها من أوروبا الشرقية التى عند انلاع الحرب في سنة ١٩١٤ وصلت بأعداد الشعب اليهودى في فلسطين إلى ما بين ٨٥ ألفا إلى ٩٠ ألفا ، نسبة كبيرة منهم أقاموا أو استقروا في الأرض . وبينما كان المصدرالأول لهذه الهجرة الجديدة ولتلك الأغلبية من المهاجرين هو من أوروبا الشرقية فإنهم لم يكونوا منفردين. ففى خلال نفس الحقبة جاء حوالى خمسة آلاف يهودى من اليمن من ذلك الركن القصى الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية وكذلك آخرون من شمال إفريقيا وآسيا الوسطى ومن ولايات عثمانية أخرى من كلا البلقان والبلاد العربية.

إن هذه الحركة كانت سائرة في طريقها بنشاط قبل نشر كتاب هيرتزل عن الدولة اليهودية وقبل تأسيس المؤسسة الصهيونية، وأغلب تلك الهجرة الجديدة وخصوصا من الدول الإسلامية كانت من النوع القديم المنبعث من العواطف الدينية.

ولكن الهجرة الجديدة من روسيا ولو أنها جاءت قبل ظهور الصهيونية السياسية كانت بلا شك مدفوعة بنفس الاحتياجات ومحركة بنفس الآمال التى أدت بتيودور ص١٦٦
هيرتزل إلى كتابة كتابه وتأسيس حركته الجديدة. إن الهجرة الروسية الجديدة بدأت مع صدور قوانين مايو وهى تلك القوانين القاسية ضد اليهود التى نشرت في موجة رد الفعل التى تلت مقتل القيصر الإسكندر الثانى في سنة١٨٨١ .

وكل موجة تالية كانت مسبوقة بإجراءات جديدة ضد اليهود وقواها على الأقل جزئيا تحركات جديدة أو أفعال ضد اليهود أو دواع لخيبة أمل جديدة في أن ينالوا

الخلاص والتحرر في الأراضى التى ولدوا فيها أي روسيا.إن هؤلاء المهاجرين الجدد كانوا ينتمون إلى حركة يسمى أعضاؤها انفسهم " بمحبى زيون" وهم السابقون المباشرون للصهيونيين. وحيث إنهم ولدوا بين الطلبة اليهود في الإمبراطورية الروسية فإن الحركة كان يميزها الأفكار والأيديولوجيات الرومانسية والقومية والجماهيرية والاشتراكية التى سادت في ذلك الوقت. إن هدفهم المباشر كان هو خلاص المجتمع اليهودى من خلال العمل الخلاق، أما هدفهم البعيد في تلك المرحلة وان لم يكن قد تكون بطريقة واضحة فإنه كان إنشاء دار قومية لليهود تنتهى بإقامة دولة . وكان من الطبيعى أنه حينما قامت الحركة الصهيونية فإنهم أعطوها تأييدهم الحماسى.

ومن البداية فإن الحكومة العثمانية المسئولة في ذلك الوقت عن فلسطين التى كانت مازالت جزءا من الإمبراطورية العثمانية كانت متنبهة إلى طبيعة هذه الحركة ومتوجسة من نتائجها المحتملة. وواضح من السجلات الرسمية أن العثمانيين من خلال سفاراتهم وقنصلياتهم في الخارج ومن خلال اتصالاتهم بالقادة اليهود كانوا على علم تام بالحركة الصهيونية وأهدافها وأهداف قادتها السياسيين وروادها الزراعيين.

إن السياسة الرسمية العثمانية كانت معارضة للخطط الصهيونية وفعلت ما أمكنها لمنع تنفيذ تلك الخطط.

ولكنها لم تفعل الكثير. إنه لا يوجد أي دلائل على أن المعارضة العثمانية للمستوطنات الصهيونية كانت منبعثة من شعور بالعداء للسامية أو حتى من إحساسات ضد اليهود. إن سياستهم كانت تقرر طبقا لحسابات وليس طبقا للإحساس بالكراهية أو التعصب وكان هناك أسباب واضحة للسياسة التى انتهجوها .

إن المعضلتين السياسيتين الأساسيتين للإمبراطورية العثمانية في أواخر القرن
التاسع عشر كانتا الحركات الوطنية والانفصالية التى قامت بين رعاياها وتدخل ص١٦٧
القوى الأوروبية الغربية في شئونها. إن المستوطنات الصهيونية في فلسطين هددت بزيادة خطر هاتين المشكلتين . إنها لو نجحت فإنها ستكون في منطقة حدودية

يسودها الاضطراب من أقلية قومية جديدة لها تطلعات وطموحات في الحكم الذاتى أو حتى في النهاية في الانفصال ، وكما قال بعض الرسميين العثمانيين في ذلك الوقت فإنهم سيكونون أرمينيا أو ماسيدونيا أخرى. وحيث إن معظم المهاجرين اليهود كانوا من رعايا محميين من القوى الأوروبية، وطبقا لنظام الامتيازات الموجود في ذلك الوقت فإنهم كانوا يتمتعون بحصانات وامتيازات، مما سيوجد فرصا أخرى لا تنتهى لتدخلات القوى الكبرى في شئون دولة لها مايكفيها من مثل هذه المشاكل.

إن العثمانيين استخدموا طريقتين رئيستين لمقاومة المستوطنات الصهيونية الأولى بمنع الهجرة اليهودية إلى فلسطين والثانية بتحريم نقل ملكية الأرض إلى أجنبى مما يعنى اليهود غير العثمانيين . ولكن كلتا الطريقتن فشلتا. فإن الحظر على الهجرة كان بعيدا عن أن يكون كاملا.

إنه طبق فقط في فلسطين وليس على أي أجزاء أخرى من الإمبراطورية العثمانية التى كان اليهود كغيرهم مازال يسمح لهم بالدخول بكل حرية إما كزوار أو مهاجرين وحتى بالنسبة إلى فلسطين فإنها منعت فقط القادمين بغرض الإقامة الدائمة ولكنها سمحت لليهود بالدخول لأغراض اقتصادية أو للحج. وفى الاضطراب البيروقراطى أواخر الأيام العثمانية فإن تلك الثغرات كانت كافية لأن تسمح لكل من رغب من اليهود في المجيء والبقاء طالما رغبوا في ذلك. إن العثمانيون أنفسهم لاحظوا ذلك واعترفوا به، وفى ١٩٠١ منحوا نوعا من العفو يسمح بإعطاء حقوق مماثلة لحقوق المقيمين الدائمين إلى أولئك المهاجرين غير الشرعيين الذين طالت إقامتهم، وذلك على أمل أن ذلك العفو قد يساعد السلطات على تنظيم الهجرة المستقبلية. ولكن ذلك لم يحدث.

وصعوبات مماثلة كذلك عاقت التنفيذ الكامل لقواعد عدم بيع الأرض للأجانب. فهنا أيضا الاضطراب البيروقراطى و الاستعداد للتواطؤ بين العرب البائعين والسماسرة وتدخل القناصل الأجانب الذين كانوا يتدخلون لحماية حقوق "رعاياهم".

إن ذلك كله كان كافيا للانتقاص من وإن لم يكن للإلغاء الكلى لفاعلية الأحكام والقواعد العثمانية فيما يتعلق بملكية الأرض. إن قناصل تلك القوى الأجنبية كانوا

حريصين أعظم الحرص على صيانة الحقوق التى يتمتعون بها طبقا لنظام الامتيازات وللتدخل لحماية مصالح رعاياهم. وحتى الروس الذين في البداية لم يحاولوا مقاومة القواعد والأحكام العثمانية بشأن نقل ملكية الأراضي، بل كان البعض يظن أنهم هم الذين شجعوا عليها، فإنهم هؤلاء الروس غيروا خطهم بعد سنة ١٨٩٠ وأصدروا تعليمات إلى قناصلهم بأن يعملوا في صالح رعاياهم اليهود في فلسطين الذين بذلك حصلوا على درجة من الحماية من السلطات الروسية لم يكونوا يتمتعون بها في روسيا نفسها.

وبينما كان العثمانيون واعين بالشعور الرسمي الروسي بالعداء للسامية فإنهم لم يكن في استطاعتهم إلا أن ينظروا بمنتهى التوجس إلى ذلك النمو المتزايد في واحدة من ولاياتهم لأقلية من الأجانب تحت حماية تلك الإمبراطورية الأوروبية التى كانوا ينظرون إليها ولقرون عديدة على أنها أكثر أعداءهم خطورة وأماتة.

إن ثورة تركيا الفتاة في سنة ١٩٠٨ لم تدخل أي تغيير له قيمة. إن الأتراك الشبان الذين قاموا بالحركة كانوا ولاشك أكثر تحررا وأكثر ليبرالية وأكثر انفتاحا على الأفكار الغربية أكثر من الترك الأقدمين الذين هم قاموا بإزاحتهم. وحتى فإن بعضهم أبدى تعاطفا نحو المشكلات اليهودية والصهيونية. ولكنهم كانوا أيضا وطنيين ومؤمنين بالحكم المركزى، وفى الأحوال السائدة في ذلك الوقت أكثر وعيا من السلطان المخلوع بأخطار الحكم الذاتى والانفصال وقيام الأجانب بضم بعض الأجزاء من الإمبراطورية العثمانية. إن أعضاء تركيا الفتاة الذين كانوا طبقا للدعاية المعادية التى بثها أعداؤهم بأنهم متأثرون أو حتى محكومون بالمتآمرين اليهود، فإن هؤلاء اتخذوا إجراءات قوية ضد الهجرة الصهيونية والإقامة في فلسطين أكثر من أي من سابقيهم. وبحلول سنة ١٩١١ فإن مسألة الصهيونية أصبحت مسألة محل نقاش في المناورات البرلمانية في العاصمة. إن القلة من اليهود العثمانيين الذين أدوا دورا وإن كان صغيرا في سياسات حركة تركيا الفتاة كانوا إما غير مهتمين أو حتى معادون للصهيونية.

إن السبب الرئيسى لتلك السياسة العثمانية الجديدة للصهيونية كان أنه في ظل النظام الدستورى الذى أقامه أعضاء تركيا الفتاة أصبح هناك برلمان منتخب في

إسطنبول مكون من أغلبية ملحوظة من النواب العرب ومنهم أعداد من المناطق المتأثرة مباشرة بالهجرة الصهيونية.

كما أنه أصبح هناك صحافة حرة نسبية في فلسطين حيث يمكن أن تناقش تلك المشاكل والمعضلات.

إن المعارضة العربية للصهيونية في مراحلها المبكرة كانت متولدة من الاحتكاكات المحلية أكثر من اعتبارات السياسة الإمبراطورية. إن الأتراك العثمانيين كانوا حكاما
لإمبراطورية كبيرة المستعمرات والمستوطنات الصهيونية تكون جزءا صغيرا منها. ص١٦٩
بالنسبة للأتراك هذا الجزء كان مهما فقط لأنه يقع على حدود الإقليم المصرى الذى احتله البريطانيون ولأنها كانت مكانا لعدد من الأماكن المقدسة المسيحية والمؤسسات مما جعلها محل الاهتمام الناشط للقوى المسيحية. أما بالنسبة للعرب فإنه كان المكان الذين يعيشون فيه، إنه كان بيتهم. وفى المراحل المبكرة فإن معارضتهم للهجرة الصهيونية لم تكن قومية وفقط كانت دينية بالمعنى الضيق. إن اسم فلسطين الذى أطلقه الرومان على الأراضى المقهورة والمحكومة في جوديا احتفظ به لوقت الفاتحون العرب لكى يحددوا به قسما إداريا من القطر السورى . ولكن ذلك الاسم اختفى من البلد أو من القطر حتى قبل وصول الصليبيين من قرون تسعة سابقة. إن الاسم عاد استعماله في أوروبا مع إحياء الدراسات الكلاسيكية في وقت النهضة، وأصبح الأوروبيون المسيحيون يطلقونه على ما كانوا يسمونه في السابق الأراضى المقدسة.

وفى البداية المبكرة في القرن العشرين حيث تسيد النفوذ الأوروبى ومعه اللغات الأوروبية في التعامل فإن اسم فلسطين عاد إلى استخدامه في تلك البلاد. إن اسم فلسطين عاد للظهور والاستعمال ليس فقط في أوروبا وإنما حتى في الأراضى المقدسة. إن الاستعمال كان على أي حال مقصورا في الأغلب العام على المسيحيين وعلى مجموعة صغيرة من المسلمين الذين لحقهم النفوذ الغربى.

إن الاسم لم يكن يستخدم رسميا ولم يكن له معنى محدد إقليمى حتى ذلك الوقت الذى تبناه فيه أو استعمله فيه البريطانيون ليحددوا المساحة أو المنطقة التى حصلوا عليها بالنصر في نهاية الحرب الأولى وحكموها تحت وصاية عصبة الأمم.

وعلى ذلك فإن العرب في فلسطين العثمانية حينما قاوموا ما رأوه من زحف صهيوني لمهاجرين ومقيمين لم يكونوا في اعتراضهم هذا يتصرفون كأمة فلسطينية، حيث إن هذا الفهم لمثل هذه الأمة لم يكن معروفا في ذلك الوقت ولم يأت إلى الوجود حتى وقت متأخر جدا.

وحتى مفهوم القومية العربية في المعنى الحديث لذلك التعبير كان شيئا جديدا نسبيا، وبالرغم من أنه كان عنصرا متناميا في الإحساس والنشاطات السياسية للولايات العربية في الإمبراطورية العثمانية، فإن ذلك الفهم لم يبلغ قدرا ذا أهمية قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى.

إن أبكر معارضة عربية للهجرة اليهودية والمستوطنات كانت معارضة محلية وعملية. إنها تزامنت مع قيام اليهود بإنشاء مستعمرات زراعية في أماكن قليلة من القطر، ونشأت من الخلافات أو النزاعات على مسائل مثل حق الرعي ومستندات ملكية الأرض والخلافات في العادات والتقاليد التي كان حتما أن تتولد بين جارين لكل منهما خلفية متميزة. إن هذه النزاعات لم تكن ذات مغزى كبير حيث إن قليلا من المساحات نسبيا كانت في ذلك البلد ملتصقة التصاقا مباشرا باليهود المستوطنين. وحتى فإن تلك الأجزاء ذات الاحتكاك المباشر تمكنت من الوصول إلى نوع من التعايش مع جيرانهم اليهود .

ولكن على العموم فإن وضوح أو ظهور التطلعات السياسية لهؤلاء القادمين الجدد عندما أصبح معلوما، فإن العرب نظروا إلى نشاطاتهم هذه بمنتهى الريبة وأخذوا ص١٧٠
يبحثون عن وسائل لإيقافها. إن أول فعل عربي رسمي ضد المستوطنات اليهودية يبدو أنه أخذ شكل تلغراف تاريخه ٢٤ يونية سنة ١٨٩١ أرسل بواسطة الوجهاء العرب في القدس إلى الوزير الأعظم في إسطنبول. إن ذلك كان بعد تسع سنوات من وصول أول موجة من الروس المهاجرين اليهود العلمانيين أو المدنيين بمعنى غير المتصفين بالصفة الدينية. إن القول ذاع بأن موجة جديدة وأكبر من اليهود كانت على وشك أن تأتي من روسيا. إن الوجهاء الذين انزعجوا طلبوا من الوزير الأول أن يمنع اليهود الروس من دخول فلسطين ومن شراء الأراضي هناك. وفي السنوات التي تلت فإن المقاومة العربية أصبحت أكثر نشاطا وأكثر تسيسا وخصوصا بعد ثورة تركيا

الفتاة في سنة ١٩٠٨ وحرية التعبير والحرية في المعارضة التى أوجدتهما تلك الثورة لبعض الوقت.

إن العلاج الذى اقترحه القادة العرب كان في أساسه السياسة غير الناجحة التى حاولت الإدارة العثمانية تطبيقها ألا وهى حظر على الهجرة اليهودية وشراء الأراضى. إن هذه بقيت المطالب العربية الأساسية حتى نهاية الحكم العثمانى ثم بعد ذلك خلال كل فترة الانتداب البريطانى حتى سنة ١٩٤٨.

إنهم في مطلبيهم هذين حققوا بعض النجاح وخصوصا في السنوات المتأخرة للانتداب البريطانى. ولكن ذلك النجاح لم يكن كافيا لمنع نمو الجالية اليهودية ذلك النمو الذى ازداد خصوصا بعد انتصار الشعور المعادى للسامية في أوروبا مما أدى إلى زيادة الهجرة ولا إلى منع قيام دولة إسرائيل.

إن العبارات أو الأشكال التى أخذها الاحتجاج العربى حدث فيها بعض الاختلافات. إن المعترضين الأوائل كما يمكن للمرء أن يتوقع كانوا يتكلمون كرعايا عثمانيين مخلصين يلفتون النظر إلى الخطر الذى تمثله تلك الهجرة اليهودية بالنسبة للمصالح العثمانية . أن هذا النظر كما ولاشك أنهم كانوا يعلمون، كان يشترك فيه معهم الإدارات العثمانية المتعاقبة. إن البعض كان يتكلم في عبارات دينية عن الحاجة إلى حفظ الشخصية الإسلامية لما قد أصبح الآن بلدا إسلاميا قديما . أما تلك الحجج والتبريرات القومية العربية ولأسباب واضحة لم تبد في القدس ولا في إسطنبول. إن القومية العربية لم يكن ينظر إليها بعين العطف من الحكام العثمانيين، الذين رأوا فيها وبحق كما بينت الأحداث التالية تهديدا لوحدة وسلامة الإمبراطورية العثمانية. إن تلك المعارضة ظهرت أحيانا في كتابات المهاجرين العرب في أوروبا وأصبحت خطا أساسيا في حقبة ما بين الحربين العالميتين.

إنه كان هناك كذلك بعض التغيرات أو الفروق في تعريف ذلك التدخل الذى كانوا ضده يحتجون. إن الوجهاء العرب في القدس على خلاف الرسميين أو القادة العثمانيين في إسطنبول كانوا على علم قليل بتلك الحركة اليهودية الجديدة في أوروبا أو بأفكارها ونشاطاتها ولأنهم كانوا معنيين أساسا بما كان يحدث على عتبة دارهم العربية.

إن الصحافة العربية حتى في المناخ الحر نسبيا في مصر المحتلة بالإنجليز لم تبد أي اهتمام كبير بنشاطات المؤسسة الصهيونية ومؤتمراتها المختلفة. إنه لم يحدث ص١٧١ حتى نشوء المناقشات العامة في وقت قيام حركة تركيا الفتاة أن الكتاب العرب بدءوا في الالتفات بعض الشيء إلى الصهيونية وحتى في ذلك الوقت فإنه كان التفاتا محدودا ولم يكن دائما معاديا .

إن أول شخص في فلسطين بادر إلى تحذير الفسطينيين العرب والشعوب العربية عامة من الخطر الصهيوني كان يدعى نجيب نصار، وهو بروتوستانتي مسيحي ذو خلفية يونانية أرثوذكسية. في سنة ١٩٠٩ بدأ ينشر في حيفا جريدة أسبوعية تدعى "الكرمل" والتي كانت المناقشات السياسية العدائية ضد الصهيونية تكون جزءا مهما من خط تلك الجريدة. "الكرمل" أقفلتها السطات التركية، ولكن " نصار " استمر في نشاطاته. وفي سنة ١٩١١ نشر ما يمكن اعتباره أول كتاب عربي عن الصهيونية عنوانه "تاريخ الحركة الصهيونية أهدافها ونموهاحتى سنة ١٩٠٥ " . هذا الكتاب تكون من الترجمة بتصرف وبتحوير لما ورد تحت عنوان "الصهيونية" في الموسوعة الأمريكية اليهودية مع إشارات موحية وتعليقات مغرضة ومقالة ختامية بواسطة المترجم. إن مقالة نصار التي فيها لفت الاهتمام إلى الخطر الصهيوني على الإمبراطورية العثمانية كانت في جزء منها تدخلا في نقاش أخذ في النمو بين السياسيين من حركة تركيا الفتاة وبعض الدعاة في إسطنبول خاص بالمسألة الصهيونية، ومؤكد لبعض النقاط التي أوردها معارضو الصهيونية المشتركون في ذلك النقاش.

واحد من أهم هؤلاء المشاركين أو المتناقشين كان الصحفي التركي صاحب النفوذ الكبير واسمه "يونس نادي" الذي في إبريل سنة ١٩٠٩ نشر مقالا في جريدة إسطنبولية كان يتولى رئاسة تحريرها. وعنوان المقالة " تسقط الصهيونية دائما والى الابد" . إنه في تلك المقالة قدم وربما ولأول مرة الحجة التي كونت فيما بعد أساس الدعاية المعادية للصهيونية. الصهيونيون كما قال لن يقنعوا بدولة يهودية في بلاد أجدادهم ولكنهم كانوا يهدفون إلى شيء أكبر ألا "وهو الحلم بمملكة إسرائيلية تحتوي الدول القديمة بابل ونينفا مع القدس كعاصمة لها" .

وعلى خلاف معظم الكتاب الأتراك الآخرين الذين ناقشوا الموضوع فإن يونس نادى لم يعتبر أن ذلك الحلم الصهيوني شيء بعيد عن الحقيقة ولكنه رآه كخطر حقيقي لأنهم " خلفهم تقف أقوى القوى في العالم ألا وهي قوة المال". ولكي يختم الموضوع خير ختام فإن نادى. وعلى ما يبدو بتحريض من القنصل الفرنسي في سالونيكا. أضاف أن الصهيونية كانت أساسا مشجعة مقواة باليهود الألمان وأنها كانت على ذلك طليعة للنفوذ الألماني في الشرق. إن نظرية أن الصهيونية لا تهدف فقط إلى وطن قومي لليهود بل تهدف إلى إمبراطورية يهودية كانت نظرية تتكرر من الكتاب السياسيين المعادين، وكون الصهيونية والوطن القومي لليهود هما عونًا في يد واحد أو آخر من القوى الإمبريالية أصبح شيئا متعارفا عليه. إن شخصية أو تحديد تلك القوة الإمبراطورية في ذلك الاتهام يختلف باختلاف الغرض الذي يقصد اليه صاحب الاتهام. ففي البداية كانت واحدة من فرنسا أو ألمانيا ثم بعد ذلك بريطانيا ثم بعد ذلك الاتحاد السوفيتي وفي الوقت الحاضر الولايات المتحدة. ص١٧٢

إن فكرة المال بمعنى أن اليهودي يتحكم في قوة مالية عظيمة والتي من خلالها يهدف إلى التحكم في مصائر العالم كانت فكرة متبادرة أو معروفة في الكتابات الاوروبية المعادية للسامية . أن تلك الفكرة كانت جديدة على العالم الإسلامي ولكنها أحرزت تقدما سريعا وظهرت في عدد من الكتابات التركية والعربية في ذلك الوقت.

وحتى في تلك المرحلة المبكرة فإن النغمات المعارضة للسامية ظهرت في مناقشات تلك المشكلة اليهودية، ولكن عند هذه المرحلة فإن العداء للسامية الحقيقي كان في غالبيته العظمى أوروبيا ومسيحيا . إن رجال الكنيسة والمبشرين من أنواع مختلفة كانوا ممثلين تمثيلا قويا في الجاليات الأجنبية في فلسطين والمناطق المحيطة بها مباشرة وقد زاولوا نفوذا عظيما له اعتباره على الأقل على إخوانهم في الديانة.

إن العرب المسيحيين الجريك أرثوذوكس يبدو أنهم كانوا أقل تأثرا بالعداء للسامية عما كان عليه المارون والكاثوليك. ولكن ذلك سرعان ما تغير بتأثير رعاتهم في موسكو. إن الجمعية الإمبراطورية الأرثوذكسية في فلسطين والتي بدأت عملها في سنة ١٨٨٢ كانت تمول أكثر من مائة مؤسسة معظمها مدارس في سوريا وفلسطين

وتبرعت بسخاء نحو تعليم أجيال جديدة من الشباب الأرثوذكس. إن اتجاهاتها قبل اليهود بالطبيعة كانت تعكس تماما اتجاهات الحكومة الإمبراطورية الروسية. إن العيادات والمراكز الطبية التى كانت تديرها تلك الجمعية على سبيل المثال كانت تزاول نشاطها متبعة نفس المبادئ التى تضمنتها الدعوة الشهيرة إلى روسيا التى وجهتها الإمبراطورة كاثرين العظيمة والتى كانت موجهة إلى كل طوائف المجتمع إلا اليهود.

وحتى المبشرين الأمريكان البروتوستانت في الكلية البروتوستانتية السورية التى أصبحت فيما بعد الجامعة الأمريكية في بيروت فإنهم ساهموا بطريقة رقيقة غير
مباشرة من خلال ترجمات عربية نشرت في سنة ١٨٩٧ للرواية التبشيرية "بن هير" ص١٧٣
BENHUR. إن تلك كانت واحدة من أوائل الروايات التى نشرت بالعربية وإن كاتبا يهوديا معاصرا في القدس لاحظ وقع تلك الرواية على قرائها العرب من حيث وصفها كيف أن اليهود قتلوا المسيح. وبحلول الستينيات من القرن العشرين فإن صلب المسيح الذى هو طبقا للقرآن لم يحدث إطلاقا، اصبح خطا رئيسيا في الدعاوى المعادية لليهود حتى بين المسلمين الذين قام بعضهم بتقديم القصة في شكلها المسيحى القديم الذى ينص على خطيئة اليهود الجماعية والمتوارثة وذلك بغير مراعاة الأفكار الحديثة المسيحية أو التقاليد التاريخية الإسلامية والتراث الإسلامى.

ومن الكتاب العرب الذين في نهاية المرحلة العثمانية خصصوا اهتمامهم بالشئون الصهيونية واحد فقط هو " نجيب عزونى" كان يمكن اعتباره أو وصفه بأنه معاد للسامية. إن كتاباته تشير إلى حالة عدوى بسيطة يبدو أنه التقطها من مضيفيه الفرنسيين ومعلميه. وبالرغم من أن بعض النغمات المفضلة في العداء للسامية كمثال ذلك الخطر العالمى اليهودى والمشروع اليهودى لحكم العالم - تظهر من وقت لآخر في كتاباته، فإن تلك الكتابات لم تكن بين اهتماماته الأساسية. نجيب عزونى لم يكن مسلما ولا حتى فلسطينيا ولكنه مسيحى مارونى يحتمل أنه من المنطقة التى هى الآن جزء من الجمهورية اللبنانية.

إنه خريج كلية الخدمة المدنية في إسطنبول وتلميذ أو دارس متقطع الانتظام في كلية العلوم السياسية في باريس. وقد التحق بالخدمة المدنية العثمانية حيث أرسل إلى القدس. بعد ذلك وبعد بعض المغامرات التجارية والسياسية التى لم ينجح أي منها

فإنه هرب إلى القاهرة ثم إلى باريس حيث بدأ حياة مهنية جديدة ألا وهى دور العربى الوطنى المجاهد. إن هجماته على العثمانيين ادت به إلى أن يحكم عليه غيابيا بالإعدام. إن آرائه وفرت له التعاطف من بعض الدوائر الفرنسية. إن أفكاره وحتى لغته تذكر بشدة بأفعال وأقوال الدوائر التى كانت ضد دريفوس والتى يبدو أنه أخذ يتحرك في محيطها. عزونى كان واحدا من الأوائل الذين رأوا في الصهيونية تهديدا خطيرا للأمة العربية الناهضة. وفى ذلك يقول : « هناك ظاهرتان مهمتان من نفس الطبيعة ولكنهما متعارضتان إلى الآن لم يجتذبا اهتمام أي أحد. وهاتان النظريتان ولدتا الآن في تركيا الآسيوية. إنهما صحوة الأمة العربية ومجهودات اليهود في إعادة تكوين على نطاق واسع مملكة إسرائيل القديمة.

إن كلتا الحركتين مقدر لهما أن تقاتل إحداهما الأخرى باستمرار حتى تتفوق واحدة منهما . إن مصير العالم بأجمعه يعتمد على النتائج النهائية للصراع بين هؤلاء الشعبين للذين يمثلان مبدأين متعارضين ».

وبرغم تلك النبوءة المدهشة فإن عزونى كان شخصية هامشية. إنه كتب بالفرنسية وليس بالعربية ولذلك فإن تأثيره كان محدودا في ذلك الوقت. إن كتابه الذى نشر في باريس في سنة ١٩٠٥ أثار معارضة عجيبة أيضا بالفرنسية كتبها شخص مسيحى
عثمانى آخر من الجريك الأرثوذوكس وهو عربي من بيروت والذى كان يدرس طب ص١٧٤
الأسنان في فرنسا واسمه كان "فريد كساب". إن " كساب " هذا أجاب على عزونى بكتيب هاجم فيه فكرة الدولة العربية المستقلة وطبعا ولأسباب واضحة دافع عن الطريقة العثمانية في الحياة ضد منتقديها . وقد صدر عنه بعض كلمات من المديح في حق اليهود المستوطنين في فلسطين والذين وصفهم بأنهم مسالمون ولا ضرر منهم وإنهم أتوا بالنفع للبلد وللإمبراطورية عموما وذلك من خلال إحيائهم للصناعة والزراعة.

ولكى ينهى المسألة تماما فإن كساب اتهم عزونى بأنه متعصب كاثوليكى وعضو في الجيزويت، وبأنه ليس فقط معاديا لليهود من وجهة نظر دينية بل أيضا من وجهة نظر المعاداة للسامية.

وعلى العموم في تلك المراحل المبكرة فإنه لا توجد إلا علامات قليلة على معاداة

السامية في شرح القضية العربية ضد الهجرة والإقامة الصهيونيتين وحتى قليل جدا من العداء للصهيونية. وحتى فإن بعض الكتاب المسلمين تكلموا عن الصهيونية باحترام ورأوا فيها طرازا للإيمان الدينى والولاء الوطنى والمساعدة النشيطة للنفس وكلها مسائل يحسن بالعرب والمسلمين لو قلدوها. إن التفرقة بين اليهود والصهيونية التى أصبحت شيئا مهما فيما تلا ذلك من مجادلات لم تذكر إلا نادرا وبلا تحديد دقيق.

إن فرقا ذكره بعض الكتاب العرب والأتراك كثيرا وبحرص وبعناية وبدقة كان بين اليهود العثمانيين واليهود الأجانب . فالعثمانيون اليهود وخصوصا في المناخ السائد لثورة تركيا الفتاة كانوا في نظر هؤلاء الكتاب مواطنين ومشاركين من حيث المبدأ في نفس الولاء ونفس الحقوق . أما الاخرون فإنهم كانوا أجانب يفرضون تدخلهم وهم رعايا لقوى أجنبية معادية في معظم الأوقات، ويخدمون كرأس حربة في التدخلات الأجنبية. إنه من مطالعة الكتابات الأدبية في ذلك الوقت فإنهم يبدو أن الخشية من القادمين الجدد لم يكن أساسها إنهم يهود أو صهيونيون ولكن أساسها أنهم غرباء وعلى الأخص أوروبيون. أن اليهود كيهود ممكن أن تصدر عنهم المضايقات ولكن من الصعب اعتبارهم مصدر خطر، وإن طموحاتهم السياسية كانت مسألة تدعو للضحك. ولكنهم كرعايا ولو من الدرجة الثانية للقوى الأوروبية فإنه نظر إليهم من الأتراك والعرب على السواء على أنهم يمثلون تهديدا، الأتراك يخشون منهم على الإمبراطورية والعرب تخشى على أراضيها . إن بعض التصريحات الصادرة عن اليهود في أوروبا الوسطى والغربية الذين كانوا هم قادة الحركة الصهيونية في أيامها الأولى اعطت حياة وأضافت تأكيدا إلى ذلك الفهم عن المستوطنات اليهودية في فلسطين على أنها رأس حربة للإمبريالية الغربية . إن هيرتزل وأتباعه ورفقاءه الاقربين كانوا في كل الاعتبارات إلا واحدا "يهوديتهم" أوروبيين يمثلون تماما جيلهم ويتقاسمون الثقة المتفائلة التى سادت في القرن التاسع عشر والإيمان بتميز الحضارة الأوروبية على كل الحضارات وفى الاعتقاد بأن رسالة أوروبا هى أن تقود ونتيجة لذلك أن تتحكم أو أن تحكم باقى العالم في مسيرتها إلى الأهداف العليا. ص١٧٥
وحتى اولئك الذين هم مثل هيرتزل اعتنقوا آراء ليبرالية أو يسارية شاركوا في هذا الفهم كما فعلت من قبل شخصيات سابقة مثل كارل ماركس وفريدريك أنجلز.

إنه في نظر الصهيونيين الغربيين الأوائل فإن يهود أوروبا - وذلك إنهم لا يكادون يحسون بأى يهود آخرين كانوا أوروبيين حقيقيين مساهمين في نفس المهام السامية كمواطنيهم المسيحيين ألا وهى تقديم الحضارة والرقى إلى المتخلفين والتنوير والمعرفة للجهلاء. وهم في ذلك مثلهم مثل معظم كتاب القرن التاسع عشر أوروبيون وغيرهم الذين تعقلوا في هذا الأمر فإنهم أولوا أهمية كبرى لمفهوم الجنس والذى طبعا هم كانوا يفهمونه ليس بالطريقة النازية ولا في المعنى الحديث الأمريكى ولكن بالمعنى الجارى في ذلك الوقت في ذاك المكان ، وهذا يعنى ما يسمى اليوم بالعنصرية " الإثنية".

إنه في اللغة المقبولة للتخاطب في وقتهم هذا فإن كلمات مثل جنس وإمبراطورية ومستعمرة كانت لها معان إيجابية مختلفة تماما عن المعانى السلبية التى اكتسبتها بعد ذلك.

وعلى الصعيد العملى فإن المتحدثين الأول بالنيابة عن الصهيونية وجدوا تلك اللغة نافعة في استجلاب رضا القوى الإمبراطورية وعلى الأخص بريطانيا والتى بغير تعضيدها فإن المشروع بأكمله ما كان لينجح. وطبقا لعبارة مشهورة في ذلك الوقت تستعمل الآن بواسطة معارضيهم وليس المدافعين عن الصهيونية، تقول تلك العبارة « إن أهداف الحركة هى أن تحضر شعبا بلا أرض إلى أرض بلا شعب ». ولاشك في أن فلسطين كانت قليلة السكان في ذلك الوقت ولكنها لم تكن أرضا بلا شعب وأهلها لم يكونوا معزولين.

إنهم كانوا جزءا من كل تاريخى كبير ألا وهو الإمبراطورية العثمانية والأمة العربية أو السورية وأهم من هذا كله أمة الإسلام.

إن هذه العبارة منسوبة إلى الكاتب الروائى الإنجليزى اليهودى " اسرائيل زانجويل" الذى كتب في مقالة منشورة في سنة ١٩٠١ يقول : « إن فلسطين بلد بلا ناس، واليهود ناس بلا بلد. إن إعادة إحياء الأرض ستؤدى إلى إعادة إحياء الناس ». إن زانجويل فيما بعد أحس بعمق بالمشكلة التى يمثلها الشعب العربى للفكرة الصهيونية ولوقت ما فإنه انصرف عن التفكير في فلسطين، وترأس حركة تدعو

لإنشاء وطن قومى لليهود في مكان آخر خال غير فلسطين ولكن هذه الحركة لم تؤد إلى شيء. وفى عام ١٩٢٣ حينما اتفقت تركيا واليونان على تبادل رعاياهما المقيمين في أرض كل منهما، فإنه اقترح حلا مماثلا بالنسبة لفلسطين ولكن اقتراحه هذا أهمل في ذلك الوقت ولو أن أحداث سنة ١٩٤٨- ١٩٤٩ كادت أن تحقق تلك الفكرة.

إن قليلا من الصهيونيين الغربيين الأوائل فشلوا في أن يروا أي مشكلة في وجود الفلسطينيين العرب تماما كما كان المستعمرون الأوائل ينظرون إلى سكان ص١٧٦ المستعمرات الأصليين في آسيا وإفريقيا وعلى الأخص في أمريكا ولكن الباقين أي أغلب أولئك الصهيونيين كانوا على إحساس تام منذ البداية بأنه يوجد شعب عربى في فلسطين، وحاولوا بطرق مختلفة أن يكسبوا تقبل هؤلاء العرب لهم. وحتى فلاديمير جابوتينسكى إمام الصهيونية الحربية العدوانية يقول في قصيدة شهيرة له : « أن أبناء العروبة وأبناء المسيحية وأبنائى يمكن أن يزدهروا جنبا إلى جنب » ، وحتى تيودور هيرتزل مؤسس الصهيونية يبدى الاهتمام بشئون العرب سكان فلسطين. إنه في روايته الخيالية عن عالم يوتوبيا مثالى اسمها "الأرض القديمة الجديدة" والتى نشرت قبل وفاته بقليل، إنه يصور الدولة اليهودية المثالية في المستقبل، أو بالاحرى وطنه القومى اليهودى المثالى، حيث كان عالمه الصهيونى المثالى مازال تحت الحكم العثمانى.

إنه في عالمه المثالى هذا الحكام تنتخب، والمرشح الذى يقود دعايته الانتخابية على أساس كراهية الأجانب فإنه يهاجم من كل أبطال الرواية ويهزم شر هزيمة.

وفى الكتاب من أوله إلى آخره التأكيد العظيم هو غياب أي تفرقة بسبب الجنس أو العقيدة وهذا شيء غريب بالنسبة لكتاب نشر في سنة ١٩٠٢ (الجنس بمعنى الذكر والأنثى). إن في أحلام هيرتزل عن " زيون " النساء لهن حقوق متساوية مع الرجال، والعرب لهم مكان مؤمن ومحترم. وواحد منهم حينما سأله زائر أوروبى عما إذا كان العرب غير متضايقين من الهجرة اليهودية فإنه يتكلم بفصاحة عن المزايا الاقتصادية والمزايا الأخرى التى أتى بها اليهود معهم إلى أهله وناسه. وفى نفس الرواية فإن عالما يهوديا بارزا يتكلم عن السود، وكلامه هذا يستحق أن يروى حرفيا :

«إنه ما زال هناك مشكلة واحدة متعلقة بسوء الحظ العنصرى لم تحل بعد. إن عمق هذه المشكلة وكل ما فيها من مآس لا يمكن أن يفهمه ويحس به إلا اليهود، وانني أعنى بذلك مشكلة السود. إنك لو فكرت في الفظائع التى سببتها تجارة الرقيق حيث الأفراد البشريون بسبب كون جلودهم سوداء فإنهم كانوا يخطفون ويحملون ثم يباعون وأنا الآن حيث عشت حتى أرى إعادة إحياء اليهود فإننى أريد تمهيد الطريق إلى إعادة إحياء السود ».

واضح من هذا أن هيرتزل ليس بالعنصرى إطلاقا بل إنه أبدى اهتماما بمعاناة السود مما كان شيئا غريبا في سنة ١٩٠٢.

ولكنه كان من الواضح أنه تأثر بالأبوية الساذجة التى كانت قائمة موجودة في عصره وبعدم قابليتها لفهم غضب اوتطلعات الشعوب المستعمرة. إن هذا ليس مفاجئا ولا مدهشا حيث إن تلك التطلعات كانت هى نفسها في أولى بداياتها في الظهور في ذلك الوقت بين الشعوب المستعمرة نفسها.

إن الفكر الإمبراطورى الذى كان يبرر الاستعمار والأفكار الأبوية التى صاحبته في بعض الأحيان لم يكن لها أي جذب ليهود أوروبا الشرقية الذين كونوا الغالبية ص١٧٧
العظمى من المهاجرين، والذين في خلال الحرب العالمية الأولى استولوا على زعامة الصهيونية. إنهم في الجانب الأغلب رأوا أنفسهم ضحايا لأوروبا هاربين كالرواد الأمريكان الأول لانشاء وطن جديد وليس كحاملى أعلام أو شعارات الحضارة الأوروبية التى عانوا منها الكثير. إنهم أيضا كان لديهم اوهامهم عن العرب ولم تكن تلك التصورات أو الأوهام تصورات أبوية ولكن لم تكن تقل عن ذلك سذاجة. إن كثيرين منهم كانوا مدفوعين بنوع من الرومانسية الاشتراكية وكذلك بالعقيدة الخاطئة التى لم ينتج عنها إلا شعور محزن عند تبين خطئها ألا وهى أن شعبا يهوديا متجدد الحيوية من الطبقة العاملة يمكن أن ينضم إليه الفلاحون العرب المضطهدون والعمال العرب كذلك حتى يتخلص الاثنان من نير مضطهديهم ألا وهم الطبقة الوسطى وطبقة الأفندية.

إنه لم يحدث إلا بعد مرور الوقت أن الحركة الصهيونية الاشتراكية واجهت

الحقائق الصعبة للمقاومة العربية التى شملت كل الطبقات وتخطت الفروق الاجتماعية وحينذاك فإن الصهيونيين تنازلوا عن أحلامهم وعلى الأقل مؤقتا. وفى هذه الأثناء فإن إقامة انتداب بريطانى في فلسطين قد خلق حالة جديدة اليهود فيها والعرب يتنافسون في الحصول على رضا البريطانيين. إن بعض الصهيونيين حاولوا وإن كان بغير نجاح كبير إقناع البريطانيين بأن الصهيونية بسبيل خلق أيرلندا يهودية موالية (وذلك إشارة إلى القسم البريطانى في جزيرة أيرلندا) وذلك في الشرق الأوسط. وأن ذلك الخلق سيكون جزءا من الممتلكات البريطانية تساوى في الأهمية كندا وأستراليا ونيوزيلاند كعمود من أعمدة الإمبراطورية البريطانية.

ولكن معارضيهم العرب أجابو بوصف الصهيونيين على أنهم بلاشفة وعلى أنهم أعوان روسيون معادون لبريطانيا، وأشاروا إلى أهمية الحصول على نواياهم الطيبة لما في ذلك من حفظ للحكم البريطانى على ملايين عديدة من الرعايا المسلمين في الهند وغيرها .

خلال الحرب العالمية الأولى فإنه كانت هناك محاولات لخق وحدة عربية يهودية، وتلك المحاولة جاءت من كلا الجانبين المتنافسين، الجانب العثمانى والجانب البريطانى.

وفى ٣ يناير سنة ١٩١٩ فإن قائدين أحدهما عربى والآخر صهيونى وهما الأمير فيصل الذى أصبح فيما بعد ملك العراق وحاييم وايزمان والذى أصبح فيما بعد رئيس جمهورية إسرائيل وقعا فعلا على اتفاق يعلنان فيه موافقتهما على إعلان بالفور BALFOUR وعلى وجوب تنفيذه. إن موافقة فيصل كانت مشروطة بأن يحقق الانجليز المطالب العربية في الاستقلال. إن بريطانيا لم تحقق ذلك والاتفاق أصبح لاغيا ولاقيمة له.

إن انتصار القوى الغربية على ألمانيا وحلفائها أوجد تغييرا شاملا في الحالة في الشرق الأوسط. الإمبراطورية العثمانية هزمت وعاصمتها احتلت لزمن ما، والولايات ص١٧٨ العربية التابعة لها فصلت عنها وأخذها البريطانيون والفرنسيون وكذلك خضعت لسلسلة من التقسيمات أو التجزيئات. فالعراق فصلت عن سوريا ووضعت تحت الوصاية البريطانية، وسوريا قسمت بين الإنجليز والفرنسيين، حيث أخذ البريطانيون

الجزء الجنوبى ويمثل الثلث وسموه فلسطين، أما فرنسا فاحتفظت باسم سوريا بالنسبة للأجزاء الشمالية الباقية. وكلا الفرنسيين والإنجليز قسما الأراضى التى وقعت تحت انتدابهم، فالبريطانيون قسموا فلسطين الانتداب إلى كيانين منفصلين شرق وغرب الأردن. الثاني سمى فلسطين والأول سمى مملكة شرق الأردن.

أما الفرنسيون فبعد بعض التجارب فإنهم كذلك قسموا مناطق انتدابهم إلى دولتين واحدة منها اسمها لبنان والأخرى احتفظت باسم سوريا . وفى الجانب الأغلب فإن تلك التقسميات لم تكن مطابقة لخطوط الحدود التى كانت قائمة في عهد الإدارة العثمانية السابقة، ولا حتى مطابقة لأى حدود عرفت من قبل والأسماء التى استعملت لتوصيف أغلب تلك الوحدات الجديدة كانت مع استثناء لبنان مستخرجة من التاريخ القديم أو تاريخ القرون الوسطى.

إن المساحة التى عرفت باسم شرق الأردن الفلسطينى ثم بعد ذلك فقط بفلسطين كانت تتكون من الأقسام الجنوبية للولايات العثمانية المعروفة باسم بيروت ودمشق مع الجزء المستقل " متصرفية القدس " والتى سميت بالمستقلة لأنها كانت تابعة مباشرة للعاصمة العثمانية وليست لحافظ محلى. وفى نطاق تلك المساحة فإن الحكومة البريطانية كسلطة الانتداب كانت ملزمة طبقا لتعهدها الموجود في إعلان بالفور وبشروط الانتداب التى وضعتها عصبة الأمم والتى بمقتضاها كانت تحكم فلسطين فإنها كانت ملزمة باتباع سياسة "الوطن القومى لليهود". إن ذلك التعبير "الوطن القومى لليهود" لم يحدث أن حدد بدقة لا بواسطة البريطانيين ولا بواسطة الصهيونيين.

فبالنسبة للبعض كان يعنى دولة يهودية وبالنسبة للبعض الآخر كان يعنى شيئا أقل من ذلك. وفى كلتا الحالتين فإن ذلك استلزم إزالة أو التخفيف من التحديدات أو الحظر المفروض في الماضى على الهجرة اليهودية وعلى شراء الأراضى. وفى الوقت نفسه فإن وعد بالفور الذى تأكد بالانتداب نص على أنه في سبيل تحقيق تلك النتيجة أي الوطن القومى لليهود فإن شيئا ما لن يحدث مما قد يعرض المصالح والحقوق المدنية والدينية لغير اليهود من الجاليات القائمة فعلا في فلسطين.

وخلال الثلاثين عاما للحكم البريطانى فإن عرب فلسطين الانتداب كانوا منقسمين بعضهم على بعض بشأن مسائل كثيرة، وعلى مستويات مختلفة- فقد اختلفوا على القيادة وعلى موقفهم تجاه بريطانيا، وعلى الأفكار الأيديولوجية والنظريات الواجب اتباعها، وبعلاقتهم مع اليهود الذين يعيشون فعلا بينهم. ولكن هناك شأنا واحدا كانوا سياسيا على الأقل مجمعين عليه إجماعا تاما ألا وهو معارضتهم لأى سياسة
تنشئ وطنا قوميا لليهود. إن الصراع لمنع ذلك والذى كان قد بدأ فعلا في السنوات ص١٧٩
الأخيرة للحكم العثمانى استأنف وأصبح أكثر حدة.

ولكن الأحوال كانت قد تغيرت تغيرا كبيرا ولغير مصلحة العرب، ولذلك وجب استخدام طرق جديدة في الصراع . إن فلسطين لم تعد جزءا من عالم إسلامى حيث الشعب المسلم يستطيع أن يجد شخصيته فيه، وحتى يمكن أن يصبح جزءا من الفئة المختارة الحاكمة، وحيث الحكومة في ذلك العالم الإسلامى تعتبر الأرض جزءًا لا يتجزأ من وطنها القومى والذى لا يمكن بحال من الأحوال أن توافق على إعطائه لأحد. وعلى العكس فإن فلسطين أصبحت الآن جزءا من إمبراطورية بريطانية، محكومة إلى حد بعيد أو قليل بإدارة استعمارية، وتحت حكومة متعهدة بأن تنظر بعين العطف وأن تسهل إنشاء وطن قومى لليهود. إن هذين الاعتبارين اللذين هما في غير صالح بل ومعاديان لمصلحة المسلمين، لم يعوضهما وإن كان إلى حد ما خفف منهما بعض المزايا التى نتجت من هذه التغييرات التى أخذت تحدث. وأهم تلك التغييرات وأجدرها بالملاحظة هو النمو الاقتصادى السريع الناتج من فيضان قوة العمل اليهودية ورأس المال والمهارات التكنولوجية، وحتى النمو السريع للنشاطات السياسية الذى مكن منه الإسهام البريطانى الذى حقق حرية الصحافة وحرية المناقشة وسيادة القانون.

إنه في فترة ما بين الحربين العرب في فلسطين تمتعوا بقدر كبير ونسبة عالية من النمو السكانى. وإن دخل الدولة المرتفع نسبيا جعل من الممكن لقوة الانتداب أن تعطيهم واحدا من أحسن وأكثر الأنظمة بعدا في التعليم الابتدائى والثانوى في العالم العربى. كل ذلك ساعد على إنتاج نخبة عربية ناشطة متعلمة، مليئة بالطموح، يتزايد كرهها أو ضيقها بالموانع التى وضعت أمام تحقيق ذاتها سياسيا، وذلك بنمو الوطن القومى لليهود من جانب، واستمرار وجود سلطة الانتداب البريطانى من الجانب

الآخر. إن مخاوف العرب أصبحت أكثر حدة وإلحاحا كلما تزايد الوطن القومى اليهودى في أعداده، والذى تزايد مع زيادة العداء للسامية والاضطهاد النازى لليهود في أوروبا.

إن يأس العرب الفلسطينيين تعاظم في التزايد حيث رأوا الدول العربية المجاورة واحدة بعد الأخرى تحصل أولا على الحكم الذاتى، ثم على الاستقلال، بينما هم مازالوا محرومين حتى من أبسط الحقوق السياسية.

وكما في الأيام المبكرة فإن الصراع ضد الوطن القومى لليهود كان مشتعلا على جبهتين أو على مستويين أولهما في الوطن في فلسطين والثانى في العاصمة الإمبراطورية التى لم تكن بعد إسطنبول وإنما لندن. إن الحملة في الجبهة الداخلية كانت موجهة للحصول على هدفين، أولهما تعبئة الرأى العام العربى، والثانى منع بيعص١٨٠ الأراضى لليهود. إن أول تلك الأهداف تحقق إلى حد كبير. ولكن في الثانى فإن القيادة العربية كان نجاحها أقل، والبعض حتى من هؤلاء القادة أنفسهم خضعوا للإغراء، وللاستفادة من الارتفاع السريع في أسعار الأرض الناتج من الهجرة والتوطن اليهوديين.

إن التعامل مع نقل ملكية الأراضى كما هو مع الهجرة اليهودية، العرب كانوا مضطرين للجوء إلى وسائل سياسية لكى يطوعوا سلطة الانتداب باستعمال ضغوط من أنواع مختلفة لتحريم أو على الأقل للحد من هذين الشيئين الأرض والهجرة .

وفى ذلك فقد حازوا بعض النجاح. إن المعارضة العربية لحكومة الانتداب وسياساتها كانت تنمو باضطراد. وقد زاد نشاطها بصعود أدولف هتلر إلى الحكم في سنة ١٩٣٣ . إن صعود النازى زاد من حدة المشكلة من أوجه عديدة. إنهم باضطهادهم اليهود أعطوا الحركة الصهيونية دافعا ملحا للإسراع في الهجرة وكذلك موارد جديدة، وبذلك فإنهم ضاعفوا من التهديد للمصالح العربية . وفى نفس الوقت فإنهم زودوا كثيرا من القادة العرب بالتعضيد الدعائى وببعض المساعدات العملية ومن المحتمل أنهم في الزمن الطويل أعطوهم دورا جديدا في لعبة الأمم. إن العرب استجابوا بشدة للمشكلة التى سببها لهم النازيون وللحل الذى كان النازيون يقترحونه. إنه بين سنة ١٩٣٦ ، ١٩٣٩ جزء مهم من عرب فلسطين دخل في حالة ثورة

مسلحة انتهت فقط عندما أعلنت الحكومة البريطانية في لندن قبولها لكثير من الطلبات العربية.

إن الكتاب الأبيض الذى أصدرته بريطانيا في سنة ١٩٣٩ فرض قيودا جديدة على نقل ملكية الأرض لليهود وعلى الهجرة اليهودية. وفى الواقع فإن بريطانيا وضعت حدودا لتلك الهجرة كان يمكن أن تؤدى إلى عدم قيام دولة أو كيان سياسي مستقل في أي من أنحاء فلسطين. ومنذ سنة ١٩٣٩ حتى انتهاء الانتداب البريطانى في سنة ١٩٤٨ فإن السياسة المعلنة في الكتاب الأبيض تم تنفيذها بدقة. إن العرب بذلك حصلوا على نصر سياسى كبير. ولكن ذلك لم يكف لكى يمنع تكوين دولة يهودية.

إنه منذ إعلان وعد بالفور في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ وإلى حين صدور الكتاب الأبيض البريطانى في ١٧ مايو سنة ١٩٣٩ ، ومن وقت صدور هذا الكتاب الأبيض الذى صدر غداة إعلان الحرب العالمية الثانية إلى تنازل بريطانيا عن الانتداب في مايو سنة ١٩٤٨ فإن صراعا مريرا قام لكى يحدد المصير النهائى لفلسطين .

إن المتصارعين كانوا هم اليهود والعرب. وفى البداية فإن ذلك كان في الحقيقة ص١٨١ محصورا في يهود وعرب فلسطين مع تعضيد خارجى ضئيل نسبى ولكن سير الأحداث في العالم وخصوصا في أوروبا أدخل توسعة سريعة للنضال . إن بناة الوطن القومى اليهودى كسبوا تعضيدا متزايدا بين الشعب اليهودى عموما. وعندما تكشفت معاناة اليهود في أوروبا الهتلرية وأصبحت معروفة، فإنهم استفادوا من موجة كبيرة من التعاطف مختلطة بشعور الذنب في كل العالم المسيحى (المترجم: الذنب في أن العالم المسيحي تخلى عن اليهود ولم يعاونهم للفرار من هتلر.) إن العرب في فلسطين في البداية كانوا وحدهم إلى حد كبير وليس معهم إلا تعاطف محدود حتى في الدول العربية المجاورة، حيث كان قادة هذه الدول القوميون مشغولين بمعركتهم هم ضد الحكم الإمبريالى. ولكن حينما نما الصراع في الحدة والنطاق فإن العرب تمكنوا من تجنيد تعضيد متنام أولا في العالم العربى ثم بين غير العرب المسلمين وأخيرا فيما أصبح يعرف فيما بعد بالعالم الثالث.

إنه بين ١٩١٨ ، ١٩٣٩ العوالم العربية والإسلامية والإفريقية الآسيوية كانت ليست ذات أهمية في توازن القوى الدولى. إن فلسطين كانت محكومة بالبريطانيين

الذين كانوا مازالوا في ذلك الوقت واحدة من القوى الاوروبية الإمبراطورية التى تقاسمت فيما بينها السيادة على العالم. إن القرارات النهائية كانت تؤخذ في لندن ثم توافق عليها عصبة الأمم التى كانت فنيا هى المسئولة عن مراقبة إدارة الانتداب.

إن عصبة الأمم بدورها كانت مسيطر عليها بالقوى الأوروبية. وحتى فإنها لما اهتزت نتيجة للصراعات المرة التى انتهت بها إلى التدمير الكامل فإن تلك الصراعات كانت معظمها بين الإمبراطوريات الأوروبية المتنافسة.

إنه لذلك كان على الفلسطينيين العرب أن يخاطبوا عالما مسيحيا أوروبيا من أجل الحصول على التعاطف والتعضيد لقضيتهم ولإيقاف تقدم الوطن القومى اليهودى. إن ذلك استلزم تغييرات مهمة في مضمون رسالتهم وفى الطريقة التى تشرح بها تلك الرسالة. وعلى الخصوص فإن ذلك كان يعنى إيجاد واستعمال تبريرات يغلب أن تستميل الرأى العام الغربى الذى هو الآن الجهة التى يجب أن تخاطب . إن تلك كانت معضلة مختلفة عن محاولات جذب القادة العثمانيين أو برلمان تركيا الفتاة في إسطنبول.

وعلى الأقل فى السنوات الولى للانتداب البريطانى بدا للعرب ولليهود كذلك أن الإمبراطورية البريطانية شيء دائم لا يمكن تحريكه أو هزه وأن المهمة على ذلك أمامهم لم تكن هى إزالة بل محاولة استمالة حكامهم البريطانيين واكتسابهم إلى جانبهم. إن اليهود والعرب على السواء كانوا مهتمين بأن يظهروا أن تعضيدهم أو الانحياز إلى جانبهم وليس إلى أعدائهم كان يتفق مع المصالح الإمبراطورية البريطانية، وأن كلا من هذين المتخاصمين كان لديه أيضا حاجة إلى إظهار الخطر الذى سيلحق بتلك المصالح من الجانب الآخر.

ص١٨٢ وعقب هزيمة ألمانيا القيصرية وقبل قيام أو نهضة اليابان أولا ثم القوى الفاشيستية فإن العدو الأكثر إخافة للعالم الغربى كان هو روسيا السوفيتية والثورة الشيوعية.

إن الوجود الظاهر لليهود بين القادة السوفييت الأول والدعاية العالمية المركزة ضد السامية التى نشرها الروس البيض قادت كثيرين في العالم الغربى وليس فقط من

المنتمين إلى الأوساط المتطرفة لأن يروا ليس فقط اليهود الراديكاليين أي المتطرفين بل اليهود عموما على أنهم عنصر خطر ينشر المبادئ اليسارية الهدامة.

وبينما كان الذين قبلوا الدعاية المضادة للسامية أقلية اقتنعت بدعاية الروس البيض المضادة للسامية وكانت على استعداد لأن ترى أن النظام السوفيتى هو سيطرة يهودية على روسيا، فإنه كان هناك كثيرون من الذين رأوا أن اليهود يمثلون تطرفا ثقافيا راديكاليا وعنصرا سياسيا هداما، لو ترك بغير مقاومة فإنه سيغرق العالم الغربى في الثورة والاشتراكية والفوضى .

وفى هذا الوضع فإن الطريقة الفعالة المباشرة لتحويل الرأى العام البريطانى والرأى العام الغربى عموما ضد الصهيونية كان هو في وصفهم بأنه حمر. إن ذلك التصوير كان ممكنا تصديقه حيث إن معظم المهاجرين وكل القادة الصهيونيين تقريبا كانوا من أوروبا الشرقية، وإن كثيرا من الأحزاب الصهيونية، وأهم تلك الأحزاب، كانوا يعتنقون أفكارا اشتراكية وكانوا يقيمون مستعمرات جماعية تسمى الكيبوتزيم والتى كانت بالنسبة لهؤلاء الذين على غير معرفة مباشرة بالأحزاب الصهيونية تلك أو بالمستعمرات يمكن مساواتها بالمزارع الجماعية السوفيتية المسماة القولقوزى .

ومع تنامى الثورة السوفيتية والنظام السوفيتى وتطورهما فإن تلك النظرة أخذ يشوبها بعض من نقص المصداقية. فالصهيونية أصبحت خارج القانون ومكبوتة في روسيا، والهجرة اليهودية أوقفت، والقادة البولشوفيون اليهود أبعد منهم واحد بعد الآخر وانتهوا غالبا بالإعدام، والحكومة السوفيتية اتخذت موقف العداء التام للصهيونية وللوطن القومى لليهود، ولم تتحول أبدا عن ذلك العداء إلا لفترة بسيطة جدا في سنة ١٩٤٧ والفترة التى تلتها مباشرة. إن تلك التغييرات مع ذلك لم توقف الاستعمال المستمر لذلك الاتهام بالشيوعية ضد الصهيونية والوطن القومى. وقد زاد قوة بعد قيام الفاشية والنازية التى كان لها بريق وتأثير وقوة جذب على النشاطات العربية السياسية في الثلاثينات والاربعينات من القرن الماضى.

إنه بالنسبة للنازية فإن البولشفية كانت – وباستثناء فترة الصداقة السوفيتية النازية والتعاون الذي قام بينهما بين أغسطس ١٩٣٩ ويونية سنة ١٩٤١ – كانت هى العدو الأساسى – وبالطبع فإن الشيوعية والبولشفية واليهود كانا مترابطين ترابطا

عضويا وذلك باستثناء نفس فترة التعاون بين المحور والروس السابق ذكرها. وبالنسبة لهؤلاء العرب الذين قبلوا القيادة والإرشاد النازى فإن العدو الحقيقى كان هو اليهودى البولشفى الذى أصبح يساعده ويعضده البريطانيون ثم الأمريكان وذلك طبعا بعد مهاجمة ألمانيا لروسيا. ص١٨٣

إن فكرة أن الصهيونية والبولشفية ليسا إلا وجهين لعملة يهودية واحدة أظهرت ديمومة تدعو للملاحظة، ولو أنها ليست مقصورة على العالم العربى.

إنها استمرت عقيدة بالنسبة للملك فيصل ملك السعودية السابق حتى يوم مماته.

واستعملت بواسطة الرئيس ناصر في السنوات الأولى لحكمه. إنها مازالت باقية كنغمة شائعة الاستعمال في الدول العربية المحافظة إلى يومنا هذا . إن استبدال اتهامات أخرى بها في الدول العربية الاشتراكية حدث لأسباب لاعلاقة لها بحقائق الموضوع.

وفى هذه الأثناء وعلى كل حال فإن الموقف أصابه التحول التام بانتهاء الانتداب البريطانى وتبنى هيئة الأمم لقرار تقسيم فلسطين وانهيار الإدارة المدنية في مناطق الانتداب وإقامة دولة إسرائيل. إن تلك الاحداث سبقها وصاحبها وتبعها سلسلة من الحروب أولا بين العرب واليهود في داخل فلسطين، ثم بين الدولة حديثة الولادة وجيرانها من العرب.

وفى خلال المحاولات العربية للقضاء على الدولة اليهودية باستعمال قوة السلاح فإن اعدادا كبيرة من العرب هربوا أو دفعوا إلى الخروج من بيوتهم في فلسطين، ولجأوا إلى الدول العربية المجاورة. وإنه قبل وبعد هذه الاحداث فإن أعدادا كبيرة من اليهود هربوا أو أخرجوا من الدول العربية ووجد معظمهم وطنا جديدا في إسرائيل.

وللمرة الثانية فإن فهم العرب للصهيونية حدث له تغير مهم. تحت الحكم العثمانى الدولة اليهودية كانت حلما بعيدا بل ويدعو للسخرية. تحت الحكم البريطانى فإنها نمت إلى أن تصبح تهديدا خطيرا. ومع ولادة إسرائيل فإنها أصبحت حقيقة . ونتيجة لهذه الأحداث فإن العرب عانوا من هزيمتين ماديتين: أولاهما فقدان أراضى عربية إلى دولة غير عربية، وإزالة أو رحيل الكثير من السكان العرب الاصليين. وأغلب هؤلاء الذين تركوا ديارهم فإنهم ذهبوا إما إلى دول عربية مجاورة وعلى الأخص لبنان

وسوريا، أو إلى تلك الاجزاء من فلسطين التى بقيت في أيدى العرب، ونعنى بذلك الضفة الغربية التى كانت في أيدى الأردن وقطاع غزة تحت الحكم المصرى. في كل تلك الأماكن فإن الأغلبية الساحقة للاجئين العرب وضعوا في معسكرات. وحينما اجتاحت القوات الإسرائيلية الضفة الغربية وقطاع غزة في سنة ١٩٦٧ فإنه حدث تحرك جديد للمهاجرين أو اللاجئين من المعسكرات في الضفة الغربية عبر الأردن إلى الضفة الشرقية. وهذه المرة مع ذلك فإن السكان المحليين للضفة الغربية بقوا في أماكنهم كما فعل ذلك اللاجئون في قطاع غزة.

إن هناك اختلافا تاما بين رواية العرب والرواية الإسرائيلية عن رحيل أو خروج ص١٨٤ الفلسطينيين العرب في سنة ١٩٤٨ وما تلاها. انه طبقا للرواية العربية فإنهم دفعوا إلى الخروج بواسطة الإسرائيليين.

وطبقا للرواية الإسرائيلية فإنه في بعض الأماكن نبه عليهم أو أمرهم قادتهم بالرحيل، وفى بعض الأماكن فإنهم هربوا نتيجة لذلك النوع من الخوف أو الفزع المعدى الذى يصيب السكان المدنيين في مناطق الحرب. إن اليهود بقوا ولم يصبهم نفس الفزع لأنه لم يكن لهم مكان آخر يذهبون إليه، أما العرب فقد كانوا يأملون في ملجأ في الدول العربية. وهناك دلائل تؤيد كلا من الروايتين.

ويبدو أنه من المحتمل أن كلا من التفسيرات حقيقى في الأجزاء المختلفة من القطر. ففى حيفا وهى مدينة مختلطة حيث كان هناك عادة علاقات طيبة بين الجانبين فإنه واضح أن الإسرائيليين حاولوا وبغير نجاح، أن يغروا جيرانهم العرب على البقاء.

وفى اللد والرملة وعلى الطريق الإستراتيجى من الساحل إلى القدس فإنه كان واضحا إن هؤلاء العرب اضطروا إلى الرحيل. إن التقارير عن الفظاعات التى ارتكبت والتى نشرت في وسائل الإعلام العربية كان لها ولاشك أثرها، وزاد من ذلك الأثر الهجوم الذى حدث على القرية العربية في دير ياسين، والذى قامت به عصابات الأرجون والشترن وذبح ما يقرب من مائتين وخمسين مدنيا. ومهما كانت الأحوال والاصول والمسببات فإن الحركة تحولت إلى هجرة جماعية أو خروج جماعى، والى الاحتلال المادى والتشريد لجزء كبير من الشعب العربى. إن أعداد اللاجئين متنازع

عليها، فإسرائيل تقدرهم بأكثر قليلا من نصف مليون، والعرب يقدرونهم بالضعف أو أكثر من ضعف ذلك الرقم. إن المسح الذى قامت به اللجنة الاقتصادية لهيئة الأمم للشرق الأوسط والذى صدر في سنة ١٩٤٩ يحدد عدد العرب اللاجئين من فلسطين بـ ٧٢٦ الفا حتى تاريخ ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٩.

إنه كان هناك البعض في ذلك الوقت ومن ضمنهم قليل من رجال السياسة العرب أو رجال الدولة العرب الذين نصحوا باعتبار ما حدث على أنه هزيمة ضئيلة وأن العرب من مصلحتهم وضع حد لخسائرهم وقبول الوضع. إن المساحة التى خصصت لإسرائيل بواسطة قرار الأمم المتحدة للتقسيم كانت جزءا صغيرا جدا واتسعت أو زادت قليلا بنجاح الإسرائيليين في حربهم للاستقلال. وحتى فإن كل فلسطين الانتداب كانت جزءا بسيطا من العالم العربى ككل.

وإن مصير اللاجئين كان مأساة إنسانية ولكن من خلال محادثات السلام فإنه كان من الممكن ترتيب عودة البعض إلى بيوتهم وإعادة توطين الباقين كما حدث لملايين اللاجئين في أوروبا الشرقية وفى الهند في نفس الوقت الذى حدثت فيه تلك الأحداث.

ولكن في الواقع فإنه لم تكن هناك مفاوضات ولم يكن هناك أي رغبة للقيادة ص١٨٥
العربية الفلسطينية أو حكومات الدول العربية للاعتراف بالحقيقة الواقعة والدخول في المفاوضات لإحداث ذلك التوطين والعودة للبعض.

إن النغمة السائدة في استجابة العرب لتلك الأحداث كانت هى الصدمة والغضب لأن تلك الهزائم التى وقعت بهم كانت من مجموعة من الناس طالما صوروهم على أنهم مثال للضعف والجبن وعلى العموم محل احتقار. هؤلاء الناس الذين الرب نفسه عاقبهم بالذلة والمسكنة.

أما الآن فإن العرب أنفسهم كما رأى البعض وعلى الأخص المسلمون هم الذين عانوا الإذلال. وفى خلال سنوات قليلة فإن كل واحد من هؤلاء الحكام العرب الذين أرسلوا جيوشهم للحرب في سنة ١٩٤٨ ، إما زالوا أو أزيلوا بانقلاب.

ولكن النظم الجديدة والتى أقام معظمها وقادها ضباط من الجيش، لم تنتج نتائج أحسن فيما يتعلق بإسرائيل. بل يمكن القول إن تلك النتائج كانت أسوأ جدا. ففى الحرب العربية الإسرائيلية الاولى سنة ١٩٤٨ و ١٩٤٩ وخلال قتال عنيف وخسائر

كبيرة فإن الاسرائيليين تمكنوا من البقاء ومن تحسين مركزهم بعض الشيء. وفى سنة ١٩٥٦ في حرب ضد مصر الناصرية فإنهم استطاعوا الاستيلاء على كل شبه جزيرة سيناء في أقل من مائة ساعة، وأوقعوا هزيمة ساحقة بالجيش المصرى مما كان فيه إذلال كبير في النظام العسكرى الناشئ.

إنه في حرب سنة ١٩٥٦ الإسرائيليون كانوا متمتعين إلى حد ما بالتعضيد العسكرى والإمدادات من فرنسا وأنجلترا. ولكن حتى ذلك العذر لم يكن موجودا في حرب يونية ١٩٦٧ حينما تمكن الإسرائيليون في تلك المرة من هزيمة جيوش مصر وسوريا والاردن مستولين على مساحات واسعة وكل ذلك في ستة أيام.

وفى خلال تلك الحرب فإن الاسرائيليين استولوا على شبه جزيرة سيناء وعلى قطاع غزة من مصر، وعلى الضفة الغربية من الأردن، وعلى مرتفعات الجولان من سوريا. وقد قيل، ولكن الدلائل على ذلك القول متعارضة أنه في الأيام الأولى التى تلت النصر، فإن إسرائيل كانت مستعدة لإرجاع كل تلك الاراضى ما عدا القدس الشرقية في مقابل الاعتراف بها والسلام. ولكن الاعتراف والسلام لم يكونا معروضين، وقبل مضى وقت طويل فإن الاسرائيليين أصبحوا معتادين على المزايا التى أتت بها إليهم فتوحاتهم الجديدة. ولكنه مضى وقت أطول نسبيا قبل أن يشعروا بالمضار لتلك الحرب. وبعد بعض التردد فإن الاستجابة العربية صيغت في اللاءات الثلاثة المشهورة في الخرطوم حيث عقد القادة العرب مؤتمرا في أول سبتمبر سنة ١٩٦٧ وأعلنوا في الخرطوم أنه لن يكون هناك اعتراف ولا مفاوضات ولا سلام.

إن ذلك بقى هو الموقف الرسمى لكل الحكومات العربية حتى سنة ١٩٧٨، ولأغلبهم حتى اليوم. إن حرب سنة ١٩٦٧ أتت بتغيير بالغ الأهمية.

فى سنة ١٩٤٨ العرب الذين تركوا في إسرائيل كانوا اقل نسبيا في العدد وحيث إن تقريبا كل زعمائهم ومثقفيهم تركوا البلاد، فإنهم كانوا فاقدى الحس السياسى. ص١٨٦

والإسرئيليون نظريا وإلى حد بعيد عمليا اعتبروهم مواطنين. وبينما كانت مواطنتهم هذه ليست ذات أثر أو فاعلية كاملة إلا أنها لم تكن تقارن مقارنة سيئة بمركز الأقليات القومية الأخرى في الشرق الأوسط.

إن النصر الإسرائيلي في سنة ١٩٦٧ خلق حالة جديدة وذلك بأنه أوجد السيادة الإسرائيلية بالحكم الحربى الإسرائيلي على سكان عرب يصلون من مليون إلى مليون ونصف، وهؤلاء كان لهم قيادة سياسية وثقافية نشيطة وعالية الصوت.

إن النصر الإسرائيلي في حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ كان له أيضا نتيجة مهمة ألا وهي دخول الفلسطينيين العرب كقوة محاربة في النزاع اليهودى العربى، وإحساس قوى متنام بشخصية فلسطينية عامة وفى النهاية مؤدية إلى إحساس بالقومية الوطنية . إن تكوين أو وجود الإحساس بالشخصية بدأ مع قيام الانتداب البريطانى وخلق وحدة سياسية جديدة منفصلة تسمى فلسطين تحت حكم حكام مختلفين ومؤسسات مختلفة، وأهم من ذلك كله مشاكل مختلفة عن تلك التى كانت في الأراضى المجاورة والتى كانوا هم في البداية مرتبطين بها. وسابقا في سنة ١٩٢٠ فإن الصحفيين الفلسطينيين العرب والسياسيين بدءوا في التكلم عن الحركة الوطنية الفلسطينية وحتى أحيانا عن الأمة الفلسطينية. ولكن ذلك كان محصورا في نطاق النضال ضد الحكم البريطانى والهجرة اليهودية. إن إحساسهم الأساسى بالشخصية التاريخية كان على مستويات مختلفة: مسلم أو عربى أو بالنسبة للبعض سورى، فإنه من المهم ملاحظة أنه حتى بحلول نهاية الانتداب سنة ١٩٤٨ وبعد ثلاثين عاما من الوجود الفلسطينى السياسى المتفرد الخاص فإنه لم يكن هناك تقريبا أي كتب بالعربية تتحدث عن تاريخ فلسطين، والاستثناءات القليلة كانت كتبا مدرسية أعدت للاستعمال في المدارس التى أقامتها حكومة الانتداب.

وبمرور الوقت ربما بغير الصهيونية، فإن التقسيم الإنجليزي الفرنسى للهلال الخصيب كان من المحتمل أن ينشئ دولة فلسطينية كما أنشأ دولة في العراق وفى الأردن وفى سوريا وفى لبنان، وحتى الأمم المتحدة كان ممكنا إن تخلق دولة عربية في جزء من فلسطين لو أن أيا من اقتراحات التقسيم حاز قبول العرب.

إنهم لم يفعلوا ولكن إقامة إسرائيل والهجرة العربية سارعتا في نمو الإحساس بالقومية الفلسطينية.

إن عهدا جديدا بدأ بقيام إسرائيل والهجرة العربية . إن طريقتهم في الخروج من إسرائيل وأكثر من ذلك يحتمل إنه من طريقة قبولهم في الدول العربية المجاورة حيث

كانوا في الأغلب الأعم محصورين في معسكرات وباستثناء الأردن مرفوض اعطاؤهم الجنسية، فإن الفلسطينيين العرب اكتسبوا إحساسا قويا بالشخصية مبنيا على تجربة مشتركة وإحساس بالمعاناة المشتركة وبالحاجة وبوحدة المصير. إن ذلك ممكن ص١٨٧
أن يثبت أن الإنجاز الداعي للسخرية الذى أنجزه البريطانيون والصهيونيون هو أنهم خلقوا ليس شعبا واحدا أو أمة واحدة ولكن أمتين جديدتين في المساحة الصغيرة التى كونت في سنة ١٩١٨ من ثلاثة مناطق عثمانية قروية غير مكتملة النضج.

إن حرب الأيام الستة أتت كذلك بتغيرات أخرى أثرت تأثيرا عميقا في إعادة تشكيل الموقف. إن ظهور الدولة الإسرائيلية وتمتعها بالسيادة كان شيئا صعبا جدا على العرب تقبله. أما انتصاراتها الساحقة وما نتج عنها من إيجاد الهيمنة اليهودية على أعداد ذات أهمية من الشعب العربى فكان شيئا أكثر صعوبة لا يمكن مقارنته بما قبله.

وباستثناء الدولة التى تسمى عبر الأردن والتى لم تكن أبدا محل اعتبار في سياسة إقامة الوطن القومى لليهود، فإنه لم يبق أي جزء من فلسطين الانتداب تحت الحكم العربى الآن، ولم يكن باستطاعة أي حكومة عربية مع الاستثناء المحدود للأردن أن تدعى أنها تتكلم بالنيابة عن الفلسطينيين. إن ذلك كان أيضا معناه أن كل المساحة الأردنية القريبة والمجاورة لإسرائيل أصبحت الآن خاضعة لسلطة واحدة إلا وهى إسرائيل. إنه قام آنذاك اتصال أكبر بين الفلسطينيين عما كان عليه الحال سابقا وما يتبع ذلك من إحساس متعاظم بوحدة الجماعة. إن ذلك ساعد على ظهور قوة جديدة في العالم العربى كان مقدرا لها أن تؤدي دورا على جانب عظيم من الأهمية. إن منظمة تحرير فلسطين كونت في سنة ١٩٦٤ ولكنها لم تصبح عاملا مؤثرا إلا بعد حرب سنة ١٩٦٧ . إن سياسات الحكومات العربية وضح فشلها وجيوشهم تمت هزيمتها. ومنظمة التحرير قدمت سياسة جديدة وطموحات جديدة وطريقة جديدة في شن الحرب على العدو الإسرائيلى. إن هاتين الطريقة الجديدة والسياسة الجديدة حازا تعضيضا قويا بين الفلسطينيين وخصوصا هؤلاء الذين يسكنون المعسكرات، والتى قبل مرور وقت طويل أصبحت تلك المعسكرات كلها تحت قيادة منظمة التحرير.

ومنذ سنة ١٩٦٧ وما بعدها فإن منظمة التحرير أدت دورا مهما قد يصفه البعض بأنه دور قيادي في الحرب العربية ضد إسرائيل. إن الدول العربية بطبيعة الحال

كانت الآن منشغلة باستعادة أراضيها التى ضاعت وبشكل متزايد بالبحث عن مصالحهم الوطنية . إنه كان هناك اتجاه متزايد لاعتبار القضية الفلسطينية مسألة تابعة لهذه المصالح والمؤسسات الفلسطينية كأدوات تستخدم كلما أمكن لتحقيق أهدافهم القومية الخاصة. ولكن بينما كانت الحكومات العربية والجيوش العربية تظهر في صورة الضعف وعدم الحيلة جتى بالنسبة إلى اهاليهم أو شعوبهم، فإن على العكس منظمة التحرير كانت تخلق صورة جديدة للعربى كمحارب ثورى مقدام في سبيل الحرية. وبتلك الصورة فإن العرب صوروا على أنهم يقاتلون وحدهم ضد قوة ص١٨٨ عظيمة على العكس مما كان سابقا من أنهم يحاربون بلا نجاح ضد عدو صغير ضعيف. وتبعا لذلك فإن داوود الإسرائيلي الذى يحارب بشجاعة ضد عملاق الجامعة العربية أصبح فجأة عملاقا يهوديا يحاول أن يقتل منظمة التحرير أو داود الصغير(*).

إن الصورة الجديدة كان لها تأثير مهم في العالم الغربى حيث ولأول مرة منذ ميلاد إسرائيل فإن منظمة التحرير ومعضديها استطاعوا أن يكسبوا جزءا كبيرا من الرأى العام وخصوصا في الأوساط الإعلامية والأدبية والأكاديمية التى تحولت من صف إسرائيل إلى معاداة إسرائيل ومناصرة الموقف العربى. إن التحجج بأن الفلسطينيين هم شعب بلا أرض وأن منظمة التحرير تقود نضالا ثوريا للتحرير الوطنى كان له كل الأثر في إيجاد تلك النتائج الجديدة ولو أنه لا يمكن الشك في أن عوامل أخرى لا علاقة لها بالعرب وكفاحهم تحدث أثرها.

ففى البداية الدول العربية استجابت استجابة راضية عن السياسات والنشاطات لحركة منظمة التحرير ووجدوا فيها مدعاة للفخر بالصورة الجديدة للمقاتل "الجريلا" العربى. ولكن مراجعة فكرية أخذت في الظهور. فلأنهم كانوا أكثر قربا إلى المسرح وأكثر انغماسا في الأحداث عما كان عليه الإعلام الغربى من رجال ونساء فإن القادة العرب كانوا أكثر إدراكا بالفاعلية المحدودة أو للتاثير المحدود لحرب أو نضال منظمة التحرير ضد إسرائيل.

(*) المترجم: هذه استعارة من القصة الانجيلية " داود والعملاق" والتى يحارب فيها داود العملاق ويهزمه باستعمال المقلاع.

أكثر من ذلك فإن مشاكل بدأت تقوم بين منظمة التحرير ومضيفيها العرب الذين كانت تتعاظم مصاعبهم في استضافة حركة حسنة التسليح جيدة التموين بالمال وهى حركة راديكالية ثورية بين ظهرانيهم. إن وجود منظمة التحرير في الأردن وهى أولى قواعدهم عقب حرب سنة ١٩٦٧ انتهى في سنة ١٩٧٠ في مذبحة وطرد وهروب. ووجود منظمة التحرير في لبنان حيث تمركزوا وأقاموا وجودا لأنفسهم أوجد سلسلة من الاضطرابات في تلك الدولة التى هى أصلا مضطربة.

وفى النهاية عندما هاجمهم الإسرائيليون وطردوهم من لبنان في سنة ١٩٨٢ لم يكن هناك حماسة من جانب الدول العربية لمعاونتهم في نضالهم أو حتى لإنقاذهم من هزيمتهم.

وبنهاية سنة ١٩٨٢ فإن الصورة اللامعة للمحارب العربى "جريلا" شوهت تشويها ص١٨٩
ليس بالقليل. ولكن صورة الجيوش العربية كذلك لم تكن أكثر حسنا. إنه حقيقة في حروب سنة ١٩٧٣ و ١٩٨٢ الإسرائيليون لم يحصلوا على ذلك النصر الحربى الساحق السريع الذين كانوا قد تعودوا عليه. ولكنهم مع ذلك لم يعانوا من الهزيمة وإن النتائج لا يمكن أن تعطى أو تنتج الرضا الكبير للدول العربية . إن حرب سنة ١٩٧٣ بدأت بداية حسنة جدا بالنسبة للعرب عندما عبر المصريون قناة السويس - وهو انجاز مهم للجيش - وعندما تقدم كل من المصريين والسوريين ضد الإسرائيليين. ولكن الحرب انتهت بالإسرائيليين على بعد قريب من كلا العاصمتين دمشق والقاهرة، والنجاح المصرى السياسى العظيم الذى تلى كان مرجعه إلى المناورات السياسية الحاذقة وإلى المعونة السياسية الأمريكية اكثر مما هو راجع إلى الإنجازات الحربية. وكذلك فإن الحرب في سنة ١٩٨٢ لم تأت لا بالفخار الحربى ولا المزايا السياسية لإسرائيل، ولكنها مرة ثانية كشفت ضعف العالم العربى وتفرقه.

إن تتابع الانتصارات الإسرائيلية والهزائم العربية في ميدان المعركة أثار تساؤلات عميقة اجتماعية وسيكولوجية وتاريخية. وأكثر الشئون إلحاحا في الإطار الحاضر هو تفسير العرب لأسباب تلك الهزائم والتى كانت كلها أكثر إيلاما لأنها جاءت من شعب كان محتقرا كما أنه شعب كان محكوما وتابعا وغير مسلح.

مرة بعد الأخرى فإن دولة إسرائيل الضئيلة حجما بالمقارنة بالعالم العربى والمسكونة بشعب يهودى ارتفع من حوالى نصف مليون حينما قامت الدولة إلى حوالى ثلاثة ملايين ونصف مليون نجحت في أن تهزم جيوشا وليس جيشا واحدا بل جيوشا من الدول العربية المتفوقة بشدة في العدد والموارد والتسليح. إن ذلك وقد أمكن أن يحدث مرة بعد الأخرى، أوجد معضلة مؤلمة للعرب المعنيين بحال وبمستقبل بلادهم.

كيف ولماذا حدثت الهزيمة؟ إنه لإجابة تلك الأسئلة فإن إجابات مختلفة قد أعطيت. إن أبسطها أكثرها إراحة، ومازالت تسمع كثيرا أن الاسرائيليين ما كان في مكنتهم أن يفعلوا ذلك وحدهم ولكنهم تسلموا المساعدة والعون من الآخرين. إن ذلك كان صحيحا في حرب سنة ١٩٥٦ ولكنه لم يكن صحيحا في أي من الحروب الأخرى. إن الاسرائيليين استفادوا ولاشك من الإمدادات الحربية الكبيرة أولا من تشيكوسلوفاكيا ثم فرنسا ثم من الولايات المتحدة ومن الإمدادات السريعة في وقت الحرب. ولكن العرب كان لديهم نفس مصدر الخدمة من مورديهم السوفيت مع الميزة الإضافية، والتى لم يبحث عنها أو يقبلها الإسرائيليون أبدا ألا وهي خبرة الضباط الأجانب الملحقين بقواتهم المسلحة كخبراء ومدربين. فبالنسبة للبعض فإن أسطورة التدخل الأمريكى على الجانب الإسرائيلي في تلك الحروب وردت المرهم الشافى للعزة المجروحة. إنى أذكر أننى سألت ضابطا في الجيش المصرى عما اذا كان يصدق أن القوات الجوية الأمريكية حاربت مع الجانب الإسرائيلي في حرب الأيام الستة. وقد كانت إجابته مثالا للأمانة إذ أنه قال : « إننى لايمكن أن أصدقها كما أنه لايمكن ألا أصدقها ». وبعد حرب سنة ١٩٧٣ ، حينما اقدم الرئيس السادات على خطواته الأولى نحو السلام فإنه برر ذلك بقوله إنه يستطيع أن يحارب إسرائيل ولكنه لا يستطيع محاربة الولايات المتحدة. إنه لم يكن بالطبع قد حارب ضد الولايات المتحدة كما أن إسرائيل لم تكن قد حاربت ضد الاتحاد السوفيتى.

إنه كان هناك الآخرون الذين كان العذر السهل بنسبة الهزيمة إلى تدخل القوى العظمى لم يكن كافيا بالنسبة لهم والذين أخذوا يبحثون عن أسباب هزيمة العرب وذلك بالبحث في أسس المجتمع العربى . إن ذلك البحث بدأ بعد هزيمة سنة ١٩٤٨ وحاز دوافع جديدة بعد كل هزيمة. وقد أنتج مجموعة من الكتابات واسعة في مداها وفى اختلافها. وتلك الدراسات تقدم أحسن الأمل في أن العرب قد يستطيعون إذا ما

اتبعوا نقد النفس القاسى يمكنهم الاعتراف بالنقائص في بنائهم الاجتماعى والسياسى ومحاولة إيجاد علاج لهذا.

إن تحليلا لأسباب الهزيمة يستلزم ليس فقط دراسة الضعف الخاص بأحد الجوانب وإنما الدراسة غير العاطفية لقوة العدو. إن ذلك أثبت أنه مهمة أكثر صعوبة.

إنه كان هناك البعض خصوصا بين الفلسطينيين في ديار الغربة الذين حاولوا القيام بذلك المجهود. ولكن معظمهم كانوا غير راغبين في التخلى عن تسجيل نقط من انتقاص العدو وغير قابلين للتنازل عن الأمثلة العدائية التى اعتادوا عليها للطرف الآخر. إن الإسرائيليين هم قبل كل شيء يهود، واليهودى طماع ماكر وفى نفس الوقت فهو جبان وتنقصه كل الصفات الكريمة في الحرب. إن ذلك النوع من التصوير لا يبدو دائما في الكتابات التحليلية الجادة ولكنه أصبح شيئا مقبولا عامة في الصحافة الشعبية وفى الكتابات الأدبية وحتى في الأوصاف الرسمية للإسرائيليين ولليهود عامة.

وعلى ذلك وعلى سبيل المثال فإن مقالا في جريدة القوات المسلحة الأسبوعية باسم القوات المسلحة عدد ١٦ نوفمبر سنة ١٩٦٤ فإنه يقول : « إن اليهودي في قرارة نفسه وشخصيته ليس لديه الصفات اللازمة لحمل السلاح. إنه ليس مستعدا لأن يضحى بأى شيء وحتى لابنه أو لزوجته. وإذا كان هناك اليوم في إسرائيل رجل يحمل السلاح فإنه يفعل ذلك لأنه متأكد أنه سيوجد رجل آخر يسبقه وسيقف أمامه وليس خلفه للدفاع عنه حين يحين الوقت.

إنه ما لم تكن هناك تلك الفكرة أو العقيدة فما من يهودى في العالم سيوافق على حمل السلاح ».

إن ذلك نشر في سنة ١٩٦٤ وبمثل هذا الغذاء من المعلومات فإنه من المفهوم جدا أن حرب الأيام الستة جاءت كصدمة عظيمة. ولكن حتى تعاقب الحروب لم يغير تماما من ذلك الفهم الأساسى، والكتاب العرب والروائيون وكتاب المسرح وكذلك المعلقون السياسيون والحربيون استمروا في تصوير الإسرائيلي على أنه مغامر وضيع لا ص١٩١
مبادئ له. إن ناقدا أدبيا مصريا كتب معلقا على صورة الإسرائيلي في كتب القصة

والدراما كتب يسأل : « إننى إزاء هذا النوع من تقديم الشخصية الإسرائيلية فإننى أضع السؤال: إذا كان الإسرائيليون حقيقة كذلك فكيف أمكنهم يصبون الهزيمة فوقنا؟ ».

وفى الحقيقة فإن السؤال يكون كيف إذا كان الإسرائيليين فاسدون وجبناء كما تصفهم. فإن انتصاراتهم تمثل صعوبة في التفسير أو على الأقل تحتاج إلى تفسيرات تفوق الطرق الطبيعية للتفكير المنطقى. إنه إلى حد متزايد تزايدا عظيما الأدب المعادى للسامية والذى عرف عن طريق أوروبا يمكن أن يقدم مثل هذا التفسير: إن اليهودى الشرير ذا المقاصد السيئة - وهو في الوقت نفسه الجبان طبقا للمعايير التقليدية المتفق عليها - يتآمر ويدبر ولكن مجهوداته كلها لن تفيد ضد قوة الإسلام لأن الله أكثر مكرا.

إن الجبناء السفهاء القوادين والبغايا في إسرائيل الذين تصورهم الأقاصيص العربية لا يمكن أبدا إن ينتظر منهم أن تكون نتائجهم أحسن من ذلك أي الهزيمة أمام الإسلام. ولكن أولاد الشيطان الذين يزاولون قوة شيطانية منخرطة في المؤامرة ضد الإنسانية جمعاء والتى امتدت خلال آلاف السنين وعبر العالم، فإنهم يكونون عدوا قويا. إن النضال ضد مثل هذا العدو يعطى صبغة كونية لهؤلاء الذين يقومون به ويعطى بعض الكرامة حتى إلى هؤلاء الذين يعانون الهزيمة والذين هم يعتقدون تماما أن هزيمتهم تلك لابد ألا إن تكون مؤقتة.

الفصل الثامن

الحرب ضـد اليهود

فى سنة ١٩٧٩ نشرت جريدة الدعوة وهى لسان حال الإخوان المسلمين سلسلة من المقالات في الجريدة الأساسية وفى الملحق الخاص بالأطفال، المراد منها تحذير قرائها من البالغين والأطفال ضد الأخطار التى تهدد العالم الإسلامى. وتحت عنوان ص١٩٢
اعرف عدوك فإن المقالات في قسم الاطفال تعد أربعة أعداء أساسيين يجب على المسلم أن يحذر منهم وأن يحترس، وهم الصليبيون واليهود والشيوعيون والعلمانيون. إن كل واحد من هؤلاء يوصف ويصور ببعض التفصيل. هناك فارق في ذلك الوصف والتصوير بين الصليبيين واليهود كما يصورون في هذه المقالات. إن الصليبي عدو لأنه غاز صليبى وليس لأنه مسيحى . إنه من الممكن أن يكون المرء مسيحيا بغير أن يكون صليبيا أي بغير أن يكون مسيحيا محاربا معتديا. إن المقالات تحدد أن ليس كل المسيحيين صليبيين. فبعض المسيحيين أخيار ومثالهم القبط في مصر والذين هم في الواقع ضعفاء الضعف الملائم لحالتهم . ومن سوء الحظ كما تقول تلك المقالات أن الموقف يتغير، فالمسيحيون الأخيار تصيبهم العدوى من المسيحيين الأشرار وهم جميعا أصبحوا صليبيين هذه الأيام.

اليهودى في تلك المقالات مسمى كيهودى وليس تحت أي عنوان آخر كصهيونى أو إسرائيلى. وعلى خلاف المسيحيين فإن اليهود جميعهم أشرار ولا يوجد يهود أخيار إطلاقا. إن اليهود بالوراثة والطبيعة والخليقة أشرار. وكاتبو هذه المقالات لا تعنيهم التفرقة التى يقول بها المتحدثون باللغات الغربية والذين يفرقون بين الصهيونى والإسرائيلى من جانب وهؤلاء الذين يدينون بالديانة اليهودية على الجانب الآخر.

إن العدو هو ببساطة اليهودى في أي تنكر قد يتلبسه أو يبدو فيه.

أما مناقشة العدوين الباقيين فإنها تكشف عن أن هؤلاء أيضا إما أنهم يهود في حد ذاتهم أو مسيرون ومخدوعون بواسطة اليهود. إن الماركسي أو الشيوعى هو عدو أساسى مهم والقارئ يذكر بأن كارل ماركس جده كان حاخاما وهذه واضحة أنها نقطة ذات مغزى مهم في تحديد دور الماركسية في التاريخ والمقصد النهائى للشيوعية الماركسية. أما العدو الرابع وهو في أحوال كثيرة أكثر الأعداء خطورة وتغلغلا فهو العلمانى المجدد. إن هذه المجموعة تتضمن شخصيات كحافظ الأسد في سوريا وصدام حسين في العراق والمرحوم جمال عبد الناصر في مصر وقادة آخرين من الذين حاولوا إقامة نظم علمانية في البلاد الإسلامية، وإلى إزاحة العقيدة الإسلامية عن مكانها ونقض أو إلغاء القانون المقدس الذى أنزله الله. ص١٩٣

إنهم جميعا أشرار وأول علمانى ثورى والمجرم الأكبر الذى بدأ تلك الموجة والذى قلده الآخرون جميعا كان مصطفى كمال أتاتورك الذى عقب هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى أنشأ الجمهورية التركية من بقايا الإمبراطورية العثمانية وأنشأ أول جسم سياسى في التاريخ الإسلامي فيه فرق الدين عن الدولة وحلت القوانين المدنية أو العلمانية الحديثة مكان قانون الإسلام المقدس حتى في مسائل الأحوال الشخصية . إن هذه المقالات تقدم شرحا جديدا ومدهشا عن أصول أتاتورك وعن دوره في التاريخ. فطبقا لهذه المقالات فإنه كان يهوديا في السر أطاح بالسلاطين العثمانيين وعاقبهم لأنهم رفضوا أن يعطوا فلسطين للصهيونيين . وهذا البند الأخير لا حاجة إلى القول بأنه ليس هناك أي قصاصة من دليل عليه ، لكنه حاز قبولا واسعا في الكتابات الأصولية.

إن هذا ليس إلا تعبيرا عن نظريات جنونية من نظريات المؤامرة والتى هى من طراز معروف. والمقصود بأنه معروف أنه معروف، في المسيحية ولو أنه لم يكن حتى الآن معروفا إلا معرفة ضئيلة في العالم الإسلامى.

وظهور تلك النظريات يدعو للاهتمام بملاحظة أنها تعرض في منشورات منظمة إسلامية أصولية عدوانية تسمى نفسها الإخوان المسلمين وتقدم ما تدعى أنه وجهة النظر الخالصة في الإسلام. ومع ذلك فإنها تعكس تناولا للمسائل اليهودية بعيدا جدا عن الإسلام التاريخى التقليدى.

إن الأصل الأوروبى الأجنبى لتلك الشتائم أو اللعنات أو الاتهامات يمكن رؤيته في تلك الاتهامات المحددة وفى الرسوم الكاريكاتيرية التى تصورهم. إنه مختلف تمام الاختلاف عن الطريقة التى اتبعها المفكرون الأوائل في كتاباتهم مثل سيد قطب وخلفائه الثوريين الذين بالنسبة إليهم خط العداء لليهود ولو أنه حاضر إلا أنه ذو أهمية ثانوية ومازال يعبر عنه بتعبيرات إسلامية.

إن الإخوان المسلمون أصبحوا الآن يمثلون فصيلا محافظا أو أميل إلى المحافظة في التيار الأصولى الإسلامي ويعتقد أنهم يتمتعون بتأييد سعودى مهم. إن ص١٩٤ السعوديين أنفسهم طالما رعوا ونشروا مثل هذه الدعاية المضادة للسامية. إن المرحوم الملك فيصل في مقابلاته مع الصحافة العربية سجل سلسلة من التصريحات عن دور اليهود في التاريخ. وعلى سبيل المثال : « إنه في العصور الوسطى فإنهم هم الذين بدءوا الحروب الصليبية من أجل إضعاف المسيحية والإسلام ». وإنهم إلى الآن مازالوا يمارسون عادة قتل المسيحيين والمسلمين الاطفال ويمزجون دماءهم في الخبز ثم يأكلونها، إنهم مشتبكون في مؤامرة سرية لحكم العالم. إن الأجهزة السعودية إما مباشرة أو من خلال جمعيات أقاموها برعايتهم في باكستان وأماكن اخرى هذه الأجهزة السعودية نشرت مطبوعات معادية للسامية أنتجها وأعدها النازيون الجدد والفاشيون الجدد في العالم الغربى.

وحديثا في ديسمبر سنة ١٩٨٤ الدكتور معروف الدواليبى ممثلا للعربية السعودية في ندوة أقامتها الولايات المتحدة عن التسامح الدينى والحرية الدينية نسب إلى التلمود القول بأن « إن اليهودى إذا لم يشرب كل سنة دم رجل غير يهودى فإنه سيلعن إلى الابد ». إن معظم إسهامات الدكتور دواليبى في مسألة التسامح والحرية الدينيين كانا ذكر رواية تفصيلية عن قضية شرب الدم التى قامت في دمشق سنة ١٨٤٠ ومعلقا بأنه يعتقد تماما في الجرم الكامل لهؤلاء الذين اتهموا وبأن الاتهام الذى اتهموا به حقيقى وصحيح.

إن الكتابات العربية عن اليهود والشئون اليهودية في العشرين أو الثلاثين سنة الماضية مقارنة بالماضى ستظهر أن هناك تغييرات جوهرية حلت وأخذت في الظهور. إن أول تلك التغييرات الجديدة في الكتابة عن اليهود وأكثرها إثارة للانتباه هو طبيعتها الاستحواذية بمعنى استحواذ هذه الكتابات على العقل العربى. فبينما كان

في الماضى اليهود ينظر إليهم على أنهم مشكلة صغيرة أو حتى لا مشكلة إطلاقا فإنهم الآن أصبحوا يقفون وكأنهم الخطر الرئيسى الذى يهدد ويرمى بظله على العالم الإسلامي بأكمله. إن الاحتقار القديم والارتياب باقيان ولكنهما الآن انضم إليهما الصفات الأوروبية من الخوف والحسد اللذين تخللا النسيج الفكرى الأوروبى بطريقة كاملة . إن اليهودى لم يصبح بعد المتآمر الضئيل الذى لا أثر له كما هو في الأمثلة التقليدية، ولكنه أصبح شخصية تمثل الشر الكونى الجامع ، مشتبكا في خطط شيطانية ضد الإنسانية جمعاء. وحتى هذا الربط بين الصهيونية والإمبريالية الذى يظهر في معظم الكتابات العربية عن الموضوع فإنه اصبح ينظر إليه تحت ضوء جديد. فبينما كان الصهيونيون سابقا يوصفون بأنهم أعوان أو أدوات للقوى الإمبراطورية فإن الإمبراطوريات والقوى العظمى نفسها أصبحت تصور على أنها دمي لا حول لها تلعب بها أيد يهودية خفية في سبيل تنفيذ خطتهم لحكم العالم.

إن هذه الاتجاهات تلون ليس فقط المناقشات السياسية بل أيضا الأدب والفنون والأبحاث الأكاديمية والدينية. إنها لم تعد بعد محصورة في المطبوعات المتطرفة ص١٩٥ والناشرة للسياسات المعادية ولكنها تظهر أيضا في الجرائد الكبرى وفى برامج الراديو التليفزيون الحكومية وفى الكتب المدرسية والجامعية . إن مستوى العداء والوضوح الكامل في التعبير عنه لم يسبق له مثيل حتى في الأدب الأوروبى المعادى للسامية والذى لم يصل إلى ذلك الحد من الخوف والكره والعداء. إن ذلك الأدب لم يصل إلا في نقط قليلة إلى هذا الحد من الكره وهذا المستوى من الخوف والعداء والكراهية. إنه لكى نجد شيئا مقارنا لهذا فإن الإنسان يجب أن يرجع إلى القرون الوسطى والى أدب محاكم التفتيش الإسبانية والى الكتابات ضد دريفوس في فرنسا وكتابات عصابة اليد السوداء في روسيا أو إلى عهد النازية في ألمانيا. إن بعض البلاد العربية وانضمت إليها إيران الآن أصبحت هى المراكز الأساسية للعداء الدولى للسامية والذى ينبع منه الكتابات المعادية ووسائل الدعاية التى توزع في العالم كله. إن هذه الدعاية قد بلغت مستمعين جددا لم يكونوا من المتأثرين بها في إفريقيا وجنوب شرق آسيا وغيرها من بلاد العالم الثالث.

وصفة جديدة من صفات ذلك الأسلوب الجديد في الكتابات المعادية لليهودية في الدول العربية هو الاختفاء التام للتفرقة بين الإسرائيلي والصهيونى واليهودى. إن

تلك التفرقة لم تكن تراعى تماما أو بالدقة الشديدة في الكتابات للاستهلاك المحلى ولكنها كانت على العموم توجد في الكتابات باللغات الأجنبية والتى تكتب للإذاعة في الغرب. إن مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير في بيروت في كثير من مطبوعاته العربية عن إسرائيل حاول أن يلتزم بتلك التفرقة. وبينما كان محافظا على الرفض التام للصهيونية ولإسرائيل في أي شكل فإنها حاولت أن تتجنب استخدام المواد الصريحة في العداء للسامية.

إنه لا يوجد الآن أي انضباط أو تحديد مثل هذا في المطبوعات الرسمية أو غير الرسمية في مصر والمملكة العربية السعودية والكويت و الأردن ولبنان وبلاد أخرى عربية مسلمة. إن بعض الكتاب من هذه الأقطار حين يناقشون المشكلة الفلسطينية فإنهم ما زالوا يجادلون بأنهم يعارضون الصهيونية ودولة إسرائيل وليس لديهم أي عداء لليهود ولا لدينهم. ولكن القليل فقط هو الذى يلتزم بتلك التفرقة في العلانية حينما يكتب بالعربية وحتى فإن البعض ينكر تلك التفرقة تماما. وعلى سبيل المثال ففى مقالة نشرت في الملحق الاقتصادى للاهرام في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٨٢ فإن الدكتور لطفى عبد العظيم يكتب قائلا : « إن أول شيء يجب أن نوضحه هو أنه لا يصح التفرقة بين اليهودى والإسرائيلى تلك التفرقة التى ينفونها هم أنفسهم. إن اليهودى هو دائما يهودى خلال آلاف السنين.. اتصف بإنكار كل القيم الأخلاقية ويلتهم الحى ويشرب دمه من أجل بضعة دراهم. إن اليهودى تاجر البندقية لا يختلف عن قتلة دير ياسين أو قتلة أهل المعسكرات، إنهم أمثلة متساوية في الانحطاط ص١٩٦
الإنسانى دعنا إذن نطرح تلك التفريقات ونتكلم فقط عن اليهود ».

إن كثيرين من المتكلمين والمذيعين والمحاضرين والكتاب في الدول العربية في الحقيقة لا يتكلمون إلا عن اليهود. إن كتيبات الإرشاد للقوات المسلحة المصرية حرب سنة ١٩٧٣ على سبيل المثال تشير بوجه عام للعدو على إنهم اليهود. وحتى المناقشات في المسائل الحربية الصرفة تتكلم عن الفرق اليهودية والضباط اليهود. وعلى العموم فإنه من الواضح أن كثيرين مدوا أو وسعوا نطاق العداء من إسرائيل إلى الشعب اليهودى بأكمله ومن الأجيال الحاضرة من اليهود إلى أجدادهم عبر القرون.

ومن المحتمل أن أكثر تلك التغييرات في الأهمية هو أسلمة العداء لليهودية. فالعداء

لليهودية في البداية كان محصورا في بعض عناصر الأقليات المسيحية في الشرق الأوسط. إن ذلك العداء تبنته وامتصته الأغلبية الإسلامية على مرحلتين. في المرحلة الأولى نغمات العداوة للسامية والاتهامات كانت فقط مجرد تقليد أو ترجمة أو إعادة طبع بغير إدخال أي تغيير. إن تلك الكتابات كانت ما زال واضحا أنها من مصدر أجنبى وأنها لا تأثير لها أو تأثير ضئيلا على العامة . وفى المرحلة الثانية فإن تلك النغمات المعادية يمكن القول بأنها دخلت في صميم وجدان العالم الإسلامي وأن ذلك العالم في أثناء تبنيه وامتصاصه وتمثله لتلك الأفكار فإنه قد أعطاها بعدا إسلاميا واضحا .

إن مثالا صارخا على ذلك هو التحول الذى أصاب الأدب وفى التعليم عن أعداء النبى اليهود وتحولهم من مجرد مضايقة ضئيلة إلى عدو أساسى يجسم أصول الشر الأبدية. إنه في بعض الروايات الإسلامية التاريخية التقليدية عن اليهود في المدينة فإنهم حتى في موتهم وهزيمتهم يسمح لهم ببعض صفات الكرامة والشجاعة. إن ذلك الوصف لدورهم هو مأساوى أكثر مما هو شيطانى. وقد استمر أو بقى إلى أزماننا الحديثة، وعلى سبيل المثال ما ورد أو الصورة الدرامية لحياة الرسول المنشورة سنة ١٩٣٦ والتى كتبها الكاتب المسرحى العظيم توفيق الحكيم. أما في الصورة الجديدة فاليهود هم أعداء ابديون للإسلام وللمسلمين. وعلى ذلك وبنقلة بسيطة فإنهم السبب الرئيسى لكل المتاعب التى حلت بالعالم الإسلامي سابقا ولاحقا . ولأجل أن يسود مثل هذا التفسير لدور اليهود في التاريخ الإسلامي فإن المواد التى اوردها القرآن والحديث لم تكن كافية لأنها ولو كانت تلعن مكر اليهود ولكنها تنفى عنهم القوة أو القدرة على إلحاق الضرر. وكذلك لم يكن الادب المسيحى المعادى للسامية وهو المتكأ المعتاد للمسلمين الجدد في هذا الميدان لم يكن مساعدا لأنه بالنسبة للمتعصبين المسيحيين أصحاب تلك الكتابات المعادية للسامية، إثارة الحرب ضد الإسلام كانت شيئا مقدسا وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون لليهود دور فيه . إن هذا الفراغ أو النقص في التبرير أمكن بسهولة تغطيته باستخدام التصورات الخيالية. وكمثال لهذا الاستخدام للتصورات الخيالية يمكن أن يوجد في كتيب وضعه الشيخ عبدالله المشد قدمت إلى المؤتمر الرابع لأكاديمية الابحاث الإسلامية والذى ص١٩٧
عقد في الأزهر في القاهرة في سنة ١٩٦٨ . إنه في ذلك البحث المعنون "اليهود

واتجاهاتهم ضد الإسلام والمسلمين في الحقبة الإسلامية الأولى" فإن الكاتب يقول إنه حتى بعد موت الرسول : « فإن اليهود ما زالوا هم الناس ذوى النوايا السيئة والحقد الدفين الذين لم ينسوا أبدا كيف عاملهم المسلمون. إنهم كانوا دائما متربصين بالمسلمين لإيقاع المصائب بهم بالرغم من تشرذم وتبعثر هؤلاء اليهود. إنهم حاولوا دائما أن ينتهزوا الفرصة للانتقام منهم أي من المسلمين. إنهم كانوا دائما جبناء ولا يستطيعون مواجهة عدوهم مواجهة صريحة خصوصا عندما يكون قويا. ولذلك فإن طرقهم في مهاجمة المؤمنين كانت هى المؤمرات والخطط والدسائس والتفرقة بين المؤمنين وإفساد الدعوة والمحاولة لدفع أو طرد المسلمين أو اخراجهم من عقيدتهم السمحاء والتى هى السبب في قوتهم ».

ثم يمضى فينسب إلى اليهود دورا أساسيا في كل المشاكل السياسية والاجتماعية والدينية وغيرها من المشاكل التى قامت في القرون الأولى للإسلام ثم يتهمهم بالاشتراك في قتل الخليفه عمر، هذه التهمة التى لم تكن معروفة حتى الآن لعلماء التاريخ. إنه يقول : « إننا حينما ننظر إلى الصورة الحالية للمؤامرات اليهودية وكيف إنهم يخططون بدقة ومهارة من أجل الأمد الطويل إلى ما لا نهاية بطريقة متخفية وبفن خفيف المدخل يجعلنا لا نشك أبدا في ضرره، فإننا نظن أنه ليس من المستحيل أن اليهود هم الذين رسموا الخطط وتآمروا لقتل عمر أو على الأقل أنهم كانوا يعلمون بالمؤامرة ولكنهم لم يكشفوا عنها ».

إن مؤتمر الأزهر خصص جزءا طويلا من وقته لمثل هذه التحليلات التاريخية. وقد نشرت نتائج المؤتمر في ثلاثة مجلدات باللغة العربية ومجلد بالإنجليزية – أخذ منه الفقرة السابقة – ووزعت توزيعا واسعا في العالم الإسلامى.

إن مثل هذه الاتهامات امتدت من المؤتمرات إلى الكتب المدرسية ومن الأراضى العربية إلى كل العالم الإسلامي البعيد كماليزيا وإندونيسيا والشعوب المسلمة في إفريقيا الاستوائية.

إن انتشار العداء للسامية في شكله المسيحى الأوروبي كان في الأول بطيئا ومحدودا ولم يصبح عاملا فعالا في العالم العربى حتى السنوات المتأخرة من الخمسينيات والستينيات.

إن ذلك بالطبع ليس معناه أنه لم يكن يوجد عداء لليهود. إنه كان موجودا وعلى شكلين: الطراز الإسلامي القديم وهو الاحتقار لليهود كأصغر الأقليتين الدينيتين وأقلهما استحقاقا للاعتبار كان ما زال موجودا مع الكراهية والأمثلة الشخصية ١٩٨
النمطية التي نمت في خلال القرون. ولكنها كانت عاملا ضئيلا نسبيا في العلاقات الإسلامية اليهودية. ومن وقت الحروب الصليبية وعلى الخصوص في القرن التاسع عشر فإن المسلمين في سوريا ومصر كانوا أكثر ارتيابا وشكا في المسيحيين عنهم في اليهود. ومنذ غزو بونابرت لمصر في سنة ١٧٩٨ وما صاحب ذلك من نمو اقتصادى وإستراتيجى وسياسى في نفوذ القوى الأوروبية في الشرق الأوسط، فإن المسيحيين المحليين ازدهرت أحوالهم ازدهارا كبيرا تحت حماية الأجانب من دينهم. وقد كانوا يحققون مستويات من الثروة والسلطة والنفوذ وما كان لايمكن أن يتحقق تحت الأنظمة الإسلامية التقليدية. وبسبب ارتباطهم مع القوى الأجنبية فإنهم أنفسهم أصبحوا ينظر إليهم من مواطنيهم المسلمين على أنهم أجانب، أو أسوأ من هذا كرعايا خونة وحلفاء للأعداء الأجانب. وباستثناء شمال إفريقيا حيث لم يكن هناك مسيحيون محليون فإن اليهود لم يحصلوا إلا على مزايا قليلة من الوجود الأجنبى وعلى ذلك استثاروا قدرا أقل من العداء.

وفى البداية فإن المسيحيون كانوا أكثر من المسلمين تأثرا بالمشاعر المعادية لليهود وكثيرا ما اشتبكوا في نشاطات معادية لليهودية. والأقلية المسيحية كأقلية منافسة للأقلية اليهودية تتبارى معها في الحصول على نفس المزايا والفوائد في مجتمع مسلم الاغلبية، فإنهم كانوا يحركهم التنافس التجارى بعض الأحيان وأحيانا الرغبة في توجيه الكراهية الإسلامية نحو الآخرين. ولما كانوا أكثر تعرضا من المسلمين للنفوذ الغربى وإن كانوا لم يصبحوا إطلاقا غربيين أو مستغربين، فإنهم كانوا أحيانا كثيرة يصابون بعدوى الأمراض الغربية قبل أن يكونوا قد تولد فيهم أسباب المناعة التى نماها الغرب ضد هذه الأمراض. إن مثالا لذلك كان السلوك المعادى للسامية الذى أوصله إليهم بعض رعاتهم الإكليريين وشركائهم التجاريين رجال الأعمال من أوروبا.

إن العداء للسامية من هذا النوع استمر شعورا ثانويا بين المسيحيين الشرقيين. أما بين المسلمين فلم يكن له إلا تأثير ضئيل. إن أهم مظاهر ذلك العداء كان هو في انتشار قصة جريمة سفك الدم لمراسم دينية وذلك في خلال القرن التاسع عشر،

وكذلك الاستجابة الإسلامية الضئيلة للدعاية التى أطلقها أعداء دريفوس وأمثالهم. وحينما ظهر الكره لليهود بين المسلمين كما كان يحدث أحيانا فإنه كان من الطراز الإسلامي التقليدى وليس من العداء السامي من الطراز المسيحى. وقد استمر الحال كذلك بعض الوقت حتى بعد نمو المشروع الصهيونى في فلسطين العثمانية وفلسطين الانتداب وما أنتجه ذلك من نزاعات.

إن في السنوات المبكرة للانتداب فإن بعض الكتاب العرب الفلسطينيين كانوا ما زالوا يحاولون الاحتفاظ بالتفرقة ليس بين اليهود والصهيونيين بل في الأغلب بين اليهودى الأجنبى واليهودى المحلى. فإن الأخير كان ينظر إليه على أنه جزء من ص١٩٩
العائلة الشرق أوسطية وليس كما كان سابقا زميلا في الرعوية العثمانية. وحتى فإن بعض اليهود في سوريا والعراق وإلى حد أقل في مصر أدوا دورا في الحياة العربية السياسية. إنه حين توج الملك فيصل الهاشمى ملكا في دمشق في سنة ١٩٢٠ فإن واحدا من أعضاء الوفد السورى الذين استقبلوه كان هو جوزيف لانيادو الذى أصبح فيما بعد رئيسا للجالية السورية اليهودية. ويهودى سورى آخر هو إلياهو ساسون والذى أصبح فيما بعد دبلوماسيا إسرائيليا كان رئيس تحرير صحيفة قومية هى "الحياة" في السنوات من ١٩١٩ : ١٩٢٠. وحتى فإنه كان هناك محاولة لاقت بعض الاستجابة لاستمالة التأييد اليهودى السيفاردى للقضية العربية ضد الصهيونيين بوصف كونهم أوروبيين وعلى ذلك فهم إما بولشفيون أو أعوان للتدخل الإمبريالى. ولكن هذه الدعوة العربية إلى جيرانهم اليهود لم تأت بنتيجة، خصوصا حينما فشل القادة العرب والمتحدثون باسمهم في أن يراعوا تلك التفرقة التى كانت من صنعهم، بين اليهود والصهيونيين وبين الأجانب والمواطنين المحليين. وبدلا من ذلك أطلقوا هجماتهم على اليهودية وكل اليهود كذلك.

وفى هذه الهجمات فإنهم اعتمدوا أكثر وأكثر على الكتابات المعادية للسامية المستوردة من أوروبا. وفى مقدمة هذه الكتابات المستوردة كان هناك اثنان من أكثر الكتب المعادية للسامية قبولا لدى هؤلاء الأعداء الاوروبيين وهما كتاب الحبر رولينج وعنوانه "اليهودى التلمودى" و"بروتوكولات حكماء صهيون" . إن كلا هاذين الكتابين أدينا ولعنا مرارا و تكرارا في العالم المسيحى: واحد وهو "اليهودى التلمودى" على أنه تحريف للحقيقة والأخر هو "الحكماء" على أنه تزوير محض. إن الدارسين المحللين

وأحكاما قانونية في قضايا كثيرة لعنوا وأدانوا هذين الكتابين اللذين منذ نهاية النظام النازى قد تم نسيانهما إلا في الأوساط المتطرفة وما عادت تذكر إلا بين أوساط المتطرفين المخبولين. أما في البلاد العربية فإن كلا الكتابين ومنذ نهاية الخمسينيات استمتعا بشعبية جديدة.

إن بروتوكولات حكماء صهيون تذكر أحيانا في الكتابات العربية المعادية التى تربط الصهيونية بالبولشفية وذلك في الوقت المبكر من العشرينيات. إن أول ترجمة عربية أخذت من الفرنسية طبعت في "رقيب صهيون" وهى دورية كانت تنشر في القدس بواسطة الجالية الكاثوليكية اللاتينية وذلك في ١٥ مايو سنة ١٩٢٦.

وترجمة أخرى أيضا نقلت عن الفرنسية بواسطة عربى مسيحى نشرت في القاهرة في شكل كتاب بعد ذلك بسنة أو سنتين. وأول ترجمة قام بها مسلم من الإنجليزية ظهرت في القاهرة مع مقدمة مطولة في ١٩٥١ وتبع ذلك كثير من الطبعات والترجمات.

وفى السنوات التى تلت فإن القطرات تنامت إلى فيضان، وقبل مضى وقت طويل فإن القارئ العربى أصبح تحت تصرفه مجال واسع من الكتابات المعادية للسامية كلها من أصل مسيحي وأوروبية أو أمريكية في المنشأ. أن تلك الكتابات تضمنت إنتاجات الأكليريين والمضادين للأكليرية، اليمينيين واليساريين، الاشتراكيين والفاشيين من اعداء السامية.

وبعض هذه الكتب ترجمت عدة مرات وأعيد طبعها مرارا عديدة. وفضلا عن الكتب فإنه كانت هناك مقالات في الجرائد والمجلات والإذاعات والمحاضرات العامة وخطابات الدعوة والتحريض، كلها ساعدت على أن يتعود القارئ المسلم على ص٢٠٠ مجموعة من النغمات والصور لم تكن سابقا معروفة له: وهى اليهودى كقاتل في أثناء المراسم الدينية، وكعضو في الجمعيات الماسونية، وكرأسمالى، وكشيوعى، وكرجعى، وكمخرب، وكمركز للمؤامرات الشيطانية التى تهدف إلى حكم العالم. ومع هذه الكتابات الجديدة فإنه دخلت أيضا طريقة التصوير الجديدة للشخصية اليهودية وخلق طراز خاص باليهود في الملامح والسمات. وبمرور بعض الوقت فإن رسام الكاريكاتير العربى تعلم كيف يستعمل، والقارئ العربى تعلم كيف يلاحظ، الملامح

العنصرية اليهودية التى اعتاد عليها قراء الصحافة المعادية للسامية في أوروبا الشرقية وفى غيرها من أنحاء العالم المسيحى.

فى الأزمان الماضية، اليهود كانوا محل اهتمام ضئيل في الأدب الإسلامي سواء كان دينيا تاريخيا أو خياليا قصصيا. ولكنهم الآن أصبحوا يلقون بظل أطول وأكثر سوادا.

إن أعمالا تدعى أنها دراسات جادة تدعى إظهار أسرار مخيفة عن التاريخ اليهودى والديانة اليهودية. وأيضا فإن كتاب القصة المشهورين وكتاب المسرحية خلقوا سلاسل منتظمة من صور اليهود الشريرين الذين هم جديرون بأن يحتلوا مكانا ممتازا في عداد المجرمين اليهود في أوروبا الغربية. وحتى تلك الشخصية المعروفة في الأدب الأوروبي المعادى للسامية ألا وهو اليهودية الجميلة العاهرة فإنها تظهر أحيانا بجانب اليهودى الرجل ذي الشكل المنفر، في القصص العربية والتقريرات الصحفية، وبينما الخيالات الجنسية، من الصنف الذى تميز به أولئك الخبراء النازيون كجوليان إسترايخرز فإنها وجدت مثيلها في الروايات عن الحفلات الماجنة والاغتصاب والسادية التى تنسب إلى الجنود الاسرائيليين. إن كثيرا من هذا هو التصوير المعتاد في أيام الحرب للعدو على أنه مثال للشر. ولكنه دائما يصور ذلك العدو ويسمى على أنه يهودى ويضغم في ذلك حتى اليهود غير الإسرائيليين فإنهم يضمون إلى تلك الإدانات. وإن نقطة لها اعتبارها يجب ملاحظتها وهى أنه برغم انتشار ذلك النوع من الكتابة انتشارا واسعا فإن قليلا جدا من الشخصيات المهمة في الأدب العربى الحديث كانت من بين هؤلاء المؤلفين.

إنه عندما انتقلت الحجج ضد اليهودية من المسيحية إلى الإسلام فإن مهمة الكاتب الإسلامى العربى المتخصص في نشر الدعاية السيئة أصبح أكثر سهولة عمن سبقوه من الكتاب الأوربيين المسيحيين، لأنه بالنسبة لهم التوراة ليس لها مكانة مقدسة. ومنذ الأزمان القديمة ساد الرأى بأن النصوص المقدسة اليهودية وحتى في ذلك المقام الكتابات المسيحية لم تكن فقط قد نسخت بنزول القرآن ولكنها أيضا حرفت وزورت بواسطة اليهود والمسيحيين ولذلك أصبح لا يمكن اعتبارها كأقوال حقيقية للرب. وفى الأوقات الكلاسيكية هذه فإنه كان لا يوجد إلا انتقادات قليلة بواسطة الدارسين ص٢٠١

المسلمين للعهد القديم. إن الالتفات الذى قد يعطونه للتوراة كان موجها ضد العهد الجديد لأنه هو المنافس الخطير الوحيد للإسلام. وفى الأوقات الحديثة الهجوم على العهد القديم أصبح نغمة رئيسية في الدعاية المضادة لليهودية. إن بعض الكتاب العرب يدعون أنهم يرون في العهد القديم جذور كل الخصائص المظلمة والتى هم ينسبونها إلى اليهود. إن بعضهم حتى قد ذهب إلى بعيد في إدانة آباء الكنيسة لأنهم أعطوا مكانة كنسية للعهد القديم ووضعوه بجانب العهد الجديد وبذلك سمحوا لليهودى الخبيث بأن يخترق بسمومه الديانة المسيحية بواسطة كتاباته المفسدة الشريرة.

وحقيقة فإن وصف اليهود بالشيطنة في الكتابات العربية تذهب أبعد مما حدث أبدا في الكتابات الغربية باستثناء ألمانيا في الحقبة النازية. في معظم البلاد الغربية الكتابات ضد السامية في تعديها على التاريخ اليهودى والديانة والأدب اليهوديين يعادلها أو يوازنها كمية كبيرة من الأبحاث الدراسية الأصيلة من أعمال الفقهاء أو الدارسين المسيحيين، وبينما المجرم اليهودى في الأساطير وإن لم يكن توازت أو تعادل معه فإنه على الأقل حد من صورته البطل الأسطورى اليهودى. في الكتابة العربية الحديثة لا يوجد إلا قليل من مثل هذه العناصر الموازنة أو المقابلة.

إن الاهتمام باليهود إما غائب أو معاد. إنه لا يوجد إطلاقا أي أبحاث دراسية أدبية في الشئون اليهودية حتى في أعلى الاوساط الاكاديمية تخلو من نسبةأخطاء لليهود. وفى أقل القليل فإن الدارسين التاريخيين الجادين للعلاقات الإسلامية اليهودية يهتمون بإظهار التسامح الإسلامي مع التلميح وأكثر الوقت تصريحا نسبة عدم الاعتراف بالجميل إلى اليهود. إن المعتاد هو أن الكتابة عن اليهود سابقا ولاحقا تتكون من اتهامات مبالغ فيها مغلفة بلغة عنيفة. وإن ذلك ليبدو أكثر إثارة للاستغراب إذا ما قورنت تلك الكتابات بصور العرب والمسلمين في الدراسات العبرية وفى الأدب في إسرائيل الحديثة. نعم إن الكتابات الإسرائيلية فيها بعض الأمثلة السلبية ولكنها أيضا تتضمن تصويرات وتقريرات متعاطفة مع العربى: إزاحته بواسطة المستوطنات اليهودية ومعاناته تحت الحكم الإسرائيلي . إن معظم الأبحاث الإسرائيلية عن التاريخ العربى والثقافة العربية تتوافق مع المستويات والطرق واللغة التى هى طبيعية في الدراسات الدولية الحديثة وأنتجت كتابات لها قيمتها الكبرى وأهميتها العظيمة. إن

بعض الكتابات في الواقع أثارت الاهتمام الكافى في العرب أنفسهم بحيث إنها استثنيت بواسطة الجامعة العربية من قواعد المقاطعة وقدمت إلى الدول العربية، وبعضها حتى ترجم إلى العربية . إنه بتنامى النزاع فإن العداءات القديمة ازدادت حدة والروابط القديمة فصلت.[*] إن الشاعر العراقى الكبير معروف الرصافى والذى
درس في كلية تدريب المدرسين في القدس ما بين سنة ١٩١٨ و سنة ١٩٢٠ ألف ص٢٠٢
قصيدة في مدح السير هيربرت صامويل المندوب السامى البريطانى في فلسطين.

في تلك القصيدة الرصافى ينفى عن العرب تهمة أنهم معادون لليهود حيث يقول: « إننا لسنا كما يدعى متهمونا أعداء لابناء إسرائيل في السر أو العلانية. كيف يمكن أن نكون، حيث هم أولاد أعمامنا والعرب أقرباء لهم من قديم من خلال إسماعيل. إن الاثنين قريبين الواحد منهما للآخر. وفى لغتيهما الدليل على تلك القرابة إننا لا نعادى ولكننا نخشى النفى ونخشى حكومة تفرض حكمها على الناس بالقوة ».

إن القصيدة أحدثت زوبعة من الغضب بين الفلسطينيين العرب الذين صدموا بتصرفه هذا وبأنه وجه قصيدة إلى المندوب السامى البريطانى اليهودى الصهيونى وإن ذلك الغضب أصبح عارما إلى درجة أن الرصافى وجد أنه مضطر إلى مغادرة البلد.

إنه كان مازال هناك البعض مصممين على إحداث ذلك التمييز . إن مقالة في صحيفة مرآة الشرق في ١٤ مايو سنة ١٩٢٤ لعنت أو شجبت الأغاني الشعبية المنتشرة في ذلك الوقت والتى تلعن الديانة اليهودية وقالت إن مثل هذه الأغانى « لا معنى لها وفوق ذلك فإنها معارضة لمبدإ الديانات الموحدة سواء كانت هى الإسلام أو المسيحية. إننا يجب أن نكسب الاحترام لنضالنا من أعدائنا وأصدقائنا. ولكن التيار كان في الاتجاه المعاكس.

(*) المترجم: إننى توقعت مثل هذا منذ الخمسينيات ونبهت بعضا من أصدقائى اليهود الأمريكيين من المهتمين بالشرق الأوسط إلى هذا الخطر وطلبت منهم الاهتمام بهذا الآمر ومحاولة الحد منه إما بالنشر أو بغيره من الوسائل حتى لايصبح اليهودى عدوا فقط وينسى الناس أنه كان جارا اوصديقا وزميلا في العمل.

وقبل أن يمضى وقت طويل فإن الهجوم امتد من الحاضر إلى الماضى وحتى الماضى البعيد. حتى الشاعر العربى القديم الشهير والعظيم الاحترام الشاعر السموءل الشهير بولائه لم ينج من الهجوم.

إبراهيم طوقان (١٩٠٥ : ١٩٤١) واحد من أكثر الشعراء الفسطينيين شهرة في وقته أنكر الروايات عن السموءل على أساس أنها أساطير. وكما بين طوقان فإن القصائد المنسوبة للسموءل كانت مليئة بالروح العربية النبيلة وعلى ذلك فانها لايمكن أن تصدر عن يهودى. أما القصة المشهورة عن إخلاص السموءل والتى ذهبت مضرب الأمثال فهو يعيد تفسيرها.

إن القصة تقول إن السموئل سمح لابنه بأن يقتل حتى لا يسلم الدرع أو اللباس المدرع الذى عهد إليه به من أحد أصدقائه لحفظه، والسموءل بذلك لا يظهر إخلاصا ولكنه يظهر حب اليهود للمال. إنه كان هناك أيضا عناصر جديدة، بينها الاتهام بأن اليهود عامل اضطراب، يوجدون أو يدخلون اتجاهات خطرة كالشيوعية والتحرر الجنسى. إن العنصر الأساسى على العموم كان هو نمو الاستيطان اليهودى في ص٢٠٣
فلسطين، والخوف العربى والإسلامى المتزايد من أن تفقد فلسطين هويتها العربية والاسلامية. وحيث أخذت الجالية اليهودية في النمو بالهجرة، والقادمون الجدد أغرقوا سكان المستوطنات اليهودية القائمة، فإن التفرقة بين القديم والجديد، وبين الأجنبى والمحلى، وبين اليهودى والصهيوني، نسيها معظم العرب وعمم الهجوم على اليهود جميعا.

إن قيام وانتصار النازية في أوروبا أدخل شعورا أو رد فعل مختلفا في الصحافة العربية والأدب العربى. إنه كانت هناك علامات قليلة على الإحساس بأن ذلك التحول في أوروبا كان سيضاعف من مشاكلهم لأنه سيدفع باليهود من أوروبا إلى فلسطين، وكان هناك أحيانا تعبيرات عن عدم الموافقة أو عدم الرضا عن التجاوزات النازية وخصوصا بعد غزو تشيكوسلوفاكيا. ولكن أهم من ذلك كان الإحساس بالتعاطف مع تلك القوة الجديدة في العالم والتى كانت في الوقت نفسه معارضة لأعداء العرب الثلاثة الكبار البريطانيين والفرنسيين واليهود. إنه كان من الطبيعى الترحيب بمثل تلك القوة وأن تعطى وجهة نظرها أذنا صاغية. إن الاحاسيس عن تقارير اضطهاد اليهود في أوروبا كانت في معظمها غير متعاطفة وتمركزت الإجابة عنها على خطين اثنين أصبحا نغمتين رئيستين في التعليقات العربية على هذه المسائل.

إن الخط الأول كان هو أن اليهود يبالغون كثيرا في معاناتهم وكانوا يستغلون وبلا خجل تلك المعاناة من أجل أهدافهم السياسية.

أما الخط الثاني فهو أن اليهود يستحقون ما جرى لهم لأن ذلك نتيجة لأعمالهم السيئة. وأعمالهم السيئة هذه كانت أحيانا تحدد أو توصف بأنهم حاولوا أن يجلبوا على ألمانيا الخراب والدمار الذى جلبه اليهود من قبل على روسيا . ومع تنامى النفوذ السوفيتى في العالم العربى والتغير الذى حدث تجاه الثورة الروسية والشيوعية فإن ذلك التفصيل الأخير أسقط واستبدل بتفسيرات أخرى. فإن الشعور العام تجاه اضطهاد اليهود في أوروبا يمكن تلخيصه في جملة واحدة "هذا ليس شأننا إنه خطؤهم ويجب ألا يصحح هذا الخطأ على حسابنا".

إن الارتباطات مع ألمانيا بدأت في وقت مبكر، وببداية سنوات الحرب كانت قوية فعلا . إن تلك الصلات ذهبت إلى أبعد من التكتيكات السياسية واحتوت على قدر معتبر من الوحدة الفكرية. إن وقع و تأثير النظريات الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية النازية على المنظرين العرب القوميين في ذلك الوقت يمكن بسهولة تبينه.

ومما هو جدير بالملاحظة أن المزيج النازى من العداء المسيحى القديم والعداء العنصرى الجديد للسامية كان تأثيره أقل من النظريات السابق ذكرها السياسية ص٢٠٤
والاجتماعية والاقتصادية. إنه كان هناك البعض كالمفتى (مفتى فلسطين الحاج أمين الحسينى) وعدد من أتباعه الذين قبلوا الخط النازى بأكمله. ولكن الأغلبية حتى بين هؤلاء الذين اعتنقوا التحالف مع النازى ضد الإمبريالية البريطانية والفرنسية وضد التوطن الصهيونى توقفت عن الذهاب إلى حد العداء النازى للسامية واستمرت في التعبير عن عدائها لليهود في شكل سياسى أو في أسوإ الاحوال في عبارات تقليدية إسلامية. وبينما بعض هؤلاء يمكن في بعض الأحيان أن يكونوا في غاية العنف فإنهم كانوا على اختلاف نوعى مع النظرة النازية إلى اليهود.

إنه في خلال الصراع من أجل فلسطين فإن الأنمطة القديمة والعداوات الجديدة كان لابد من أن يؤثر الواحد منها في الآخر، والنغمة ضد الصهيونية وضد اليهودية والتعبيرات السياسية المعادية أصبحت أكثر مرارة وأكثر عنفا وأكثر تعميما. فاليهودى وليس فقط الصهيونى صور على أنه حقير خائن جبان شرير ماكر وبالطبع

معاد عداء لا رجعة فيه للمسلمين . إن تلك الأنماط من العداء لليهودية كانت موجودة منذ الأيام الإسلامية الأولى، ولكنها كانت خطا ثانويا في الأدب الإسلامي أو الكتابات الإسلامية.

وحتى وقت متأخر كالخمسينيات فإن سيد قطب قائد الإخوان المسلمين كتب مقالة عنوانها "صراعنا ضد اليهود" ولكنه أعطاهم فيها أو نسب إليهم فيها مكانا صغيرا بين الأعداء الذين يهددون الإسلام تهديدا حقيقيا - الرأسمالية، والشيوعية، والعلمانية، وأهم من ذلك كله الوثنية الجديدة للدكتاتوريين المسلمين المارقين.

إن ما جد في الهجوم لم يكن هو في استعمال النغمات القديمة كما كان هو في تغير طبيعة وحدود ذلك الاستعمال. فاليهودى ، دينه ، وتاريخه أصبحا يساء إليهما ويلعنان بطرق كثيرة وبعنف متزايد ، ولكن هذه النغمات والتصويرات وحتى اللغة كانت مازالت مستمدة من المصادر الإسلامية التقليدية، إن النغمة الجديدة التى استعيرت من أوروبا كانت هى الخاصة بالمال وحب اليهود له. وباستثناءات قليلة فإن الكتاب المسلمين لم يقدموا اليهودى على أنه تجسيم أو بعث للشر، ابن الشيطان وعونه، مسمم للآبار، مرتكب للقتل المراسمى الدينى، شارب للدماء، متآمر خبيث يقصد إلى استعباد البشرية وإلى حكم العالم.

وحتى فإن تلك الأحداث المهمة كالتحالف مع الألمان، وقيام دولة إسرائيل، ومعاناة اللاجئين الفلسطينيين لم تحدث إلا زيادة طفيفة في استخدام عبارات العداء للسامية وليس المعادية لليهودية. إن التغير الحقيقى بدأ بعد حرب سنة ١٩٥٦ ووصل إلى مداه بعد حرب سنة ١٩٦٧ . إن تلك الهزائم الصاعقة التى لا يمكن تحملها ولا يمكن تفسيرها وما تبع ذلك من قيام الحكم اليهودى والسيطرة اليهودية على رعايا عرب قاد في النهاية إلى تبنى عداء جامح للسامية، ذلك العداء الذى أصبح منذ ذلك الوقت المؤثر الرئيسى في مناقشة إسرائيل والصهيونية واليهودية واليهود.

إن أول دلالة مهمة على أن العدو أصبح ينظر إليه ليس فقط على أنه إسرائيل والصهيونية بل كاليهود كان هو في تبنى الحكومات العربية لإجراءات قانونية ضد كل من الرعايا الأصليين ومن الأجانب المقيمين من أصحاب الديانة اليهودية. فبعد ص٢٠٥
الأحداث في بغداد سنة ١٩٤١ وطوال السنوات الباقية من سنوات الحرب، فإن وجود

قوات كبيرة من قوات الحلفاء أبقت المسائل إلى حد ما تحت السيطرة. ولكن العداء لليهود كان ينمو. ومع الاسترخاء في ضغط الحلفاء الذى أعقب نهاية الحرب، فإن المشاعر المعادية لليهودية ظهرت علانية للتعبير عن نفسها. إن أول موجة بعد الحرب من الانفجارات المعادية لليهودية أتت في نوفمبر سنة ١٩٤٥ ، وذلك بحدوث اضطرابات وهجمات على دور العبادة، ومحلات اليهود في مصر وسوريا، ومذبحة تمت في ليبيا، حيث حصر ١٣٠ يهوديا رسميا في عداد الأموات، وحيث دمر كثير من البيوت والمحلات وأماكن العمل بحيث إن جزءا كبيرا من الجالية ترك مشردا بلا بيت.

وموجة ثالثة تبعت ذلك في ديسمبر سنة ١٩٤٧، حيث وقعت مذابح لليهود في حلب وعدن. وفى تلك الأخيرة فإن التقديرات الرسمية كانت ٨٢ قتلى وعدد مماثلا من الجرحى و١٠٦ سفينة نهبت و٢٢٠ بيتا دمر أو هدم.

كل ذلك سبق إقامة دولة إسرائيل ولو أنه كان جزئيا محركا بنمو الوطن القومى اليهودى في فلسطين. إن اليهود في الأقطار العربية باستثناء اليمن، كانوا إلى ذلك الوقت متأثرين أقل التأثر بالصهيونية بل وعلى العكس فإن بعضا منهم اعتبر تلك الحركة الأوروبية في مصدرها مبعثا للشك. إن بعض التصريحات من القادة اليهود في الدول العربية الذين هاجموا الصهيونية وأيدوا القومية العربية لا شك يمكن نسبتها إلى ضغوط قوية قد يكونون قد تعرضوا لها – وعلى سبيل المثال فإنه من غير المحتمل أن القادة اليهود الدمشقيين كانوا فعلا يتصرفون، كما قالوا، بإرادتهم الحرة حينما أعلنوا أنهم ينوون إقامة حفل على شرف فوز القاوكجى، وهو ضابط سورى سابق خدم مع قوات المفتى في فلسطين، ومع رشيد على الكيلانى في العراق وبعد ذلك في الجيش الألمانى. ومع ذلك فليس هناك من سبب في الشك في إخلاصهم في التعبير عن ولائهم للدول التى كانوا هم رعاياها، وعن تخوفهم من تلك الجالية الجديدة الغربية في اتجاهاتها والتى كانت تنمو في فلسطين. إن هذه الولاءات وهذه ص٢٠٦
المخاوف كلاهما تم التخلص منهما بفعل سير الحوادث في الأقطار من سنة ١٩٤٥ : ١٩٥٠.

إنه بالنسبة إلى عالم أصبح معتادا على المذابح الجماعية في المعارك وفى القتل بأعصاب باردة في غير ما قتال، كما كان يحدث في أوروبا الهتلرية، فقدان الحياة

الذى أصيب به اليهود في دول أو مدن عربية كثيرة قد يبدو شيئا صغيرا . ولكن ذلك لم يكن بالشيء الصغير بالنسبة للضحايا وخصوصا إذا كان مثل هذا الهجوم يمثل تجربة جديدة بالنسبة لهم . إن اليهود في العالم العربى عرفوا الاضطهاد في الماضى، ولكن ذلك الاضطهاد كان بالمقارنة شيئا خفيفا، كما أن الماضى كان ذكرى بعيدة.

إن ذكرياتهم الحديثة كانت هى ذكريات الهدوء والازدهار، ووجود مكان مقبول ومحترم لهم في الوطن أو في الأمة، والآمال المشتركة لتحقيق أهداف ليبرالية وطنية مثالية .

إن انفجارات الاضطهاد ضد اليهود في مدينة عربية تلو الأخرى، والكراهية التى أنتجتها جاءت كصدمة لجاليات يهودية كانت إلى الآن مرتاحة ومسالمة ومطمئنة. إن حوادث العنف المتفرقة كان ممكنا احتواؤها أو حتى قبولها. أما الشيء الذى جعل في النهاية موقف اليهود العرب شيئا غير مقبول، فهو المضايقات المتزايدة المتنامية والتفرقة الموجهة ضدهم من حكومات بلادهم، والتى صاحبتها حملات دعائية مفحشة ضد اليهود وليس ضد الصهيونية في الصحافة والراديو، في الكتابات وفى الأدب وفى الفن، في الخطابات والتصريحات السياسية وحتى في الكتب الدراسية المستخدمة في المدارس .

إنه في صيف سنة ١٩٤٨ مع قيام دولة إسرائيل والمحاولات غير الناجحة للجيوش العربية للقضاء على تلك الدولة الجديدة عند ميلادها، موقف اليهود الذى كان قد صار سيئا في الدول العربية تسارع في التدهور. في مصر والعراق وسوريا فإنهم تعرضوا للاعتقال التحكمى، وللاستجواب والضرب، ومصادرات لأملاكهم على نطاق واسع ولإجبارعلى التبرعات الاضطرارية للأهداف العربية، وإلى الطرد من وظائفهم وتحديد حركاتهم، وإلى سلسلة جامعة من التحديدات أو التحريمات المالية والتجارية.

إن معنى الكراهية أصبح جليا تماما بالاضطرابات العنيفة التى انفجرت في مدن عديدة ممتدة امتدادا بعيدا حتى مراكش.

وكالألمان في السنوات الأولى للحكم النازى، فإن بعض الحكومات العربية بدت وكأنها مهتمة فقط بالتخلص من اليهود من رعاياها . إن الهجرة كانت هى الحل

الواضـح، وأيضـا كالـنازى فـإنهم مـا كـانو يهـتمون إلى أيـن سـيذهب هـؤلاء الـرعايا اليهود. كثير مـن العناصـر الغنـية والأحسـن استعدادا فضلت أن تذهـب إلى أوروبا الغربـية والأمريكتين. ولكن معظـم الفقراء وجدوا بيتا جديدا في اسرائيل. وعلى الأقل فـإن حكوميتن عربيتين وهمـا العـراق واليمن تعاونتا مباشرة في نقل رعاياهما اليهود إلى إسرائيل. والآخرون كانوا مستعدين لإغماض الطرف.

إن تصـرفات الحكومات العربية ضد رعاياهـا اليهود كانت قائمة على اعتبارات عملية أكثر منها على اعتبارات نظرية وإداريـا أكثر ممـا هـو فكريا أو قائمـا على ص٢٠٧ أيديولوجية. وبالمقارنـة فـإن قـدرا ضـئيلا مـن الأدب المعادى صـراحة للسامية ظهر في ذلك الوقـت. إن الفيضـان لم يبدأ حتى سنوات كثيرة بعد ذلك، ولكن مـع تنامى النزاع العربى الإسرائيلي في النطاق، والحدة، والمرارة، فإن اليهود في معظم الدول العربية تعرضـوا لضـغط رسمـى وشـعبى قـاس إلى حـد أن معظمهـم أحـس بأنـه مضـطر إلى الرحيل. أن اليوم لم يبق سـوى بقايـا ضـئيلة مـن اليـهود في الـدول العربـية. إن تلك الأفعال ضـد اليهود كانت ولاشك يشـجعها وصـول عدد من مجرمـى الحـرب النازيين الهاربين إلى الشـرق الأوسـط الذين وضـع بعضـهم خـبرته في المسـائل اليهودية تحت تصـرف مضـيفيهم. واحـد مـن هـؤلاء جوهـان فـون لـيرز وهـو متخصـص في الأدب المعـادى للسـامية رحب به علانية في القاهـرة بواسـطة شـخص ليس أقل مـن المفتى الحـاج أمـين الحسـينى الذى في خطـاب ترحيب قـال : « إننـا نشـكرك لمخاطرتك لكى تواصـل المعركة ضـد قـوى الظـلام التى بعثت من جديد متمثلة في اليهودية العالمية ». وتحت اسـم جديد وهـو عمر أمـين فـإن فـون لـيرز أصـبح مستشـارا سياسيا لمصلحة الاستعلامات وبقى في القاهرة حتى سنة ١٩٦٥ (*) .

ومـن هـذه الجاليات التى كانت في وقت ما كبيرة في البلاد العربية، فإن هؤلاء فقط في مـراكش وتونـس بقيـت مـنهم أعـداد محترمـة، سـلامتهم تعـتمد عـلى بقـاء الـنظام السياسى الحاضر في كلا البلدين.

وفـى سـوريا مـا زال يعـيش بضـعة آلاف خاضـعين لمعوقـات قاسـية. وفـى مصـر

(*) المترجم: هذا صحيح وقد شاهدته بنفسى أيام كنت أعمل في المصلحة. واذكر إذ ذاك إننى اشتبكت معه في مناقشة حامية حول آرائه اللاإنسانية

والعراق واليمن وليبيا والجزائر فإن تاريخا طويلا من الحياة اليهودية المشتركة يرجع إلى العهود القديمة جاء إلى نهايته، ولم يبق الا قلة قليلة من المسنين .

إن هذه الدول العربية التى لم يعد فيها رعايا يهود تحرص على ألا تكتسب رعايا جددا منهم أو حتى من السماح لهم بالدخول كزائرين. أن قانون الجنسية الأردنية المنشور في ٤ فبراير سنة ١٩٥٤ يمنح الجنسية إلى المقيمين في الضفة الغربية والتى ضمت إلى الأردن ، ولكنه يستثنى اليهود صراحة. وكل الدول العربية المستقلة في الشرق الأوسط أدرجت سؤالا عن الديانة في طلبات التصريح بالزيارة، وترفض بانتظام أي تصريح لأى مسافر مهما كانت جنسيته يعلن أن ديانته هى اليهودية. والبعض من الدول المتشددة في إسلاميتها تتطلب شهادة تعميد من الأوروبيين الغربيين والمسافرين الأمريكيين كدليل على أنهم ليسوا يهودا .

وبعد رحيل كل اليهود من الدول العربية الشرق أوسطية فإن الصراع أخذ شكلا جديدا ألا وهو الحرب السياسية ضد عدوهم وهى الدولة اليهودية ومن ورائه اليهودية العالمية.

وبفشل الإجراءات الحربية والاقتصادية التى اتخذت ضد إسرائيل، فإن الحكومات العربية خصت باهتمام متزايد الأسلحة الأيديولوجية أو الفكرية. ومن أجل هذا الغرض فإن سلاح العداء للسامية من الطراز الأوروبى كان نافعا في طرق كثيرة. ص٢٠٨
فهو من جانب مد تلك الحكومات بنظم سابقة التجهيز من النغمات أو الخطوط الفكرية، والموضوعات، وحتى الصور المرئية لقيادة حرب ضد اليهود. ومن ناحية أخرى فإنه أتى بحلفاء نافعين بينهم الباقون على الحياة من أعداء السامية الأقدمين ودعاة العداء للسامية الجدد.

أما الأقدمون السابقون فيشملون النازيين الجدد في ألمانيا، والفاشيين الجدد في إيطاليا، ومقلديهم في بريطانيا، وفرنسا، والولايات المتحدة، ودائرة متسعة من الجماعات المتطرفة في أقصى اليمين والمتعصبة عرقيا في أمريكا اللاتينية. أما النوع الجديد من العداء للسامية فجعلهم في اتصال وعلى وفاق مع العداء للسامية المتنامى في الدوائر اليسارية.

إن علامة مبكرة على تبنى العداء للسامية كان هو الإنتاج الضخم والتوزيع

الواسع للمطبوعات المعادية للسامية . يوجد كتاب عرب يرفضون مثل ذلك الاتجاه. إن ذلك النشر والقبول للدعاية ضد السامية في قولهم سيضر بالعرب لأنه سيضعف تصميمهم أو سيسلب قضيتهم صحتها وأحقيتها. في كتاب نشر في سنة ١٩٧٢ فإن فيلسوفا ماركسيا سوريا وهو صادق جلال العظم، صب جام غضبه على التفسيرات الشخصية والتآمرية للأحداث، وحذر قراءه من أن الاعتقاد في مثل تلك الخيالات، سيشل عزيمتهم ويمنعهم من أن يفهموا ويوجهوا مشاكلهم الحقيقية. وفى كتاب عن التلمود نشر بواسطة مركز الأبحاث لحركة التحرير الفلسطينية في سنة ١٩٧٠، أسعد رازوق اشتكى من الاعتماد السائد بين الكتاب العرب على مصادر مشبوهة ككتاب الحبر رولينج "اليهودى التلمودى" حيث إن مثل هذا الكتاب اليوم، مرفوض ومحتقر من الشعوب المتحضرة. ثم مضى يسأل: إلى متى نريد أن نكون نحن أسوأ أعدائنا، حيث إننا نستمر في الانتقاص من عدالة قضيتنا، ونبدو وكأننا مصرون على حرمان القضية من صفات إنسانية.

ولكن تلك الدعوات وجدت استجابة قليلة. أن رزوق عدد ٢٦ كتابا مستمد مباشرة أو غير مباشرة من كتاب رولينج، ومنذ ذلك الوقت فإن العدد قد زاد. إنه هناك علىالأقل تسع ترجمات عربية مختلفة لبروتوكولات حكماء صهيون، وطبعات عديدة أكثر من أي لغة أخرى حتى الألمانية.

واحد منهما نشر في سنة ١٩٦١، كتب مقدمته الكاتب المشهور والمؤلف المحترم عباس محمود العقاد، وواحد آخر نشر حوالى سنة ١٩٦٨، ترجمه شوقى عبد الناصر شقيق الرئيس المصرى. إن الكتاب مجد علانية بواسطة الرئيسين ناصر والسادات في مصر، والرئيس عارف في العراق، والملك فيصل في المملكة العربية السعودية، والعقيد القذافى في ليبيا، وملوك ورؤساء حكومات آخرون وقادة سياسيين وفكريين.

إن البروتوكولات عرضت في مقال منشور في المجلة الرسمية الثقافية في سنة ١٩٦٠، وذلك المقال كتبه عضو مرموق في الحكومة (صلاح الدسوقى في "المجلة" ص٢٠٩ القاهرة نوفمبر سنة ١٩٦٠ والأستاذ الدسوقى كان محافظا للقاهرة ثم سفيرا في فنلندا) ونفس هذا الشخص كان هو المؤلف لكتيب سنة ١٩٥٧ يشرح فيه أن الولايات المتحدة مستعمرة إسرائيلية وليست كما يظن اليساريون العرب الأبرياء إن الحال هوالعكس.

إن نظرية المؤلف تؤيد بكمية هائلة من الاحصائيات المفبركة، مستمدة في أغلبها من المنشورات أو المطبوعات الأمريكية النازية.

وحتى سنين قليلة مضت، فإن القارئ الذى لا مجال له الا اللغة العربية، كان لايمكن أن يعرف أن الشك في صحة تلك البروتوكولات قد حدث إطلاقا. وإن الصوت الوحيد المعارض جاء من النقاد الماركسيين، الذين يرفضون التفسيرات الشخصية للتاريخ كتلك التى تعتمد على تلك البروتوكولات ولكن بغير أن يشيروا إلى أن هذه البروتوكولات موضوع مفبرك. وحديثا، فإن بعض الكتاب العرب أظهروا على الأقل بعض الإحاطة بذلك الشك. ولكنهم مازالوا يبدون ترددا غريبا في هجر تلك البروتوكولات هجرا تاما. إن كاتبا منهم ينفى اعتماد العرب على هذا الكتاب البروتوكولات ردد إذاعة عراقية تصف تلك البروتوكولات بأنها ذات "صحة مشكوك فيها". والكاتب هو الأستاذ عبد الوهاب المسيرى في مقالته " أراء عربية في البروتوكولات" منشور في مجلة الشئون الخارجية في إبريل سنة ١٩٩٧. ونفس الكاتب في مقالة في الأهرام في ٢٢ فبراير سنة ١٩٧٤ لاحظ وبحكمة "أن الرأى السائد في الوقت الحاضر هو أن البروتوكولات هى وثيقة مزورة". إن ذلك الاحتياط في التعبير لاشك يعكس بعض التقدم، ولكنه يترك عددا من الأسئلة بلا إجابة، كمن هو المسئول عن ذلك التزوير؟ وماذا تمثل تلك الكتابات المزورة؟ وفى هذا الخصوص فإن المقالة تبدو مبهمة إلى حد كبير، فليس هناك أي اشارة إلى أن المزورين كانوا من أعداء اليهود، وأن البروتوكولات استعملها النازيون وغيرهم لتبرير تصرفاتهم العنصرية ضد اليهود. وعلى العكس فإن القارئ غير الحذر يمكن أن يترك ولديه انطباع بأن البروتوكولات إن لم تكن فعلا مفبركة بواسطة اليهود فإنها مع ذلك تعكس بدقة الصورة التى يحتفظ بها الصهيونيون لأنفسهم والتى يريدون أن يصوروها أو يعرضوها للآخرين. وهنا فإن الكاتب يستخدم نظرية طالما استخدمت في الكتابات العربية من هذا النوع، ألا وهي أن الصهيونية والعداء للسامية هما شيء واحد، وأن الصهيونيين وأعداء السامية هم حلفاء طبيعيون ومتعاونون، وإذا كان واحد منهم أو الآخر مسئولا عن البروتوكولات فإن ذلك لايعنى شيئا. إن بعض الكتاب العرب غير سعداء بمسألة البروتوكولات، ليس لأنها مزورة ولكن لأنها تعكس صورة لليهودى كصاحب قوى عظمى خفية وذلك يمثل خطرا على الروح المعنوية العربية.

ومع ذلك فإن ذلك الشبح لتلك القوى العظيمة الخفية هي التى تجعل البروتوكولات جذابة لكثير من الكتاب العرب، وتؤكد تحقق انتشارها الواسع. ويحلول مارس سنة ص ٢١٠ ١٩٧٠ فإن جريدة لبنانية وضعت البروتوكولات كالأولى في لائحة أحسن الكتب غير القصصية بيعا.

ويجانب العدد الكبير والمتنامى من الترجمات العربية والطبعات، فإنه يوجد أدب أصلى متسارع النمو في العداء للسامية بالعربية، معظمه يعتمد أو مؤسس بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على البروتوكولات، والتى تذكر بتوسع على أنها وثيقة حقيقية لا غنى عنها. إن البروتوكولات أيضا تحتل مقاما ممتازا في الدعاية التى توزعها عالميا بعض الحكومات العربية وحكومة إيران.

وفى أيام الرئيس ناصر فإن المصدر الرئيسى لمثل تلك الدعاية كانت مصر. وفى وقت مبكر منذ يناير سنة ١٩٦٥ فإن هناك كتيبا باللغة الإنجليزية معنونا "إسرائيل عدو افريقيا" نشر بواسطة مصلحة الاستعلامات الحكومية في القاهرة، ووزع على عدد كبير من الدول المتكلمة بالإنجليزية في إفريقيا. إن مؤلفى ذلك الكتيب يقتبسون مباشرة من البروتوكولات وكذلك من كتابات هنرى فورد "اليهودى العالمى"، وتأسيسا على هذين المصدرين الرئيسيين فإنهم يلعنون الديانة اليهودية، ويصفون اليهود بأنهم كلهم غشاشون ولصوص وقتلة. وفى الوقت المعاصر فإن مهمة نشر البروتوكولات قد أخذتها وكالات تعمل في العربية السعودية، وفى ليبيا، وأخيرا كذلك في إيران الثورية. إن المرحوم الملك فيصل جعل من عادته أن يقدم نسخا من البروتوكولات وغيرها من المنشورات المعادية للسامية لزواره من الوزراء، والدبلوماسيين، والصحفيين وشخصيات مهمة أخرى. إن نسخا أيضا كانت توزع عبر البعثات القنصلية والثقافية . إن تلك الرسالة حملت إلى بلاد كالباكستان، وماليزيا، وإندونيسيا، ومن هناك حصلت على توزيع أبعد.

وفى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٧٨ جريدة كامبيرا تايمز الأسترالية نشرت تقريرا عن محاضرة بالعاصمة الأسترالية ألقاها أستاذ باكستاني يدعى كازى (قاضى) والذى نقل عنه : « إن في الوقت الحاضر اليهود لايمثلون فقط تهديدا للعرب ولكن للعالم أجمع. إن ذلك لم يكن رأيه الخاص ولكنه مكتوب في الوثائق السرية اليهودية».

إن ذلك التقرير صدر تحت عنوانين من الغريب الجمع بينهما: الأول هو "اليهود يهددون العالم كله"، والثانى " أستاذ يرجو أن يسود تفاهم أحسن بين الديانات". وفى عدد تال فإن نفس الأستاذ أكد أن المقال نقل عنه بدقة، وأن الوثائق السرية التى أشار إليها كانت بروتوكولات حكماء صهيون. وبينما بعض المثقفين في الدول العربية الأكثر انفتاحا قد بدءوا يعبرون عن شكهم في تلك البروتوكولات، فإنه مازال هناك كثيرون مستعدون لحمل الرسالة. إن مطبوعة تسمى "امام" تنشر من السفارة الإيرانية في لندن، تنقل بتوسع من البروتوكولات في أعدادها الصادرة في سنة ١٩٨٤ و ١٩٨٥، ومصاحبة برسوم كاريكاتيرية مطابقة للأشكال السائدة في أوروبا الشرقية والشرق الأوسط من الصور المعادية للسامية. وفى سنة ١٩٨٥طبعة جديدة من البروتوكولات طبعت فى ايران، ووزعت على نطاق واسع بواسطة "منظمة الدعاية الإسلامية قسم العلاقات الدولية" في طهران. وأكثر حداثة وأقرب من ذلك، فإنه علم أن البروتوكولات معروضة للبيع في ارفف الكتب في الجامع الكبير في لندن. وكتيبات هنرى فورد المعادية للسامية والتى نبذها بعد ذلك مؤلفها نفسه، تم ترجمتها إلى العربية، وفى مايو ويونيه ١٩٨٤ النص الأصلى مع مقدمة مستمدة من كتابات عدو اليهود المعروف جيرالد ل. ك. سميث، نشر في مسلسلات متتابعة في الجريدة الواسعة التوزيع المنشورة باللغة الإنجليزية والمسماة "سعودى جازيت" والتى تنشر في جدة. ص٢١١

إن انغماس بعض الحكومات العربية في العداء للسامية، لم يكن محدودا باستعمال البروتوكولات، والاتهامات بشرب الدم، وغيرها من الأسلحة المعهودة من ترسانة العداء للسامية. إنه كان هناك أيضا انغماس وذلك من خلال ارتباطات مع الجناح اليمينى النازى الجديد وغيره من المؤسسات المعادية للسامية وبخاصة في أوروبا وأمريكا اللاتينية. وأكثر تلك الحادثات شهرة حدثت في لندن سنة ١٩٦٢، حيث الملحق العسكرى المصرى الكولونيل (ثم بعد ذلك اللواء) محمد الشاذلى قام باتصالات سرية مع "الحركة البريطانية القومية الاشتراكية" ، وهى مجموعة من أقصى اليمين المتطرف مخلصة في ولائها للنازية والفاشية والعداء للسامية. إن هذه الاتصالات أصبحت معروفة حينما قام البوليس البريطانى بحملة على بيت واحد من هؤلاء القادة النازيين البريطانيين، واكتشف مراسلات مع الملحق العسكرى المصرى.

إن تلك المراسلات التى تتضمن تعاونا مقترحا في سبيل النضال المشترك ضد "قوى الصهيونية المنظمة واليهودية العالمية" ناقشت إمداد تلك الجماعة بأرصدة مصرية تنفق على النشاطات الدعائية ضد السامية. إن الكولونيل نفى كل علم بتلك المراسلات، وتم بعد ذلك بوقت قليل استدعاءه للقاهرة. إن القادة الفاشيين مع ذلك عند محاكمتهم في تلك القضية وفى مقابلاتهم الصحفية اعطوا معلومات ادق كثيرا.

وبحلول الحقبة المتأخرة من الستينيات فإن الجو تغير، والاتصالات بالمنظمات الفاشستية أصبح غير ملائم تماما كالاتهامات بالبولشفية والتى كانت شيئا عاما في السنوات التى سبقت ذلك مباشرة. فبالنسبة للبعض كالسعوديين فإن ذلك التناول للموضوع كان مازال ممكنا، ولكن في الأغلبية الكبرى للدول العربية والتى ادعت بدرجات مختلفة أنها ثورية، اشتراكية، وراديكالية، فإن مثل تلك الصلات، ومثل هذه الاتهامات لم يكن من الممكن بعد قبولها. إن الهجوم على إسرائيل اصبح يعبر عنه ص٢١٢ بعبارات من الجناح اليسارى بدلا من عبارات الجناح اليمينى، وموجهة إلى جمهور من المستمعين تعود على إطار مختلف بعض الشيء في الايحاءات. ذلك التحول في تلك الحالة لم يمثل صعوبة كبيرة.

إن الموضات الثقافية والتحالفات الدولية تغيرت، وكذلك تغير العدو الذى يفضل الهجوم عليه. في محل اليهودي الشيوعى العالمى الذى سكن شبحه أخيلة الروس البيض والنازيين ومازال يزعج البلاط السعودى، فإن شخصية جديدة ظهرت -ألا وهي العنصرى. إن الهجوم على الصهيونية أعيد وصفه، والتهمة العنصرية استخدمت وأنتجت نتائج مؤثرة. إنها كانت ناجحة على الخصوص في الأوساط الليبرالية واليسارية في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية، التى طالما أيدت وعطفت على قضية كل من إسرائيل والصهيونية، والتى أصبحت الآن وإلى حد كبير مكتسبة إلى الجانب الفلسطينى. إن تبنى ذلك الخط في الهجوم لم ينقص إلا قليلا استخدام الكتاب العرب للكتابات والوثائق العنصرية كالبروتوكولات، والحجج العنصرية الموجهة ضد اليهود.

إن الأفراد اليهود أو الصهيونيين يمكن بالطبع أن يكونوا عنصريين، كما هو الحال بالنسبة لأفراد مجموعات أخرى أو أتباع أي أفكار قومية أخرى. وإنه من الصعب إن لم يكن مستحيلا الإشارة إلى أي جماعة أو جالية دينية أو جماعة إثنية

أي عنصرية خالية من هذا المرض الاجتماعى والأخلاقى. ولكن اليهودية كالمسيحية والاسلام لا تشجع العنصرية، والصهيونية ليست عنصرية أكثر من أي حركة قومية بل هى إلى الآن أقل عنصرية من كثير منهم. وكما هوالحال مع العرب في عصور سابقة، فإن الاحتكاكات والتعصبات حين بدأت لم تتجاوز الحد الطبيعى بين أقوام مختلفين واقعين في حالة حرب. ولكنه مع ذلك هناك علامات خطيرة على تدهور الوضع. فإن أمثلة نمطية سلبية لصورة العربى يمكن ملاحظتها في كتب الأطفال الإسرائيليين. وفى الحقبة المبكرة من الثمانينيات فإن رئيس الحكومة الإسرائيلي ورئيس أركان الحرب تكلما عن العرب بلغة فيها شتيمة عنصرية. من النوع الذى كان لا يمكن تصوره في سنوات قليلة سابقة، وانطباعات عدائية ليس فقط عن الأعداء العرب لإسرائيل، بل على العرب عموما بدأت تظهر في الكتابات أو المطبوعات المتطرفة الدينية والقومية، وإن لم تظهر في الصحافة والمطبوعات الرئيسية المحترمة.

إن مائة عام مرت منذ بداية المستوطنات الصهيونية في فلسطين، ومرت تقريبا أربعون عاما بعد تأسيس دولة إسرائيل، وذلك قبل تأسيس حزب معاد للعرب صراحة في إسرائيل ينادى بسياسه العداء العنصرى ضد العرب. إن ذلك كله مازال محصورا فىالجماعات المتطرفة الصغيرة، أو التى تمثل جزءا ضئيلا في المجتمع السياسى الإسرائيلى، إلا أنه لو استمرت هذه الحالة لوقت آخر فإنه يمكن لتلك الحركة أن تنمو بشكل مهم. إن العنصرية مرض معد.

إن قضية العرب ضد اليهود كانت في البداية مهتمة بأيديولوجية وأفكار الصهيونية، وبأفعال دولة إسرائيل ضد الفلسطينيين العرب وضد الدول العربية ص٢١٣
المجاورة. إن ذلك كان في الواقع السائد هو أساس الإدانة، ولكن قبل مرور وقت فإن تلك القضية أخذت حجما أكبر شمل الشعب اليهودى في العالم كله وتاريخه بالكامل.

إن اتهاما معروفا ومتبعا هو أن اليهود كانوا ولا يزالون عنصريين . إن بعض المتهمين لا يرون أي تناقض في وصف تلك الخصلة على أنها صفة عرقية. ولكن آخرون من أصحاب المنطق الأحسن مع أنهم أيضا ينقصهم الدليل، ينسبون تلك الصفة الى الشخصية الشريرة المتأصلة في الديانة اليهودية. إن ذلك الاتهام الأخير يؤيد بالاقتباسات المعهودة من المراجع المعادية للسامية التى تتعامل مع التلمود والعهد القديم، مع إضافة التواءات فكرية جديدة . فمثلا قصة خروج اليهود، يعاد

صياغتها بتصوير الفرعون على أنه بطل والاسرائيليين على أنهم سفلة، مما هو ولاشك مجهود صعب في التغيير لأنه ينافى تماما القصة المذكورة في القرآن. إن اهتماما خاصا أعطى لدور اليهود في التاريخ الإسلامى، من القبائل التى عارضت محمدا [ﷺ] إلى اصحاب رأس المال اليهود في عهد الملك فاروق، والذين هم طبقا لهذا الفهم للتاريخ، في مصر، كما في كل مكان آخر استغلوا التسامح، أو أساءوا استعمال التسامح والترحيب اللذين أعطيا لهم، من أجل الحصول على السيادة الاقتصادية وبالتبعية السيطرة السياسية. إن دورا شريرا مماثلا كذلك ينسب إلى اليهود في أوروبا والأمريكيتين، حيث إنهم بنشاطاتهم يقال إنهم جلبوا على أنفسهم الكراهية التى يستحقونها من هؤلاء الناس الذين هم حاولوا استغلالهم والسيطرة عليهم.

إن كثيرا من هذه الكتابات تستخدم الأداة المعادية للسامية التى طالما استعملت من نسبة الأصل اليهودى لأى فكرة، أو حركة، أو مؤسسة، أو الشخص الذى يختارونه.

وعلى سبيل المثال فإنه بعد مقتل الرئيس كنيدى، فإن الصحافة العربية وغيرها من وسائل النشر جعلت شيئا مهما ذا دلالة من حقيقة أن جاك روبى الذى قتل لى أزوالد الذى قتل كنيدى، كان يهوديا. بل إن بعضهم ذهب إلى أبعد من هذا، مدعيا أن القتل كان برمته مؤامرة صهيونية أو ببساطة يهودية. إن الصحفي المصري المشهور أنيس منصور في مقالة في المجلة المصورة الأسبوعية "المصور" في ٦ ديسمبر سنة ١٩٦٣، ناقش الاستعدادات لمجلس الفاتيكان الثانى، " ولام الكاثوليكيين لأنهم مشغولون بصنع السلام مع اليهود، مع أن اليهود قاموا بقتل أهم شخصية كاثوليكية ص٢١٤
فىالعالم. وهكذا فإن الخديعة الكبرى تتم، وتبرئة اليهود من قتل المسيح وكنيدى يتمان في وقت واحد". إن يهودية روبى قدمت مع تأكيد خاص في خطاب إلى المحرر صادر من نايف شبلاق وأظهرت بشكل واضح في الجريدة اليومية البيروتية (الحياة) في ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٦٣. إن غرض الكاتب كان هو الكشف "عن نقطة مهمة حاولت وكالات الأنباء العالمية - تحت تأثير النفوذ الصهيونى - التغطية عليها، ألا وهى أن قاتل لى أوزوالد يهودي، وكلا من أبيه وأمه يهودى بالعقيدة ويهودى بالديانة، وهو مولود يهودى وعاش كيهودى. من هذه الحقيقة ومن "حقائق" أخرى

إضـافية كـالقول بـأن الاسم روبـى أو روبينشتاين معناه راباى أي حاخام، وأن روبى كان يملك ناديا ليليا، وأن حياة الليل في الولايات المتحدة الأمريكية تكاد تكون محتكرة كلية بواسـطة الـيهود، ثـم يمضـى الكاتـب إلى الاشـارة أو الايحـاء بـأن القـتل كـان مـن أعمال المنظمة الصـهيونية واليهودية العالمية .

إن هـذا الخط مـن المجادلة أخذه أو التقطه كتاب آخرون، أضاف بعضـهم ولأحكام الموضـوع، أن الكاثولـيكى لـيون كوزولجـوز قـاتل الرئـيس ماكينـلى رئـيس الولايـات المتحدة الأسـبق والبروتسـتانتى جـون ولكس بـوز، قـاتل الرئيس لينكولن كانا كلاهما مـن الـيهود، وسـلحا بواسـطة منظمات صـهيونية. إن ذلك الإسـهام في "التاريخ العلمـى" نشـر في إبـريل سـنة ١٩٦٤ في مجلـة المحـرر، وهـى محلـة شـهرية، تنشـر بالإنجلـيزية والفرنسـية والألمانية والإيطالية والإسـبانية من دار الإصـدارات القومـية في القاهـرة، وهـى أداة مـن أدوات الحكومة، أو وكالة من وكالات الحكومة المصرية. إن ذلك الخيال الـذى يسـمح بتحويل جـون ولكس قـاتل لينكولن إلى يهودى، وأن يجعله أداة أو عميلا صـهيونيا قبل قـيام الصـهيونية بعشـرين عامـا، واضـح أنـه خـيال بـلا حـدود . وهـذه النقطة أقـل إدهاشـا، إذا تذكـرنا أن تعـبير صـهيونى وصـهيونية عـادة يسـتخدم مـن الكتاب العـرب حينما يناقشـون أوقـات القـرون الوسـطى، أو حـتى الـتواريخ القديمـة كتعـبير عـن الـيهود والـيهودية. واكتشـاف آخـر مدهـش بثـته نفـس الصـحيفة، ومدعية أنهـا تعـتمد فـيه علـى الجـريدة الروسـية كراسـنايا زيفسـتا، وهـى أداة من أدوات وزارة الدفـاع السـوفيتى، هـو أن رجـل العصـابات الشـهير إل كـابونى كـان في الواقـع إسـرائيليا اسـمه الحقيقى إيزاك شـاخر. ومما هو جدير بالذكر أن إل كابوني مات في سنة ١٩٤٧ وذلك قبل قيام دولة إسرائيل بسنة.

إن الميل أحـيانا إلى نسـبة كل مـا هـو مكروه إلى الصـهيونية أو ببسـاطة إلى أصـول يهوديـة يذهب إلى حدود مدهشـة. وعلى ذلك فإن كتابا نشـر في القاهـرة في سـنة ١٩٧٠، يدعـى أنـه اكتشـف الجـذور الصـهيونية لتفكير سـيجموند فرويد. وفى إذاعة من راديو طرابلس في ١١ ابـريل سـنة ١٩٧٣ تـهاجم نظرية النشوء والارتقاء على أنها لا تناسب ليبيا الـثورية ثـم تسـأل مجادلـة، " إلى مـتى سـتنتظر الـثورة حـتى ترى قردا يتحـول إلى إنسـان حـتى تـتأكد بذلـك مـن الـنظرية المسـتحيلة للـيهودى داروين؟" . ومـن المحـتمل أن الجـائزة الكـبرى لمـثل هـذا الـنوع من الخـيال، يجب أن تذهـب إلى كـاتب مقالة عن العداء

للسامية، منشور بواسطة مطبعة الجامعة في الخرطوم، والذى يؤكد أن العداء للسامية هو اختراع يهودى، وأن هذا التعبير " كان مستعملا ولوقت طويل قبل أن يستخدمه ويلهم مار في سنة ١٨٧٩" وهو تعبير صاغه الصهيونيون. إنه ليس من الواضح الهدف الدعائى التى تخدمها مثل هذه الحكايات أو الأساطير، اللهم إلا إن كان هو القصد العام السائد في الكتابات المعادية للسامية ألا وهو أنه ليس فقط كل اليهود شريرين بل إن كل الشر يهودى. ص٢١٥

إذا قبل هذا المبدأ، فإنه قادر على الامتداد والتوسع إلى ما لا نهاية، ويمكن استخدامه في تفسير الأحداث التاريخية القديمة وكذلك في الأحداث المعاصرة.

فى مقالة نشرت في الجريدة اليومية القاهرية الأحرار، في ١٤ فبراير سنة ١٩٨٣، رفعت سيد أحمد، يقدم تفسيرا جديدا للوثائق الفيلية، وهى مجموعة من أوراق البردى الآرامية، اكتشفت في جزيرة فيلة في صعيد مصر، وتكشف عن وجود مستوطنات يهودية، يبدو أنها كانت مكونة من مستعمرات عسكرية في خدمة مصر، ويحتمل أن يرجع تاريخها إلى القرن السادس قبل الميلاد. إن هذه الوثائق كانت معروفة من وقت طويل للدارسين الأكاديميين، ولكن أحمد اكتشف معنى جديدا غاب عن هؤلاء الدارسين جميعا. ففى رأيه الوثائق تثبت أن اليهود تآمروا ضد كثير من الفراعنة، واندمجوا في نشاط تخريبى سرى مستمر، بينما كانوا يستغلون موضعهم كجنود مرتزقة يستخدمهم المصريون. ويقول : « إنه خلال الوجود اليهودى في مصر فإن أفعالا كثيرة من تلك الطبيعة وقعت ». إن هذا التاريخ مهم الدلالة اليوم لأن إسرائيل ومصر بلغتا مرحلة من "التصارع في ظل التفاهم" وهو وصف طريف للعلاقات الثنائية بعد توقيع معاهدة السلام. إن الوسائل اليهودية في ذلك الصراع كما نص عليها المقال، هى التاريخ، والاقتصاد، والتجسس مصحوبة بالخيانة.

مجادلات مماثلة منبعثة من أحساسيس عنصرية ومنسوبة إلى التاريخ، استخدمها نقاد مصريون آخرون لسياسة السلام مع إسرائيل، وتظهر في مقالات تهاجم السلام ليس فقط من حيث هو، ولكن حتى في مناقشة المعوقات المؤقتة في مجرى المفاوضات. إن مناقشة نقط بعينها في السياسة، في كل من وسائل النشر وفى أقوال المتحدثين الرسميين يمكن بالمثل أن تتأثر بتلك العدوى. فبعض المصريين والمنتقدين العرب الآخرين لسياسات وتصرفات حكومة مناحم بيجين يمكن القول بأنهم كان يمكن أن

يحوزوا موافقة كثير من الإسرائيليين ومن يهود آخرين. إنهم مع ذلك لا يمكنهم الحصول على تلك الموافقة، حينما ينسبون تلك الأخطاء أو تلك الأفعال الخاطئة للقادة الإسرائيليين إلى سوء ومكر أبديين في اليهود، فضلا عن أنهم يعبرون عن ذلك الرأى بالعبارات المعتادة للشتائم المعادية للسامية. إن مثل هذه المطبوعات لا يمكن أن تفشل ص٢١٦
أو لايمكن ألا تنجح في إثارة غضب وتخوف جيل من الإسرائيليين ويهود آخرين من الذين جربوا وعرفوا من التجربة الشخصية ماذا يرقد في نهاية الطريق الذى تبدؤه مثل هذه اللغة.

إنه في مجتمع الدين فيه يمثل أعمق الأسس تغلغلا في تكوين الشخصية وفى تمحور الولاء، فإنه من الطبيعى بل من الحتمى أن الدول التى تدخل في حالة حرب مع دولة تصف نفسها بأنها يهودية، ترى ذلك العدو على أنه "اليهود". وفى الوقت الذى فيه العنف في استعمال اللغة هو الشيء المتبع الطبيعى حتى في الخلافات الداخلية، فإنه ليس من المدهش أن هذه الدول استفادت من الترسانة الغنية بالأنغام والصور، التى قدمها إليهم بل يمكن القول بأنهم ألح عليهم بها الأوروبيون، ثم بعد ذلك الأمريكيون من أعداء السامية. أن ذلك أصبح أكثر سهولة مع رحيل معظم أو كل السكان اليهود في الدول العربية، بحيث إن اليهودى لم يصبح هو الجار المعتاد على وجوده، ويصبح سهلا تصويره على أنه التجسيد الشيطانى للشر.

وربما المثال الصارخ على مثل هذا النوع من الكتابات، يقدمه أنيس منصور الذى في كثير من الكتب والعديد من المقالات ردد كل الاتهامات المعتادة النازية المعادية للسامية، وأضاف بعضا من عنده. فطبقا لكتابه "حائط المبكى والدموع" الذى طبع مرات عديدة، اليهود مأمورون في التلمود بأن يكرهوا كل الأديان الاخرى، ومقال لهم إنهم أحرار في ارتكاب أي جريمة أو خطيئة ضد أتباع الأديان الاخرى. وكما يقول إن التلمود كذلك يعلم اليهود كيف يحتالون على غير اليهود، يقول بالحرف الواحد : «إن الاحتيال على غير اليهود ليس احتيالا ولكنه إلزام، حيث إن اليهودى يعتبر أن كل المال في جيوب أي شخص آخر هو من حقه، وأخذ هذه الأموال ليس إلا إستعادة لها، وتلك الاستعادة في كل الأحوال هى عمل قانونى. ولذلك فإن السرقة من المسلم ليست سرقة، والسرقة الوحيدة هى السرقة من يهودى آخر.. إن الفسق والفجور اللذين خلقهما اليهود في أوروبا وأمريكا، والذين كانوا هم أول من قدمهما في شكل منظم

حينما دخلوا أرض كنعان قادمين من العراق، لا يعتبران جريمة أخلاقية أو اجتماعية، لأنه من واجب اليهودى أن يغتصب نساء الأديان الأخرى . وكذلك فإنه حينما تعطى فتاة يهودية نفسها إلى مسلم أو مسيحى فإن ذلك ليس نوعا من الزنا، لأن الزنا لا يحدث إلا بين مخلوقين إنسانيين، واليهود يعتبرون أي شخص آخر من غيرهم كحيوان، ولذلك فإنه لا جريمة أخلاقية بين رجل حيوان وامرأة إنسان» .

إنه بعد أن جمع تلك الدرر من كتاب الحبر رولينج "اليهودي والتلمودي" ، فإن الأستاذ أنيس منصور يستمر في السرد نقلا عن مصادره الأساسية الأخرى، وهى "بروتوكولات حكماء صهيون"، والتى يصفها بأنها "الدستور السرى لليهود". انه يقول « إن هذا الدستور ينصح اليهود بأن يصبحوا أطباء توليد وأن يتخصصوا في الإجهاض، الشيء الذى هم في الواقع يفعلونه في كل العالم والذى كانوا يقومون به في مصر. والسبب في هذا أن الاجهاض معناه تخفيض عدد غير اليهود واحدا أو ألفا أو مائة ألف ».

أنيس منصور كاتب مكثر في الكتابة عن موضوعات عديدة، منها موضوعات مثل: الأشباح وتجسيدات دينية، وزائرين من العالم الآخر، ومثل هذه الأشياء. والواحد هنا ممكن وبكل عقلانية أن يسأل هل تخرساته تلك المعادية للسامية تنتمى إلى هذه ص٢١٧
المنظومة من الأفكار الخيالية وعلى ذلك فهى لا تكون أكثر من أنها شكل مبالغ فيه من السخيمة والشتائم المعتادة؟

إن السؤال يمكن أن يعرض بالشكل الآتى: هل النغمة المعادية للسامية في مناقشة اليهود في الدول العربية في الوقت الحاضر، هل هى جزء فقط من المشاعر وأحاسيس الكراهية التى تشتعل في أوقات الحرب، والتى ستزول بزوال أو بحل المشكلة ؟ أو أن ذلك العداء قد أصبح شيئا دخل في النفوس بحيث إنه أصبح جزءا فيها على الأقل في المرحلة العربية الحالية وعموما في نظرة العالم الإسلامى؟

إنه في سبيل الحصول على الإجابة لهذا السؤال، فإنه قد يكون من المفيد اختبار المعاملة العربية والإسلامية الرسمية وغير الرسمية، للمسائل التى لاعلاقة مباشرة لها بدولة إسرائيل الحديثة، أو بالحركة والأفكار الصهيونية أو بالنزاع العربى الإسرائيلى. إن اختبارا ممكنا، هو مشاهدة أو استقراء معالجة مسألة المحرقة

اليهودية، والتى الكتاب العرب والمتكلمون بلسانهم يميلون معظم الوقت إما إلى أن ينفوا إطلاقا حدوثها، وذلك بالاتفاق مع خط النازيين الجدد، أو على الأقل التقليل منها أو حتى تبريرها. إن مناقشة تاريخ ودواعى الهجرة اليهودية إلى إسرائيل، المحرقة تأخذ حيزا ضيقا في تفسير تلك الهجرة، إن اليهود في تلك النظرة بتصرفاتهم السيئة جلبوا علىأنفسهم كراهية الأوروبيين، ونتيجة لذلك فإنهم سعوا لإيجاد بيت آخر لهم على حساب العرب. إن كتابا مدرسيا مصريا من الحقبة الناصرية على سبيل المثال، يخبر تلاميذ المدارس : " إن اليهود يصفون دائما المهاجرين لاسرائيل على أنهم مضطهدون، وذلك من اجل إثارة العطف عليهم، ولابتزاز المال، وكذلك للتغطية على الأغراض الصهيونية. ولكن الواقع أن اليهود لم يحدث أبدا أن كانوا مضطهدين". ومثال آخر هو التعليقات التى صدرت عن محاكمات أدولف أيخمن في القدس، تلك التعليقات التى اتهمته فقط بأنه لم يكمل عمله في إبادة اليهود. وفى سنة ١٩٧٨ فإن العراق احتجت حينما قامت الحكومة البولندية ـ وهى بلا شك ليست متعاطفة مع الصهيونية أو مع إسرائيل ـ حينما قامت بتنظيم
احتفالات للاحتفال بثورة الجيتو اليهودى في وارسو واستشهاد اليهود البولنديين ص٢١٨
في تلك الحرب. وفى أثينا إبريل ١٩٧٩ فإن السفراء من الأقطار العربية فيما عدا مصر اعترضت على عرض مسلسلات تليفزيونية تحيي ذكرى الهولوكوست "المحرقة"، وفى مارس سنة ١٩٨٤ فإن مصر بالرغم من وجود معاهدة سلام وعلاقات دبلوماسية مع إسرائيل منعت فيلما يحكى قصة المحرقة.

ولكن ربما كان التعامل مع مسألة المحرقة ليس بالاختبار العادل. فإنه وإن كان من الحقيقى أن المحرقة انتهت بثلاث سنوات قبل قيام دولة إسرائيل، فإنها ولاشك ساهمت مساهمة فعالة في ذلك القيام، ذلك أنها أي المحرقة من جانب دفعت اليهود الدفع اليائس الأخير الذى لا يمكن إيقافه نحو إقامة وطن قومى ودولة، ومن ناحية أخرى ساهمت في تجنيد التعاطف الدولى والمساندة لذلك الهدف. إنه كان من المناقشات المعقولة أن يقال إنه بلا محرقة فإنه ما كان لتوجد إسرائيل. وفى الواقع فإن المرحوم الشيخ جعبرى من بلدة هيبرون، لاحظ مرة وبسخرية أن اليهود يجب أن

يقيموا تمثالا لهتلر وللحاج أمين الحسينى في منتصف تل أبيب لأنهما هما المؤسسان لدولة إسرائيل. وإن تلك الملاحظة ولو أنها بلا شك مبالغ فيها لكنها في الواقع تحتوى على بذرة من الحقيقة.

إنه مع ذلك كان هناك أحداث أخرى أبعد في التاريخ حيث لا يمكن ايجاد أي صلة بالنزاع العربى الاسرائيلى. أن مسألتين أو حالتين كاشفتين على وجه الخصوص هى في تاريخ النبى محمد [ﷺ] وفى صلب المسيح. أولهما ذات مكانة مركزية أساسية في العقيدة والتاريخ الإسلاميين، والأخرى غريبة تماما عن الإسلام، الذى يقول واعتمادا على تأكيد القرآن نفسه إن الصلب لم يحدث.

إنه في العقود الأخيرة حدث تغير ذو دلالة في تدريس تاريخ النبى . فالصورة التقليدية لليهودى كمعاد بل ومضمر للشر احتفظ بها وأعطيت اهمية جديدة وأساسية. ولكن عدم أهمية اليهود وعدم جدوى عداوتهم أو عدم تأثيرها واللذين كانا من خصائص الدراسات التقليدية التاريخية اختفيا.

إن المقارنة بين الروايات التقليدية القديمة والصورة الحديثة لهذه الأحداث تظهر تغييرات كثيرة. أكثرها وضوحا هو في عنف اللغة المستخدمة وفى طبيعة الاتهامات التى تساق. وهكذا فإنه في كتاب مدرسى اسمه التاريخ الإسلامي العربى والذى يستخدم في كليات تدريب المدرسين في الستينيات فإننا نجد النص الآتى : « إن اليهود لا يتغيرون أبدا وهم دائما على نفس الحال في كل وقت وفى كل مكان . إنهم لا يعيشون إلا في الظلام، إنهم يدبرون شرورهم في الخفاء . إنهم يحاربون فقط حينما ص٢١٩
يكونون مختبئين لأنهم جبناء. إن الرسول نورنا وأرشدنا إلى الطريقة الصحيحة لمعاملتهم، ونجح في النهاية في القضاء على مؤامرتهم التى دبروها . إننا اليوم يجب أن نتبع هذا الطريق وأن نطهر فلسطين من وساخاتهم ».

إن انطباق الماضى على الحاضر يوضح ويشرح في كتاب مدرسى آخر، وهو كتاب عن الإرشادات الدينية لطلبة السنة الأولى في الثانوية، يقول : « إن اليهود في أوقاتنا هم المنحدرون من اليهود الذين أضروا بالرسول محمد [ﷺ] . إنهم خانوه

ونقضوا معاهدتهم معهم واشتركوا مع أعدائه المشركين والمنافقين للقتال ضده. إنهم اليوم يحاربون العرب ». وشخصا عظيم الأهمية مثل آية الله خوميني، في مقدمة كتابه عن الحكومة الإسلامية، والذى يحتوى على شرح عقيدته السياسية يقول: « إن الحركة الإسلامية نكبت باليهود منذ بدايتها، حينما بدءوا نشاطاتهم المعادية وذلك بتحريف سمعة الإسلام وبالقدح والطعن فيه. إن ذلك استمر حتى يومنا هذا ».

وعلى العموم فإن الكتب المدرسية فى تلك الاقطاركتب مسيسة إلى درجة كبيرة، وحتى تلك المواضيع كمواضيع التهجي، والحساب البسيط، فإنها تعطى مضمونا سياسيا وذلك من خلال الأمثلة التى تختار فى شرح تلك المواضيع، وهى بذلك تستخدم فى تلك الكتب فى تقوية الشعور الوطني وتشجيع الكراهية والاحتقار للعدو المشار اليه.

إن العداء لإسرائيل وللصهيونية هو طبعا شيء معهود ويكاد يكون عالميا. ويعبر عنه عادة بلهجة حادة. واحيانا وإن لم يكن دائما، فإن هذا الهجوم يتعدى الخط لكى يصبح عداء صريحا للسامية .

فى سنة ١٩٦٨ وسنة ١٩٦٩ وربما للمرة الوحيدة، فإن بحثا تفصيليا تحليليا للكتب المدرسية العربية تم تحت رعاية هيئة دولية . بعد حرب الأيام الستة الإسرائيليون قاموا بتحقيقاتهم الخاصة فى الكتب المدرسية المستخدمة فى معسكرات اللاجئين التى تديرها الأمم المتحدة وذلك فى المناطق التى احتلوها فى تلك الحرب. وعلى أساس ذلك التحقيق، فإنهم تقدموا بشكوى رسمية إلى هيئة اليونسكو. إن ما تفعله الدول العربية فى داخل بلادهم، وفى مدارسهم، هو مسألة داخلية وبعيدة عن اختصاص أى هيئة دولية، وعلى الخصوص إذا كانت تتصرف بناء على طلب من إسرائيل. ولكن المدارس فى معسكرات اللاجئين كانت تحت رعاية هيئة الأمم، والموظفون والمدرسون معينون بواسطة هيئة الأمم، ويعملون طبقا لميزانية من هيئة الأمم. الجزء الأكبر من تلك الميزانية كانت تدفعه الولايات المتحدة . لذلك فإن الشكوى الإسرائيلية بأن هذه المدارس تشجع وتبث الشعور العنصرى المعادى للسامية فى

تلاميذهم، شيء إذن لا يمكن التغاضى عنه. ولذلك قامت لجنة من اليونسكو مكونة من أمريكى، وفرنسى، وتركى، وثلاثتهم من الدارسين من ذوى المكانة للشئون العربية.

إن اللجنة التى اختبرت ١٢٧ كتابا دراسيا مستخدما فى معسكرات اللاجئين على جانبى نهر الأردن، وفى قطاع غزة، وفى لبنان شرحت المعايير التى على أساسها أصدرت توصياتها. وهى تقول « إن كل العبارات التى تتضمن احتقارا لجالية بأكملها يجب أن تحرم، لأن ذلك شيء غير مقبول فى حد ذاته ولايمكن إلا أن ينتج فيما ينتجه نتائج تقود إلى العنف، والى خرق أكثر الحقوق قدسية للشخص. وعلى ذلك فكلمات كاذب، وغشاش، ومرابى، وغبى، وهى العبارات المستعملة بالنسبة لليهود فى بعض الفقرات، والتى تمثل جزءا من اللغة المكروهة للعداء العالمى للسامية شيء لا يمكن تحمله ». وبين معضلات أخرى كثيرة فإن اللجنة لاحظت وعلى وجه الخصوص فى الكتب المدرسية عن الدين والتاريخ: تقول اللجنة « إن أهمية مبالغا فيها، تعطى إلى مشكلة العلاقات بين النبى محمد [ﷺ] واليهود فى الجزيرة العربية، ص٢٢٠ ويعبر عنها فى صيغ تميل إلى إقناع الشباب الصغار بأن الجالية اليهودية ككل كانت دائما وستبقى دائما العدو الذى لا يهدأ بالنسبة للجالية الإسلامية. وأكثر من ذلك فى بعض الفقرات، فإن صيغا ضارة ومسبة تستخدم لوصف الجالية اليهودية، وهى مسائل لا يمكن السماح بها... وأخيرا فإن ذكرا خاصا يجب أن يخص تمرينات الطلبة، والتى كثيرا ما تكون منبعثة من الشغل الشاغل ببث التعاليم ضد اليهود، أكثر مما هى ذات أهداف تعليمية. إن كثيرا من هذه التمارين يجب أن تزال نهائيا أو يعاد كتابتها ». وفى النهاية فإن اللجنة أوصت بأن ١٤ كتابا دراسيا يجب أن تسحب بأكملها و٦٥ تعدل قبل إعادة استخدامها و٤٨ من أصل ١٢٧ يمكن الاحتفاظ بها كما هى. إن التقرير قدم لاجتماع الجمعية العامة الانعقاد ٨٢ لليونسكو والمنعقد فى باريس فى ٤ أبريل سنة ١٩٦٩. إنه لم ينشر بتاتا. والكتب المدرسية المعادية للشعور، تم سحبها من معسكرات هيئة الأمم. ولكن معظمها بقى يستخدم فى وزارات المعارف فى الدول العربية، وهى التى كانت فى الأصل قد قامت بنشرها أو استبدلت بغيرها تتبع نفس الخط.

إن سيرة النبى محمد والتى تتضمن روايات عن نضاله أو صراعه مع القبائل اليهودية فى المدينة، هى ولا شك شيئ مهم بالنسبة للمسلمين. وحتى فإن طريقة تقديم الصراع مع اليهود، ولو أنه أعطى اتجاها ملتويا جديدا فى الأوقات الحديثة، فإنه مبنى فى النهاية على عناصر من التاريخ الإسلامى. ان الشيء نفسه لا يمكن أن يقال عن اهتمام المسلمين الحديث بصلب المسيح، وهى الحادثة التى تخرج تماما عن الفقه الدينى والكتابة التاريخية فى الإسلام.

إن الأقاصيص أو الروايات التى تحكى قصة الصلب طبقا للرواية المسيحية والتى تختلف عن النص الإسلامى، ظهرت فى كتابات عربية بطريقة متكررة أكثر وأكثر.

إن ذلك الاهتمام، وصل إلى ذروته خلال الانعقاد الثانى لمجمع الفاتيكان الذى عقد فى روما بين سنة ١٩٦٢ وسنة ١٩٦٤، وركز على خطيئة اليهود الشهيرة، وأعد فيه مشروع القرار الذى كان سيبرئ اليهود من جريمة قتل الإله. ومن البداية فإن الدول ص٢٢١ العربية زاولت ضغطا قويا سياسيا، وضغوطا أخرى على الفاتيكان، لتمنعه من تبنى مثل هذا القرار. وكان تبريرها لذلك التصرف مشروحا فى منشور أو خطاب إخبارى من الجامعة العربية فى ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٦٤، تقول : « قطعا إن المسيحيين العرب رفعوا أصواتهم ضد هذه المحاولات لتغيير الكتابات المقدسة. وهم كسكان مهد المسيحية فإنهم فى مركز متميز يستطيعون منه الحكم على تاريخ المسيحية. ولذلك فإنهم سمحوا لأنفسهم بأن يعارضوا محاولات المجمع الكنسى». والعدد التالى من نفس الخطاب الإخبارى فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٦٤ شرح الإستراتيجية بقوله « إن كل السفراء العرب للدول الأجنبية تسلموا تعليمات بأن يتصلوا باستمرار مع الكرادلة والأساقفة الذين يشاركون فى مجلس روما الكنائسى وتنويرهم فيما يتعلق بالخلفية السياسية لجريمة اليهود التى تناقش فى المجلس . إن السفراء العرب سيقومون أيضا بشرح وجهة النظر العربية فيما يتعلق بتلك الوثيقة إلى السكرتارية البابوية والسلطات الأخرى فى الفاتيكان. إن هذا العمل من الدول العربية يفسر على أنه عمل للتعبير عن النوايا الطيبة وذلك للاحتفاظ بالعلاقات الحسنة مع الفاتيكان.

إن التهديد الرقيق فى الجملة الأخيرة ذكر صراحة فى مطبوعات شعبية أخرى.

إن رأس الحربة فى الهجوم كان بالطبع الكنائس العربية المسيحية، والحكومة العربية اللبنانية وهى الحكومة الوحيدة التى لها بعض المقام فى العالم المسيحى. ولكن آخرين تولوا نفس الهدف. فالرئيس سوكارنو فى إندونيسيا قام برحلة خاصة إلى روما لتحذير البابا من المخاطر الناتجة عن مثل هذا القرار بتبرئة اليهود. ووزير الخارجية الأردنى قدرى طوقان نقل عنه فى الصحافة البيروتية أنه يحذر من أن تمرير هذا الاعلان المقترح سيكون مصيبة لأن التاريخ يشهد على المقاصد اليهودية فى القضاء على المسيح والمسيحية. وكاتب آخر حذر من أن الكرادلة المتصهينين هم مخدوعون أو ضحايا الصراع المستمر الذى يستخدم معاناة اليهود المفترضة كواحد من أهم أسباب عون اليهود. إن زيارة البابا بول الثالث إلى الأراضى المقدسة فى سنة ١٩٦٣ كانت فرصة لصدور كتابات كثيرة عن هذا الموضوع. وعلى ذلك فالكاتب كامل الشناوى فى مقالة فى جريدة أخبار اليوم القاهرية تاريخها ١٤ ديسمبر سنة ١٩٦٣ لاحظ : « إن اليهود استغلوا هذا الحج الدينى أى حج البابا لكى يوجدوا الانطباع فى الرأى العام العالمى، بأن البابا الجديد له رأى حول اتهاماتهم بقتل المسيح، وهم يتكلمون من جديد عن وثيقة تاريخية يقال أنها ستبرئهم من تلك الجريمة، وإنهم يريدون نشر تلك الوثيقة، متصورين أن هناك وثيقة فعلا فى مكان خبئ من الفاتيكان. إننى كمسلم لا أتهم اليهود بقتل المسيح، حيث إن القرآن الكريم يقول إنه لم يقتل ولم يصلب ولكن صور لهم.

إن الحقائق التاريخية تثبت أن اليهود حاربوا ضد المسيح وطاردوه، وطلبوا دمه، واتهموه بالكذب وبالادعاءات الكاذبة، وأنكروا أنه هو المسيح المنتظر، والكهنة الذين اجتمعوا فى هيكل سليمان حكموا عليه بالموت بالسوط وأنهم أرسلوا حكمهم هذا إلى السلطات الرومانية لتنفيذه.

إن ذلك كان حوالى ١٩٣٤ سنة مضت، ومنذ ذلك اليوم فان اليهود مضوا فى التفاخر بأنهم قتلوا وصلبوا المسيح، وقد جاء القرآن مؤكدا أنه لم يقتل ولاصلب، ولكن العقيدة المسيحية تدين اليهود بجريمة قتل وصلب المسيح. إن الديانة المسيحية تتمسك فى اعتقادها فى أن اليهود أسالوا دم المسيح لأنهم اعترفوا وتفاخروا بها، وبطريقة معاملتهم للأفراد المسيحيين وللناس عموما كما يتصرف القتلة ومصاصوا الدماء.

وإنى كمسلم لست منصدما بادعاء اليهود أنهم أبرياء من دم المسيح، لأن ذلك يتفق مع معتقداتى الدينية، ولكننى أعجب ما الذى يدفع هؤلاء المتشردين اليوم لكى يحاولوا أن يبرئوا أنفسهم من جريمة هم يعترفون بأنهم ارتكبوها منذ حوالى ألفى سنة. لماذا يصرون على تبرئة ضميرهم من دم المسيح فى وقت أصابع كثيرة تشير إليهم طالبة بالعدالة وبالقصاص لدم كنيدى الذى اغتالوه؟

إننا مقتنعون بأن هذه الزيارة لم تؤثر أو تغير من معتقدات البابا فى طبيعة اليهود لأنه يعرفهم معرفة كافية وأنه إذا ما قابلهم فإن معرفته بهم ستزداد.

وعند وصوله إلى الأردن فى ٤ يناير سنة ١٩٦٤، فإن البابا حيبى بتعليق إذاعى من راديو عمان والذى قال فيما قاله الآتى : إن أحداث التاريخ سوف تقوى روحه النبيلة أكثر وأكثر. إن قداسته سوف يدخل فى اعتباره كيف تصرف اليهود فى ذلك الوقت

إن اليهود منذ ألفى سنة مضت صلبوا المسيح بعد ضربه وتحقيره وتعذيبه، تلك الأفعال التى تجلب العار على الإنسان فى كل مكان. ومنذ خمسة عشر عاما مضت، وبأقسى الوسائل، فإن اليهود اجتاحوا فلسطين، وهاجموا أهاليها الأبرياء، وأخضعوا كثيرا منهم إلى أحط الفظائع. وهكذا فإن اليهود يثبتون مسئوليتهم عن فظائع أجدادهم وعن صلب وتحقير المسيح منذ تسعة عشر قرنا مضت.

وطبقا لشهادة بعض المراقبين فى الفاتيكان فإن التأثير الرئيسى لمثلى كنائس الشرق الأدنى هى التى تسببت فى التخفيف من لهجة القرار، وما بقى منه مع ذلك ص٢٢٣ كان كافيا لكى يغضب المجلس الإسلامى العالمى. ففى اجتماع للمجلس فى مكة فى نوفمبر سنة ١٩٦٤ برئاسة المفتى الأول للمملكة العربية السعودية، والذى حضره بين آخرين المفتى الحاج أمين الحسينى، فإنه صدر أو قرر: « إن جرائد البارحة أتت إلى انتباهنا القرار، الذى ووفق عليه بأغلبية ساحقة فى المجمع المقدس مبرئا اليهود من جريمة صلب المسيح رسول الرب المسيح صلاة الله عليه وسلامه. إن مناورات سرية وعلانية قامت بها ولمدة طويلة الدوائر الصهيونية وشركاؤها من القوى الاستعمارية، حركت وحضت وأسرعت فى إصدار هذا القرار، والذى بذلك فقد أى صفة دينية،

وأصبح وثيقة أو حركة سياسية خالصة موجهة إلى الحصول على تأييد العالم المسيحى للفكرة الصهيونية ».

إن الوثيقة التى نتجت عن هذا الاجتماع الإسلامى تمضى لكى تشير إلى الفرق بين وجهة النظر المسيحية والإسلامية فيما يتعلق بالصلب كما ذكر فى القرآن وتمضى فى القول : « وعلى جانب آخر فإن إقدام الكاثوليك على تشويه معتقداتهم الفكرية وتغيير قوانينهم وذلك إذ وقعوا تحت تأثير العاطفة والرغبات العارضة، سيقوينا نحن فى الإيمان بما كشف لنا فى القرآن الكريم الدائم الذى لا يتغير. وإنه لتصيبنا الدهشة حينما ننظر إلى كيف أن الأقوام المسيحية سمحت لمجموعة من الكرادلة، مخدوعين ومتآمرين مع الصهيونية، كيف يسمح لهم بأن يعبثوا بالمقدسات وأن يهدموا المعتقدات الدينية التى استمرت لمدة ألفين من السنين. إنها قد عززت الشك فى صحة كتبهم المقدسة وفى صلابة أفكارهم الدينية وتعطى سلاحا جديدا لقوى الإلحاد والمادية ».

وبالرغم من المناقشات التى قدمها المتحدثون العرب وبصرف النظر عن الأدلة أو الحجج التى قدموها، فإنه من الغريب أن القادة المسلمين شغلوا أنفسهم انشغالا عميقا بمجمع لكنيسة هم فى الواقع لا يقبلونها، وبتعريف عقيدة هم لا يعتقدون فيها. وربما أن أحسن إيضاح لهذا كان ، هو الذى أعطته مجلة الإيكونومست اللندنية، التى لاحظت انه من وجهة النظر العربية، إن الوقت لم يكن مناسبا لتبرئة اليهود من أى شيء.

وربما أوضح الإشارات إلى الطريقة التى بها عممت الحرب من حرب ضد إسرائيل إلى حرب ضد اليهود، يمكن رؤيتها فى الطريقة التى تمت بها مقاطعة إسرائيل، والتى تديرها دول الجامعة العربية وطريقة تنفيذها. فرسميا المقاطعة
موجهة ضد دولة إسرائيل، وضد كل الشركات، والمؤسسات، والأشخاص فى الدول ص٢٢٤
الأخرى الذين يتعاملون مع إسرائيل. إنها تشمل المسائل الثقافية، والنشاطات التجارية، وعلى سبيل المثال فهى تستلزم تحريم عمل الممثلين أو الأفلام التى يمثلها ممثولون يعتقد أنهم عاونوا أو عطفوا على إسرائيل.

ولكن فى الواقع العملى فإن ذلك أعطى تعريفا واسعا ملفتا للنظر. وعلى الأقل فى

حالتين كلتاهما أصبحت منشورة أو معلومة للكافة، فإن سفراء رفضتهم بعض الدول الإسلامية من غير سبب إلا لأنهم مولودون يهودا. وفى سنة ١٩٣٧ فإن الدبلوماسى البريطانى المبرز، والذى خدم من قبل فى العربية السعودية، أعطى الموافقة على قبوله كسفير فى السعودية، وحينما أشارت جريدة يهودية فى لندن إلى ميلاده اليهودى فإن الموافقة على قبوله تم سحبها فورا. وحديثا، فإن حكومة إندونيسيا رفضت سفيرا أمريكيا لنفس السبب. وفى كلتا الحالتين لم يكن هناك أى شبهة أو أى إشارة لأى نشاط أو صلات مع إسرائيل، أو النشاطات الصهيونية. وبنفس الروح فإن زيارة للأوركسترا نيويورك فيلارمونيك إلى ماليزيا ألغيت فى أغسطس سنة ١٩٨٤، حينما أصبح معروفا أن السلطات الماليزية طلبت وحصلت على الإزالة من البرنامج مقطوعة إرنست بلوخ شيلومو ذات العنوان "مقطوعة موسيقية عبرية للتشيلو والأوركسترا".

إن قطعة الموسيقى هذه كانت مؤلفة فى سويسرا فى سنة ١٩١٥، ثلاث سنوات قبل اعلان وعد بالفور، والمؤلف نفسه مات فى سنة ١٩٥٩. إن أى تفسير لم يعط إطلاقا إلى، كيف تمكنت الرقابة الماليزية من إثبات الصفة الصهيونية لقطعة من الموسيقى؟ على ما يبدو أن كلمة "عبرى" فى العنوان كانت فى نظر الرقابة دليلا كافيا.

وحالة أخرى أجدر بالنظر حدثت فى القاهرة فى يونيو سنة ١٩٧٩ حينما أمر منظمو مهرجان مسرحى، بأن يسقطوا ثلاثة مسرحيات كتبها مصرى يهودى يدعى يعقوب صنوع. إن شيئين هنا جديران بالملاحظة بخصوص ذلك الفعل، أولهما أن ذلك القرار اتخذ بعد مضى شهرين ونصف الشهر على التوقيع الرسمى فى البيت الأبيض فى واشنطن على معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، وثانيهما أن يعقوب صنوع الذى مات فى سنة ١٩١٢ كان وطنيا مصريا متحمسا، ورئيس تحرير جريدة قومية، ولم يحدث فى حياته أنه أبدى أى اهتمام بالمسائل اليهودية. بل إن واحدا من الدارسين الباحثين المصريين المحدثين ادعى أنه كان مسلما.

إن نفس الروح تبدو فى مهرجان القاهرة السينمائى الرابع الذى عقد فى سبتمبر فى نفس السنة.

فى البداية كانت هناك علامات على تحول فى المشاعر. فإليزابيث تايلور، التى أفلامها كانت ممنوعة فى العالم العربى ولمدة عشرين سنة بسبب تعضيدها لإسرائيل ص٢٢٥

وربما لأنها تحولت إلى اليهودية، كانت ضيف شرف فى ليلة الافتتاح، واستقبلها الرئيس السادات. كما أن عددا من المخرجين، والمنتجين، والممثلين الإسرائيليين جاءوا إلى المهرجان كضيوف على زملائهم المصريين. إن منظمى المهرجان افتخروا بحقيقة أنه ولأول مرة، بعض الأفلام التى تتضمن قصصا يهودية أو شخصيات يهودية كان مقررا أن تعرض فى السينمات المصرية. ولكن ذلك لم يتم بهذه الطريقة تماما.

فأول الضحايا كان وللغرابة يوغوسلافيا، واليوغوسلاف هم من بلد دائما أخذت صف العرب وما زال ليس لها علاقات دبلوماسية مع إسرائيل . إن خمس عشرة دقيقة قطعت من الفيلم اليوغوسلافى المشترك فى المهرجان على أساس أن واحدا من الشخصيات كان يهوديا. إن الوفد اليوغوسلافى انسحب احتجاجا والوفد السويسرى هدد بأن يتخذ إجراءات قانونية قائلا إن الرقيب قد قطع فيلمهم بطريقة لا يمكن إصلاحها.

فيلما أمريكى عنوانه "ساحر لوبلن" مأخوذ من قصة إيزام باشيفيز سنجرز حجز فى جمارك المطار خلال مدة المهرجان بأكملها. وفيلم إيطالي "حديقة عائلة فينزى كونتينى" والذى يصف مصير عائلة يهودية فى إيطاليا خلال الحرب العالمية الثانية، قطع منه المنظر الأخير الذى كانت تغنى فيه أغنية يهودية.

وعلى العموم فإن الغرض من هذه الرقابة سواء كانت مفروضة من الحكومة، أو كما هو الحال كثيرا فى مصر من الصحفيين أنفسهم، هو استبعاد اى شيء يصور اليهود فى ضوء ملائم، وأسوأ من هذا أى شيء يمكن أن يظهر بعض التفهم لوجهة النظر اليهودية.

إننا قد أشرنا فيما سبق إلى ما نال تقرير كاهان عن مذبحة صبرا وشاتيلا، من تقطيع وتحريف، أو إعادة صياغة فى الجرائد المصرية والجرائد العربية. وبنفس الروح فإن الكتب المدرسية التى فحصتها أو اختبرتها لجنة اليونسكو تقول "عموما- وإن لم يكن دائما – فإنها تؤكد المعنى الدينى للقدس بالنسبة للمسيحيين والمسلمين،

ولكنها لا تذكر إطلاقا الأهمية الرمزية لليهود وهذا حذف يدعو على الأقل للأسف".

وبرغم الاهتمام العظيم بالتاريخ فى الدول العربية فى الوقت الحاضر، والإنتاج الضخم للأدب المتخصص فى الماضى العربى والإسلامى، فإن اهتماما قليلا يعطى لتاريخ اليهود أو حتى تاريخ الجاليات اليهودية التى عاشت بينهم.

فكتاب أسعد رزوق عن التلمود، والذى فيه يستخدم التراجم الإنجليزية الأساسية وكما كبير من الدراسات الأدبية العلمية للتفرقة بين الصهيونية واليهودية التلمودية، يبدو أنه شيء فريد فى العالم العربى.

فبالنسبة للتاريخ المحلى، كتاب واحد قصير عن تاريخ اليهود فى العراق، نشر بواسطة مؤلف عربى مسيحى فى بغداد فى سنة ١٩٢٤ . وبصرف النظر عما احتواه ص٢٢٦
من هجمات سياسية معادية للسامية ومن هذا الشيء الكثير، فإنه بقى كتابا وحيدا أو مجهودا منعزلا. إن تاريخ اليهود فى البلاد الإسلامية فى القرون الوسطى، أو الأوقات الحاضرة، يكاد يكون مهملا تماما، والدارسون القلائل الذين حاولوا أن ينظروا إليه لم يعنوا فى معظم الأحوال بعناء تعلم العبرية أو حتى الخط العبرى، الشيء الذى كان سيمكنهم من قراءة العبرية اليهودية، وهى اللغة الرئيسية التى كان يستخدمها اليهود فى الدول العربية قبل الأوقات الحديثة.

ولذلك فإن، هؤلاء الدارسين مضطرون للاعتماد على مصادر إسلامية، ومصادر أخرى خارجية، وفى الغالبية أعمال المؤرخين اليهود المتوافرة فى اللغة الإنجليزية.

وإلى الآن فإن الدولة الإسلامية الوحيدة التى حظى التاريخ اليهودى فيها بأى اهتمام جدى من المؤرخين المسلمين هى مصر، حيث صدرت كتب قليلة وبعض المقالات التى تعاملت مع تاريخ اليهود فى تلك الدولة. تلك الكتب والمقالات، ولو أنها أحسن كثيرا من الكتابات المعتادة المعادية للسامية المليئة بالشتائم، فانها مازالت متأثرة بالأهداف السياسية أو بالأغراض السياسية المعادية. وإنه ليس دائما من الواضح إلى أى حد ذلك النوع من الاتجاه الفكرى والسلوكى مرجعه اقتناع حقيقى، أو هو نتيجة لضغوط سياسية واجتماعية وأكاديمية. ويلاحظ أنه حينما يرى المؤلف على أنه ليس قاسيا بما فيه الكفاية فى التعامل مع الدور اليهودى فى التاريخ

المصرى، فهو أو هى يمكن أن يتعرض إلى نقد قاس، أو حتى يتهم بأنه موال أو متعاطف مع الصهيونية.

وعلى النقيض فإن الدارسين، والباحثين، والطلبة فى الجامعات المصرية الآن يظهرون اهتماما أكبر بالدراسات العبرية والتى تتضمن الأدب الكلاسيكى التاريخى والادب العبرى الحديث. إن هذه الدراسات امتدت الى ما هو أبعد كثيرا من الغرض الأساسى والذى كان هو معرفة العدو. هذا الاهتمام الجديد يبدو واضحا أن مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية لا يشارك فيه. فبين الكثير من المقالات والأبحاث عن الشئون السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى إسرائيل، فإن هناك كتابا واحدا ألفه المؤلف الفلسطينى المشهور غسان كنفانى خلص لدراسة الأدب . إنه لا يتعامل مع الإسرائيلى ولكن مع الأدب الصهيونى، ومحدود بالكتب الممكن الحصول عليها فى الانجليزية – ومعظمها مثل كتاب أرثر كوستلر "لصوص فى الليل" وليون يورسيس "الخروج – ليسوا من الإسرائيليين".

وفى الحقبة المبكرة من السبعينيات، وأكثر من ذلك عقب حرب ١٩٧٣، فإن هناك إشارات كثيرة تدل على أن بعض المصريين كانوا راغبين فى الوصول إلى اتفاق مع إسرائيل، البعض لاسباب تكتيكية، والبعض عن رغبة حقيقية فى السلام. إن رحلة السادات إلى القدس فى نوفمبر سنة ١٩٧٧، ومعاهدة السلام التى نتجت عنها، بدا فى ذلك الوقت أنها تفتح صفحة جديدة لتغيير عميق فى العلاقات العربية الإسرائيلية وبالتبعية فى إحساسات العرب تجاه اليهود. إن استجابة الشعب المصرى لهذه الأحداث أوضحت تماما أنه هناك رغبة عميقة وحقيقية فى السلام، واستعدادا للمعيشة جنبا إلى جنب كجيران. إن أول زوار إسرائيليين لمصر اندهشوا ص٢٢٧
من الحرارة والصداقة التى قابلهم بها الأشخاص العاديون. ولكن ذلك الإحساس الجديد لم يستمر، وقبل مضى وقت طويل، فإن النغمات المعادية للسامية، والتى لم تكن قد اختفت اختفاء كاملا من وسائل الإعلام المصرية، بدأت ثانية فى الظهور بل وعلى نطاق أوسع وبقوة أكبر.

إن عوامل كثيرة أدت الى هذا التدهور. واحد منها كان المفاوضات المطولة والمرة التى امتدت من زيارة السادات حتى التوقيع النهائى علىالمعاهدة فى ٢٦ مارس سنة

١٩٧٩. إنه فى فهم المصريين وكذلك فى فهم أناس كثيرين آخرين، فإن رئيس الوزراء الإسرائيلى مناحم بيجين فشل فى أن يستجيب إلى الحركة الشجاعة والخلاقة للرئيس المصرى، وأصر على العكس بأن يبدأ طريقا طويلا من المناقشات القانونية والمجادلات التى سببت فى الأول خيبة أمل، ثم شعور بالمرارة. إن من الطبيعى ومن المبرر تماما أن الإعلام المصرى علق ناقدا وأحيانا بقسوة على سياسة بيجين وتصرفاته.

إنه وإن كان غير مبرر وإن كان مفهوما أيضا، فإنهم تمادوا أزيد وأزيد في هذا الهجوم مستعملين لغة ما سبق ذلك من عقود ألا وهى اللغة المعتادة من العداء للسامية.

إن ذلك تم بالطبع إذاعته فى إسرائيل وأدى أكثر إلى التشدد فى المواقف وفى تسويء الجو. إن الإسرائيليين من جانبهم خاب أملهم فيما رأوه وكأنه تباطؤ من المصريين فى تنفيذ معاهدة السلام، وعلى الأخص رفض المصريين المضى فيما أصبح معروفا بالتطبيع، أو إنشاء علاقات طبيعية تجارية، واجتماعية، وثقافية، وعلمية، وعلاقات سياحية.

إن التوقيع النهائى على معاهدة السلام قوبل بالاحتفال فى مصر، ولكن بغير الحماس والانفجارات العاطفية التى ولدتها زيارة القدس. فبعد التوقيع ساءت المسائل بدلا من أن تتحسن. إن سببا رئيسيا فى الشكوى من إسرائيل كان هو عدم التقدم فى تنفيذ النصوص الخاصة بالحكم الذاتى الفلسطينى، والتوسع فى إقامة مستوطنات فى الضفة الغربية، والنزاع الذى استمر بين البلدين بالنسبة لطابا، وهى بضع مئات من الياردات يدعى الإسرائيليون ملكيتها، واحتفظوا بها بعد إخلائهم شبه جزيرة سيناء. إن الغزو الإسرائيلى للبنان فى يونية سنة ١٩٨٢ والخراب الذى تبعه، أتى بالعلاقات المصرية الإسرائيلية الى أوطى نقطها منذ المعاهدة، وإلى الهجر
الكامل لأى حدود فى الحملات، ليس فقط ضد إسرائيل والصهيونية، بل ضد اليهود ص٢٢٨
واليهودية فى الإعلام المصرى.

إنه منذ توقيع الاتفاقية حتى اليوم فإن المصريين لم تنقصهم أسباب الشكوى أو

أسباب التضرر السياسى من حكومة إسرائيل. إنهم فى بحثهم عن إصلاح أو معالجة تلك التضررات فإن الحكومة المصرية تصرفت أساسا ضمن حدود العلاقات أو الإجراءات الدبلوماسية والسياسية المعتادة.

إنهم خفضوا العلاقات التجارية مع إسرائيل الى الحد الأدنى، ولكنهم لم يعيدوا فرض المقاطعة العربية . وإنهم بينما نفروا أو لم يشجعوا المصريين على زيارة إسرائيل، فإنهم لم يمنعوا الإسرائيليين من زيارة مصر. وقد استمر هؤلاء فى المجيء لمصر بأعداد كبيرة . إنهم سحبوا سفيرهم من تل أبيب ولكنهم لم يغلقوا سفارتهم، ولم يطردوا السفير الإسرائيلى من القاهرة، والإنسان ليعجب لماذا لم تستخدم الحكومة المصرية نفوذها الكبير فى الإعلام، لكى تحضهم على أن يبدوا نفس التحفظ فى مناقشة تلك المسائل وأن يحددوا أنفسهم فى حدود المناقشات السياسية، والكتابات السياسية المعادية، بدلا من اللجوء كما فعلوا إلى نغمات ولغات العنصرية الدينية المعادية للسامية.

إن جزءا من الإجابة يمكن وجوده فى الاعتياد. إن العداء للسامية قد يكون فى مرحلته الأولى استيرادا غريبا من أوروبا، ولكنه أصبح جزءا عضويا من اللغة المقبولة فى الحوار، والتى بعض الكتاب يجدون أنه من المستحيل عليهم صياغة شكاواهم ضد الدولة اليهودية وقادتها بغير استعمال تلك القوالب سابقة التجهيز للعيب ضد اليهود . إن ذلك يأتى بسهولة فى مجتمع مستوى العنف فى العداء السياسى فيه ملحوظ أنه أعلى بكثير عما أصبح أخيرا هو المستوى العادى فىالعالم الغربى .

إن واحد من العوامل ذات النفوذ القوى جدا فى ذلك الاستمرار، وفى تكرر ظهور وانفجار تلك الموجة من الكتابات المعادية للسامية هو تأثير الدول العربية وعلى الأخص العربية السعودية والكويت. إن السادات حينما تفاوض وعقد صلحا مع إسرائيل، فإن مصر طردت من الجامعة العربية ومن وحدة الشعوب العربية وتعرضت لوحدة وعداء يكادان أن يكونا فى حجم تلك الحركات الموجهة ضد إسرائيل.

ومنذ ذلك الوقت، فإنه قد حدث تحسن ملحوظ فى العلاقات العربية المصرية، والحكومات المصرية المتعاقبة نجحت فى أن تحصل على قدر من القبول.

بالنسبة للدوائر المهنية والجالية المثقفة المصرية فإن تجدد الصلات بين البلاد العربية لهو ذو أهمية خاصة. إن مصر ولوقت طويل كانت هى الدينامو الثقافى للعالم العربى، تصدر الكتب والمجلات، والصحف، والمدرسين، والكتاب، والصحفيين إلى كل من جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا. ولكن هذه الصلة تفرض نوعا من التحديدات والقيود.

إن الكاتب المصرى نجيب محفوظ، والذى يعتبر أكبر كاتب حى فى القصة العربية، حينما تكلم مؤيدا التعايش مع إسرائيل، ودخل فى مراسلات مع كتاب ص٢٢٩
إسرائيليين، فإنه لعن كخائن، ووضعت كتبه على لائحةالمقاطعة بواسطة الجامعة العربية. إن تلك الكتب مازالت توزع توزيعا واسعا وتقرأ فى الدول العربية، ولكن فقط فى شكل طبعات مهربة. وهناك كاتبان آخران مبرزان، وهما المسرحى توفيق الحكيم، والباحث الإنسانى حسين فوزى، كذلك لعنا وقوطعا لأنهما رحبا بمعاهدة السلام. إن من الطبيعى أن الكتاب والناشرين، وعينهم على السوق العربية الغنية، سيحاولون أن يتجنبوا أى شئ مما يمكن أن يثير المنع، وربما يعطون الأفضلية لخطوط تفكير ومعالجات، محتمل أن تكون أقرب إلى الذوق السعودى . إن العداء الحاد للسامية فى كثير من المطبوعات السعودية، يعطى دلالة على نوع الكتب التى يمكن أن تحوز الرضا السعودى.

ولهذا وبغير شك لأسباب أخرى، فإن العداء للسامية يبقى نفوذا مهما فى الإعلام المصرى. وبعض الأمثلة يكفى. دار الهلال واحدة من أكثر دور النشر المصرية شهرة، وهى التى تنشر كتاب الشهر وهو كتاب واسع الانتشار. إن الاختيار لإبريل سنة ١٩٨١ كان كتابا عنوانه "اليهود تاريخا وعقيدة" لمؤلفه الدكتور كامل سعفان . إن المؤلف وصف على غلاف الكتاب بأنه خبير فى العبرية واليهودية، وإنه سيكشف أسرار اليهود كما بدأت منذ القدم. إن فرعون انقلب على اليهود لأنهم حاولوا الاستيلاء على اقتصاد مصر، وأكثر من ذلك أنهم تعاونوا مع المستعمرين الهكسوس ضد أهل البلد. ولذلك فإن فرعون تخلص منهم.

دكتور سعفان غير متحرز فى شتائمه أو فى ذكر سخائمه. فبالرغم من أنه يخاطب جمهور قراء غالبيته العظمى من المسلمين، فإنه يستخدم خطوط الفكر

المسيحية وكذا الإسلامية ومن ضمنها واقعة الصلب. إنه يعيد رواية تهمة سفك الدماء الدمشقية فى سنة ١٨٤٠، على أنها حقيقة تاريخية، ويدعى أنه كان هناك حالات أخرى مشابهة بقيت غير معروفة وذلك بسبب التحايل اليهودى. وكذلك فى كتاباته عن الأوقات الحديثة ورغم ما يبدو من أنه مؤمن بالعالم الثالث وبالمواقف السوفيتية، فانه لا يطرح تلك الاتهامات المعتادة الغربية، من التزويرات المعادية للسامية، كالتحذير المنسوب إلى بنجامين فرانكلين الرئيس السابق للولايات المتحدة، وعلى نطاق أوسع المؤامرة لحكم العالم. إن كتبا أخرى من هذا القبيل قد توالت، من ضمنها بعض كتب أنيس منصور الذى أصبح الآن واحدا من الصحفيين المبرزين فى مصر، ومعروف بأنه كان قريبا من الرئيس السادات.

إن حرية الصحافة فى مصر وبرغم أنها على قدر كبير من الاعتبار وآخذة فى النمو ولكنها إلى الآن لا تشمل الحق فى مهاجمة السياسات الحكومية المهمة. ص٢٣٠

ولذلك فإنه كان هناك معارضة ضئيلة، أو لا معارضة صريحة إطلاقا لسياسة السلم مع إسرائيل. ولابد أن هذا أعطى قوة مضافة إلى النقد غير المباشر فى شكل حملات على إسرائيل واليهود.

إنه إذا كان اليهود بحكم طبيعتهم شريرين وخائنين ـ ونغمة الخيانة مؤكد عليها تأكيدا كبيرا ـ هل يكون من الآمن أو المعقول الدخول فى اتفاقات مع أمثالهم؟ إن مثل هذه المجادلات نادرا ما تكون صريحة ولكنها واضحة وضوحا كافيا.

وحيث إن واحدا من أهداف الشتائم المعادية للسامية هو نقد الحكومة، فإنه يعرض كثيرا فى أعنف أشكاله فى صحف المعارضة، سياسية، اجتماعية وحتى ليبرالية. إن الجريدة اليومية الواسعة الانتشار الجمهورية كانت على وجه خاص ناشطة فى الدعاية المعادية للسامية. وعلى هذا ففى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٨٣ فإن كاتبا يدعى محمد الحيوان، خصص مقالا طويلا عن اليهود، وبالتخصيص اليهود المصريين فى نيويورك. إن ذلك مكنه من أن يجمع بين خطين لهما قبول شعبى ألا وهو العداء للسامية والعداء للامريكية.

إن نيويورك كما يشرح لقرائه هى مدينة بربرية عديمة الرحمة ولا قلب لها. إنها سيد عديم الشفقة يلتهم رعاياه. وبين أسوأ الأشياء في نيويورك اليهود وبين هؤلاء ص٢٣٠

اليهود أسوأ ما فيهم اليهود المصريون. إن هذه المقالة تبدأ بعتاب غريب أن يأتى من عدو للصهيونية انه يقول " إن اليهود المصريين لم يذهبوا إلى إسرائيل. بالرغم من أن هؤلاء الذين ذهبوا هناك على سبيل التجربة لم يستطيعوا البقاء لمدة طويلة. وذهب جميعهم إلى أمريكا.. وعلى الأخص نيويورك". ثم يمضى الكاتب في تحذير قرائه، إن نصيحته لأولئك الذين يذهبون إلى نيويورك" كونوا على حذركم من هؤلاء الذين يتكلمون اللغة العربية، ولاحظوا بحذر أنوفهم لأنهم هم من اليهود. إنهم يتملكهم أحاسيس بالكره ضد العرب ويريدون امتصاص كل ما يملكونه حتى الجفاف في كل من المعلومات والمال". إن اليهود المصريين لم يستطيعوا أن يعيشوا في إسرائيل كما يقول " لأنهم تعودوا أن يعيشوا على سرقة وغش المسلمين، أما في إسرائيل فإنهم كان عليهم التعامل مع يهود آخرين، وحيث إن اللص لايمكن أن يعيش بسرقة اللص الآخر فإنهم ذهبوا إلى نيويورك حيث يقعون على الزوار العرب". وتمضى المقالة لكى تشرح كيف أن اليهود المصريين في نيويورك يديرون عمليات إجرامية عديدة تحت حماية عمدة المدينة اليهودى.

إن نغمة الصحافة الاشتراكية ليست أحسن من هذا إطلاقا. ففى مقالة منشورة في جريدة الشعب، وهى لسان حال حزب العمل الاشتراكى، في ٢٨ يونية سنة ١٩٨٣ الكاتب سعد الفطايرى وهو سفير متقاعد يذكر" ٢٣ وسيلة ثقافية يستخدمها اليهود لتحطيم الحضارة الإسلامية". إن النقطة المدهشة في هذا النقاش هو تصريح خيالى مختلف منسوب لبيجين.

هذا التصريح هو "أنه يجب ألا يكون هناك تعاطف بالنسبة للعرب حتى نقضى على ما يسمى بالحضارة العربية ونبنى نحن حضارتنا فوق أنقاضها. إنه بالإضافة ص٢٣١ إلى الوسائل الواضحة السياسية والعسكرية، فإن السفير يشرح أن إسرائيل ايضا تسعى إلى حصار العرب، وذلك بتشجيع الفرقة بينهم، مولدة ثورات وحروبا أهلية بينهم، ومثيرة لأزمات اقتصادية واجتماعية في الدول العربية أو فيما بينها البعض والبعض. ولهذه الأغراض فإن إسرائيل أتقنت سلسلة من الوسائل للاختراق الثقافى للعالم العربى، والتى يمضى الدكتور الفطايرى في ذكرها بالتفصيل. إن تلك الوسائل تتضمن أشياء مثل الاختراق من خلال المؤسسات الرسمية وغير الرسمية

(السفارات والمراكز العلمية، والجمعيات التاريخية، وجمعيات الصداقة، وأدوات أخرى متنكرة في شكل بحوث دراسية). إن المعونة الفنية للدول النامية، والتبادل الثقافى والعلمى، ونشر مجموعة المعارف اليهودية بكل اللغات، مقدمة إسرائيل إلى العالم كما ترغب في أن ترى، ومحاولة كسب المسيحيين ابتداء من الفاتيكان ووثيقته التى برأت اليهود من دم المسيح، وبث المعلومات المزيفة، والمبالغة في مناقشة أو شرح موت وتدمير اليهود في ألمانيا تحت الحكم النازى، والتأكيد على النظام الديموقراطى في إسرائيل، والظهور بمظهر أنها قلعة الديموقراطية في الشرق الأوسط وأنها الدولة الوحيدة المتمدنة في المنطقة. إن الفقرة الأخيرة برغم أنها غامضة بعض الشيء إلا أنها تستحق أن تنشر بالكامل إنه يقول: " إن هذا الخطر المستمر، برغم أنه خطر كبير فإنه ليس أكثر سمية من الطاغوت الذي تمكن العرب بوضع ثقتهم في الإله واستجلاب عونه من هدمه والقضاء عليه".

إن أكثر المقالات وحشية أو إسفافا في المعاداة للسامية، تظهر ليس في الصحافة الاشتراكية أو الصحافة الأصولية، ولكن في "الاحرار" وهى لسان حال الحزب الليبرالى الذى ظهر من خلال التحرر الديموقراطى في السنوات الأخيرة.

فى عدد ١٩ يوليو سنة ١٩٨٢ في مقال كتبه الدكتور يحيى الرخاوى يعرض فيه نظريات جديدة عن التاريخ اليهودى والإسرائيلى إنه يقول " إنه عندما قامت دولة إسرائيل واكتسبت نوايا العالم الطيبة، واعترف بها كثيرون في الشرق والغرب، فإن واحد من أسباب هذا الاعتراف كان هو رغبة الناس في الشرق والغرب في التخلص من أكبر عدد ممكن من هؤلاء الذين يمثلون تلك الخطيئة الإنسانية المسماة "باليهود".

وخلف ذلك الباعث، كان هناك هدف سرى آخر، وهو تركيزهم في مكان واحد حتى يسهل ضربهم ضربة واحدة في اللحظة المناسبة. إنه ليس هناك من شك في أن مثل هذه الآمال تداعب خيالات أو أفكار سياسيين أكثر ذكاء من هتلر ولكنهم في الوقت نفسه أقل شجاعة مما كان هو عليه.

وبالنسبة لنا، فإننا يجب أن نتذكر خلال القتال والمفاوضات، الخطب والألغام، إننا جميعا – مرة ثانية- نواجه وجها لوجه المعضلة اليهودية، ليس فقط المشكلة ص٢٣٢ الصهيونية، وإننا يجب أن نعيد تقويم كل الدراسات التى فرقت أو ميزت بين اليهودى

والإسرائيلى.. ويجب أن نعيد تحديد معنى كلمة يهودى، وذلك حتى لا نتخيل أننا نتكلم عن ديانة سماوية أو أقلية مضطهدة من الإنسان. إن كل كلمة لها أصل، وتطور، وتاريخ. ويبدو أن كلمة يهودى اليوم تغيرت في محتواها ومعناها.

وعلى هذا فإننا مواجهون وجها لوجه مع العنصر الأساسى لمشكلة ارتدت حديثا رداء الدين وركزت نفسها على قطعة من الأرض. إننا في تلك المواجهة، لا يمكن إلا أن نرى أمامنا وجه الرجل العظيم هتلر رحمة الله عليه، والذى كان أعقل هؤلاء الذين واجهوا تلك المشكلة.. والذى بباعث الرحمة للإنسانية، حاول القضاء على كل يهودى، ولكنه يئس من إزالة ذلك النمو السرطانى في الجسم الإنسانى. والآن فإنهم يثبتون دقة حسه الصادق".

وفى بقية المقال، فإن الكاتب يصف الصراع الكونى الذى يجب أن يقوم الآن بين قوى الخير وقوى الشر، والأخيرة تتمثل في اليهود. إنه يؤكد أنه يتكلم ليس فقط عن الصهيونية، بل عن اليهود، وأنه يرى العدو في اليهود كأشخاص، واليهود كدولة. إنه يرى أن الصراع يأخذ مكانه على مستويين. فعلى أحد المستويين قوى الخير ومعناها المصريون، والفلسطينيون، وغيرهم من المسلمين، الذين يجب عليهم أن يهودوا أنفسهم حتى يتغلبوا على اليهود. ويقصد بذلك أنهم عليهم أن يصبحوا قساة، مخادعين منعدمى الرحمة، بلا ضمير وبذلك فإنهم يخاطرون إلى حد ما بكيانهم الأخلاقى.

وعلى هذا المستوى فإنه يلاحظ أن " معلمنا الخومينى أمد الله في عمره هو أكثر الناس لياقة لأن يلعب دورا في هذا الصراع" مع البابا والأب كابوتشى من خلفه.

إن ذلك يعطى أهمية متزايدة في الصراع في مستواه الثانى والأعلى، وهو الصراع بين الإنسانية عامة واليهودية. وفى وصف الصراع بين الإنسانية واليهود فإن الكاتب يحض فريقه (الإنسانية التى تتصارع مع اليهود) ألا يقلق بسبب تلك الاتهامات الغبية بالعداء للسامية. إن الهزيمة في المعركة، والفشل في قطع السرطان اليهودى من جسم الإنسانية يمكن أن يؤدى إلى تدمير الإنسانية نفسها.

إن الصحافة الحكومية في مصر، وإن كانت ليست خالية من نوع من العداء للسامية المتوطن، والمنخفض الحدة، فإنها لا تنشر عادة مواد من ذلك المستوى في

ص٢٣٣

العنف والقسوة. ومنذ إمضاء معاهدة السلام، وبالرغم من الصعود والهبوط في العلاقات الإسرائيلية المصرية، فإنه كان هناك تحسن عام في نغمة الخطاب، وخصوصا بعد أن جاء إلى الحكم في سنة ١٩٨٤ وزارة ائتلافية في إسرائيل، والزيارات للقاهرة التى قام بها الوزير عزرا فايتسمان في ربيع سنة ١٩٨٥. ولكن الصحافة المعارضة للحكومة زادت من عنفها ومن تكرار حملاتها المضادة للسامية منذ معاهدة السلام، والإعلام الحكومى باستثناءات قليلة لا يفعل إلا شيئا قليلا في الرد على ذلك.

إن الأثر التراكمى لهذا السيل العرم المنهمر من الدعاية المضادة للسامية ظهر بوضوح في مسألة رأس برقا. ففى ٥ أكتوبر سنة ١٩٨٥ في مكان يدعى رأس برقا في منطقة نويبع في سيناء قام شرطى مختل عقليا، من الشرطة المصرية، يدعى سليمان خاطر بإطلاق مدفعه الرشاش، على مجموعة من الإسرائيليين، الذين أقاموا خياما مما نتج عنه قتل ثلاثة من البالغين وتسعة من الأطفال الذين كانوا يتزحلقون على الكثبان الرملية. وخمسة أطفال تمكنوا من الهروب برغم أن اثنين منهما جرحا، أما السبعة الباقون، أربعة أشخاص، ثلاث فتيات وصبى، وامرأتان، ورجل وهو قاض متقاعد، فإنهم إما قتلوا وإما جرحوا جروحا معوقة، وطبقا لكلام شاهد عيان إسرائيلى، فإن رجال الشرطة المصريين الذين كانوا على مقربة من المكان، لم يقدموا أي مساعدة للمجروحين، بل وأوقفوا طبيبا إسرائيليا وآخرين من السياح، بتصويب البنادق نحوهم لمنعهم من الذهاب إلى معاونتهم كما أن هؤلاء الذين لم يكونوا بعد قد ماتوا تركوا لكى ينزفوا حتى الموت. إن حملة البنادق المخبولين يمكن أن يفقدوا صوابهم وينفجر جنونهم في أي مكان في العالم. والشرطى قال في خلال التحقيقات إنه ليس عنده علم بالوقت، ولا بشخصية وجنسية الناس الذين أطلق عليهم الرصاص، وإنهم لم يتعرضوا له بأى إهانة أو استفزاز. إن السبب الوحيد هو أنهم كما يقول تعدوا على منطقة ممنوعة.

وحتى التخلى عن نجدة المجروحين، يمكن إرجاعه ربما إلى عدم التأكد والاضطراب، ولكن الشيء الداعى للانزعاج حقيقة كان هو استجابة الصحافة المصرية المعارضة التى تردد صداها في بلاد عربية أخرى. فقبل مضى أي وقت بالكاد فإن سليمان خاطر أصبح يحتفل به كبطل قومى، وقامت المظاهرات الجماعية

سارت لتأييده. ولتبرير هذا التصوير لتصرفه، فإن سن وجنس الإسرائيليين الذين ماتوا لم يذكر، وكل أنواع من الخيالات المتناقضة نشر، كأن يقولوا إنهم كانوا جواسيس ضبطوا يصورون منشآت سرية، في منطقة منزوعة السلاح، أو إنهم مزقوا ص٢٣٤ الاعلام المصرية وبصقوا عليها، وإن نساء إسرائيليات نصف عراة أهانوا المشاعر الإسلامية والضمير الإسلامى لسليمان خاطر بل إنهم حتى هاجموه مما اضطره للدفاع عن نفسه بإطلاق النار. إن تلك القصص بقيت غير معارضة، ولا مكذبة، في الإعلام الموالى للحكومة، والذى حجب ولأسابيع عديدة الحقائق عن قرائه ومشاهديه. ولما تزايدت الاحتفالات بسليمان خاطر، كثيرون من المثقفين القياديين المصريين من اليسار ومن المعارضة الدينية اشتركوا في الإشادة به وبأعماله. وفى النهاية فإن سليمان خاطر نفسه وصل إلى قبول الدور الذى ألقى عليه.

وطبقا لأقوال السياسى الماركسى المعروف، الكاتب خالد محى الدين فإن محاكمة سليمان خاطر كانت محاكمة للرأى العام العربى والمصرى. وبالنسبة لنبيل الهلالى وهو محام شيوعى، فإن التهمة الحقيقية التى يوجهها النظام ضد سليمان، هى أنه اطلق النار ضد الصهيونيين، بدلا من أن يطلقها على العمال والطلبة. وقائد الإخوان المسلمين عمر التلمسانى، لاحظ أن كل مسلم كان سيفعل ما فعله سليمان، وإذا ما فعل كل مسلم ما فعله سليمان فإن إسرائيل ما كانت لتبقى. وهذا واضح أنه دعوة لحل مشكلة الشرق الأوسط بالإبادة الجنسية. والجميع رفضوا وبشدة التصريح الرسمى أن سليمان خاطر كان مجنونا، فلطفى الخولى الكاتب الماركسى ونائب رئيس التحرير اعتبر أنها اهانة للأمة المصرية بوصفه بالجنون لأنه هو الوحيد الذى وقف صلبا حيث الجميع لم يتقدموا. وفريد عبد الكريم واحد من قادة الحزب الناصرى العربى الاشتراكى، أشاد به على أنه ضمير الأمة الذى برصاصته هذه غسل عار الصمت في كامب دافيد، ثم استمر في التعبير عن أمله في أن الأمة بأكملها تصاب بنفس هذا الجنون. ومحمد إبراهيم وهو وزير سابق للخارجية قال إن فعلة خاطر عبرت عن غضب كل مصرى وكل عربى عقب العدوان الإسرائيلى في تونس، يشير بذلك إلى الهجوم الإسرائيلى على منظمة التحرير في تونس. وعلى هلال الدسوقى وهو أستاذ في جامعة القاهرة مخاطبا الجندى " يا أخى سليمان" عبر عن اندهاشه من عصر يتهم فيه رجال من أمثال سليمان بالجنون، وعبر كذلك عن حزنه على هؤلاء العقلاء في وقتنا هذا. ونور الشريف وهو ممثل، خاطب خاطر قائلا: " إنك

أعقل الناس جميعا بيننا لأنك فعلت ما نريد كلنا فعله". وأحمد ناصر عضو نقابة المحاميين، صرح باعتقاده أن التاريخ سوف يكرم سليمان خاطر كمثال حى على المصرى النبيل الذى يرفض أن يضل سبيله بالمعاهدات والخيانات والتسليم. إن مدرسة الإشادة هذه الغريبة العجيبة بسليمان خاطر، وصلت إلى مداها عند نهاية السنة، حينما احضر للمحاكمة أمام محكمة عسكرية. إن المظاهرات التى نتجت نظرت اليها الحكومة – ولها بعض الحق في ذلك – كتهديد لها، ولأول مرة فإن الصحافة الحكومية نشرت القصة الحقيقية لما حدث فعلا في رأس برقا، ومن كان هم الضحايا. إن بعض الكتاب في الصحافة المصرية، ذهبوا إلى حد أن الاعلام الحكومى كان مخطئا في عدم نشر الحقيقة، وبذلك أعطى مجالا واسعا إلى ناشرى الكذب. وعبر هؤلاء عن فزعهم من حالة عقلية تجعل من قاتل للنساء والأطفال بطلا قوميا وتدعو الآخرين لاتباع مثاله. وفى مقالة أخاذة بنوع خاص، نشرت في المصور في ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٨٥ ، مكرم محمد أحمد رئيس تحرير المجلة أعاد فيها اختبار القصة أو حقق فيها بأجمعها وبتطويل. وقد ذكر الصورة الرسمية للتحقيق مع الرجل المتهم، ثم لام الصحافة المعارضة على تناولها عديم المسئولية، وعديم الصدق، في تناول تلك القصة. وعبر عن اعتقاده بأنه لو اختلف الحال، وأن جنديا إسرائيليا قتل نساء وأطفالا مصريين، فما من واحد في إسرائيل، ولا حتى أكثر المتطرفين تعصبا كان يمكن أن يصف ذلك الفعل بأنه كره وطني لاعداء إسرائيل، وخصه بالمديح من أجل ذلك.

إن الحكم على سليمان خاطر، وما عرف بعد ذلك من أنه انتحر في السجن، في يناير سنة ١٩٨٦ ، بدا للوهلة أنه أنهى ذلك الفصل، وأنه جذب الانتباه إلى الخطر أو الإصابة التى تحدثها مثل هذه الحوادث في شرف وكرامة مصر، مما قد يكون له بعض الأثر.

ص٢٣٥ إنه لا شك من المبكر أن يطلب من الكتاب العرب، أن يعطوا قراءهم مناقشات وآراء متجردة من العواطف بالنسبة لإسرائيل والصهيونية، ولكن ليس من غير المعقول أن يطلب منهم أن يوفروا للجمهور القارئ وأهمهم الأطفال الأبرياء القابلون للتأثر في المدارس، رواية للتاريخ، والدين، والثقافة، عن جيرانهم الجدد، أهدأ وأكثر دقة من التخيلات السخيفة الشريرة التى أوجدها أعداء السامية الأوروبيون. ومن سوء الحظ

فإنـه لـيس مـن المـحـتمل أن يحـدث تغـيير إلى الأصـلـح في الاعـلام، حيـث مـازال هـناك أعداد مهمة من الباحثين المصريين، والكتاب، والمحررين، والناشرين يحسون أنه من الضروري لهم أن يتطابقوا مع الجو السائد في العربية السعودية وتوابعها الثقافية.

إنـه في تلك وفـى غيرها من الأقطار العربية الجو لم يتحسن، مادام هناك القليل أو لا مقـيمون إطلاقـا يهـود، وفقـط زائـرون نـادرون مـتخفون، وطالما أن القـارئ العـربى الراغب في معـرفة شـيء عـن اليهود، سـيجد فقط أدبا مسيطرا عليه التعصب الجاهل للحبر رولينج والرائعة المفبركة المعادية للسامية ألا وهى بروتوكولات حكماء صـهيون.

الفصل التاسع

الطراز الجديد من العداء للسامية

مع فهم أحسن، أو على الأقل فهم أكمل لمعنى ودلالة عبارات مثل : يهود وساميين، اليهودية والإسلام، الصهيونية والعداء للسامية، فإنه يكون من الممكن أن نتناول أو أن ص٢٣٦ نتعامل مع السؤال الذى بدأنا به تعاملا أكثر عقلانية وأكثر فهما، ألا وهو، ما الأهمية التى يجب أن نوليها في النزاع العربى الإسرائيلي للعداء للسامية، وأكثر تحديدا للكراهية الخاصة والعميقة ضد اليهود، والتى تذهب إلى أبعد من حدود الصراعات السياسية الطبيعية، بل أبعد من حدود العداوات الطبيعة، والتعصبات، التى تقوم بين أناس مختلفين، وتنسب إلى هؤلاء الأعداء شرا شيطانيا كونيا؟

إننا في التعامل مع هذا السؤال يلزم أولا التحديد الدقيق لأوجه النزاع العربى الإسرائيلي التى نحن مهتمون بها، وثانيا التخلص من أساطير ملحة طالما استبدت أو شابت كل المناقشات في هذه الأمور.

بالنسبة للنقطة الأولى، فإن تساؤلنا يهتم فقط، بهل ثمة وجود لهذا النوع من الكراهية بين المشتركين في هذا الصراع سواء كان مباشرة أو غير مباشرة الإسرائيليين والفلسطينيين ، اليهود والعرب ، القوى العظمى والقوى الأصغر الذين يتبعون اهتماماتهم المختلفة للمنطقة، وعلى الخصوص عن تأثير أو نتائج العداء للسامية في تطوير أو صياغة السياسة، وفى اختيار التكتيكات بواسطة المشتركين في النزاع، وفى المناقشات العلنية لتلك المسائل في وسائل الإعلام؟ إن بحثنا لم يكن مهتما مباشرة بالصواب والخطإ في النزاع العربى الإسرائيلى، ولا بأحقية وعدم

أحقية القضايا المختلفة التى تطرح في هذا النزاع. وأكثر عمومية، فإن البحث لم يكن مهتما بأى من هذه الأوجه ـ مع إنهم هم الأكثر أهمية ـ والتى لا علاقة لها بالجنس والكراهية والتعصب.

فبين الإسرائيليون، واكثر من ذلك بين اليهود الآخرين والضالعين مع اليهود، فإن هناك اتجاها للمساواة بين العداء لإسرائيل أو للصهيونية مع العداء للسامية، وأن ينظر إلى عرفات على أنه طبعة جديدة غير ناجحة من هتلر، وعلى هيئة التحرير، على أنها نظير فرق العاصفة النازية في الوقت الحاضر. ومن الواضح أن هذه توازيات خاطئة. إن الصراع العربى الإسرائيلي في أساسه، وفى خصوصيته، هو صراع ص٢٣٧
سياسى، تصادم بين شعوب ودول، حول أمور حقيقية، وليست مسألة تعصب أو اضطهاد.

ولكن بينما النزاع العربى الإسرائيلي مثال من أمثلة الصراعات الطبيعية، فإنه يحتوى على ظواهر غير طبيعية، مما يجعله صراعا فريدا. إن تلك الظواهر غير الطبيعية، تنبع من الرفض الدائم بواسطة كل الدول العربية، باستثناء واحدة منهما للإعتراف بإسرائيل، أو للمواجهة وجها لوجه في مفاوضات مع ممثليها الرسميين. إن ذلك الرفض مازال قائما بعد حوالى أربعين عاما من الوجود الإسرائيلي وبعد سلسلة من الهزائم العربية السياسية والحربية. لبنان التى تفاوضت ووقعت اتفاقا مباشرا مع إسرائيل في سنة ١٩٨٤ اضطرت لأن تهجر ذلك الاتفاق، والحكومة اللبنانية لم يسمح لها بالدخول في اتصالات سياسية مع إسرائيل حتى ولو كان ذلك لترتيب التحرير المنظم لأراضيها. مصر على خلاف لبنان كان عندها من القوة ما يكفى لأن تأخذ خطا مستقلا، وأن تدخل في مثل هذه العلاقة مع إسرائيل. وكانت نتيجة ذلك أنها نبذت من كل الدول العربية تقريبا، ومعظمهم قطعوا علاقاتهم الدبلوماسية مع القاهرة، ووضعوا مصر في نفس النوع تقريبا من الوحدة كإسرائيل نفسها.

ولعله وربما يكون من أشد المسائل لفتا للنظر ذلك التدمير أو التخريب الرمزى التعبيرى والذى يمكن للإنسان أن يقول إنه يقرب من أن يكون سحريا، الذى يكرر ويعاد فعله في هيئة الأمم ووكالاتها المختلفة، والذى هو وكأنه تجسيد مستقبلى لما تأمل الدول العربية في إلحاقه في النهاية بإسرائيل. حتى أكثر النزاعات مرارة بين

فرنسا وألمانيا حول الإلزاس واللورين، وبين اليونان وتركيا حول قبرص، وبحر إيجه، بين الصين واليابان، الهند وباكستان، أو العراق وإيران، لم يحدث أن تضمن أبدا عدم الاعتراف التام من جانب بالآخر، والرفض التام لأى حوار، والنية المعلنة ليس فقط لهزيمة بل لإزالة الدولة المعادية ومسحها من الخريطة. وبينما السياسيون أو رجال الدولة في بعض البلاد العربية، يتكلمون في خصوصياتهم، أو في خارج بلادهم، عن البقاء المتبادل أو السلام مع إسرائيل، فإن القليلين باستثناء مصر، ليسوا حتى الآن مستعدين لأن يقولوا ذلك علانية في بلادهم، وفى عبارات تبعد عن التقريرات المبهمة المعتادة .

فيماذا إذن يرقد ذلك التفرد، ذلك المعنى الخاص بالغضب والذى بعد حوالى أربعين عاما مازال لم يرتو؟ أن البعض يرى أسبابه في اخراج الفلسطينيين من ديارهم إلى الدول العربية المجاورة، حيث أعداد كبيرة منهم مازالت تعيش في معسكرات اللاجئين. ومهما كانت أسباب ذلك، سواء كانوا قد طردوا بواسطة الإسرائيليين، أو حثوا على الذهاب بواسطة قادتهم، أو ببساطة فروا فزعين من ص٢٣٨ الحرب التى اشتعلت حول ديارهم، فإنه لا يمكن الشك في عظم المأساة الإنسانية التى وقعت عليهم وحول المقاساة التى تحملوها منذ ذلك الوقت حتى وقتنا هذا.

ولكن صعوبة مشكلة اللاجئين على الحل هى نتيجة وليست سببا للمشكلة السياسية. إنه إذا كانت المشكلة لم تحل كغيرها في قرننا الوحشى هذا، بالجمع بين إعادة التوطين وبعض العودة إلى الوطن، فإن ذلك يرجع إلى قرار إرادى من جهة القيادة الفلسطينية والدول العربية.

إنه كان في الواقع عمل أو إنجاز لايستهان به، الاحتفاظ بمعسكرات اللاجئين وسكانهم البائسين، لهذه المدة الطويلة، ومنع امتصاصهم في الاقتصاديات المتوسعة فىالدول العربية البترولية، في وقت تقوم هذه بجذب وتشغيل ملايين من العمال الضيوف، من مصر واليمن وإفريقيا والهند وباكستان وسيريلانكا وحتى من أماكن بعيدة ككوريا والفلبين.

هل ذلك الإحساس الخاص بالغضب يأتى، كما قال الكثيرون من حقيقة أن دولة إسرائيل كونت بعناصر دخيلة، أتت من عبر البحار، وفرضت نفسها على بلد لم

يعيشوا فيه من قبل، حالين محل سكانه، ومحولين الباقين إلى وضع الشعوب المقهورة؟

من المؤكد أن تلك الأحداث تعطى أو تثير مشاعر عميقة من الغضب. إن ذلك الفهم بأن الإسرائيليين كعناصر دخيلة جاءت من الخارج، باق حتى ولو أن الأغلبية الآن من اليهود الإسرائيليين جاءوا أصلا من الدول العربية المجاورة وأقطار إسلامية أخرى .

ولكن حتى تلك الأحداث بعيدة كل البعد من أن تكون ظاهرة فريدة، وفى الحقيقة أن كل الدول السيادية في نصف العالم الغربى، ومثلها في ذلك مثل كثيرين في أماكن أخرى، نشأت عن ذلك الطريق.

بالنسبة للمسلمين على الخصوص، فإن فقدان أراض اسلامية إلى غزاة غير مسلمين، كانت ضربة كبيرة سببت الأسى والغضب، ولكن ذلك أيضا ليس شيئا غير مسبوق وفعلا وقع مرات عديدة من قبل. من ضياع البرتغال وإسبانيا في نهاية القرون الوسطى، إلى هجر مقاطعة بعد مقاطعة، وجالية إسلامية عقب جالية إسلامية، في جنوب أوروبا الغربى خلال الحرب أو التراجع الطويل للإمبراطورية العثمانية، المسلمون فقدوا كثيرا من الأقطار للمسيحية. وبلاد إسلامية قديمة في الشواطئ الشرقية والشمالية للبحر الأسود وحول بحر قزوين وفى آسيا الوسطى أضيفت إلى الإمبراطورية الروسية. إنهم يكونون جزءا من الاتحاد السوفيتى ومصيرهم يحدد في موسكو.

وأحدث من ذلك غزو واحتلال الدولة الإسلامية المستقلة أفغانستان، وإدماجها في ص٢٣٩
النظام الإمبريالى السوفيتى، وما صاحب ذلك من نفى الملايين من شعبها، مر بدون احتجاج أو اهتمام ملحوظين من الحكومات الإسلامية اوالشعوب الإسلامية.

لماذا إذا هذا الغضب الخاص في الاستجابة الإسلامية لنهاية فلسطين وميلاد إسرائيل؟ إن جزءا من ذلك من المؤكد أنه يرجع إلى وضعها الجغرافى في قلب العالم العربى الإسلامى، وإلى أنها ضمت القدس والتى هى- بعد نضال طويل مرير- اعترف بها أخيرا بأنها ثالث المدن المقدسة في الإسلام بعد مكة والمدينة. ولكن الجزء الأكبر من الإحساس بالغضب والاستثارة، كما يبدو أو يوضح في خطابات وكتابات

لا حصر لها، يرجع إلى شخصية أولئك الذين أوقعوا تلك الهزائم الدرامية على الجيوش الإسلامية العربية، وفرضوا حكمهم على شعب مسلم أو شعوب مسلمة عربية.

إن المنتصرين لم يكونوا أتباع ديانة عالمية، ولا جيوش قوة إمبراطورية قوية والتى يمكن للإنسان أن يلقى منها الهزيمة دونما عار، وليس الملك الكاثوليكى في إسبانيا، ولا الإمبراطورية البريطانية متسعة الأطراف، ولا القوة الروسية العظيمة التى لا ترحم، ولكن اليهود، قليلون مبعثرون، لا حول لهم والذين ذلهم السابق جعل انتصاراتهم ممعنة في الإذلال.

إن ذلك الفهم ليس في حد ذاته معاديا للسامية . إنه لا ينكر أن اليهود لهم مكان في النظام الكونى، ولكنها تصر على أن مكانهم يجب أن يكون مكانا متواضعا، وموقفهم كأقلية محكومة محتملة، ولكنهم بظهورهم كقهرة وحكام، فإن اليهود بذلك قد قلبوا النظام الإلهى للعالم. إن نفس المعنى ونفس النوع من الغضب أو الاستثارة لون الاستجابة المعاصرة التركية للغزو الإغريقى للأناضول الغربى في سنة ١٩١٩. إن الأتراك أمكنهم أن يريحوا غضبهم بهزيمة الغزاة اليونانيين، وقذفهم ثانية إلى اليونان. أما العرب فلم يتمكنوا من هزيمة الإسرائيليين، الذين أغلبيتهم العظيمة على كل حال لا مكان آخر لها لتذهب أو تعود إليه.

إنه كانت هناك محاولات غير ناجحة لتبادل الحوار بعد الحرب العربية الإسرائيلية الأولى، ولكنها توقفت بعد حروب ٥٦ و ٦٧. إن الانتصارات الإسرائيلية في سنة ١٩٤٨ ، ١٩٤٩ كانت ضئيلة الحجم نسبيا، واكتسبت بعد قتال عنيف وخسائر ثقيلة. إنها تركت شعبا عربيا صغيرا نسبيا، وصامت، بقوا كرعايا أو مواطنين لإسرائيل . وحتى تلك الأحداث تركت إحساسا بالصدمة. الانتصارات السريعة والواسعة والتى بدا أنها استلزمت مجهودا قليلا، للعصابات الصهيونية المحتقرة، على جيوش عربية كثيرة، أضاف إلى الشعور بالمذلة، الذى لا يمكن تحمله، ص٢٤٠
وضاعف منه الإهانة المستمرة للاحتلال أو الحكم العسكرى الإسرائيلي المعزز الآن بالمستوطنات، فوق شعب عربى كثير العدد وعالى الصوت. إنه كان من الصعب على العرب الاعتراف بالتفوق الإسرائيلى، وأصعب منه كان هو العيش تحت أو بجوار السيطرة اليهودية. إنه في اعقاب تلك الهزائم، وبسبب الحاجة إلى فهمها، إن العداء

للسامية، المشابه لطراز العداء النازى، أتى ليستولى على مناقشات العرب للصهيونية واليهودية وكذلك دولة إسرائيل. إن النجاح المصرى في عبور قناة السويس في سنة ١٩٧٣، واسترجاع اجزاء من سيناء، وفر راحة جزئية لذلك الحزن. ولكنهما – العبور والاستعادة – كانا مقدمات ضرورية لرحلة أنور السادات إلى القدس، وفى هذا يمكن القول بأنه ربما يوجد بعض الامل في المستقبل.

إن هناك بعدا آخر للسؤال قليل الصلة إن لم يكن منعدم الصلة بسياسات الشرق الأوسط.

حيث إن إسرائيل هى دولة يهودية، يسكنها في الأغلب اليهود، وحيث إن هناك ناسا يكرهون اليهود باستقلال أو بلا علاقة بالصراع الفلسطينى، فإن العداء للسامية يمكن أحيانا أن يكون عاملا في تحديد الاتجاهات وحتى أحيانا في تحديد السياسات والأفعال.

إلى أي أبعد وفى أي ظروف كان ذلك؟ إن هذا السؤال يمكن اختباره بالنسبة لبعض المجموعات المختلفة والمشتركة في هذا.

إنه بينما العداء للصهيونية أو العداء للإسرائيلية، ليس من الحتم أنه منبعث من العداء للسامية، فإن الاحتمال لايمكن استبعاده، وفى بعض الحالات هو كذلك ولتحديد ما إذا كان معارضو الصهيونية أو ناقدوا إسرائيل موحى إليهم بدوافع شريفة، أو غير شريفة مثل العداء للسامية الخبيء فإن الشخص يجب أن يختبر كل حالة- الحكومة، والحزب، والمجموعة، والشخص على حدة – إنه إذ يفعل ذلك فإنه يجب أن يبحث عن معايير محددة بعينها ليرى هل تتوافر أم لا.

إن التفرقة بين العلامات معظم الوقت من الصعب تبينها. فإنه أحيانا الخطابات الحادة والصحافة في مجتمع معتاد على التشاتم الحاد، ومشتبك في حرب طويلة مريرة، يمكن بسهولة أن تؤخذ ـ وليس بالضرورة ذلك صحيح ـ على أنها تعبير عن العداء للسامية. وعلى العكس فإن اللوم المثار بعناية، والذى يصدر عن ثقافات أكثر رقيا وسفسطائية، قد تقود أولئك الذين لا يعرفون اللغة الكودية للعداء للسامية، لأن يقبلوه ـ مع الاحتمال المتساوى للوقوع في الخطأ ـ على أنه تعبير عن اعتقاد عادل أمين. إنه في العالم العربى حيث الأمزجة محتدة واللغة قوية فإن التعليق العادل قد

يبدو أحيانا وكأنه تعصب، وفى الغرب حيث الاعتدال له المكانة المحترمة وحيث تسود مستويات مختلفة اجتماعية فإن العكس يمكن أن يحدث.

إن التفرقة أسهل أن تلحظ في العالم العربى عن الغرب، حيث إن العرب بعد كل شيء مشتبكون مباشرة، وحيث مصالحهم الحيوية هى التى في خطر . إن العرب ص٢٤١ حين يتهمون الإسرائيليين وقادتهم والموالين لهم بكل أنواع الخطايا الشيطانية فإنهم قد يكونون لا يفعلون أكثر من الاشتباك في الدعاية الطبيعية في أوقات الحروب ضد العدو. إن محتويات اللغة في تلك الدعاية قد يبدو أنها متجاوزة للحدود، وخصوصا حينما تقارن بنغمة الأغلبية العظمى من السياسيين الإسرائيليين والدارسين الباحثين والصحفيين حين يتكلمون عن العرب ولكن هناك أمثلة مماثلة يمكن أن توجد لذلك في سلوك كلا الجانبين خلال الحربين العالمتين.

إن المتحدثين باسم العرب حين يشبهون مناحم بيجين بأدولف هتلر وجنكيز خان، فإن اتهاماتهم قد تصدم الغرب وتستثير غضب اليهود، ولكننا يمكن أن نقدر تقديرا أفضل وقع ذلك في الدوائر العربية، إذا ما تذكرنا أن أدولف هتلر كان ولمدة طويلة بطلا محل إعجاب، وأن الأمين العام للجامعة العربية أعلن أن الغزو العربى لفلسطين الانتداب في سنة ١٩٤٨ ، قال وهو مخطئ كما تبين، إن التدمير الذى ستوقعه الجيوش العربية على إسرائيل سيتساوى مع أفعال الغزاة المغول، أي أتباع جنكيز خان. إنه في ذلك المقام يمكن أن نتذكر، أنه من سنين ليست كثيرة فإن الأمريكان الشبان والحائزين على قدر كاف من التعليم بحيث يسمح لهم بدخول الجامعات المهمة، كانوا يشبهون بوليس حرم الجامعات بالجستابو النازى، وقارنوا السياسيين الأمريكيين والأكاديميين بالإرهابيين، والحكم الإرهابى القبيح، الذى خرب أوروبا وأشعل الحريق في العالم وأتى بالموت إلى ملايين عديدة . إذا كان الطلبة الأميريكيون لا يستطيعون أن يروا الفرق بين معايب الديموقراطية والشر المحض المتضمن في الفاشية فإن العرب الشبان الذين ليس لديهم معرفة بأى من شكلي الحكومات هذه أي الديموقراطية أو الفاشية.لا يمكن أن يتوقع أن يكونوا أحسن حالا أو أكثر ص٢٤١ فهما.

إن استخدام عبارة نازى لوصف إسرائيل، في أوروبا الغربية وعلى الخصوص في أوروبا الشرقية، والتى تعلم منها العرب أولا تلك الممارسة هى أمر مختلف جد

الاختلاف. إن الأوروبيين على خلاف معظم العرب أو الأمريكيين علموا مباشرة ماذا كانت النازية وماذا فعلت النازية باليهود.

وهم بعلمهم هذا لابد وأن يكونوا محاذرين من تلك المقارنات السخيفة. إنهم حينما يستخدمون تلك المقارنات فإنهم يثيرون أسئلة أساسية ومقلقة بالنسبة لاتجاهاتهم ودوافعهم الخاصة.

وحتى فإن القصد العربى المتكرر تأكيده لنية حل دولة إسرائيلية وتصفية المجتمع الصهيونى ليست في حد ذاتها بالضرورة تعبيرً عن العداء للسامية. فإن في نظر معظم العرب، قيام دولة إسرائيل كان عملا من أعمال الظلم وانعدام العدالة، ص٢٤٢
واستمرار وجودها هو اعتداء مستمر. وبالنسبة لهؤلاء الذين يعتنقون وجهة النظر هذه فإن تصحيح تلك المظلمة وإزالة ذلك العدوان هما أهداف سياسية قانونية مبررة.

إن مثل هذا لا يمكن قوله بالنسبة للكم الكبير المتعاظم من الكتابات العربية عن إسرائيل واليهود فإنه حين المتحدثون باسم العرب، لا يكتفون بإدانة أخطاء إسرائيل، وينسبون تلك الأفعال إلى صفات عنصرية متأصلة يمكن ملاحظتها عبر التاريخ، وحينما أيضا يتهمون الشعب اليهودى بأنه يزاول جرائم شنعاء، كالقتل للمراسم الدينية والسعى من خلال مؤامرات سرية للسيطرة على العالم، وحينما يوثقون تلك الاتهامات بالفبركات المعتادة للكتابات الأوروبية المعادية للسامية، وفى النهاية حينما يخصصون جهدا عظيما وموارد كبيرة لنشر تلك الفبركات والاختراعات في العالم كله، إذن هنا لايبقى أي شك في أن هؤلاء العرب الذين يكتبون ويوزعون هذه الأشياء مشتبكون في نشاطات معادية للسامية لا تختلف عن تلك التى شوهت وجه تاريخ أوروبا المسيحية ولقرون عديدة.

وبأخذ نطاق وحجم تلك النشاطات في الاعتبار، فإن السؤال لم يعد هل بعض الحكومات العربية تتبع سياسات معادية للسامية؟ بل السؤال هو لماذا تبنت تلك السياسات؟ والى أي أبعاد قد ذهبت؟ والى أي عمق كان تأثيرها؟

إن العرب ليسوا المجموعة الوحيدة التى تنبعث معارضتها لإسرائيل من تعارض المصالح. إن العداء العربى لإسرائيل يعتمد أو يقوم على شكاوى ومخاوف حقيقية، ونزاع حقيقى على مصالح ومطالب متعارضة. إن هذا النزاع يمكن أن يظله التعصب

بظلاله الداكنة، ويمكن أيضا أن يؤثر التعصب في تعبيره عن نفسه. ولكن التعصب ليس هو السبب . ومثل هذا يمكن أن يقال بدرجات مختلفة على معارضين آخرين لإسرائيل. فالاتحاد السوفيتي على سبيل المثال عنده أسباب سياسية واضحة محلية ودولية لعدائه لإسرائيل . فمن الواضح أن المصالح السوفيتية لا يخدمها وجود دولة قوية في الشرق الأوسط التي هي ليست فقط مرتبطة أو متحالفة تحالفا سياسيا مع الولايات المتحدة، ولكنها أيضا مرتبطة بالغرب بواسطة مؤسسات وطريقة في الحياة.

إن السوفييت يعلمون تماما أن التحالفات الإستراتيجية أكثر فاعلية وأكثر متانة حينما تكون قائمة على صلات حقيقية أو تقاربات حقيقية، وليست فقط مجرد اختيارات سياسية للقادة الحاليين. إنه من أجل ذلك فإن السوفيت نادرا ما يرتاحون إلى التحالفات السياسية والإستراتيجية، ودائما يحاولون اعادة صياغة المجتمعات والأنظمة ـ في الدول التي لهم فيها نفوذ كاف ـ على صورة مطابقة لصورتهم.

إن ديموقراطية غربية النمط من الصعب خلقها، لذا فإن أمريكا في هذا الحال ليست في موقف ممتاز. ومع ذلك فإن تلك الأنظمة أو تلك الديموقراطيات أكثر ص٢٤٣ صعوبة في أن تدمر، ووجودها يضع بالتالي السوفييت في وضع غير ملائم مماثل للوضع الأمريكي السابق ذكره. وبينما السوفييت كثيرا ما حصلوا على مكاسب سياسية باستغلال العداء العربي لإسرائيل فإن ذلك عادة أثبت أنه مرحلة عابرة.

ولكن العداء السوفيتي لإسرائيل وللصهيونية يمكن أحيانا أن يكون له أسباب أخرى، لا علاقة لها بالصراع في الشرق الاوسط. فعلى خلاف النازيين فإن الروس ليسوا مرتبطين علانية وفكريا بسياسة معادية لليهودية، واتجاههم الرسمي تجاه العداء للسامية هو أن يدينوه ويلعنوه.

إنهم قادرون تماما على الانتقال من جانب إلى جانب إذا ما ظنوا أن ذلك في مصلحتهم، وفي الواقع ولمدة قصيرة في السنوات المتأخرة من الأربعينات فإنهم فعلوا ذلك. إن الدبلوماسية السوفيتية عاونت إسرائيل ضد بريطانيا، والأسلحة من الكتلة الشرقية هي التي مكنت الدولة الوليدة اليهودية من الوقوف ضد هجوم الجيوش العربية في سنة ١٩٤٨ . ومع ذلك ومنذ ذلك الحين فإن الاتحاد السوفيتي انقلب إلى

الجانب الآخر، واتبع هو والدول الدائرة في محوره وأتباعه اتبعوا سياسة عدائية لا هوادة فيها بالنسبة لإسرائيل والصهيونية.

وبينما تلك السياسة يمكن تفسيرها، وفى المقام السوفيتى يمكن تبريرها على أرضية سياسية، فإن بعض ملامحها جديرة بالملاحظة. وواحد من ذلك هى اللغة العنيفة المستخدمة في مخاطبة إسرائيل وفى مناقشة الأمور الإسرائيلية في التصريحات الدبلوماسية والأكاديمية وكذلك في الدعاية الصريحة.

وحتى بالنسبة لمستوى السخائم السياسية الشيوعية، فإن السباب المستخدم في لعن إسرائيل والأفعال الإسرائيلية قوى إلى درجة ملحوظة. إنها بقيت مستمرة القوة عبر السنين، وهى أكثر في قوتها تلك من اللغة المستخدمة ضد أي من الحكومات الأخرى والأنظمة والحركات والشعوب والأفكار التى أثارت في وقت أو آخر عداء السوفيت.

وربما يكون أكثر جذبا للنظر حقيقة أن الاتحاد السوفيتى في مناسبتين قطع علاقاته الدبلوماسية مع إسرائيل. إن تلك خطوة لم يحدث أن اتخذها السوفيت منذ وقت مبكر في تاريخهم حتى مع أكثر أعداءهم خطورة وأصرارا. إن السوفييت ولأسباب قوية دائما أعطوا أهمية عظمى إلى الاحتفاظ ببعثاتهم الدبلوماسية والقنصلية حتى في المناطق المعادية سياسيا.

إنهم كانوا دائما حريصين على الاحتفاظ بعلاقات دبلوماسية أطول وقت ممكن مع بولندا في عهد بلسوديسكى، وحتى بعد مقتل السفير السوفيتى في وارسو، ومع إيطاليا الفاشية ومع ألمانيا النازية حتى بعد الضم النازى للنمسا والاحتلال الألمانى لتشيكوسلوفاكيا. ولم يحدث أنهم وجدوا أنه من الضرورى في الأوقات الحديثة قطع العلاقات الدبلوماسية مع دول معارضة لهم، أو التى ينظرون إليها على أنها صنيعة قوى معادية في أوروبا، وآسيا، وإفريقيا، أو الأمريكتين؟ إنهم كانوا دائما حريصين على الاحتفاظ بعلاقات مع أنظمة أعلنوا أنها امبريالية أو فاشيستية، وحتى مع أنظمة معادية للشيوعية عداء قاسيا كذلك النظام الذى في إندونيسيا، التى حرمت الشيوعية، وأعدمت الشيوعيين بأعداد عظيمة. إنهم لم يقطعوا علاقاتهم مع الأنظمة الشيوعية الخارجة عليهم كتلك التى في يوغوسلافيا والصين، بالرغم من التعارض ص٢٤٤

الأيديولوجى الحاد والمعارك السياسية. إن القطع الوحيد للعلاقات مع مثل تلك الأنظمة المارقة كان مع ألبانيا في سنة ١٩٦١ وحدث من الجانب الألبانى وليس من الجانب السوفيتى. إن معظم الدول الدائرة في محور السوفييت احتفظت بعلاقاتها الدبلوماسية مع ألبانيا والسوفييت حاولوا بغير نجاح أن يعيدوا تلك العلاقات.

وعلى النقيض فإنهم قطعوا علاقاتهم السياسية مع إسرائيل مرتين :المناسبة الأولى كانت في سنة ١٩٥٣ في وقت مؤامرة الأطباء المزعومة في موسكو حين انفجرت قنبلة صغيرة في ساحة السفارة السوفيتية في تل أبيب. مع أنه لم يكن هناك أقل شك في أن تلك عملية خاصة غير مسئولة. إن العلاقات الدبلوماسية أعيدت بعد فترة ولكنها قطعت ثانية في سنة ١٩٦٧، وفى هذه المرة تمت القطيعة من الكتلة السوفيتية ما عدا رومانيا.

وحتى في طريقة قطع العلاقات الدبلوماسية فإنها كانت مميزة أو كانت على شكل خاص. إن الدول حين تقطع العلاقات الدبلوماسية فإن مصالحها يعهد بها عادة إلى رعاية دولة صديقة. وفى الوقت الحاضر فإن ذلك معناه في الواقع العملى، أن كل بلد يرسل بعضا من دبلوماسييه الذين بدلا من أن يزاولوا عملهم تحت اسمهم، يتصرفون كقسم رعاية المصالح في سفارة الدولة الراعية. وعلى ذلك فعندما حدث أن عددا من الدول العربية قطعت علاقاتها الدبلوماسية مع الولايات المتحدة عقب سنة ١٩٦٧، فإن أغلبهم احتفظوا بممثلين دبلوماسيين في واشنطن بينما واشنطن كان لها ممثلون من عواصم مختلفة، وعلى الجانبين كان ذلك تحت رعاية دول أخرى. إن السوفييت لم يسمحوا بوجود دبلوماسيين إسرائيليين على الأرض السوفيتية. ولإنجاز ذلك الهدف فإنهم كانوا مستعدين لدفع الثمن بأن لا يكون هناك وجود لممثليهم في إسرائيل، ولم يعد هناك أي خط للاتصالات الرسمية للحكومة الإسرائيلية. إن ذلك التناقض ملفت للنظر بشكل أخاذ ويترك الإنسان في حيرة لمعرفة ما هى الصفة الغريبة في إسرائيل والتى لا توجد في دول أخرى والتى استلزمت مرتين قطع العلاقات السياسية نهائيا مع ما يسببه ذلك من المضايقات المتعددة والعملية وكذلك السياسية التى سببتها للسوفيت. إن لغة التخاطب والصور السوفيتية المعادية للصهيونية وما فيهما من دعوة مختفية وأحيانا مفتوحة إلى العنصرية القديمة وحتى التعصب الدينى، شيء قد يشير إلى الجواب.

فبجانب الكتلتين العربية والسوفيتية، فإنه هناك حكومات اخرى قررت على أساس حسابات مصلحية ، أن تعضد العرب وأن تعارض إسرائيل وذلك لأسباب عملية حقيقية.

ذلك أن الاتحاد السوفيتى يحوز قوة عظيمة، وأظهر استعداده لاستعمالها .وكذلك فإن بعض الدول العربية تمتلك ثروات هائلة وأظهرت مهارة متزايدة في استخدام تلك الثروة. إن كلا المجموعتين يملكان كتلات كبيرة يمكن الاعتماد عليها في التصويت واستطاعوا أن يحصلوا على قدر من التحكم في الجمعية العمومية للأمم المتحدة ووكالاتها المختلفة.

إن تلك الثروات والمميزات استخدمت في أوقات كثيرة لتحريض أو لإغراء حكومات البلاد التى ليس لها مصالح قوية أو ارتباطات في الشرق الأوسط، بأن تتخذ أو تتبنى سياسات أو مواقف معادية لإسرائيل، وفى بعض الأوقات حتى معارضة لليهودية.

إن العدو أو الخصم لم يعد يحدد أو يوصف أساسا على أنه إسرائيلى، إنه بتزايد أصبح يوصف بأنه الصهيونى. وكالمصالح المتعارضة، فإن الأفكار والأيديولوجيات المتعارضة يمكن أن تشرك في وأن تلهب معارضة رئيسية للحركة الصهيونية وللدولة الصهيونية بلا حاجة إلى إثارة مسألة العداء للسامية. فبالنسبة للشيوعيين إنه من الطبيعى بل من الحتمى معارضة الصهيونية، حيث انه هناك عدم توافق أيديولوجى بين الاثنين. أن موسكو لها أسبابها الخاصة المحلية والسياسية الإمبريالية، لمعارضة أي حركة يمكن أن تؤثر في أعداد محترمة لها اعتبارها من الرعايا السوفييت، والتى تركز اهتماماتها أساسا فيما وراء الحدود السوفيتية.

إن السوفيتيين لعنوا وأدانوا واضطهدوا الحركة الإسلامية، والحركة التركية، والحركة الإيرانية، لأن المسلمين، والمتكلمين بالتركية، والمتكلمين بالفارسية من شعوب الاتحاد السوفيتى، يمكن أن تتأثر بتلك الحركات وان يحولوا ولاءهم بعيدا عن موسكو وتجاه مراكز في تركيا وإيران أوالعالم الإسلامى. الصهيونية هى في قول، صيغة من الوحدة اليهودية، ومن أجل ذلك وحده فإنه يلزم إدانتها ولعنها . ولكن مرة أخرى فإن التعامل مع الحركات المعارضة الداخلية، كما في معالجة الدول الأجنبية،

هناك فروق ملحوظة و مهمة في درجة العداء وفى الشكل الذى يأخذه التعبير عن ذلك العداء.

إن الشيوعية ليست هى العقيدة الوحيدة التى تعارض فكريا وأيديولوجيا الصهيونية. إنه هناك بعض المعتقدين الدينيين مسيحيين وحتى يهود وكذلك مسلمين، الذين يعارضون الصهيونية على أسس دينية، ويرون في قيام دولة إسرائيل بواسطة الإرادة الانسانية نوعا من معارضة الإرادة الإلهية.

إن ذلك في الوقت الحالى لا يمثل أغلبية أو وجهة نظر الأغلبية بين المسيحيين أو اليهود ولكنها تحظى بتعضيد معتبر. ص٢٤٦

إن اعلى المعارضات الأيديولوجية للصهيونية في الوقت الحاضر على كل حال، ليست معنية بما تعتقد فيه الصهيونية وما تعلنه من ذلك، ولكن مع ما يتهمها به الآخرون على أنه حقيقة ما تؤمن به.

إن ذلك بدأ باتهامات أطلقها الدعاة لسهولة ذلك، ولكنها اكتسبت بسرعة دلالات أوسع.

إن المعارضين العرب للصهيونية ولإسرائيل، حاولوا في العادة أن يكسبوا تعضيد العالم الغربى، وذلك بالتوحيد بين الصهيونية والعدو الحاضر والمتبادر والذى كان في وقت ما معرفا بأنه البولشفية أو الشيوعية. ومع تزايد النفوذ الأمريكى في العالم، فإن العنصرى أصبح هو العدو المفضل، ولذلك أعيد تصنيف الصهيونية على أنها عنصرية، واتخذ قرار في هيئة الأمم بذلك المعنى. إنه القرار الذى صوت عليه في ١٠ نوفمبر سنة ١٩٧٥ وحصل على موافقة ٧٢ ومعارضة ٣٥ وامتناع ٣٢ عن التصويت. إن تحليلا أيديولوجيا للأصوات المؤيدة والمضادة والمتنعة عن التصويت يعطى نتائج جديرة بالتأمل. وكما يمكن للمرء أن يتوقع، فإن كل الدول الشيوعية والإسلامية صوتت لصالح القرار، وكل الديموقراطيات الليبرالية في العالم صوتت ضد القرار، أما دول العالم الثالث فإنها كانت متناثرة في الأقسام الثلاثة.

في الكتلة السوفيتية لا يمكن التعبير علانية عن أي آراء سياسية غير تلك التى توافق عليها السلطات. وفى العالم العربى أو على الأقل في أجزاء منه، فإن المناقشة العلنية للمسائل ممكنة، ولكن فيما يتعلق بالمسألة الإسرائيلية أو حتى باليهود فإن

ذلك خاضع لقيود قاسية، وعلى ذلك فإنه من الصعب معرفة الاتجاهات الحقيقية. في العالم الغربي مع ذلك، وفي بعض بلاد العالم الثالث، الأفراد والجماعات أحرار في أن يتبنوا ويشجعوا ويناقشوا آراءهم المختلفة بشأن ذلك الأمر وأغلب الامور الأخرى. إنه في معظم الدول الغربية، شئون إسرائيل وجيرانها، يحظيان بقدر عظيم يمكن وصفه بأنه غير مناسب من الاهتمام. إن عظم ذلك النقاش، وكذلك العبارات التى تستخدم، أدى ببعض المراقبين، وليسوا بالضرورة كلهم يهودا، لأن يشكوا في أن ذلك الاهتمام بإسرائيل والصهيونية نابع من جذور غير صحية، وأن ذلك النقد قد يكون تعبيرا عن عداء خاف للسامية. وواضح أنه بالنسبة لكثيرين فإن ذلك النقد خاطئ وغير عادل. ولكن الحقيقة يجب مواجهتها : أنه هناك آخرون بنسبة من الصعوبة تقريرها من الذين بالنسبة لهم العرب في الحقيقة ليسوا إلا عصاة لضرب اليهود.

إن هناك أسبابا عديدة، فكرية وعملية، يمكن أن تفسر المواقف التى تتخذ ضد إسرائيل وذلك بغير أن ينسب أي تعصب لتلك الأسباب . ومثال واضح من ذلك الاقتناع المخلص بأن العرب على حق وأن الاسرائيليين على خطأ، سواء كان ذلك في ص٢٤٧
موقف معين أو بخصوص المشكلة بأجمعها ككل. إن الإنسان يمكن أن يتفق أو يختلف مع هؤلاء الذين لديهم مثل ذلك الاقتناع، ولا يستطيع الإنسان أن يهمل ببساطة آراءهم تلك على أنه تعصب . وكذلك يجب ألا يهمل الاحتمال بأن تكوين والتعبير عن هذا الاقتناع يمكن أن يكون متأثرا باعتبارات أخرى غير حقائق الموضوع.

إن مجموعة من السهل التعرف عليها، هم أولئك الذين يتبعون الخطوط اليسارية أو التقدمية تلك التى هى "على الموضة". إن ذلك كان في وقت ما في صف إسرائيل، واليساريون من غير العرب اعتادوا تبنى موقف مؤيد لإسرائيل. ومنذ ذلك الوقت فإن الخط تحول ضد إسرائيل، وهؤلاء الذين يحرصون على أن يتوافقوا مع الاتجاه الفكرى السائد أو المقبول وكما يحدده قادة "الموضات" الفكرية، فإنهم عدلوا أفكارهم وفقا لذلك.

وبين هؤلاء الذين يكونون ويعبرون عن آرائهم بهذه الطريقة، يمكن أن يكون هناك عنصر من التعصب ولكن لا يمكن إطلاقا أن يوصف بأنه عداء للسامية، وخصوصا إذا ما لاحظنا وجود نسبة كبيرة من اليهود في تلك المجموعة.

إن اليسار الراديكالى الإرهابى كاليمين الارهابى الراديكالى كليهما مجمع ويحماسة ويتطرف على عداء إسرائيل، ويعبارات من الصعب أحيانا تفريقها عن الطراز القديم من العداء للسامية. وعلى ذلك فجماعة أورليك ماينهوف الشهيرة، والتى جاء عنها تقرير في مجلة فرانكفورتر الجماينى زيتونج في ١٥ ديسمبر سنة ١٩٧٢، لوحظ أنها في كلامها عن "أوشفتس" وهو أحد معسكرات الموت النازية، قولهم" إن أسوأ الاشياء أننا جميعا شيوعيون وآخرون كنا متفقين عليها" والجماعة منذ ذلك الوقت اعترفت " بأن العداء للسامية في أصله الحقيقى هو عداء للرأسمالية. و هذا العداء هو اعتراف أو قبول مبدإ كراهية الناس بسبب اعتمادهم على المال كوسيط للتبادل، وعلى ذلك كان شوقهم إلى الشيوعية. إن أوشفتس معناها أن ستة ملايين يهودى قتلوا وألقى بهم في أكوام الزبالة في أوروبا لما ظهروا به من أنهم يهود عبدة للمال".

إن عناصر أيديولوجية أو فكرية قوية يمكن أن تكون مشتركة في تقرير اختيار أي الجوانب ينضم إليه. فبالنسبة لكثيرين ممن هم خارج النزاع فإن العامل الحاسم في تقرير اختيارهم لاى من الجانبين هو نوع النظام القائم في هذين الجانبين. إسرائيل في داخل حدودها سنة ١٩٤٩، ديموقراطية ليبرالية، ذات صحافة مفتوحة، وبرلمان وحكومة منتخبة كانت لزمن طويل ذات لون اشتراكى ديموقراطى كما أنه يوجد بها معارضة حية. أما معظم الدول العربية فهى دول سلطوية ذات صحافة محكومة، ولا يوجد فيها معارضة شرعية، وذات برامج من الوطنية الراديكالية والاشتراكية الثورية مختلطة بدرجات متفاوتة.

إن كلا الطرازين من الأنظمة يثير ولاءات وعداءات أوتوماتيكية والتى قد لا يلزم أن يتوافق فيها الاعتبارات السياسية والاقتصادية. فالاشتراكيون على سبيل المثال كانوا منقسمين انقساما حادا. فبالنسبة للبعض التأميمات التى قام بها جمال عبد ص٢٤٨
الناصر عوضت عن تصرفاته الاضطهادية. وبالنسبة لآخرين فإن الحريات في إسرائيل تعوض عن رأسماليتها الجزئية. إن العداء بين المفكرين الأيديولوجيين يبدو أنه يحددها إلى حد كبير اختيار القالب أو الشكل، وكذلك التحالفات والانحيازات في السياسة الخارجية للأنظمة محل البحث، مع قلة الاهتمام بالموقف الحقيقى وصلاح حال الناس الذين يعيشون ذلك النظام.

مع ذلك فهناك جماعات أو مجموعات أخرى، تتكون من هؤلاء الذين يقررون اختيارهم بين العرب والإسرائيليين لأسباب مادية أو تجارية أو مهنية، أي تخضع لحسابات احتياجات الأفراد في النشاط الاقتصادى والنشاط المالى وفى الجامعات وفى الوسائل الإعلامية وفى السياسة.

كثيرون لأسباب مهنية وتجارية أو سياسية، يقررون الوقوف بجانب واحد أو آخر طبقا للظروف. إن الشخص يمكن أن يتساءل عن حسن نية هؤلاء الذين يقررون موقفهم بهذه الطريقة، ولكن التعصب ولو أنه طبعا على الدوام شيء محتمل، فهو ليس من اللازم أن يكون عنصرا من العناصر المكونة لموقفهم. إن مستشارا للعلاقات العامة يريد تحسين صورة موكله والقضاء على المنافسة، لا يلزم أن يكون مدفوعا بدافع التعصب. إنه يحركه الرغبة في أن يتقدم في مهنته في عمله وأن يكسب المال.

والشئ نفسه يمكن أن يقال على مديرى الشركات الذين يحافظون على مصالح حملة أسهمهم، والسياسيون الذين يستجيبون لرغبات الناخبين، أو المتبرعين بالمال لأحزابهم، والصحفى الذى يطيع أوامر رئيس التحرير، أو أوامر مضيفيهم، وخبراء الشرق الأوسط في الجامعات والذين هم واعون تماما بالأشخاص الذين يتحكمون في أموال التبرعات وبالتالى في المناصب.

إن الأقسام الجامعية وبرامج الدراسات الشرق أوسطية يمكن أن تؤثر بأكثر من طريقة.

فاليهود لأسباب دينية أو عاطفية، وبسبب معرفة العبرية أو القلق على إسرائيل، دائما ينجذبون إلى تلك الدراسات. إنهم ليسوا الوحيدين في ذلك، وقد فقدوا من وقت بعيد تفوقهم أو تسيطرهم السابق، وحل محلهم آخرون. إنه في الأيام التى كان فيها أتباع مذهب ماوتسى تونج يحكمون في الصين، فإن الطلاب ذوى العقلية الماوية كانوا منجذبين إلى الدراسات الصينية، وبعض أقسام الجامعات للدراسات الصينية أو لغات الشرق الاقصى اكتسبت صفات قوية وفى أحيان كثيرة متعصبة للماوية.
ص٢٤٩ وبنفس الطريقة خلال موجة الإعجاب بهيئة التحرير الفلسطينية كابطال لليسار الراديكالى، فإن كثيرا من الطلاب وأيضا المدرسون الشباب للدراسات الشرق أوسطية، دخلوا في مواضيعهم بارتباط قوى مسبق للقضية العربية وضد إسرائيل

والصـهيونية. إن ذلك ليس في حد ذاتـه عداء للسامية، ولكن هناك البعض ممن لديهم مشـاعر صريحة أو غير صـريحة وأحاسيس ضـد اليهود بسـبب ذلك انجذبـوا نحـو أقسـام الدراسـات العربيـة، التى كانوا يـأملون أن يجـدوا فـيها رفقـة من ذات المذهب وجـوا ملائمـا مريحا . إنهم لم يخب أملهم دائمـا . وأمثلة على هـذا صـرح بها كل من اليهود والعرب، الأولون بانزعاج والثانون أي العرب باستهجان .

وبالنسـبة لكل تلك المجموعـات فـإن الموقـف العدائـى ضـد الصـهيونية واسـرائيل يمكن شرحه بلا نسبة بالضرورة للعداء للسامية.

ولكن الاحتمال أو إمكانيـة العداء دائمـا موجودة. وحتى لو كان التعصب لا يحدد طبيعة آرائهـم فـإنهم ممكـن أن يؤثـر في الطـريقة الـتى يعـبرون بهـا عـن تلـك الآراء. وخصوصـا في الوقت والمكان الذى فيهما العداء للسامية يعتبر شيئا محتقرا من أي مجتمع محـترم. والقضـية الفلسـطينية ومعانـاة العـرب يمكـن أن تـوردا غطـاء مثـاليا كاملا للتعصب الذى قد يخجل صاحبه في ظروف أخرى من إبدائه.

إن بعض هذه الحالات من السهل اكتشافها . فمع استثناءات قليلة من أولئك الذين يكرهون العرب واليهود على حد سـواء، فإن الجماعـات الفاشيسـتية والتى مازالت ناشطة في أجزاء من العالم - هذه الجماعات هى مع العرب وكتاباتهم تظهر بوضوح أحاسيسـهم وأهدافهـم. مـثل هـؤلاء هـم الجماعـات الباقـية مـن الفاشيسـتيين الجـدد والنـازيين الجـدد في أوروبـا ومقلديهـم في شمـال وجنـوب أمـريكا . إن بعـض العـرب قد اسـتهجنوا التعضـيد المقدم من مثل هؤلاء الحلفاء الملوثين، وآخرون ومنهم الحكومات والـثوريون اسـتخدموا ذلـك اسـتخداما جـيدا وآخـرون أيضـا فعلـوا الاثـنين في نفـس الوقت الاستهجان والاستفادة.

إنـه في الأوسـاط الأكثر احترامـا لـيس مـن السـهل اكتشـاف مـن هـم مؤيدو العـرب، ومـن هـم في الواقـع معـادون لـليهود . ومـع ذلك توجد بعض الأعـراض وإن كانت ليست صـحيحة دائمـا فهـى ذات دلالـة جـيدة. واحـد مـن تلـك الخصـائص للمعادي لـليهود، كمختلف عن المؤيد للعرب، أن لا يبدى أي علامـة للاهـتمام بالعرب أو العطف عليهم فيما هـو خـارج عن النـزاع مـع الـيهود. إنـه لا يـنفعل إطلاقـا بالأفعـال الخـاطئة الـتى يعـانى مـنها العرب، وحـتى الفلسـطينيون تحت أي حكم إلا الحـكم اليهودى، سواء من

حكامهم أو من جماعات أخرى. فبالنسبة إليه المئات الذين قتلوا في صبرا وشاتيلا يثيرون اهتماما كبيرا يزيد عن الاهتمام بالآلاف من العرب الذين ذبحوا في عمان، وتل الزعتر، وحماة، والحروب الكثيرة في اليمن ولبنان والخليج، في غيرها والتى طالما قاست منها الشعوب العربية التى طال عذابها. وأحيانا كثيرة ذلك الشخص لا يبدى أي اهتمام بتاريخ أو انجازات العرب، وهو ليس على أي معرفة بلغتهم أو بحضارتهم وثقافتهم . بل على العكس إنه قد يتكلم عنهم بطريقة هى في حقيقتها مزرية بشكل عميق. إنه لايوجد إنسان متمتع بكامل العقل يمكن أن يدعى أنه خبير ص٢٥٠
مثلا في المسائل الفرنسية في فرنسا أو ألمانيا بغير أن يعرف كلمة واحدة من الفرنسية أو الألمانية.

إن الادعاء بالخبرة والتخصص من كثيرين ممن يظهرون أنفسهم على أنهم خبراء بالعرب بغير معرفة بالعربية، قائم على افتراض أن العرب بشكل ما مختلفون وأقل من الألمان والفرنسيين في اعتبار أن ما يقولونه أو يكتبونه في لغتهم يمكن التغاضى عنه ببساطة. إن المحاولات المعتادة لاستبعاد التصريحات والأفعال العربية بالقول، في الواقع، إن العرب ليسوا جادين، ولا بالغين، ولا مسئولين، لا يمكن إطلاقا أن تؤخذ على أنها تعبير عن الاحترام أو التقدير.

أن يكون الإنسان مهموما بمصير اللاجئين العرب من فلسطين هو استجابة طبيعية وإنسانية. وإذا صاحب ذلك إهمال تام للاجئين من أوروبا وآسيا وإفريقيا وأماكن أخرى، والذين يوجد منهم ملايين لا حصر لهم، ومعظمهم في أحوال اسوأ كثيرا من أحوال الفلسطينيين، إن ذلك قد يكون مدعاة للشكوك المعقولة. وبنفس القياس، فإن تأييد الأهداف السياسية للعرب الفلسطينيين هو شيء مشروع واختيار سياسى مبرر. ولكن إذا صاحب ذلك الاختيار انعدام في الاهتمام بالقضايا الأخرى في المنطقة وفى غيرها، فإن كثيرا من الأسئلة يمكن أن تثار . أن العالم ملىء بالقضايا التى تجذب المؤيدين والساعين للخير من الأجانب عن تلك المشكلات، وعناصر عديدة يمكن أن تحدد اختيارات الشخص الخارجى عن تلك المواقف. واحد من تلك العناصر يمكن أن يكون العداء المشترك للخصم.

إن ذلك يثير المسألة العامة مسألة ازدواج المعايير، والتى يدعى الإسرائيليون أنها مطبقة عند تقدير أفعالهم وعلى الخصوص بالنسبة لأخطاء إسرائيل وأخطاء أعدائها

العرب . إن ذلك ينبعث في جزء منه من أحوال أو ظروف غير متصلة بالتعصب أو حتى بالتحيز.

إن إسرائيل مجتمع مفتوح، ونتاجا لمنطق وجود مؤسساتها فإنها مضطرة للسماح للمراسلين وكذلك الناقدين بدرجة من الحرية لا مثيل لها في مكان آخر من المنطقة. إن ذلك معناه حتما أن الإعلام لديه تفاصيل أكثر عن خطايا إسرائيل وفرصة أعظم لاستكشاف ومناقشة ونقد تلك الخطايا.

إن الولايات المتحدة تعانى من نفس هذا العجز المحمود أو الصحى، ومذبحة أميريكية واحدة في مايلاى في فيتنام جذبت اهتماما أكبر واستتبع ذلك إدانة ولعنة أكثر من كل فظائع السوفييت التى أتوها في افغانستان وفى أوروبا الشرقية. إنه أحيانا عدم التكافؤ في المعاملة يمكن أن ينشأ عن مشاعر إيجابية وليست سلبية، من ص٢٥١
مشاعر مؤيدة للسامية أكثر من أنها مشاعر معادية للسامية، ومن توقعات أعلى في مستواها بالنسبة للسلوك الإسرائيلى. الإسرائيليون أحيانا يشكون من أنهم يحاسبون بمستويات مستحيل تحقيقها من الفضيلة والصلاح. إن مثل هذه الشكاوى ربما ينقصها التعقل. أن إسرائيل تعتبر نفسها ويعتبرها معظم الغربيين ديموقراطية ليبرالية. والتصرف أو السلوك الإسرائيلي لذلك يحكم أو يحاسب بنفس القواعد اوالمستويات القاسية التى يقول الأمريكيون والبريطانيون والفرنسيون إنها تنطبق على حكمهم الذاتى على أعمالهم الذاتيه وتصرفات الآخرين.

ولكن حتى مع السماح بذلك فإن هناك أوقاتا حيث عدم التكافؤ، أو المفارقة في المعاملة، وعدم التساوى في الأحكام يبعث أو يثير أسئلة عن خلاص النية أو حسن النية.

إن أكبر مثال على ذلك هو مأساة صبرا وشاتيلا. إن سلوك السلطات الإسرائيلية في صبرا وشاتيلا برغم إنهم لم يكونوا هم أنفسهم مرتكبين للمذبحة، يمكن أن يكون سببا للخجل والعار، وليس بالفخار بالنسبة لشعب ديموقراطى. واذا كان هناك أشياء اسوأ حدثت في أماكن أخرى، فإن تلك ليست هى الاجابة، وإنه لمن المحط لإسرائيل ولمؤيديهم أن يلجئوا إلى تلك المقارنات.

ولكن إذا كانت المقارنة بأفعال الآخرين هى دفاع ضعيف، فانها ولاشك إلزام

فكرى وأخلاقى للحكم وعلى الخصوص بالنسبة لهؤلاء الذين هم واجبهم المهنى اوالرسمى هو أن يخبروا ويفسروا ويصدروا الأحكام.

إن الإدانة العالمية لسلوك إسرائيل في صبرا وشاتيلا، يمكن أن يمثل المبادئ الأخلاقية العالية للعالم الخارجى و مستويات السلوك المنتظر أو المتوقع من الاسرائيليين ولكن المقارنة بين تلك الادانة وعدم الاهتمام المطلق بمذابح أخرى، ومنها حديثا واحدة قام بها الشيعة في نفس المعسكرات في صبرا وشاتيلا، يثير أسئلة مقلقة متعلقة بمشاعر ودوافع أولئك القضاة.

إن خاصية أو صفة من صفات المعادى لليهود على عكس المؤيد للعرب، هو إلحاحه أو ميله للإلحاح في الحديث عن القوة والنفوذ اليهوديين، والتى يبالغ فيهما عادة، والشكوى من الولاء المزدوج لليهود. إن المعادى لليهود عادة يتبع افتراضات: أولها أن اليهود في بلده أغنياء ومهرة، والثانى أنهم جميعا يعملون من أجل إسرائيل، والثالث أنهم في عملهم هذا لابد وأنهم يرتكبون بعض الجرائم.

إن موضوع الولاء المزدوج يأخذ أشكالا عديدة. ففى المجتمعات الديموقراطية المفتوحة كالولايات المتحدة وبريطانيا، فإن الولاء المزدوج اليهودى هو معضلة رئيسية بالنسبة لليهود ولأعداء اليهود وليس بالنسبة للأغلبية العظمى من الشعب، الذين هم ليسوا من هؤلاء أو هؤلاء.

إن معظم الأمريكيين والبريطانيين غير المتسيسين، يجدون انه من الطبيعى أن اليهود لابد وأن يتعاطفوا مع إسرائيل، وتصيبهم الحيرة وبعض الحيرة أو حتى الانزعاج حين لا يحدث ذلك.

إنه يمكن أن يكون ذا معنى أو ذا دلالة خطيرة، أنه بينما الاتهام بازدواج الولاء أحيانا يتهم به اليهود، فإنه من النادر أو حتى من المنعدم أن يوجه إلى أمريكيين أخرين من عناصر أو من أقليات دينية أو عنصرية، برغم أن كثيرا من هؤلاء مشتبكون في نشاطات اللوبى السياسى الخاص بهم. فاليونانيون، والأرمن، والأيرلنديون، ومؤخرا العرب الأمريكيون أو الجمعيات العربية الأمريكية على سبيل المثال تنادى وتشجع سياسات، وأحيانا تؤيد الأفعال العنيفة ضد حكومات مرتبطة بتحالفات عسكرية مع الولايات المتحدة.

إنهم كرعايا لدولة حرة، اليهودى له نفس الحقوق كأى شخص آخر، في أن يكون متعاطفا مع إسرائيل أو متعاطفا مع العرب أو متعاطفا مع أي شخص يريد. إن التحديد الاختيارى أو الانتقائى لهذه الحقوق الذى يفرض على اليهود، وليس على الآخرين، في تأييد إسرائيل وليس في تأييد الأهداف الأجنبية الأخرى يضعهم في الواقع في طبقة من الرعوية أدنى من سواها. أن هذا الخط من الفكر حاز تأييدا ضئيلا في الدول الحرة ومع ذلك فإنه حاز تقدما في أماكن أخرى.

إنه في الدول ذات التقاليد أو التاريخ السلطوى كروسيا أو التقاليد المركزية كفرنسا الموقف مختلف بعض الشئ، والمعارضة التى تقوم بها مجموعات من المواطنين، يهود وآخرين، للسياسة الخارجية التى تتبعها الحكومة ينظر إليها على أنها شكل من أشكال المعارضة الذى يقرب من الخيانة. ففى فرنسا في أواخر الستينيات والسبعينيات، كان هناك البعض الذين رأوا اليهود الصهيونيين، كمثال ص٢٥٢
حديث مساو للهيجونو أي البروتوستانت، وأولئك الذين ينادون بسيادة البابا في كل المسائل الدينية والسلوكية. إن تلك المقارنة هى مقارنة مبالغ فيها وذات تأثير محدود جدا، ولو أنها سببت بعض القلق في وقت ما لليهود الفرنسيين. ففى روسيا وبولندا حيث ذلك النوع من التفكير هو شيء طبيعى، فإن الضغوط والعقوبات التى تعرض لها اليهود كانت أعظم وأكثر كثيرا.

فاليهود الروس والبولنديون ليسوا فقط ممنوعين من تأييد إسرائيل بل يجب أن يعارضوها معارضة ناشطة. إن تلك النقطة قد عبر عنها تعبيرا جيدا وإن كان صدر في تصريح خاص وليس في العلانية من كاتب ممتاز يهودي بولندى في خلال حرب سنة ١٩٦٧ حيث قال: " إننى أوافق على أن الإنسان يجب أن يكون له بلد واحد يدين له بالولاء ولكنى لا أفهم لماذا يجب أن يكون ذلك البلد هى الجمهورية العربية المتحدة؟".

إن صفة مهمة للوقت الحالى هى التنامى السريع للعداء للصهيونية والذى اجتذب نطاقا واسعا وأهمية في غالب الأحيان لا صلة لها بالشرق الأوسط و مشاكله. في القرن التاسع عشر التعبير الدينى المعادى لليهودية أصبح يعتبر شيئا رجعيا ومتخلفا عن الواقع، وأخلى المكان في الدوائر المدنية الحديثة للتعبير العنصرى المعادى للسامية والذى اعتبر شيئا علميا ومتوافقا مع الحال الحاضر.

إنه في أوقاتنا الحاضرة العنصرية وبخاصة في العالم الغربي والتى هى فيه مقصود بها السود أكثر من اليهود، هى أيضا فقدت القبول، وبالنسبة للبعض فإن العداء العنصرى للسامية حل محله العداء للصهيونية والذى تأخذ فيه السياسة المكان الذى كان يحتله من قبل الدين ثم العنصر.

إن هذا التغير هو في التعبير والتأكيد وليس في لحمة الموضوع، حيث إن كل تلك العناصر كانت وما زالت موجودة. وحتى الآن لو رغب شخص في مهاجمة أو تجريح يهودى من حيث كونه يهوديا فإن ذلك الشخص يمكن أن يسميه منكرا للدين أو ص٢٥٣
ساميا أو صهيونى، وذلك طبقا للجو السائد والأيدولوجية القائمة في المجتمع الذى فيه يتصرف ذلك الشخص وما اذا كان هذا المجتمع دينيا، عنصريا إثنيا، أو سياسيا.

إن الأحاسيس العنصرية يمكن أن تعمل على الوجهين ويمكن أن تكون أساسا لنوايا حسنة غير يهودية كما يمكن أن تكون أساسا للعداوة أو الكراهية لإسرائيل. إن هناك مجموعة ليست تماما هى الوجه الآخر لكارهى اليهود الناصرين للعرب وهم هؤلاء الذين يفضلون إسرائيل لأنهم يكرهون العرب. إن مثل هذه البواعث أو الدوافع كانت في وقت ما سائدة في فرنسا، حيث الحرب في الجزائر ولدت شبه تحالف مع إسرائيل ضد العدو العربى المشترك، وحيث الانسحاب النهائى من الجزائر ترك إحساسا من المرارة التى خفف منها أو وجدت بعض العزاء في الانتصارات الإسرائيلية. إن ذلك الشعور كان مع ذلك، شعورا خاصا جدا، وعابرا. إنه كان سياسيا ونفسيا أكثر من كونه عنصريا وقد تناقصت أهميته جدا. وحديثا في الولايات المتحدة، فإن أزمة البترول وما تبعها من الأحداث في إيران ولبنان وغيرها، سببت موجة من الأحاسيس المعادية للإسلام والعرب، والتى وجدت أحيانا تعبيرا في طريقة تقديم وتفسير الأخبار وفى استخدام أنماط عربية معادية في التعليقات، والرسوم الكاريكاتيرية، والنكت والأفلام إلى آخره. أن ذلك في وقت ما يصل إلى درجة من السوء ولو أنها ما زالت في حدود المسموح أو مازال مسموحا بها عند مناقشة المسائل العربية لم تعد مقبولة في التعامل مع اليهود . إنه لا يوجد محرقة يخجل معها المرء من التعبير عن التعصب ضد العرب، وليس هناك صهيونية عربية لكى تنصرف إليها تلك الكراهية. كما هو الحال في تصريف الكراهية لليهود إلى

التعبيرات المضادة للصهيونية. وعلى العموم فإن تلك ظاهرة ثانوية حيث إنه في الدول المتكلمة بالإنجليزية العداء للعرب لم يكن عادة عنصرا فعالا اللهم أحيانا بالنسبة لأولئك الذين يشملون العرب في كراهية عامة للأجناس الدونية. بالنسبة لهؤلاء الاختيار بين اليهود والعرب يمكن أن يمثل مشكلة محيرة.

إن الاتجاهات الأوروبية والأمريكية نحو النزاع العربى الإسرائيلي في الواقع يعقدها أن جانبا من المتنازعين يتكون من اليهود والآخر من العرب حيث إن كلا الشعبين يثير مشاعر قوية وغير عاقلة. إن ذلك يمكن أن يحس في النغمة العاطفية والحادة التى تؤثر في المناقشة العلنية للمشكلة . إن ذلك فيه حدة وتطرف ليس لهما مثيل في التعامل مع أي نزاع آخر بين دول أجنبية.

وأكثر تلك الاستجابات وضوحا هى تلك التى يمكن أن يعبر عنها الإنسان أو يصفها بأنها الوجهان المتعارضان للعنصرية، مجموعتان يريان المشكلة على أنها فقط صراع بين الاجناس. والشيء الهام بالنسبة لهم هو أن العرب هم أجناس أو شعوب إفريقية آسيوية وأن إسرائيل هى دولة أنشئت بشعب قادته أغلبهم أوروبيو الأصل والاتجاه . وبالنسبة لهاتين المجموعتين العنصريتين واحدة من الطرفين في ذلك النزاع وبصرف النظر عن أي ظروف هي دائما على حق واللأخرى دائما على خطإ.

إن كلتا المجموعتين متشابهتان في حدتهما وغضبهما ويختلفان فقط في اختياراتهما. ص٢٥٤

إنهم يتضمنون بعض الشخصيات القبيحة التى تدعو أحيانا إلى الشفقة - فهى تشمل اليهودى الذى يسير في طريق أو آخر مندفعا في التوحد القبلى أو الرغبة في الفرار من واقعه، والمعادى للسامية من الحرس القديم الذى أصبح نصيرا لإسرائيل لأنه يكره العرب أكثر مما هو يكره اليهود. والأنجلو أمريكاني الليبرالى الذى يدعى أن بلاده ممعنة أو تنفرد بالخطيئة بحدة وإمعان سخيف كسخف والديه للذين ادعيا الانفراد بالفضيلة، وكذلك "الواسب" أي الأمريكى الأبيض البروتوستانت، المعذب نفسيا والراديكالى، والذى يرى في الصراع العربى الإسرائيلي كأنه صراع بين هارلم حى الزنوج و وسكارسديل وهى ضاحية راقية من ضواحى البيض، ويؤسس اختياره على أساس مزيج من التعصب الشخصى والاحساس بالخطيئة.

ومجموعتان اخريان اضافيتين، من الذين يمكن أن يعضدوا إسرائيل لأسباب متأثرة بالعنصرية وهم المتحولون والتائبون عن معاداة السامية.

الأولون المتحولون هم هؤلاء الذين يقبلون أساسا الأسطورة المعادية للسامية، ألا وهى الحكومة اليهودية السرية العالمية، أو القوة السرية اليهودية العالمية، ولكن ينظرون إليها باحترام وإعجاب أكثر مما هو خوف أو كراهية.

أما المعادى للسامية التائب وهو عادة ناقل عن غيره فهو مسألة أخرى. أنه لا شك في أن واحد من أهم منابع تأييد إسرائيل في الفترة التى تلت سقوط هتلر كان الإحساس بالجرم، وتستعمل تلك الكلمة هنا في معناها الحديث كحالة نفسية أكثر مما هى حقيقة قانونية. إن المعادى الحقيقى للسامية نادرا ما يتوب، والإحساس بالذنب لجرائم ارتكبت ضد اليهود هى معظم الوقت متناسبة تناسبا عكسيا مع درجة الاشتراك الشخصى. إن الألمانى البريء هو الذى يحس بالذنب لما قد حدث، أما مرتكبو تلك الجرائم فهم في الأغلب الأعم غير محسين اطلاقا بأى مشاعر للأسف. إن مثل تلك المشاعر كانت مع ذلك عاملا مهما في المرحلة المباشرة لما بعد الحرب. واستجابة كثير من المسيحيين لقيام إسرائيل، وللسلوك المبكر لإسرائيل وقد تقرر أو تحدد بالإحساس بأنهم ودولهم، وكنائسهم كانوا شركاء في الجرائم النازية إما بالاشتراك الفعلى أو بعدم الاهتمام وعدم التصرف.

إن مثل هذه الأحاسيس هى أرصدة متضائلة بالنسبة لإسرائيل، وحتما ستنتهى بانتهاء أو بتباعد ذكرى الجرائم النازية في الماضى. إنه في الاتحاد السوفيتى، الدعاية الرسمية تحاول أن تخفى حقيقة أن النازى اضطهد اليهود، وعلى العكس، في ص٢٥٥
قلب مخيف للحقيقة، تقدم اليهود أنفسهم على أنهم نازيون. وفى الغرب، على الخصوص في أوروبا القارية، فإنه كان واضحا أن بعض الأشخاص والمؤسسات ارتاحت بعد طول السنوات من الشعور بالقلق وهجروا موقف الإحساس بالجرم والتكفير.

وماذا عن اليهود أنفسهم؟ إنه بالنسبة للمعادى لليهودية، كل اليهود صهيونون وجميعهم مناصرون لإسرائيل، حيث إن كلمات يهودى وصهيونى وإسرائيلى هى تعبيرات متشابهة تستعمل بعضها مكان البعض.

إن الحقيقة في الواقع مختلفة، واليهود ليسوا بأى حال مجمعين على ذلك، أو في الحقيقة على أي موضوع. إن المؤامرة اليهودية العالمية سواء في تعضيد اسرائيل، أو لأى هدف آخر، هى جزء من الخيال أو التخيلات المعادية للسامية، ولم يكن أبدا فيها أى جزء من الحقيقة. إن كثيرا من اليهود - وقد يكون معظم اليهود - مؤيدون لإسرائيل بدرجات مختلفة، تزيد حين تكون إسرائيل محل هجوم. ومع ذلك فإن هناك أعدادا ذات أهمية أو أعدادا محترمة من الآخرين من اليهود الذين هم معارضون نشطون لاسرائيل.

إن هؤلاء موجودون على أنواع مختلفة. فالبعض كما هو الحال مع غير اليهود، هم المعتقدون أو المصدقون أو المقتنعون بعدالة المطالب العربية، أو المقصد العربى، أو البعض وأيضا مثل غير اليهود تحركهم الاعتبارات المهنية، والتجارية، أو المتعلقة بالمستقبل المهنى، والبعض تحركهم المعتقدات الدينية اليهودية. أما الباقون من اليهود من معارضى إسرائيل فأهمهم مؤيدو اليسار القديم والجديد، والذين إحساسهم أو رد فعلهم لهذا وغيره من المشاكل تحددها القرارات السياسية التى لا تنبع بالضرورة من ذاتهم. إن كثيرين على الخصوص تقودهم الافتراضات التقدمية التى هى "على الموضة" ويجدون من الصعوبة أن يمدحوا أو يؤيدوا أي قضية تتمتع بالتأييد الأمريكى.

وفى ذلك، اليساريون اليهود القدامى والمحدثون، لا يختلفون عن زملائهم من غير اليهود. إنه مع ذلك هناك عامل إضافى أحيانا يبالغ في تقديره ولكنه مع ذلك حقيقى ألا وهو ظاهرة كراهية اليهود لأنفسهم وهو رد الفعل العصبى النورنستانى الذى يجده الإنسان بين بعض اليهود كرد فعل للعداء للسامية وذلك بقبولهم أو حتى تضخيم المزاعم الأساسية لكارهى السامية. في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ذلك النوع من رد الفعل يمكن أن نجده على وجه الخصوص بين اليهود الألمان الذين اندمجوا في مجتمعهم اليمينين واليساريين على حد سواء.

إن مثالا كلاسيكيا لذلك هو بحث كارل ماركس المعنون "عن المسألة اليهودية" ومثال آخر هو موقف المحافظين من اليهود الألمان، الذين تبنوا أقصى ما يمكنهم الاتجاه اليمينى للألمان الوطنيين، وحتى اتهاماتهم ضد اليهود، وخصوصا اليهود الذين ليسوا ألمانا. إن ذلك بالطبع لم يساعدهم بأى طريقة حينما جاء النازيون للحكم ص٢٥٦

وفرضوا عليهم الحل الذى رأوه للمشكلة اليهودية اليوم، فإن ظاهرة كراهية النفس اليهودية توجد بشكل رئيسى في أقصى اليسار، حيث العداء لإسرائيل يبدو أنه يوجد فرصة لتحرير النفس من الروابط بالجدود، وأكثر مباشرة الروابط بالآباء.

ولكن أكثر الاستجابات أهمية للعداء للسامية الذى هو أهم بكثير من استجابة السوفيت أو الغرب أو اليهود أنفسهم، هى تلك الاستجابة العربية والتى يثير النتاج الواسع لها من الأدب والكتابات المعادية للسامية مسائل مهمة ليس أقلها الحالة الحالية للمجتمع العربى.

إنه في العالم العربى كما في الغرب فإن أسئلة بعينها تثور عند امتحان كل تلك الكتابات المعادية للسامية.

من الذى يقرأ هذه المواد وماأهميتها وأى اثر تحدث؟ في العالم الغربى الإنسان يستطيع أن يجيب عن تلك الأسئلة بقدر معقول من التأكيد أو من الثقة.

فمنذ سنة ١٩٤٥، وفى مناطق عديدة، ولمدة طويلة قبل ذلك، فإن الكتابات المعادية للسامية صراحة كانت تنشر وتقرأ فقط بين أوساط المجتمع المتطرفة المخبولة، وأثرها في الاوقات الحديثة كان ضئيلا. إن ذلك أصبح لا يمكن أن يقال عن العالم العربى.

إن حجم الكتب المعادية للسامية، والمقالات المنشورة، وحجم وعدد الطبعات لتلك الكتب تبرز علو مقام ونفوذ أولئك الذين يكتبون وينشرون ويرعون ذلك المجهود، ومكانها في المناهج الدراسية، والجامعية، ودورها في وسائل الإعلام يمكن أن يوحى بأن العداء الكلاسيكى للسامية هو جزء هام من حياة العرب الأدبية في الوقت الحاضر، ويكاد يقرب أو يساوى ما حدث في ألمانيا النازية، وأكثر كثيرا مما كان عليه الحال في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين في فرنسا، حيث كان ضجيج المعادين لدريفوس، أجيب عليه على الأقل بأصوات قوية مساوية في الدفاع عن العقل والتسامح. إن هناك مثل هذه الأصوات في العالم العربى كذلك، ولكن لا يوجد دولة عربية واحدة في الوقت الحالى تتمتع بصحافة حرة، وهذه الأصوات تلاقى صعوبة كبيرة في أن تسمع. لكى يدان العداء للسامية فإنه يجب أن يوضح أنه مضر بالمقاصد العربية، واستطرادا لذلك فإن النظرية الغريبة السائدة، أو المحبوبة في بعض الدوائر، تقول إن المعاداة للسامية والصهيونية هما شيء واحد أي

أن كليهما مضر بالمصالح العربية. وباتباع ذلك المنطق المعوج فإن الإنسان يمكن أن يقول أن سياسة التفرقة العنصرية في جنوب إفريقيا هى شكل من أشكال الوطنية الإفريقية.

إن أي معارضة للعداء للسامية في العالم العربى حتى ولو كانت أو قدمت نفسها على أنها خطوة تكتيكية ، تمثل تغييرا مرغوبا عن الإجماع السابق في جوقة الكراهية.

إن الحماس الذى قابل في البداية حركة السلام في مصر، والاستقبال الحار والذى لقيه أول الإسرائيليين الذين ذهبوا إلى القاهرة، يبين رغبة حقيقية في السلام وفى العلاقات الحسنة الشيء الذى أثر حتى في عدد محدود من المثقفين. وفى السنوات التى تلت المعاهدة فإن نشوة أو فرحة النصر تناقصت، ولكنها لم تختف تماما.

إن المفاوضات الطويلة والشاقة، والفشل في إحداث أي تقدم في المسألة الفلسطينية والمستوطنات في الضفة الغربية، وانعدام أو النقص في التطبيع، والغزو ص٢٥٧
الإسرائيلي للبنان في سنة ١٩٨٢، فرضت كلها ضغوطا ثقيلة على العلاقات الجديدة الرقيقة أو الحساسة بين إسرائيل وأول دولة عربية توقع معاهدة سلام، أو حتى تدخل في مفاوضات مفتوحة. ولكن بالرغم من هذه المصاعب فإن المصريين حافظوا على العلاقة مع إسرائيل حية، وإن كان في نطاق أكثر ضآلة، وسمحوا بإقامة مركز اكاديمى إسرائيلى في القاهرة.

وحتى فإنه هناك بعض الكتاب المصريين، الذين يجدون أنه من المستطاع مناقشة إسرائيل في الكلمة المطبوعة، وإن لم يكن بتعاطف، فعلى الأقل بخلو من الشتائم القاسية.

إن هذه علامات صغيرة، والى الآن محدودة بحدود مصر، ويوجد أقل من ذلك أو حتى لايوجد إطلاقا في باقى الدول العربية. ومع ذلك فإن تغييرات مهمة حدثت. فمثلا ليس كل الدول العربية قطعت علاقاتها بمصر بعد توقيع معاهدة السلام، وواحدة ممن فعلوا ذلك وهى الأردن قد استأنفت تلك العلاقة. فإن السياسيون العرب ورجال الصحافة يتكلمون عن إسرائيل والإسرائيليين، بدلا من إسرائيل المزعومة، والعصابة

الصهيونية كما كان الحال سابقا. وحتى البعض - في المقام المناسب - يستخدمون الكلمة الممنوعة سابقا ألا وهى السلام. إن تقدما آخر واضح أنه يعتمد كثيرا على بدء ونجاح أو فشل مفاوضات للسلام مع أطراف أخرى. على الأقل تلك التطورات تترك بصيصا من الأمل في أن تسميم الفكر العربى بأفكار العداء للسامية يبدو وكأنه لم يصل بعد إلى حد اللاعودة في الجيل الحاضر. وعامل آخر يمكن أن يثبت أنه أكثر أهمية، هو غياب العداء للسامية بين المسلمين من ذلك النوع العميق من الكراهية والذى يوجد في وسط أوروبا وشرقيها وأحيانا في بلاد أخرى. إنه أحيانا كثيرة، الأوروبيون والأمريكان اليهود الذين يسافرون في البلاد العربية، لاحظوا أنه بالرغم من السيل المتدفق من الكتابات والإذاعات المعادية للسامية، فإن مظاهر العداء التى قاسوا منها في المقابلات الشخصية وجها لوجه، لم تحدث من عرب وإنما حدثت من مواطنيهم الذين قد يحسون إنهم بإمكانهم الإفصاح عن مشاعر العداء للسامية ما داموا أنهم في جو عربى يظنون فيه أنه موافق لابداء مثل هذا الشعور الذى لا يستطيعون الإدلاء به في بلادهم.

وبنفس الطريقة فإن الإسرائيليين المسافرين في الغرب يجدون أنه من السهل إقامة تعاطف مع العرب أكثر مما هو مع أنصار العرب من الغربيين. ص٢٥٨

وبينما الإدانة أو الرفض العلنى للعداء للسامية في الأراضى العربية، يكاد يكون شيئا غير معروف، فإن التعبير عن مثل هذا التعصب أي العداء للسامية على المستوى الشخصى ولو أنه في تزايد إلا أنه ما يزال نادرا.

إن ذلك قد يرجع إلى ميل غريزى إلى المجاملة في التقاليد العربية والتى توقف حتى المعادين للسامية من إبداء ملاحظات صريحة في العداء للسامية في حضور اليهود. ولكنها قد تكون أيضا، أو قد يكون مرجعها، إلى الغياب حتى الآن لذلك النوع من العداء العميق الغريزى الذى يميز العداء للسامية الأوروبى، والذى حتى في هؤلاء الذين تأثروا تأثرا خفيفا بذلك العداء، يمكن أن يسبب ما يقرب من الضيق الجسمانى المادى في الالتقاءات الشخصية مع اليهود. إن العرب لا يبدو إنهم معرضون لمثل ذلك الضيق. في البلاد العربية العداء للسامية مازال في جزئه الهام سياسي وأيديولوجي ثقافي و أدبي. إن وجود هذا العداء في الأجيال الصغيرة أو الشابة راجع إلى التلقين الملح في الكتب الدراسية، وفى الإعلان، وإلى غياب أي نوع آخر من المعلومات عن

التاريخ اليهودى والحضارة اليهودية والثقافة اليهودية. وبرغم ذلك فإن الإنسان دائما ما تصيبه الدهشة، عندما يجد كيف أنه حتى مؤلفى بعض من أعنف المنشورات المعادية لليهودية، والتى تكاد تشبه المطبوعات النازية مستعدون وقادرون على أن يكون بينهم صلات طبيعية وصداقية مع اليهود أو حتى مع إسرائيليين حينما لا يكون هناك من يراقبهم ويخبر عنهم. إن حادثة مثل هذه حدثت في القاهرة، من وقت قليل بعد توقيع معاهدة السلام، لها دلالتها الكبيرة في هذا الخصوص. إن اثنين من الباحثين الإسرائيليين أخذا الطريق الجديد المفتوح إلى القاهرة، راغبين أو متحمسين لمقابلة بعض المثقفين، والأكاديميين، والأدباء والشخصيات السياسية والتى هما درسا أعمالهم ولوقت طويل عن بعد. وبين هؤلاء فإنهما ذهبا إلى مكاتب التحرير لجريدة عنيفة في كراهيتها لإسرائيل وللصهيونية بل وللسامية، وطلبا أن يقابلا رئيس التحرير. إن ذلك الجنتلمان عندما علم من هما، ومن أين أتيا، شرح لهما أنه لا يمكن مقابلتهما وقال: " إننا نحن ضدكم ونحن ضد إسرائيل، ونحن ضد الصهيونية، وضد السلام، وعلى ذلك فإننى لا يمكن أن أستقبلكما في مكتبى، ومع ذلك فإن رئيس التحرير هذا قال وهو يعطي أحدهما قطعة من الورق :" إذا أردتما أن تأتيا وتزورانى في بيتى بعد الساعة الخامسة فإننى أكون سعيدا بالتحدث إليكم وتبادل الآراء وهذا هو عنوانى" .

إن هذا المحرر لم يكن يعلم أن اقتراحه هذا هو بالضبط عكس الموقف الأمريكى الكلاسيكى المعروف في وقت ما "بظل الساعة الخامسة " حيث اليهودى يمكن أن يستقبل كأى شخص آخر في المكتب خلال ساعات العمل، ولكنه كان محروما من الاشتراك في الحياة الاجتماعية، في البيت والنادى في المساء، وفى عطلة نهاية الأسبوع. إن في العالم الغربى ظل الساعة الخامسة أخذ في التوارى وإن لم يكن بأى ص٢٥٩
حال قد اختفى نهائيا ومن الممكن عقلا أن يعود إلى الظهور. أما في عالم الإسلام فإنه يمكن للموقف أن يتجه أي من الاتجاهين: العداء أو القبول وأى اتجاه يتجه سيتحدد إلى درجة كبيرة بالمجرى المستقبلى للصراع العربى الإسرائيلى.

بالنسبة للمسيحيين المعادين للسامية فإن المشكلة الإسرائيلية سبب ومخرج لعداواتهم وكراهيتهم، وبالنسبة للمسلمين المعادين للسامية فإنها هى سبب ذلك العداء وليست مخرجا لعداء دفين. ومن المحتمل أنه إذا زال هذا السبب، أو تناقص بشكل كبير، فإن العداء نفسه قد يضعف، وإن لم يختف فعلى الأقل يعود إلى

المستويات السابقة من التعصب. إن تلك المستويات لم تكن خيرا ولكنها كانت متوافقة مع العلاقات الإنسانية وحتى مع بدايات الحوار السياسى. وفى وقتنا هذا توجد علامات على أن فيروس العداء للسامية الذى انتشر وبائيا في المسيحية تقريبا منذ البداية، يمكن أن يكون أخيرا في طريقه إلى الشفاء، وعلى النقيض المحزن لذلك فإن نفس الكراهية الدينية العميقة بدأت في مهاجمة جسم الإسلام الذى كان يقاوم ذلك حتى الآن. إنه يمكن أن تكون لحظة الاختيار قد ذهبت، وأن الوباء قد دخل فعلا في مجرى دم الإسلام لسنين وأجيال قادمة كما كانت المسيحية قد سممت لأجيال سابقة. وإذا كان الأمر كذلك فإنه ليس فقط آمال العرب بل الآمال اليهودية ستموت في تلك الأبخرة السامة لمستنقع التعصب. إن الديموقراطية المفتوحة، والتى هى محل فخر إسرائيل، ستلوث بالتفرقة العرقية والعنصرية، وبالاضطهاد، بينما المؤسسات الحرة التى تمثل أحسن الأمل بالنسبة للعرب ستنسى حيث سيغرق الشرق الأوسط تحت حكم أولئك المنكرين للقيم الإنسانية والمتعصبين المتطرفين الذين يزدهرون في تربة الكراهية.

ولكن الأكثر احتمالا أن ذلك لم يحدث بعد . إنه من المؤكد أنه يمكن بسهولة التعرف على أفراد من الحكام العرب أوالكتاب الذين كراهيتهم لليهود هى عميقة مستهلكة لذاتهم كأى عداء أوروبى أو أمريكى كلاسيكى للسامية، ولكن بالنسبة للأغلبية فإنه مازال يبدو صحيحا انه برغم عنف وظهور العداء للسامية العربى أو الإسلامى، فإنه مازال شيئا يأتى من عل من القيادة أكثر مما هو من تحت من المجتمع، إنه سلاح سياسى جدلى يمكن اطراحه حينما تزول الحاجة إليه . لو تمكن القادة العرب الرئيسيون أو الملهمون من أن يجبروا أو يروضوا أنفسهم، على اتباع مثال الرئيس السادات والدخول في حوار مع إسرائيل، ولو كان في مكنة الإسرائيليين أن يجدوا القوة والشجاعة للإستجابة المناسبة، فإنه من الممكن أن الحملات المعادية للسامية ستنقضى وتزول وتحصر، كما هو الحال في الغرب الحديث، تحصر في المجموعات المتطرفة أو المجموعات ضئيلة الأهمية القائمة على أطراف المجتمعات. إنه إذا لم يوجد حل أو تخفيف، مع استمرار النزاع الذى يجرجر نفسه، فإنه لامفر من سقوط لا ينتهى نحو هاوية العداء المتبادل والذى يصيب حياة العرب واليهود على السواء بالمرارة. إن اختيارا مخيفا يواجه إسرائيل والعرب وفى الواقع يواجهنا جميعا.

كلمة ختامية للطبعة الجديدة

إنه في خلال السنوات الإثنتي عشرة التى مرت منذ أرسلت الطبعة الأصلية لهذا الكتاب إلى المطبعة، تغيرات مهمة رئيسية أخذت مكانها في الشرق الأوسط، لها تأثير ص٢٦٠ عميق على كل من النزاع، والتعصب الذى يثيره ذلك النزاع.

من هذه التغيرات وأكثرها أهمية ذلك الذى أصبح يعرف "بطريق السلام" ألا وهو الحوار المتنامى بين دولة إسرائيل من جانب، والفلسطينيين وبعض الحكومات العربية من جانب آخر. ففى الماضى، الاتصالات بين الحكومات كانت مقصورة على مصر التى بينها وبين إسرائيل معاهدة سلام، وعلاقات دبلوماسية، أما الاتصالات مع الحكومات العربية لو حدثت فإنها كانت محدودة وفى غاية السرية. ومع المنظمات الفلسطينية كان لا يوجد اتصال رسمى من أي نوع كان، وحتى مع مصر فإن الاتصالات أو العلاقات الرسمية وغير الرسمية كانت محدودة وباردة.

إن مرحلة جديدة بدأت في ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٩١ مع الانعقاد تحت الرعاية الأمريكية والروسية لمؤتمر السلام الشرق أوسطى في مدريد. أن ذلك تبعه أول محادثات ثنائية الأطراف للسلام بين الإسرائيليين والعرب، والتى افتتحت في واشنطن في ١٠ ديسمبر سنة ١٩٩١ واستمرت بشكل متقطع خلال السنوات التالية. وفى هذه الأثناء في ربيع عام ١٩٩٢، الاتصالات السرية بدأت بين ممثلي إسرائيل والفلسطينيين. وقد استمرت الاتصالات حتى نهاية السنة، وأول دورة من المحادثات السرية والمباشرة عقدت في النرويج في يناير سنة ١٩٩٣. وفى نفس الشهر البرلمان الإسرائيلي ألغى القانون الذى يحرم أي اتصال بمنظمة التحرير، والتى كانت الآن معترفا بها فعلا من إسرائيل وكذلك من الدول العربية" كالممثل الشرعى الوحيد

للشعب الفلسطيني". وفي خلال تلك السلسلة من المحادثات في أوسلو ثم في واشنطن، فإن اتفاقا بين حكومة إسرائيل ومنظمة التحرير وقع في النهاية في حديقة البيت الأبيض في ١٣ سبتمبر سنة ١٩٩٣.

إن الاعتراف المتبادل بين إسرائيل ومنظمة التحرير فتح طريقا لعدد من الدول العربية لأن تبدأ صلات تجارية، وإلى حد محدود صلات دبلوماسية مع إسرائيل. ص٢٦١
واحدة منها مملكة الأردن وقعت معاهدة سلام كاملة في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٩٤، منشئة أو موجدة لعلاقات دبلوماسية ونطاق واسع من العلاقات الأخرى.

وبلاد أخرى وعلى الخصوص الصين والهند والتى كانت متخوفة في البداية بسبب تعضيدها للقضية الفلسطينية أصبحت تحس بأنها حرة في تطبيع علاقاتها مع إسرائيل. العربية السعودية بقيت متباعدة تباعدا باردا، غير مؤيدة ولا معارضة لطريق السلام، ولكن متجنبة أي شكل من أشكال الاتصال مع إسرائيل. أما سوريا فقد وافقت من حيث المبدأ على المفاوضة في سبيل السلام، ولكنها أثبتت أنها متحجرة في هذه المفاوضات، رافضة حتى أن تقبل الإجابة "بنعم" التى قدمتها الحكومة الإسرائيلية في ذلك الوقت. إن العراق وليبيا عارضتا طريق السلام من حيث المبدأ أو كما هو. ودولة غير عربية وهى إيران، ظهرت كأكثر المعارضين حدة ليس فقط لطريق السلام بل حتى لأى تنازل عما يراه قادتها من أنه هو الهدف النهائى ألا وهو تفكيك وإلغاء دولة إسرائيل.

وحتى بعد الانتخابات الإسرائيلية في مايو سنة ١٩٩٦ وحلول حكومة تحالفية متشددة بزعامة الليكود محل الحكومة العمالية فإن النزاع بدا واضحا أنه دخل مرحلة جديدة وأقل خطورة. إن حربا واسعة بين إسرائيل وأى من جيرانها العرب، ولو أنها شيء ليس مستحيلا، فإنها أقل كثيرا في التوقع عما كان عليه الحال في الماضى. إن النشاطات الارهابية ضد إسرائيل مازالت مستمرة، وبخاصة من ثلاث منظمات – الجهاد الإسلامي وحماس في الأقاليم الفلسطينية والحركة المرعية من إيران وسوريا وهى حزب الله في لبنان. ولكن هناك علامات على أن السلطة الفلسطينية قادرة على مزاولة قدر من التحكم في التنظيمات الإرهابية. إن الكثير مازال يعتمد على الرغبة والقابلية لاستعمال ذلك التحكم.

إن العداء مازال موجودا بل وزاد حدة بسبب بعض السياسات والاتجاهات الإسرائيلية الحالية. إن هذا العداء يمكن أن يكون خاصا أو عاما، فكريا أو سياسيا. وأكثر الأوقات يعبر عنه خصوصا في الإعلام بعنف وفجاجة لايمكن بعد قبولها في البلاد الديموقراطية، وان كان ذلك مازال مستمرا في بلاد أخرى. ولكن كلا من العداء كما هو، والعنف والفجاجة التى يعبر بها لا تمثل عداء للسامية ما لم توجد عناصر أخرى أو ما لم تنضم إليها عناصر أخرى، وتلك العناصر أحيانا كثيرا ما توجد.

فلوقت ما بدا أن تهدئة وتبريد النزاع، وربما إنهاؤه، قد يؤدى إلى تضاؤل في العداء للسامية. في بعض الأوساط ذلك حدث فعلا. ولكن في أوساط أخرى فإن طريق ص٢٦٢ السلام نفسه أثار عداء جديدا، بين هؤلاء الذين يئسوا من بطء إجراءات السلام وهؤلاء الذين راعهم سرعتها. ونتيجة لذلك فإن العداء للسامية سيطر على مساحات جديدة وارتفع إلى حدة جديدة.

إن طريق السلام بدأ بين الإسرائيليين والفلسطينيين، ليس لأن أيا من الطرفين فجأة تطور أو وجد تعاطفا أكبر أو فهما للآخر، ولكن لأن القادة من الجانبين تأكدا من أنهما مشتبكان في حرب لا يمكن في النهاية كسبها. إن منظمة التحرير أصيبت إصابة بالغة بانتهاء الحرب الباردة وبحرب الخليج. إن انهيار الاتحاد السوفيتى تركها وللمرة الأولى من مدة نصف قرن بغير راع قوى معارض للغرب.

إن وقوفها بجانب صدام حسين وتعضيدها له أثار عداء ملوك العرب والأمراء الذين كانوا هم مموليها الرئيسيين. وفى ذلك الوضع فإنهم أي الفلسطينيين -قرروا في الوقت الحالى على الأقل هجران هدفهم المعلن من وقت طويل وهو القضاء على إسرائيل وإحلال دولة عربية محلها تحكم كل فلسطين، والاكتفاء بنوع أو شكل من أشكال التقسيم – وهو الحل الذى رفضوه حينما قدمته سلطة الانتداب البريطانية ثم هيئة الأمم. أن البعض ومنهم معظم القادة رأوا في طريق أوسلو حبلا للنجاة. ومازال هناك آخرون من الذين نظروا إليه على أنه خيانة.

وفى الجانب الإسرائيلي فإنه كان هناك البعض أيضا الذين نظروا إلى أوسلو على أنها خيانة – وعلى أنها إضاعة للحظة النصر وهجران لا أخلاقى لميراث اليهود التاريخى. ولكن في الجانب الإسرائيلي كما هو في الجانب الفلسطينى، فإن ذلك لم

يكن هو رأى الاغلبية، ومعظم الإسرائيليين العقلاء تحققوا من أن حربهم هم أيضا للاستيلاء على كامل فلسطين كانت حربا لايمكن كسبها، وأنه من العقل أن يقبلوا التقسيم. إن وقت الحقيقة للإسرائيليين كان هو الانتفاضة. إن تلك الانتفاضة أمكن احتواؤها بعد نضال طويل مرير، تبين خلاله وأصبح من الواضح، أن الاحتفاظ بالحكم الإسرائيلي على المناطق الفلسطينية يمكن فقط إتمامه أو انجازه، حتى لو أمكن، بدفع ثمن أخلاقى ومادى غير مقبول، يتضمن تحويل الطبيعة الأصيلة للحكومة الإسرائيلية والمجتمع الإسرائيلى. إن مثالا دراماتيكيا على ما يمكن أن يعنى هذا التحول حدث بمقتل رئيس حكومة إسرائيل إسحاق رابين بواسطة متطرف إسرائيلى.

إن المعارضة العربية لطريق السلام من كما هو أو للطريقة التى يقاد بها تتضمن ثلاثة اطرزة رئيسة مختلفة.

الأول هو في أساسه استمرار لما كان من قبل، ألا وهو استمرار أيديولوجية السياسة المعادية ضد الصهيونية والحرب السياسية ضد دولة إسرائيل. إن هذه المعارضة الأيديولوجية أو السياسية كما هى لا تقوم على التعصب، ولكن كما كان الحال من قبل فإنها تؤثر وتتأثر بالتعصب. إن ذلك النوع من المعارضة والتعصب ص٢٦٣
المصاحب لها مستمر في الازدهار وحتى في الانتشار بالرغم منها، وفى بعض الدوائر بسبب طريق السلام. إنه زاد من حدته بعض أفعال الحكومة الإسرائيلية الجديدة وأكثر من ذلك تصريحات بعض تابعيها. المتطرفون الإسرائيليون لا يمكن في الواقع لومهم كأنهم متسببون في الدعاية المضادة للسامية في الإعلام المصرى والعربى، والذى بلغ حدودا عالية المستوى من الفحش قبل تغير الحكومة والسياسة في إسرائيل. ولكنهم مع ذلك حطموا أو اساءوا إلى جهود بعض العرب ذوى النوايا الحسنة لمعارضة تلك الحملات.

ومثال على التقارير والتعليقات على الأخبار يمكن أن يرى في القنابل أو التفجير الانتحارى في رامات جان في ٢٤ يونية سنة ١٩٩٥. إن ذلك لعن وأدين بواسطة الفلسطينين المسئولين وغيرهم من القادة العرب. ولكنها- تلك الحادثة - أشيد بها من كثيرين آخرين من الوسط واليسار وكذلك من الصحافة الأصولية. إن مقالا

رئيسيا في المجلة الأردنية الأسبوعية اليسارية وعنوانها "المجد" في ٣١ يوليو سنة ١٩٩٥ صادر من رئيس تحرير المجلة "فهد الريماوى"، يشيد ببطولة عضو حماس المفجر الانتحارى "الذى أرسل سبعا من المستوطنين اليهود إلى الجحيم وثلاثين آخرين إلى عنابر الجرحى". ثم يمضى لكى يلعن كل أولئك الذين أدانوا ذلك الهجوم على أنهم منافقون أو اسوأ من هذا. إن رامات جان قريبة من تل أبيب وهى جزء من إسرائيل منذ تأسيس الدولة. إن وصف سكانها بأنهم مستوطنون صهيونيون هو الشيء الذى يدعو إلى الملاحظة باهتمام. إن الاصولي الأردنى "زياد أبو غنيمة "في مجلة أسبوعية صادرة في ٢٩ يولية سنة ١٩٩٥ واسمها "شيهان" يشجب بعبارات جارحة "هؤلاء الذين يذرفون سيولا من الدموع حزنا على ذلك الدم اليهودى القذر بينما يحبسون دموعهم حينما الدم الفلسطينى أو اللبنانى يراق على أيدى اليهود لعنة الله عليهم".

وأكثر خطرا من مقاومة المحافظين القدامى لطريق السلام، هو المعارضة الجديدة الناشطة والناشئة عن هذا الطريق نفسه، والخوف من أن القوة التى أظهرتها إسرائيل في ميدان القتال يمكن ان تظهر بطريقة متساوية أو حتى أكبر في النشاطات المقترنة عادة أو المرتبطة تقليديا باليهود في المصنع وفى بيوت المال وفى السوق. إن هذه المخاوف زادت حدتها بسبب فجاجة إسرائيلية ونقص في فهم المجاملات والحساسيات القائمة في مجتمعات الشرق الأوسط. طبقا لهذا الفهم فإن إسرائيل غيرت من تكتيكاتها. فهى الآن قد تحولت من الوسائل أو الطرق الحربية إلى الوسائل السلمية لتنفذ مخططاتها الجهنمية لاختراق والتحكم والسيطرة على العالم العربى. إن البعض يرى تهديدا أسود في كل محاولة إسرائيلية للتفاهم والتعاون. إن ص٢٦٤ اتساع أو نمو الصلات التجارية معناها الاستغلال الاقتصادى والتبعية والتحكم، وتنمية العلاقات الثقافية والحضارية معناه التسلل وهدم الحضارة أو الثقافة العربية الإسلامية والبحث أو الرغبة في إقامة علاقات سياسية ليس إلا مقدمة للسيطرة الإمبريالية. إن هذه الخيالات على ما يبدو من سخافتها حتى للملاحظ أو المراقب العاقل مع ذلك تتمتع بتعضيد واسع في الإعلام العربى وعلى الخصوص في مصر. إن بالنسبة إلى معتقدى وجهة النظر هذه، العداء للسامية الأوروبى يوفر خزانا غنيا من النغمات والدوافع، من الكتابات والتصويرات الخلقية النمطية، تلك الذخيرة التى يمكن استخدامها والإضافة اليها أو التوسع فيها.

إن أمثلة قليلة تكفى لبيان ذلك. إن شيمون بيريز في كتابه "الشرق الأوسط الجديد" المحتوى على وجهة نظر مثالية عن السلام المستقبلى والتعاون المستقبلى أو السلامى الهادئ بين إسرائيل والدول العربية من أجل الإصلاحات الاقتصادية والتقدم أو الرقى الحضارى هذا الكتاب ظهر في كثير من الترجمات العربية. إن الغرض من هذه الترجمات يبدو في مقدمة واحد منها نشر في القاهرة في الجريدة شبه الرسمية الأهرام والتى تقول " حينما اكتشفت بروتوكولات حكماء صهيون منذ حوالى مائتى عام بواسطة امرأة فرنسية ونشرت في لغات عديدة منها العربية، فإن المؤسسة الدولية الصهيونية حاولت جهدها نفى هذه المؤامرة. إنهم حتى ادعوا أنها مفبركة، وحاولوا الحصول على كل النسخ من السوق حتى يمنعوها من أن تقرأ. والآن إنه شيمون بيريز بالتحديد هو الذى يأتى بالدليل الحاسم على صحة تلك البروتوكولات. إن كتابه يؤكد بشكل واضح لايمكن نكرانه أن البروتوكولات كانت صحيحة حقا. إن كتاب بيريز لهو خطوة أخرى في تنفيذ تلك المخططات الخطرة".

إن البروتوكولات ما زالت باقية كمصدر ليس فقط للدعاية بل حتى للدراسات الأكاديمية. على ذلك وطبقا لمقالة منشورة في المجلة المصرية "آخر ساعة" في نوفمبر سنة ١٩٩٦، فإن بحثا "علميا مهما" يبحث دور اليهود الاقتصادى في مصر في النصف الأول من القرن العشرين أعطى درجة الماجيستير من جامعة الإسكندرية. ومن الوصف الذى نشر فإنه من الواضح أن كاتب تلك الرسالة اعتمد اعتمادا كبيرا على البروتوكولات وعلى طريقة البحث الذى ينتج عنها. البروتوكولات تكون أيضا الأساس لمقابلة نشرت في المجلة المشهورة "المصور" في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٩٦ . إن المقال يفتتح بتقرير أو بتصريح من الصحفى السائل المدير للمقابلة يقدم البروتوكولات على أنها وثيقة تاريخية صحيحة ثم يمضى إلى سؤال البابا شنودة رئيس الكنيسة القبطية. إن تعليقات البطريرك على اليهود واليهودية يبدو أنها مبنية على معلومات قدمها اليه الصحفى السائل ومستمدة من البروتوكولات ومن غيرها من التزويرات الشائعة المعادية للسامية وشبه التلمودية.

إن الحجة " أننا لايمكن أن نكون معادين للسامية لأننا نحن أنفسنا ساميون" مازال يمكن سماعها في الدول العربية، وليس بالطبع في تركيا أو إيران. ولكن بعضا ص٢٦٥ من المتحدثين الأكثر ثقافة ونموا فكريا أصبحوا على وعى بأنه بالنسبة للأجانب فإن

تلك الحجة تبدو إما أنها سخيفة أو غبية. ومع ذلك فإن هناك مجهودا جادا وإن لم يكن دائما متواصلا مضطردا للاحتفاظ بالتفرقة بين العداء لليهود لإسرائيل والصهيونية والعداء لليهود كيهود. إن الناطقين بلسان الحكومة الإيرانية ينكرون أي عداء للسامية، وهم عادة يحاذرون من استعمال عبارات معادية للسامية، ويعلنون استعدادهم للتعايش مع اليهود وطبعا ذلك ضمن الحدود التى تنص عليها الشريعة. ان ذلك مع هذا لم يمنعهم من اعتناق واحتضان البروتوكولات. إن هذه البروتوكولات كثيرا ما يعاد طبعها في إيران، وفى سنة ١٩٩٥ نشرت كمسلسل في الجريدة اليومية "اطلاعات" في أكثر من مائة وخمسين جزءا "لكى لا ننسى". إن نسخا من البروتوكولات بلغات عديدة توزع عالميا من خلال الشبكات الايرانية.

إن بعض الاتهامات اتهامات جنسية. إن الاسرائيليين متهمون بإصابة البنات بمرض نقص المناعة والزهرى ثم إرسالهن إلى مصر لنشر تلك الامراض. إنهم أيضا متهمون بأنهم مدوا النساء المصريات بلبان مثير للغريزة الجنسية والذى يدفع إلى حالة جنونية من الرغبة الجنسية، وفى نفس الوقت يبيعون فاكهة معالجة هرمونيا تقتل الحيوانات المنوية الذكرية. ان ذلك جزء من سلسلة من الهجوم على الخبرات والمنتجات الزراعية الإسرائيلية، وهى المجال الذى حدث فيه تعاون حقيقى مع مصر. وروايات أخرى تتهم الإسرائيليين أو ببساطة اليهود بأنهم يمدون الفلاحين المصريين ببذور مسممة ودجاج حامل للأوبئة "كقنبلة موقوتة" نشر ذلك في (الشعب في ١٤ مارس ١٩٩٧) أو إنهم ينشرون السرطان بين المصريين وغيرهم من العرب وذلك باختراع ونشر نبات خيار سرطانى "وشامبوهات" أو صابون غسيل الشعر، وإنهم يشجعون استعمال المخدرات وعبادة الشيطان، وإنهم ينظمون حملات لتقنين الشذوذ الجنسى حتى يهدم المجتمع المصرى.

إن جريدة سورية(الثورة في ٤ أكتوبر سنة ١٩٩٥) ادعت أن عرفات وقع سلاما مع إسرائيل لأنه هو نفسه يهودى. وكل هذا مع ذلك لايمكن وصفه بالعداء للسامية في المعنى الدقيق للكلمة. ولكنه يمثل النطاق العاطفى والفكرى الذى تقوم فيه الاتهامات المعادية للسامية والذى بواسطته يمكن نشرها بسرعة وتصديقها بسهولة.

إن بعض الاتهامات هى محاولات نقل أو إسقاط. فعلى سبيل المثال القول بأن الاسرائيليين حاخاماتهم يقولون لهم إنهم إذا قتلوا أثناء قتالهم الفلسطينيين فإنهم

سيذهبون فورا إلى الجنة. والبعض الآخر هى اتهامات تقليدية ضد اليهود، مبنية على مقاطع معروفة من القرآن والحديث، وبعضها مقترض أو متبنى من الترسانة المعتادة ص٢٦٦ من العداء للسامية الأوروبى. وهى تمثل في تزايد مجموعة من الأمر الثانى والثالث .

إن أقوى الحجج وأكثرها جدية وإصرارا في معارضة طريق السلام، يقدم باسم الإسلام، وخصوصا من حكومة إيران ووكالاتها المختلفة، ومن الأحزاب والمنظمات الإسلامية الأخرى. هذه المعارضة تتمتع بميزة كبيرة هى أنها قائمة على فكرة أيديولوجية مترابطة ومنطقية، وأنها تستخدم لغة معتادة أو متعارفة تجذب العواطف العميقة الجذور. ان ذلك يعطى تلك الحجج أو تلك المجادلات المبنية على الإسلام قوة عظيمة في الاقناع أكثر من غيرها المبنية على القومية والجنس أوالعنصرية. ومع ذلك فإن الناطقين بلسان هذه الحركات الإسلامية لا يتورعون عن استخدام التبريرات العنصرية وعلى الخصوص لايتورعون عن أن يستخدموا المنابع الغنية للكراهية التى يوفرها العداء للسامية من الطراز الأوروبى. ان النغمات المعادية للسامية المعتادة أصبحت شيئا عاديا أو شيئا مألوفا في دعاية الحركات العربية الإسلامية في حزب الله وحماس، وفى تصريحات الوكالات المختلفة لحكومة إيران، وحتى في بعض الجرائد والمطبوعات أو المنشورات لحزب الإسلام التركى، وهو العضو المهم في الائتلاف الحاكم من سنة ١٩٩٦ : ١٩٩٧ .

إن معظم هذه الاتهامات هى شيء معتاد ويمكن إرجاعها إلى مصادر أوروبية، واتهامات أخرى تثور أو تولد من الأحوال المحلية. وعلى ذلك فبالنسبة للأتراك المعادين للسامية فإن أفعال اليهود الضارة تشمل التسبب في سقوط الإمبراطورية العثمانية والاضطرابات الحديثة في بوسنيا. وفى إيران فإن العقوبات الأمريكية وما نتج عنها من صعوبات اقتصادية تنسب إلى النفوذ اليهودى الشرير في واشنطن.

إن العداء للسامية الأوروبى في شكليه الدينى والعنصرى، هو في أساسه معاد أو غريب عن التقاليد الإسلامية والحضارة ووسائل التفكير. ولكن ولدرجة مدهشة، فإن أفكار، وكتابات، وحتى أكثر الاختراعات فجاجة التى اخترعها النازيون ومن سبقهم أصبحت يمكن القول بأنها تأسلمت وأدمجت أو أدخلت في صميم الفكر الإسلامى. إن أهم تلك النغمات أوالخطوط، ألا وهى مسألة البروتوكولات، ونصوص التلمود المحرقة، وكراهية الجنس البشرى وبقية نظريات المؤامرة والماسونية، وتسميم الآبار

والتآمر أو التخطيط لحكم العالم كلها موجودة، بل إنها أعطيت شكلا إسلاميا وحتى أعطيت مسحة قرآنية. وعلى ذلك، فإن الاتهام الإسلامي الكلاسيكى، بأن العهد القديم والعهد الجديد قد سقطت حجتاهما لأن اليهود والمسيحيين فبركوا أو زوروا ص٢٦٧ الوحى الذى أنزل عليهم ـ ذلك الاتهام أعطى صورة أو منحى جديدا أو أضيفت إليه زاوية جديدة، وهى أن التوراة في شكلها الحالى ليست صحيحة، ولكنها صورة مشوهة وملوثة بواسطة اليهود وذلك حتى يظهروا أنفسهم بأنهم شعب الله المختار و أن فلسطين مخصصة لهم. إن كثيرا من المسائل الواردة في الأخبار كفضيحة الذهب السويسرية (تلك الفضيحة المتعلقة بأنهم جمعوها من ضحايا النازى) وتعيين مادلين أولبرايت كوزيرة لخارجية أمريكا وهى يهودية بالميلاد وإن لم يكن بالعقيدة، وحتى انهيار بنك BCCI ، فإنها كلها تعطى مسحة معادية للسامية. إن الخطط والمؤامرات الدولية اليهودية ضد الجنس الإنسانى على العموم، وضد الإسلام، والعرب على الخصوص، أصبحت شيئا متداولا معتادا عليه. ففى مقالة نشرت في ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٩٦ في الجريدة المصرية "الاتحاد" كتب داعية من جامعة الأزهر يشرح لماذا هو يكره اليهود. وباختصار لأنهم " أردأ الأعداء للمسلمين، وليس عندهم أي مستويات أخلاقية، وعلى العكس فإنهم قد اختاروا الشر والإجرام". وينهى المقالة "إننى أكره اليهود حتى أنال مكافأتى من الرب".

واحد من جرائم إسرائيل والصهيونية في تلك الكتابات هى أنهما رأس جسر أو أداة من أدوات الأمريكان أو أكثر عمومية أداة من أدوات الاختراق الغربى. وبالنسبة لهؤلاء، فأمريكا هى الشيطان الكبير، وإسرائيل هى الشيطان الصغير وهى كرأس حربة للفساد الغربى كيان خطر. ونظرة أخرى تقوم في ذلك الطراز الأوروبى من المعادين للسامية. فبالنسبة لهؤلاء فإن أمريكا هى التى أداة من أدوات إسرائيل وليس العكس. إن تلك المجادلة مستندة إلى حد بعيد على مستندات من الطراز النازى أو توثيق نازي أصلى. إنه في كثير من الأدب الذى تنتجه الجماعات الإسلامية، فإن العدو لم يعد يحدد بأنه الإسرائيلي أو الصهيونى. إنه ببساطة اليهودى، وشره شيء متوطن غريزى يرجع إلى العهود القديمة السحيقة.

إن طريقة تشترك فيها كل تلك الأنواع من الدعاية هى إعادة كتابة أو محو الماضى وعلى الخصوص إزالة أي شيء يمكن أن يثير التعاطف أو يوجد الاحترام لليهود.

ونغمة معتادة في هذا هي إنكار وقوع المحرقة. فالمحرقة إما لم تحدث، وإن كانت حدثت فإنها كانت على نطاق صغير، والبعض يضيف أن اليهود هم الذين جلبوها على أنفسهم.

والصهيونيون كانوا متعاونين ومن ثم هم خلفاء للنازية. إن هذه الصورة المدهشة للتاريخ تحوز قبولا عربيا متزايدا ومثال ذلك الاستقبال الحافل لروجيه جارودى. وهو ص٢٦٨ فرنسي شيوعي سابق تحول للاسلام ونشر كتابا عنوانه "أساطير السياسة الإسرائيلية".

إنها في رأيه ثلاثة : الأسطورة الدينية بأنهم شعب الله المختار والأرض الموعودة، وأسطورة المحرقة لإزالة اليهود وعداء الصهيونية للفاشية، والأسطورة الجديدة ألا وهى الأعجوبة أو المعجزة الإسرائيلية الحديثة والتىهى في الواقع قائمة على الأموال التى يجمعها أعضاء اللوبى اليهودى. إن مصادره تتضمن المعتذرين عن هتلر، والإسرائيليين في حقبة ما بعد ظهور الصهيونية المرتدين عن الأفكار الصهيونية والواضعين لتفسيرات جديدة للأحوال اليهودية، والأوروبيين المعاصرين المعادين لأمريكا. إن جولته الشرق أوسطية في صيف سنة ١٩٩٦ كانت انتصارا كبيرا، ففى لبنان قابله رئيس الحكومة ووزير التعليم، وفى سوريا قابله نائب الرئيس وكثير من الوزراء، وفى كلا البلدين فإنه أعطى محاضرات أعلن عنها بتوسع، ومقابلات صحفية وفضلا عن الترحيب الكبير به من الهيئات الأدبية والثقافية. وفى الأردن ومصر فإنه وإن لم يستقبل استقبالا رسميا فإنه رحب به بنفس الترحيب الحار ان لم يزد من الدوائر الادبية. إنه دعى إلى القاهرة من الاتحاد العربى للفنانين، الذى ترعاه الحكومة، مؤيدا أو متعاونا مع اتحاد الكتاب المصريين، الذين انتخبوه عضوا شرفيا – وهو أول عضو شرفى منذ أسس الاتحاد منذ أكثر من عشرين عاما. وبين التشريفات الكثيرة، فإنه أعطى جائزة "الكتاب المصريين". ورئيس تحرير جريدة الأهرام شبه الرسمية أضفى عليه جائزة صحفية اعترافا بالجو النظيف الذى أدخله في نقاش المسألة الإسرائيلية. ومع ذلك فإن الترحيب بجارودى لم يكن جماعيا. فبعض الأصوليين بينما هم كانوا موافقين علىآرائه بالنسبة لإسرائيل فإنهم تشككوا في فهمه للإسلام. وفى مراكش فإنه احتفل به بواسطة بعض الجرائد ولكن مناسبات ظهوره العامة ألغيت. "الجامعات" كما قال وزير التعليم العالى "لن تفتح أبوابها

للمعادين للسامية". ومن الغريب أنه في مايو سنة ١٩٩٧ دعى السيد جارودى إلى أن يكتب سلسلة من المقالات في مجلة أسبوعية عربية تنشر في لندن بواسطة القسم العربى من محطة الإذاعة البى بى سى البريطانية القسم العربى.

إن انكار أو التقليل من أهمية المحرقة يسهل شيوع نغمة أخرى محببة -ألا وهى أن اليهود لم يكونوا في الواقع ضحايا النازية بل كانوا متعاونين مع النازى وهم الآن يستمرون في إحياء تراثهم. إن استخدام كلمة نازى كتعبير عن الهجاء في العالم العربى تبدأ أو يرجع تاريخها إلى بداية النفوذ السوفيتى في منتصف الخمسينيات ولكن قبل ذلك كان يمكن النظر إليها على أنها مدحة. والرسوم الكاريكاتيرية التى تصور الإسرئيلى واليهود الآخرين مرتدين اللباس النازى والصليب المعقوف أصبحت الآن شيئا معتادا عليه. ان ذلك يكمل الصورة التى نشأت في الأيام النازية وهى اليهودى ذو الانف الكبير المعقوف والأسنان التى تقطر بالدماء. إن ذكرى كل من الضحايا اليهود والمعجبين العرب بالرايخ الثالث قد تم محوها نهائيا. وللاحتفاظ بهذا التفسير الخاص للتاريخ فإن بعض القدر من التحكم ضروريا، ويمتد حتى إلى وسائل التسلية. فمثلا "قائمة شندلر" وهو فيلم يصور معاناة اليهود تحت الحكم النازى، ممنوع في الدول العربية. وحتى "يوم الاستقلال" وهو فيلم آخر لاعلاقة له لا بالنظام النازى ولا بالشرق الأوسط أدين لانه يحتوى على بطل يهودى وهذا شيء غير مقبول. إنه ووفق على عرضه في لبنان فقط بعد قيام الرقابة بحذف كل دليل على يهودية البطل -كالطاقية والصلوات العبرية، وظهور الإسرائيليين والعرب يعملون جنبا إلى جنب في مراكز أو مواقع صحراوية. وفى نوفمبر سنة ١٩٩٦ ضابط الاتصال الصحافى لحزب الله، وضح اعتراضه على الفيلم بقوله: " هذا الفيلم يلمع صورة اليهود ويقدمهم على أنهم ناس آدميون وهذه صورة خاطئة عنهم".

إن كتابة التاريخ من جديد تمتد وحتى إلى التاريخ القديم. فالمتحف التاريخى في عمان مثلا يحكى من خلال أشياء ومخطوطات تاريخ كل الشعوب القديمة في المنطقة ص٢٦٩ باستثناء واحد ألا وهم الملوك وأنبياء إسرائيل القديمة، الذين هم غائبون تماما. إننى تمكنت من أن أجد فقط إشارات ثلاثا الأولى تشرح الكتابات على وثيقة قديمة شكر الرب "شيموش" على تخليصه من الإسرائيليين. ذلك هو النص الإنجليزى أما النص العربى فيقرأ "تخليصه من الاضطهاد اليهودى".

والإشارة الثانية تظهر في زاوية تحتوى على لفائف البحر الميت تنتمى إلى " فصيل يهودى" أو طائفة يهودية. والثالثة هى إشارة إلى "الثوار اليهود" هاسمونين الذين أقاموا حكمهم في فلسطين والجزء الشمالى من الأردن وأن كل المدن اليونانية رحبت بالجيش الرومانى بقيادة الجنرال بومبيى كمحرر من الحكم اليهودى"

وحتى هذه الإشارات القليلة غائبة عن الكتب المدرسية المستخدمة في المدارس التى هى تحت السلطة الفلسطينية. فبالنسبة لهم تاريخ فلسطين يبدأ بالكنعانيين المعربين بأثر رجعي ويقفز منهم إلى الفتح العربى في القرن السابع الميلادى وناسيا أو متناسيا إطلاقا العهد القديم أهاليه وتاريخه.

إن الزيارات لمحلات الكتب العربية أو الكتب الدينية في تركيا تكشف عن نطاق واسع من الأدب المعادى للسامية من أنواع كثيرة. أما ما ينقص فهو أي نوع من تصحيح تلك المفاهيم. إن القارئ العربى الذى يبحث عن الاسترشاد في أي من هذه المواضيع كالتاريخ اليهودى أو الديانة اليهودية أو الفكر والأدب اليهودى لن يجد شيئا.

إنه هناك بعض المواد عن إسرائيل الحديثة وأحسنها هى التى أنتجها المركز الفلسطينى للأبحاث السابق في بيروت، فهى معقولة أو تلتزم الحقيقة إلى حد كبير. ولكن كل ما هو ممكن الحصول عليه هو دعاية مفضوحة وفاضحة أو مستخدمة كذلك. إن الترجمات من العبرية قليلة وتقع أساسا في فئات ثلاث :

١. حكايات عن التجسس الإسرائيلي.
٢. مذكرات قادة اسرائيليين ومنهم رابين، وبيريز، ونتنياهو، مصحوبة بمقدمات شارحة وتعليقات.
٣. كتابات من معادين للصهيونية ومعادين لإسرائيل من اليهود.

إن السلام شيء يتفاوض عليه ويوقع عليه بين الحكومات، ولكنه سيبقى سلاما باردا رسميا لا يعنى إلا إيقاف العمليات الحربية، وذلك حتى يتم السلام بين الشعوب. وما دامت الصرخات عالية من الثورة، ومن الغضب، والكراهية باقية على انها هى الشكل الطبيعى للاتصالات فإن السلام بين الشعوب غير محتمل أن يتقدم. ولكن هناك بعض العلامات على التحسن وعلى بداءات للحوار. فرجال السياسة،

والعسكريون ورجال الأعمال أصبحوا على اتصال أو كانوا على اتصال بنظرائهم من الإسرائيليين، وبعض تلك الاتصالات بقيت برغم تغير الحكومة في إسرائيل. ولكن المثقفين أثبتوا أنهم أكثر عنادا، ولكن حتى بينهم هناك بعض علامات من التغير. ص٢٧٠ فبعض الأرواح الشجاعة اقتحمت إدانات وهجوم زملائهم الأكثر قسوة والأكثر جمودا لكى يقابلوا علانية الإسرائيليين، وحتى زيارة إسرائيل في مناسبات قليلة.

إن حادثة في ربيع سنة ١٩٩٧ أثارت خواطر أو ذكريات مقلقة لشطحات مجنونة للشرطى سليمان خاطر في سنة ١٩٨٥. وفى الوقت نفسه فإنها قدمت صورة عكسية مشجعة. ففى ١٣ مارس سنة ١٩٩٧ جندى أردنى اسمه أحمد داقمصا، بدأ في إطلاق النار عشوائيا على رحلة لمدرسة بنات إسرائيلية، حيث قتل سبع بنات وجرح كثيرات أخريات قبل أن يتغلب عليه بواسطة زملائه. وبعد أيام قليلة فإن الملك حسين في بادرة من الأسف والعطف، عبر إلى إسرائيل وزار بنفسه معزيا العائلات التى فقدت بناتها. إن رد الفعل بين الناس كان مختلطا. البعض انضم إلى الإسرائيليين في الإشادة بذلك العمل الشجاع الإنسانى الكريم. والآخرون بينما لعنوا وأدانوا القتل فكروا أن رد فعل الملك كان مبالغا فيه. وآخرون من ناحية أخرى جعلوا من بيت القاتل مقصدا للحجيج. ولكن لم يكن هناك أي شيء يماثل الاندفاع في التأييد الذى لوهلة جعل من سليمان خاطر بطلا وطنيا شعبيا وحتى ثقافيا وذلك في مصر. سليمان خاطر أبلغ عنه أنه انتحر في سجنه في مصر. أما أحمد داقمصا فإنه حوكم بمحكمة عسكرية في الأردن وحكم عليه بالسجن المؤبد. وكما حدث من قبل فإن الآراء انقسمت. البعض وجد الحكم خفيفا، والبعض وجد الحكم قاسيا، والبعض قال إنه كان يجب تكريمه لا معاقبته.

إن الاتصال القريب بين المجتمعين يمكن أن ينتج نتائج ملفتة للنظر وربما أيضا ثمينة. إن إسرائيل بكل أخطائها، هى مجتمع ديموقراطى مفتوح. إن مليونا من العرب هم رعايا إسرائيليون ومليونين من الفلسطينيين عاشوا أو يعيشون تحت الحكم الإسرائيلى.

بالرغم من أن ذلك الحكم كان في أغلب الأحوال قاسيا وتحكميا، فإنه كان في مجمله مفيدا وذلك قياسا على المستويات المعهودة في المنطقة. إن حاثتين متعاكستين أو متفارقتين متعارضتين يظهران أو يصوران اتجاها ممكنا لحدوث التغيير. في

خلال الانتفاضة حدث أن طفلا أو ولدا عربيا صغيرا كسر رسغه بعصا جندى إسرائيلى. وظهر في اليوم التالى مربوطا بالأضمدة في مستشفى، يلعن الإرهاب الإسرائيلي - وذلك على التليفزيون الإسرائيلى. وفى سنة ١٩٩٧ محام في غزة قدم مقالا إلى جريدة واصفا التحقيق الذى قام به البوليس الإسرائيلي ضد رئيس الحكومة وأعضاء في الحكومة الإسرائيلية، ومقترحا في ذلك المقال أن إجراءات مماثلة يمكن أو يجب أن تتخذ بواسطة السلطات الفلسطينية. إن المحرر أو رئيس التحرير لم ينشر هذا المقال وإنما أحاله إلى النائب العام الذى أمر بالقبض عليه وسجن كاتبه. ص٢٧١

إن أعدادا كبيرة ترى دلالة ذلك أو حتى فإنها تصرح به. إن انتخابات السلطة الفلسطينية التى أجريت في يناير سنة ١٩٩٦ أشيد بها على أنها أكثر الانتخابات حرية وعدالة في العالم العربى. إنها اختلفت اختلافا واضحا عن الانتخابات الاستعراضية التى أجريت في وقت سابق في لبنان وفى حضور جار مختلف ألا وهو سوريا. وإنه لم يمر دون ملاحظة أن التحقيق العلنى الوحيد في مذبحة صبرا وشاتيلا كان تحقيقا قضائيا أجرى في إسرائيل. إن مثل ذلك التحقيق لم يجر أو يقم في أي من الدول العربية، والمرتكب الرئيسى للمذبحة وهو قائد للمليشيات المسيحية اللبنانية كان في ذلك الوقت حليفا لإسرائيل، وانضم فيما بعد للجانب السورى واستمر لسنوات عضوا محترما في الحكومة المتمتعة برعاية سوريا في بيروت.

وأخيرا فإنه قامت بعض العلامات على حدوث تغيير. فالجمعية أو المؤسسة الملكية للأبحاث أو للدراسات العقائدية المقارنة في عمان اهتمت باليهودية كاهتمامها بالإسلام والمسيحية. إنها دعت دارسين يهود من إسرائيل ومن بلاد أخرى للإسهام في نشاطاتها وفى صحيفتها باللغة الإنجليزية. إن تلك المحاولة لتقديم أو لشرح المعتقدات اليهودية أو الثقافة أو الحضارة اليهودية بطريقة موضوعية وحتى السماح لليهود بأن يتكلموا عن أنفسهم هو شيء نادر إن لم يكن وحيدا في الدول العربية وربما في العالم الإسلامي بأكمله.

وعلى مستوى أكثر تسيسا، فإن عددا من المثقفين العرب في الخارج وحتى في الدول العربية قد عبروا عن قلقهم وامتعاضهم من العداء للسامية الفاحش الذى يلون مناقشة الصراع العربى الإسرائيلى. ففى يناير سنة ١٩٦٧ مجموعة من المصريين

والأردنيين والفلسطينين متضمنة مثقفين ومحامين ورجال أعمال تقابلوا مع مجموعة مماثلة من الإسرائيليين في كوبنهاجن واتفقوا على إقامة تحالف دولى عربى إسرائيلى من أجل السلام. إن إعلانهم لم يقتصر على التصريحات الخيرة المعهودة ولكنها دخلت في مناقشات تفصيلية لبعض الأمور المحددة التى هى محل الاهتمام. ولاحاجة للقول إن المساهمين في ذلك المشروع لعنوا وأدينوا من زملائهم كمخدوعين وخونة أو أسوأ من هذا. إن الكلمة الأخيرة يمكن أن نتركها لعلى سالم، واحد من أول المثقفين المصريين جرؤ على زيارة إسرائيل. إنه قال : " إننى أجد أن الاتفاق بين الفلسطينيين والإسرائيليين كان لحظة نادرة في التاريخ. إنها لحظة اعتراف متبادل. إننى موجود وأنت كذلك موجود. إن لى حقا في الحياة كما أن لك ذلك الحق. إن هذا طريق طويل شاق ومرحلته الأخيرة هى الحرية وحقوق الإنسان. إنها لن تكون مرشوشة بالورد ولكن محفوفة بمخاطر الصراع والاستمرار أو التحمل. إن الإنسان لا يمكن أن يصنع السلام فقط بالكلام عنه. إنه لا طريق هناك الا بالتقدم لتحقيق السلام بالأفعال وليس بالأقوال".

المحتــويات

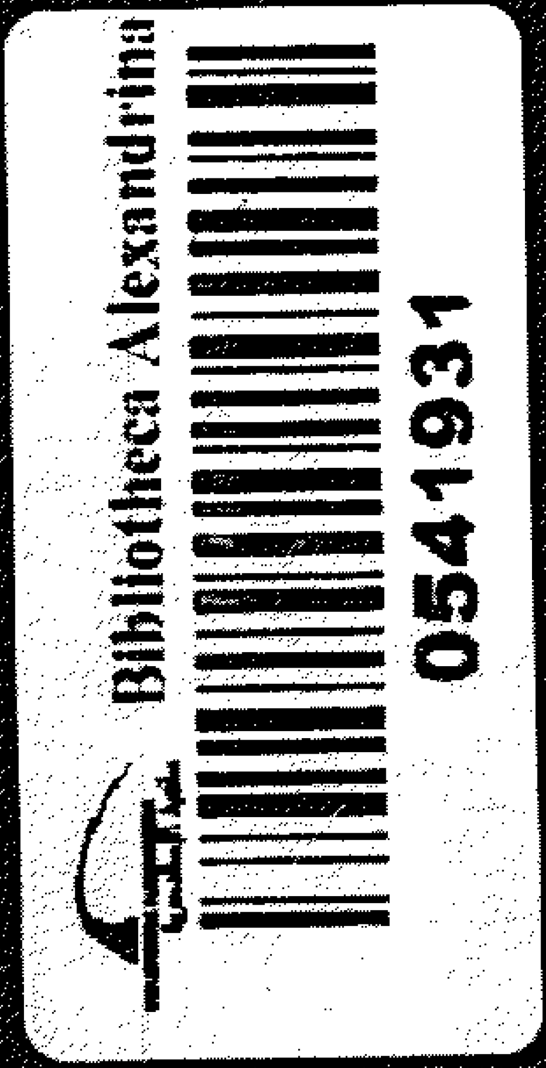
تعريف بالمؤلف

برنارد لويس ثقة محترم عالميا فى تاريخ الإسلام والشرق الأوسط، وهو الأستاذ الشرفى لدراسات الشرق الأدنى فى جامعة برنستون حيث كان يعمل منذ سنة ١٩٧٤. وقد ولد فى لندن فى سنة ١٩١٦، واشتغل أستاذا لتاريخ الشرق الأوسط فى معهد الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن فى المدة من سنة ١٩٤٩ الى سنة ١٩٧٤.

وكتبه العديدة تشمل "العرب فى التاريخ" صدر سنة ١٩٥٠ وطبع ست مرات آخرها ١٩٩٣، " وظهور تركيا الحديثة " نشر فى سنة ١٩٦١ وطبع مرتين آخرهما فى سنة ١٩٦٨، "إسطنبول وحضارة الإمبراطورية العثمانية" سنة ١٩٦٣، "الحشاشون" سنة ١٩٦٧، "الإسلام يكتشف أوروبا" سنة ١٩٨٢ وأعيد إصداره فى سنة ١٩٩٤، "اللغة السياسية فى الإسلام" نشر فى سنة ١٩٨٨، "الجنس العرقى والرق فى الشرق الأوسط" فى سنة ١٩٩٠، "حضارات فى صراع ، المسيحيون والمسلمون واليهود فى عهد الاكتشافات الجغرافية" فى سنة ١٩٩٥، و"الشرق الأوسط في ألفى سنة من التاريخ منذ قيام المسيحية إلى اليوم" فى سنة ١٩٩٥. وقد ترجمت كتبه إلى أكثر من عشرين لغة منها العربية والفارسية والتركية والإندونسية والماليزية.

كتب بقلم : برنارد لويس

- من بابل إلى الترجمانات، شرح وتحليل للشرق الأوسط .
- ماذا حدث؟ وأين الخطأ؟ تأثير الغرب في الشرق الأوسط ورد الفعل.
- موسيقى منبعثة من طبول بعيدة : أشعار كلاسيكية عربية وفارسية وتركية وعبرية.
- فسيفساء شرق أوسطية : شظايا من حياة ورسائل وتاريخ الشخصيات المتعددة للشرق الأوسط.
- حضارات في صراع : المسيحيون والمسلمون واليهود في زمن الاكتشافات الجغرافية .
- الشرق الأوسط : « تاريخ مختصر للألفي سنة الماضية ».
- العوامل التي شكلت الشرق الأوسط الحديث.
- الإسلام والغرب.
- لغة الإسلام والسياسة.
- الجنس العرقي والرق في الشرق الأوسط : « تحقيق تاريخي ».
- الساميون وأعداء السامية : بحث في التعصب والتعارض.
- اليهود في الإسلام.
- الحشاشون : « فئة متطرفة في الإسلام ».
- اكتشاف المسلمين لأوروبا .
- التاريخ : تذكره ، واستعادته وابتداعه.
- الإسلام من النبي محمد إلى فتح القسطنطينية (جزءان).
- الإسلام في الدريخ : أفكار وناس وأحداث في الشرق الأوسط.
- إسطنبول وحضارة الإمبراطورية العثمانية .
- بزوغ تركيا الحديثة.
- العرب في التاريخ.


Bibliotheca Alexandrina
0541931